

علي مولا

مج

داقيد لو بروتون

انترولوجيا الجسد والحدثة

ترجمة: محمد عرب صاصيلا



انتروبولوجيا البدن والحداثة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

1417هـ - 1997م

مجدد/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
الحمراء - شارع إميل إده - بناية سلام - ص.ب 6311/113 بيروت
هاتف: 802407 - 802428 - فاكس: 603654 بيروت
المطبعة: 311898 - 311905 - هاتف خليوي: 03/621721

داقيد لو بروتون

انترولوجيا الجسد والحدثة

ترجمة: محمد عرب صاصيلا

م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذا الكتاب ترجمة :

ANTHROPOLOGIE DU CORPS ET MODERNITÉ

DAVID LE BRETON

©PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE

مقدمة

تضع هذه الدراسة العالم الحديث ضمن منظور أنثروبولوجي واجتماعي من خلال اتخاذ الجسد كسلوك ناقل. إنها، في مرآة مجتمع معين، كمجتمعنا، يَضَعُ فصول ممكنة في أنثروبولوجيا الجسد. إن الأمر يتعلق أيضاً بعلم أنثروبولوجيا الحاضر، الذي يسلك غالباً «الطريق المنحرف»⁽¹⁾ لعلم الاخلاق والتاريخ، ليقوم من زاوية غير مألوفة، لكنها بالأحرى خصبة، عدداً من الممارسات والخطب والتصورات والميخالات التي تستخدم الجسد في العصر الحديث.

إن الجسد موضوع ملائم بشكل خاص للتحليل الأنثروبولوجي، لأنه ينتمي حتماً الى الأرومة التي تحدد هوية الإنسان. فبدون الجسد الذي يعطيه وجهاً، لن يكون الإنسان على ما هو عليه. وستكون حياته اختزالاً مستمراً للعالم في جسده، عبر الرمز الذي يُجسِّده⁽²⁾. إن وجود الانسان وجود جسدي. والمعالجة الاجتماعية والثقافية التي يُعَدُّ موضوعاً لها، والصور التي تتكلم عن عمقه المُخَبِّئ، والقيم التي تُمَيِّزه، تحدثنا أيضاً عن الشخص، وعن المتغيرات التي يمرُّ بها تعريفه وأنماط وجوده، من بنية اجتماعية لأخرى. وبما أن الجسد يوجد في قلب العمل الفردي والجماعي، وفي قلب الرمزية الاجتماعية، فإنه يُعَدُّ مُحَلِّلاً له أهمية كبيرة في فهم أفضل للحاضر.

وليس هناك من شيء أكثر غموضاً، بدون شك، في نظر الانسان من عمق جسده الخاص. وقد جهد كل مجتمع، بأسلوبه الخاص، لإعطاء جواب خاص على

(1) أنظر : جورج بالاندييه (G. Balandier) - «الطريق المنحرف. السلطة والحادثة» (Le

1987 - Fayard منشوراتdétour. Pouvoir et modernité)

(2) أنظر : دافيد لوبرتون (David Le Breton) - «أجساد ومجتمعات. بحث في علم اجتماع

وأنثروبولوجيا الجسد» (Corps et sociétés. Essai de sociologie et d'anthropologie du

corps) - منشورات Méridiens- Klincksieck - 1988 - (الطبعة الثانية).

هذا اللغز الأول الذي ينغرس الإنسان فيه. إن الجسد يبدو أمراً بديهياً. لكن البداهة هي غالباً الطريق الأقصر للسرّ. وعالم الأنثروبولوجيا يعلّم «أن هناك في قلب البداهة فراغاً»، حسب الصيغة الجميلة لأدموند جابيس. إنّ الفراغ هو بؤرة الحسّ التي يحفرها كل مجتمع على طريقته، وفق بديهيات لا تكون كذلك إلا بالنسبة للنظرة المألوفة التي يُثيرها. فالبداهة في مجتمع ما هي الدهشة في مجتمع آخر، إن لم تكن عدم الفهم. إن كل مجتمع يرسم، في داخل رؤيته للعالم، معرفة مُفردة حول الجسد: مكوناته، تعابيره، اتصالاته، الخ. ويعطيه معنى وقيمة. إن مفاهيم الجسد تخضع لمفاهيم الشخص. ولهذا فإنّ العديد من المجتمعات لا تميّز بين الإنسان وجسده، وفقاً للنمط الثنائي المألوف جداً في الغرب. ففي المجتمعات التقليدية لا يتميز الجسد عن الشخص. والمواد الأولية التي تولّف عمق الإنسان هي نفسها التي تعطي القوام للكون والطبيعة. فبين الإنسان والعالم والآخرين يسود نفس النسيج، ولكن بدوافع وألوان مختلفة لا تغير في شيء من اللحمة المشتركة (الفصل 1).

إن الجسد الحديث من نوع آخر. فهو يتضمن إنقطاعاً بين الشخص والآخرين (بنية إجتماعية من النمط الفردي)، وبينه وبين الكون (المواد الأولية التي يتألف منها الجسد ليس لها ما يقابلها في أي مكان آخر)، وبينه وبين نفسه (انه يمتلك جسداً، أكثر من انه يكون جسده) إن الجسد الغربي مكان لفصل، وسور موضوعي لسيادة الأنا. إنه الجزء الذي يتعذر قسمته من الشخص، و«عامل تفرّد» (أ. دوركهام) في الجماعات التي يُعدّ التقسيم الاجتماعي فيها أمراً مقبولاً.

إنّ مفاهيمنا الحالية حول الجسد ترتبط بصعود الفردية كبنية اجتماعية، وبانفتاح فكر عقلاني ووضعي وعلماني حول الطبيعة، وبتراجع تدريجي في التقاليد الشعبية المحلية. كما ترتبط أيضاً بتاريخ الطب الذي يجسد في مجتمعاتنا معرفة رسمية، بشكل ما حول الجسد. إنّ أوضاعاً إجتماعية وثقافية خاصة هي التي سمحت بولادته (الفصل 2 و 3). لقد سعينا لوضع تاريخ للحاضر من خلال غرس الأوتاد التي بدت لنا أنها الأكثر دلالة في بلورة مفهوم الجسد ووضعه الحالي. إنه نوع من علم سلالة الجسد الحديث مع الأزمنة القوية لفيسال (Vesale) والفلسفة الميكانيكية (الفصل 2 و 3). ومع ذلك فإنّ الإجماع حتى في مجتمعاتنا الغربية لا يسود حول ماهية الجسد. إنّ مفاهيم أكثر انتشاراً، ومألوفة الى هذا الحد أو ذاك، ومتماسكة، ما

زالت تُؤثّر على الفاعلين (Les acteurs) وتغذّي الطب التقليدي (المغناطيسية، ومضمدو الأسرار، الخ.) أو العلوم الطبية «الجديدة» (الوخز بالأبر، الطب السمعي، طب العظام، الطب التجانسي، الخ.) (الفصل 4).

إنّ جسد الحياة اليومية هو أيضاً استعمال لحساسية. ففي بداية هذا القرن وضع ج.سيمل (G.Simmel) مخططاً لعلم اجتماع الحواسّ الذي نسترجع هنا مبدأه في ضوء أوضاع اجتماعية وثقافية، هي أوضاعنا. أيّ تجميل يُميّز اليوم الحياة اليومية للإنسان الحديث ؟ (الفصل 5).

لقد انطلق مُخيال جديد للجسد في سنوات الستينات. فالإنسان الغربي اكتشف في نفسه جسداً، والخبر سرّي في طريقه، واجتذب خطباً وممارسات اكتست هالة وسائل الاعلام. إن الثنائية المعاصرة تعارض بين الإنسان وجسده. والمغامرات الحديثة للإنسان وقرينه جعلت من الجسد نوعاً من «الأنا الآخر» (alter ego). فهو مكان مُميّز للرفاهية (الشكل) ولحسن المظهر (الأشكال، - bodg building بناء الجسم، التجميل، الغذاء، الخ). ولشهوة الجهد (المارتون، الركض، القارب الشراعي) أو للمخاطرة (تسلق الجبال، والمغامرات الخ. إنّ الهمّ الحديث للجسد، في وسط «إنسانيتنا الجالسة»، هو مُحثّ لا يَمُكُّ للخيال والممارسات، فالجسد، الذي صار «عامل تفرّد»، أخذ يُضاعف إشارات التميّز، ويتباهى على طريقة من يُروّج لشيء ما (الفصل 8).

إن الجسد، في مجتمعاتنا الغربية، هو إذن علامة الفرد، ومكان اختلافه وتُميْزه. لكنه في نفس الوقت وبشكل متناقض ظاهرياً، منفصل عنه، غالباً، نتيجة الإرث الثنائي الذي يُثقل دائماً على التميّز الغربي. هكذا يجري الحديث، على طريقة الكليشه، عن «تحرر الجسد». إنها صيغة ثنائية، بشكل نموذجي، لأنها تنسى أن الوضع البشري جسدي، وأن الإنسان لا يمكن تمييزه عن الجسد الذي يعطيه عمق وحساسية كينونته في العالم. إن «تحرر الجسد»، إذا قُبِلت الصيغة مؤقتاً، أمر نسبي جداً. إذ يمكن بسهولة إظهار أنّ المجتمعات الغربية تبقى قائمة على مَحْوٍ للجسد يُتْرَجَم من خلال طقوس عديدة منتشرة في مختلف مواقع الحياة اليومية. ومن الأمثلة على المحو الطقوسي: منع الاحتكاك الجسدي مع الآخر، بعكس مجتمعات أخرى تكون فيها ملاسة الآخر، في المحادثة الشائعة على سبيل المثال، إحدى البنى الابتدائية للنزعة

الاجتماعية. إن وضع المُعاقين جسدياً في مجتمعنا، والقلق المتفشى الذي يُؤلِّدونه، والموقع الهامشي «للمجنون» أو للمُسنَّين، على سبيل المثال، (الفصل 7) تسمح بوضع حدود «لتحرر الجسد». وإذا وُجدَ هناك «جسد متحرر»، فإنه جسد شاب، جميل، غير قابل للنقد فيزيائياً (الفصل 6). ولن يكون هناك، بهذا المعنى، «تحرر للجسد» إلا عندما يكون همُّ الجسد مختلفياً. ونحن ما زلنا بعيدين عن ذلك.

إن الطب التقليدي يجعل أيضاً من الجسد «أنا آخر» للإنسان. فهو يُبعد من دائرة اهتماماته الانسان المريض، وتاريخه الشخصي، وعلاقته مع اللاوعي. ولا ينظر إلاّ للعمليات العضوية التي تحدث فيه. ويبقى الطب وفياً للإرث الفيسالي، فهو يهتم بالجسد وبالمرض، ولكن ليس بالمريض. هنا يكمن مصدر العديد من المناقشات الاخلاقية المعاصرة، المرتبطة بالأهمية المُعطاة للطب في الميدان الاجتماعي، وبخصوصية مفهومه للإنسان. إن الطب يركز على انتروبولوجيا متبقية، ويراهن على الجسد، معتبراً أنَّ من الممكن معالجة المرض (المنظور له كأمر غريب) وليس المريض بحد ذاته. إن تجزئة الإنسان التي كانت تهيمن بشكل خفي على الممارسة الطبية منذ قرون، أصبحت اليوم من المعطيات الاجتماعية التي تحدث اضطراباً في الحساسيات. ولأنَّ الطب راهن على الجسد وفصله عن الانسان لكي يعالجه، أي لأنه يعالج المريض أقل مما يعالج المرض، فإنه يصطدم اليوم، وعبر المناقشات العامة التي يثيرها، بالعودة الفظة لمكبوته ؛ أي للانسان (قَتْلُ من يشكو من مرض عضال، إصطحاب المرضى والمحتضرين، المرضى الذين هم في حالة خمول مُزمن منذ عدة أشهر أو سنوات، المرضى الذين لديهم أعضاء اصطناعية ولم يُعَد يُعْرِف ما يُصْنَع بهم، العلاجات التي تؤدي أحياناً لبتَر الأعضاء، الخ). إن التساؤل الجذري حول مفهوم الشخص الذي نعرفه اليوم يُعبِّر أساساً عن الصدى الاجتماعي للطب، الذي أصبح إحدى المؤسسات الدالَّة على الحداثة. لقد اضطربت معطيات انتروبولوجية يكمن سلوكها الأحمر في الفصل بين الإنسان وجسده. إن عدة مسائل أخلاقية في عصرنا، وهي من بين أكثرها صعوبة، ترتبط بالوضع المُعطى للجسد في التعريف الاجتماعي للشخص (المساعدة على الإنجاب، انفجار الرابطة الأبوية، نزع الاعضاء وزرعها، المناورات الوراثية، تقدم تقنيات الانعاش والأجهزة الأخرى للمساعدة، الترميمات، الخ.).

إن المسائل التي تُناقش اليوم في الساحة العامة ليست إلاّ نمواً لهذه البنية

المؤسسة. والطب الذي يُعَدُّ الانسان عند أدنى مستوى من مسيرته، يُعَرِّض نفسه لأن يجده ثانية عند أعلى مستوى في شكل تساؤل حول الأساس الذي يقوم عليه. إنَّ الطب هو طب الجسد، وليس طب الانسان، كما في التقاليد الشرقية على سبيل المثال. إننا نتذكر هنا هذه الجملة لمارغريت يورسنار في «العمل في الاسود»⁽³⁾، عندما انحنى زينون (Zénon)، الطبيب، القريب للغاية من فيسال، مع رفيقه، الطبيب أيضاً، على جثة شاب هو ابن الرفيق، وقال: «في الغرفة المُشَبَّعة بالخلّ التي كُنَّا نُشْرَح فيها، لَمْ يُعَد هذا الميت يُمَثِّل الابن ولا الصديق، وإنما فقط المثال الجميل للآلة البشرية...». إنها جملة برنامجية، فالطب يعالج «الآلة البشرية»، أي الجسد، وليس الابن أو الصديق، أي الإنسان في تفرد (الفصل 9).

إن «علوم» طب أخرى تقليدية أو «جديدة» تجهد بالعكس لتخطي الثنائية، وللنظر للانسان في وحدته غير القابلة للانقسام (الفصل 9). فالطرق الجديدة للمَـصْـوِرة الطبية تطارد في الواقع سرّ الجسد الذي لا ينتمي إلا الى الرمزية الاجتماعية للجماعات البشرية، لكنها تثير رداً لا ينضب من جانب ميخايل الفاعلين (الفصل 10).

إن حالة الجسد لم تُعَد رائجة على الأقل منذ أيام فيسال وعلماء التشريح الأوائل. فالعلم والتقنية، الوفيّان لمشروعهما في السيطرة على العالم، يسعيان، في حركة متناقضة ظاهرياً، لاستبعاد الجسد وتقليده في آن معاً.

فمن جهة، تجاوز حدوده، وإعادة بنائه، والتأثير على هذه العمليات. كما لو أن الوضع البشري يندمج، في منظور غنوصي (عزفاني)، مع سقوط في الجسد؛ الجسد الذي أصبح عضواً فائضاً في الإنسان، من المناسب تخليصه منه بأسرع ما يمكن. إنه مكان لما هو عابر، للموت، للشيوخوخة؛ وهذا ما ينبغي محاربته في المقام الأول من أجل تجاشي الخسارة. إنها الانطلاقة الدائمة للأمل، ولكن من دون الوصول للهدف، بدون شك. فالجسد هو مكان ما لا يمكن إدراكه؛ إنه المكان الذي يجب ضمان السيطرة عليه.

ومن جهة أخرى، وفي آن واحد، يُعَدُّ الجسد نموذجاً لطب مفتون بالعمليات

(3) - أنظر: (Marguerite Yourcenar)، «L'Œuvre au noir» سلسلة: «Poche» - ص: 118.

العضوية، فهو يُعَلِّم مثل هذا الطب بأن تقليداته الشاحبة عبارة عن أحداث بارزة، وإنها تشير منافسة لا نظير لها بين مخابر البحوث أو الأقسام الموجودة في المستشفيات بهدف بلوغ المركز «الأول» (الفصل 11).

إذا كان كتاب ما عبارة عن مشروع منفرد فإنه يتغذى أيضاً بالنظرات والأصوات التي رافقت سيره عن قرب. إنني أتمنى أن أشكر، بشكل خاص، ماري جوزيه لامبير التي سمحت لي صداقتها أن أدرك بشكل أفضل وألاحظ فعالية الإشفاء التقليدي. إن دهشتها الخاصة من الشفاء أو من تخفيف الألم لم تكف عن تغذية فضولي الخاص حول الجسد والعلاقات العلاجية. وفيليب باغروس، الطبيب - رئيس القسم في مستشفى تور الذي بيّن لي طريق طب الانسان. إن التعاون الذي عقدناه مع بعض بهدف إدخال العلوم الإنسانية في برامج التدريس بكلية الطب، غني بشكل خاص ومُنَشَّط. ومارتين باسكيه وفيليب غروبوا Grosbois للمناقشات العديدة والمداخلات المشتركة أثناء دورات التأهيل المستمر أو المحاضرات، ولمشاطرتهم لي نفس التحسس والتساؤل القريب.

أريد أيضاً أن أشكر آلان غراس، ورينيه بيرو، ومارغاليت ايميريك لسماحهم لي، بفضل ثقتهم وصداقتهم، بتوضيح مظاهر من هذا البحث.

وأعبر أيضاً عن عرفاني ومحبتي لهنيئا تويل التي عرفت كل التطورات الفجائية والحسرات والحماسة التي رافقت هذا المشروع الذي لم تكف عن تنشيطه بحضورها.

وسأبقى بالطبع المسؤول الوحيد عن التحليلات المنشورة هنا.

الفصل الأول

ما لا يمكن إدراكه في الجسد⁽¹⁾

سرّ الجسد

تُخصّص التصورات الاجتماعية للجسد وضعاً محدداً في داخل الرمزية العامة للمجتمع. فهي تُسمّى الأجزاء المختلفة التي تُؤلّفه والوظائف التي تقوم بها، كما توضح علاقاتها، وتنفذ إلى الداخل غير المرئي للجسد لتودّع فيه صوراً دقيقة، وتحدّد موقعه وسط الكون أو بيئة الجماعة البشرية. إن هذه المعرفة المطبّقة على الجسد هي على الفور معرفة ثقافية. فحتى لو امتلكها الشخص ثنائية بناءً على نمط بدائي، فإنها تسمح له بإعطاء معنى لعمق لحمه، وبمعرفة ممّا ضنّ، ووبربط أمراضه أو أوجاعه بأسباب دقيقة ومتفقة مع رؤية مجتمعه للعالم. كما تسمح أخيراً بمعرفة موقعه تجاه الطبيعة والناس الآخرين، عبر نظام قيم ما.

إنّ تصورات الجسد، والمعارف التي تبلغها تخضع لحالة اجتماعية، ولرؤية للعالم، ولتعريف مُحدّد للشخص في داخل هذه الرؤية. فالجسد بناء رمزي، وليس

(1) - إن الأفكار المعروضة في هذا الجزء الأول اقترحت للمرة الأولى، وبشكل آخر، في بحث دافيد لوبرتون : «الجسد والفردية» (Corps et individualisme) المنشور في «Diogenè» العدد 1985 - 131 ؛ وبحثه : «الثنائية وعصر النهضة : في أصول تصور حديث للجسد» (Dualisme et Renaissance: aux sources d'une représentation moderne du corps) المنشور في «Diogenè» العدد 142 - 1988.

حقيقة في ذاتها. ومن هنا منشأ عدد لا يُحصى من التصورات التي تسعى لإعطائه معنى، وسبب طابعها الغريب والشاذ والمتناقض، من مجتمع لآخر.

يبدو الجسد أمراً مُسلماً به، لكن لا شيء في النهاية لا يمكن إدراكه أكثر منه. إنه ليس مطلقاً أمراً معلوماً، غير قابل للنقاش، وإنما هو نتيجة بناء اجتماعي وثقافي. إن المفهوم الأكثر قبولاً في المجتمعات الغربية يجد صياغته في علم التشريح الفيزيولوجي، أي في المعرفة البيوطبية. وهو يركز على مفهوم خاص للشخص، هو ذاك الذي يجعل العالم الاجتماعي يقول: «جسدي» هو مثل «الملكية». لقد وُلِدَ هذا التصور من إنشاق الفردية ونموها في المجتمعات الغربية ابتداءً من عصر النهضة. وهذا ما سنراه في الفصول القادمة. إنَّ الأسئلة التي ستتطرق لها في هذا الكتاب تتضمن هذه البنية الفردية التي تجعل من الجسد سور الشخص، ومكان حُدِّه وحرّيته، والموضوع المُعَيَّر لصياغة التحكم وإرادته.

إنَّ الانفجار الحالي للمعارف حول الجسد⁽²⁾، والذي جعل من علم التشريح الفيزيولوجي نظرية من بين نظريات أخرى، حتى ولو بقيت النظرية المهيمنة، يشير لمرحلة أخرى من الفردية، هي مرحلة انكفاء أكثر شدة على الأنا: إنه إنشاق مجتمع أصبح فيه التفتيت الذري للفاعلين واقعاً هاماً، وذلك بغض النظر عما إذا كان مجتمعاً خاضعاً أو مرغوباً به أو أيضاً غير متحيّز⁽³⁾. إن الأمر يتعلق هنا بسمّة ذات دلالة بليغة جداً للمجتمعات التي تكون الفردية فيها واقعاً بنيوياً: نمو الطابع الجمعي للغاية، والمتعدد الأصوات للحياة الجماعية ومصادرها. فالمبادرة في هذه المجتمعات تعود

-
- (2) - إنها بحوث جامحة لنظريات أخرى حول الجسد ، مُستعارة من الشرق ، والتنجيم والمذاهب الباطنية ، ولجوء معتاد أكثر فأكثر للأشكال التقليدية للمعالجة التي تحمل أيضاً نظريات مختلفة عن الجسد ، وبلا صلات مع النموذج التشريحي الفيزيولوجي للطب ، ولجوء إلى علوم الطب «العذبة» ، وزوال التعاطف مع الطب الحديث ورؤيته الميكانيكية للجسد.
- (3) إنَّ البحث الحالي عن أشكال جديدة للنزعة الاجتماعية والتبادل والنزعة القبلية ، هو شكل من أشكال مقاومة التفتيت الذري لما هو اجتماعي. إنه طريقة للإبقاء على مظهر خارجي للحياة المشتركة ، ولكن وفقاً لنمط مُراقَب وإرادي ، كما تبرز ذلك جيداً الظاهرة الترابطية. في هذا الموضوع هناك نظرتان مختلفتان : أنظر : إيف بارل (Yves Barel) : «مجتمع الفراغ» (La société du vide) - باريس - منشورات Seuil - 1983 ؛ وجيل ليوفتسكي (Gilles Lipovetski) : «عصر الفراغ» (L'ère du vide) - باريس - منشورات Gallimard - 1985.

بالفعل الى الفاعلين، أو إلى المجموعات، أكثر مما تعود الى ثقافة تتجه لأن تصبح مجرد إطار شكلي.

إننا نشهد اليوم تسارعاً في السيرورات الاجتماعية من دون أن يتبعه المستوى الثقافي. لقد أصبح هناك غالباً طلاق ظاهر بين التجربة الاجتماعية للفاعل وقدرته على الاندماج الرمزي. إن قصوراً في الإحساس ينجم عن هذا، ويجعل الحياة صعبة أحياناً. منظرًا لغياب جواب ثقافي يوجه اختياراته وأعماله يُترك الإنسان لمبادراته الخاصة، لوحده، ويكون مجرداً أمام عدد من الأحداث الأساسية للوضع البشري: الموت، المرض، الوحدة، البطالة، الشيخوخة، والميكن... ومن المناسب وسط الشك، وأحياناً القلق، اختراع حلول شخصية. إن الاتجاه نحو الانكفاء على الذات، والبحث عن الاستقلال الذي يعيى عدداً من الفاعلين يتركب نتائج محسوسة على النسيج الثقافي. فوحدة الحس والقيم تنتشر في النسيج الاجتماعي من دون أن تلحمه بشكل حقيقي. هكذا يزيد التفتت الذري للفاعلين من إبعاد العناصر الثقافية التقليدية التي تُصاب بالإهمال أو تصبح مؤشرات بلا عمق. إنها تصوير قليلة الجدارة بالاستثمار، وتختفي تاركة فراغاً لا تملؤه الوسائل التقنية. وبالعكس، فإن الحلول الشخصية تنتشر وتستهدف ملء القصور الرمزي من خلال استعارات من نسج ثقافية أخرى، أو من خلال خلق مصادر جديدة.

لقد حدث على مستوى الجسد أيضاً نفس الانتشار في المصادر. فإذا كان مفهوم علم التشريح الفيزيولوجي، الذي أصيب قليلاً بخيبة أمل، والتقدم الحديث الذي تحقق في ميدان الطب والتكنولوجيا الحيوية، قد ساعدا على نفي الموت، فإنهما لم يتمكنوا من جعل هذا التصور عن الجسد جذاباً جداً. إن العديد من الفاعلين يقومون ببحث لا يكلّ عن نماذج مُهيأة لأن تُعطي لأجسادهم نوعاً من الإضافات الروحية. هكذا يُبرّر اللجوء لمفاهيم غريبة عن الجسد، تكون غالباً متناقضة ومُبسّطة، وتُختزل أحياناً في مجرد وصفات. لقد أصبح جسد الحداثة بوتقة قريبة جداً من المصلقات السريالية. فكل فاعل «يُصليح» التصور الذي يصنعه لنفسه عن جسده، بطريقة فردية ومستقلة، حتى ولو اغترف من أجل ذلك من المعرفة التي جعلتها وسائل الاعلام مُبتذلة، أو من صدفه قراءاته ولقاءاته الشخصية.

إنّ ما تفرضه علينا على الفور دراسة للعلاقات بين الجسد والحداثة، إنما هو إصلاح خط سير الفردية في النسيج الاجتماعي، ونتائج ذلك على تصورات الجسد.

وسنرى أولاً كم أن مفهوم «الجسد» إشكالي وغامض. فالمفهوم الحديث للجسد هو نتيجة للبنية الفردية للميدان الاجتماعي، ونتيجة لانقطاع التضامن الذي يمزج الشخص بالجماعي وبالكون عبر نسيج من الاتصالات التي يستقيم بها كل شيء.

«أنتم جلبتم لنا الجسد»

ستسمح لنا حكاية طريفة رواها موريس لينهارت (M. Leenhardt) في إحدى دراساته عن مجتمع الكاناك (La société canaque) بطرح هذه المسألة، ويأظهار كم أن المعطيات المدروسة في هذا الكتاب ترتبط بالضرورة بمفهوم للجسد غربي وحديث بشكل نموذجي. ولكن، قبل الوصول إلى الحكاية، ينبغي تحديد موقع المفاهيم الميلانيزية (Les conceptions mélanésiennes) للجسد⁽⁴⁾، وكذلك تلك التي تُحدّد بنية مفهوم الشخص، وتعطيه معنى وقيمة ما.

إن الجسد، لدى الكاناك، يستعير خصائصه من المملكة النباتية⁽⁵⁾. فهو جزء صغير غير منفصل عن العالم الذي يغمره. إنه يحبك وجوده من الأشجار والثمار والنباتات. ويخضع لنبض العالم النباتي، الممزوج مع الجماعة التي تضم كل من يحيا، والتي كان كاسيرر (Cassirer) يتحدث عنها في الماضي. فكلمة *gemeinschaft alles lebendigen* تعني في آن معاً جلد الإنسان ولحاء الشجرة ووحدة اللحم والعضلات (pié) تحيل إلى اللب أو إلى نواة الثمار. والجزء الصلب من الجسد، أو الهيكل العظمي، يُستَمَى بنفس الكلمة التي تطلق على قلب الخشب. وهذه الكلمة تشير أيضاً إلى بقايا المرجان الملقاة على الشواطئ. إنها الأصداف البريئة أو البحرية التي تستخدم للتعرف على العظام المُغلّفة كعظم الجمجمة. كما تُستمد أسماء الأعضاء الداخلية المختلفة أيضاً في المصطلحات النباتية. فالكليتان والغدد الأخرى بداخل الجسم تحمل اسم ثمرة ظاهرها قريب من ظاهرها. والرئتان اللتان يُدَّكرُ غلافهما بشكل الشجرة الطوطمية للكاناك، المُسمَّاة Kuni، تعرفان بهذا الاسم. أما الأمعاء فتُشَبَّه بالصفائر المُتسلِّقة التي تغصّ بها الغابة. إن الجسد يبدو هنا كشكل نباتي آخر، كما أن العالم النباتي يعدّ امتداداً طبيعياً للجسد. فليس هناك

(4) سنرى بالطبع أن الأمر لا يتعلق هنا إلا بصيغة للحديث. فالمفاهيم الميلانيزية للجسد لا تجعله أبداً مستقلاً كحقيقة قائمة بذاتها.

(5) أنظر : م. لينهارت : Do Kamo ، باريس - منشورات Gallimard 1947 ص : 54 - 70.

حدود ظاهرة بين هذين الميدانين. إن مفاهيمنا الغربية وحدها هي التي تسمح بهذا التقطيع، وهي تجازف في ذلك بإحداث التباس بين الفوارق، واختزال لها لصالح المفاهيم العرقية الغربية.

إن الكاناك لا يدركون الجسد كشكل ومادة معزولين عن العالم. فهو يشارك بأسره في طبيعة تتمثله وتغمره في آن معاً. إن الصلة مع العالم النباتي ليست مجازاً وإنما هي هوية جوهرية. وتبرز أمثلة عديدة مُستقاة من الحياة اليومية للكاناك جيداً لعبة هذه الدلالة الجسدية. فعن طفل كسيح، يُقال أنه «ينمو أصفراً» ويشبه في ذلك جذراً ينقصه النسغ ويذبل. ج لقد انتفض شيخ مُسنٌ في وجه الدركي الذي أتى للبحث عن طفله من أجل أن يجبره على القيام ببعض الأعمال الصعبة التي يفرضها البيض: «أنظر لهذه الذراع، قال الشيخ، إنها من الماء». إن الطفل شبيه «برعم شجرة، يكون مائياً في البداية، ثم مع الزمن، يخشوشب ويصبح صلباً». إن العديد من الأمثلة يمكن أن تتوالى ؛ ونفس المواد يمكن أن تُستخدم في داخل العالم واللحم ؛ إنها تقيم صلة حميمة، وتضامناً بين البشر وبيئتهم. إنَّ كُلَّ إنسان، في عالم الكاناك الكوني، يعرف من أي شجرة في الغابة ينحدر كُلٌّ من هؤلاء الأجداد. إنَّ الشجرة ترمز للانتماء الى المجموعة من خلال غرس الانسان في أرض أجداده، وإعطائه وسط الطبيعة مكاناً خاصاً يذوب بين الأشجار التي لا تحصى، التي تكتظُّ بها الغابة. وعند ولادة الطفل، وهناك حيث يدفن الحبل السري، يُغرس برعم ينمو شيئاً فشيئاً، ويكبر تدريجياً مع نضوج الطفل. إن كلمة Karo التي تعني جسد الإنسان تدخل في تأليف العبارات التي تُعمد: جسم الليل، جسم البلطة، جسم الماء، الخ.

هكذا نفهم على الفور أن المفهوم الغربي للشخص لا قوام له في المجتمع الميلانيزي. فإذا كان الجسد على صلة مع العالم النباتي، فإنه لا وجود هناك لحدود بين الأحياء والأموات. إن الموت لا يُفهم بأنه شكل للعدم، وإنما يدلُّ على الدخول في شكل آخر من أشكال الوجود، حيث يمكن للمتوفي أن يأخذ مكان حيوان أو شجرة أو روح. كما يمكنه أيضاً أن يعود الى القرية أو المدينة ويختلط بالأحياء وهو بمظهر الـ Bao. من جهة أخرى، فإنَّ كل شخص لا يوجد، وهو على قيد الحياة، إلا من خلال علاقاته مع الآخرين. فالإنسان ليس إلا إنعكاساً. وهو لا يستمد عمقه وقوامه إلا من مجموع صلاته مع شركائه. إنها سمة شائعة نسبياً في المجتمعات التقليدية ؛ وهي تحيلنا، من ناحية ثانية، لأعمال علم الاجتماع الالمانى في بداية هذا القرن،

في مجال التعارض الذي تبيّنه، لدى التونيز (Tonnies) على سبيل المثال، بين الرابطة بين أفراد الجماعة الواحدة والرابطة المجتمعية. إن وجود الكاناكي هو وجود مكان تبادل وسط جماعة واحدة لا يمكن فيها لأي كان أن يتميز كفرد. فالإنسان لا يوجد فيها إلاّ من خلال علاقاته مع الآخرين، وهو لا يستمد شرعية وجوده من شخصه فقط، المُنتصب كطوطم⁽⁶⁾. ولهذا فإن مفهوم الشخص بالمعنى الغربي لا يمكن تعليمه في المجتمع والعالم التقليدي للكاناك. إن الجسد، بالأحرى، لا وجود له. إنه، على الأقل، غير موجود بالمعنى الذي نفهمه به اليوم في مجتمعاتنا. إن «الجسد» (Le Karo) يندمج هنا مع العالم، إنه ليس مرتكز الفردية أو الدليل عليها، لأن هذه الفردية ليست مُثبتة، ولأن الشخص يرتكز على أسس تجعل كل دقائق البيئة قابلة لاختراقه. إن «الجسد» ليس حدوداً، أو ذرّة، وإنما هو عنصر مبهم في مجموعة رمزية. إن أيّ شيء من الخشونة لا يوجد بين لحم الانسان ولحم العالم.

وها هي الآن الحكاية الطريفة التي تكلمنا عنها. إستجوب موريس لينهات، المتطّلع لأنّ يُحيط بشكل أفضل بإسهام القيم الغربية في العقلية التقليدية، شيئاً من الكاناك، فأجابه هذا، ولينهات في ذهول كبير، قائلاً: «إنّ ما جلبتم إلينا، إنما هو الجسد». إن فرض التصور الغربي للعالم (Weltanschauung) على بعض المجموعات، بالإضافة لتنصيرهم⁽⁷⁾ أدّى بأولئك الذين اجتازوا الخطوة، أولئك الذين انسلخوا عن قيمهم القديمة، إلى تفرّد يُقلّد، بشكل مُخفّف، تفرّد المجتمعات الغربية. إنّ الميلانيزي الذي استولت عليه هذه القيم الجديدة، حتى ولو بطريقة بدائية، يتحرر من النسيج ذي المعنى التقليدي الذي يدمج حضوره في العالم وسط مجموعة متجانسة، ويصبح جرثومة فرد قائم بذاته. أما الحدود التي حدّدها جسده فتميّزه من الآن فصاعداً عن أصحابه، وحتى عن أولئك الذين أنجزوا نفس المسيرة.

(6) حسب صيغة كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss) في «الفكر البري» (La pensée sauvage) - باريس - منشورات Plon - 1962 - ص : 285 وقد صدرت ترجمته الى العربية عن المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر بيروت - 1983.

(7) حول أهمية واقع التفرّد في المسيحية، أنظر : مارسيل موس (M. Mauss) مفهوم الشخص في «Sociologie et anthropologie» - باريس - منشورات P.U.F. ، 1950 ، ولويس ديمون (L. Dumont) في «بحث حول الفردية» (Essai sur l'individualisme) - باريس - منشورات Seuil - 1983.

إنه إبعاد لبُعد الجماعة الواحدة (Communautaire) (وليس اختفائه، لأن التأثير الغربي لا يمكن أن يكون إلاً جزئياً، وحضرياً أكثر مما هو ريفي) ونمو للبعد المجتمعي (sociétale) الذي تكون فيه الصلات بين الفاعلين أكثر رخاوة. إنَّ عدداً من الميلانيزيين ينتهون إذن للشعور بأنهم أفراد في مجتمع، أكثر مما هم أعضاء، يمكن بالكاد تمييزهم، في جماعة واحدة، وذلك على الرغم من أنَّ الانتقال، في هذه المجتمعات الهجينة، إلى حد ما، لا يحدث بطريقة جذرية. إنَّ الإنكفاء نحو الذات، الأنا، الذي ينجم عن هذا التحوُّل الاجتماعي والثقافي يحثُّ على التحقيق في الوقائع من الحُدس القوي لدوركهام الذي ينبغي بموجبه من أجل التمييز بين شخص وآخر وجود «عامل تفرُّد ؛ والجسد هو الذي يلعب هذا الدور»⁽⁸⁾.

لكن هذا المفهوم للشخص، المتبلور حول الأنا، أي الفرد، ظهر، في حد ذاته، حديثاً في تاريخ العالم الغربي. إن بعض الأفكار تفرض نفسها هنا لتبيِّن التضامن الذي ينعقد بين المفاهيم الحديثة للشخص وتلك التي تُعَيَّن، بالنتيجة، للجسد معنى ووضعاً مُحدَّداً. إنَّ من المهم، على الفور، الإشارة للمسيرة التفاضلية للفردية في داخل الفئات الاجتماعية المختلفة. لقد سبق لدوركهام أن بيَّن في كتابه «الانتحار» (Le suicide)، إن استقلال الفاعل في الاختيارات التي تُعرِّض له يتغير حسب الوسط الاجتماعي والثقافي الذي ينغرس فيه. ففي بعض المناطق الفرنسية، على سبيل المثال، لم يختفِ بُعْدُ الانتماء الى جماعة واحدة كلياً، بل إنه ما زال متحققاً في بقايا وحيوية بعض مفاهيم الجسد التي تستخدمها التقاليد الشعبية في مجال الإشفاء، حيث لا زال بالامكان ملاحظة وجود الوصاية الرمزية للكون والطبيعة. إن هذا البعد يتأكد أيضاً، في هذه المناطق، من خلال عدم ثقة مُعلنة تجاه طب خاضع لمفهوم فردي للجسد. إننا سنعود الى هذه المسألة فيما يلي من هذا النص⁽⁹⁾.

(8) أميل دوركهام : «الأشكال البدائية للحياة الدينية» (Formes élémentaires de la vie religieuse) - باريس - منشورات P.U.F - 1968 - ص : 386 - يجد دوركهام هنا ثانية مبدأ

التفرُّد من خلال المادة ، الذي يُحيل ، في التقليد المسيحي ، الى القديس توما الاكويني .
(9) نرى ، على سبيل المثال في الشعوذة ، أن حدود الشخص تتخطى حدود جسده الخاص لتشمل أسرته وأمواله ، وذلك على طريقة تشابك نموذجي في بنية الجماعة حيث لا يكون الإنسان فرداً ، وإنما إنسان له علاقة ، أو بالأحرى نسيج من العلاقات.

إن مفهوم الفردية الذي يُستخدم كأساس لهذه الحجج هو في نظرنا اتجاه مسيطر أكثر مما هو حقيقة جوهرية من حقائق مجتمعاتنا الغربية. إن هذه الرؤية للعالم هي، بالمقابل، التي تضع في مركزه الفرد (l'ego cogito لدى ديكارت) الذي يكمن في أصل مفاهيمنا المسيطرة حول الجسد⁽¹⁰⁾.

إن خبراً ل: ف.س. نيبول (V.S.Naipaul)⁽¹¹⁾ يُبرز في إيجازٍ أخذ كلمات الشيخ الكاناكي الذي استجوبه موريس لينهارت. خلال بضعة أشهر من الإقامة في الولايات المتحدة، سيعيش خادم من بومباي سيرورة «فرديته»، ويكتشف أنه يملك وجهاً ثم جسداً. في بومباي، كان هذا الرجل يعيش في ظل سيده، موظف الحكومة. في المساء، يلتقي بأصدقائه، الخدام الآخرين في نفس الشارع. أما زوجته وأطفاله فبعيدون، لا يراهم إلا نادراً. فجأة يُعين سيده في منصب بواشنطن. وبعد بعض الصعوبات، يحصل على موافقة الحكومة على اصطحاب خادمه معه. لقد جعله السفر في الطائرة يجابه أول تجربة مع ثقافة أجنبية. لقد لفتت ثيابه الرديئة الانتباه إليه، فرأى نفسه مدفوعاً للجلوس في مؤخرة الطائرة. حَضَّرَ لنفسه خليطاً من نبات ورق الفلفل، لكنه وجد نفسه مضطراً لبلعه حتى لا ييصقه على السجادة أو المقاعد. ذهب لاستخدام المراض، فصعد على المقعد ولَوَّث الكرسي، الخ. لقد كان يعيش في بومباي في خزانة حائط بمنزل سيده. وها هو في واشنطن يُخصَّص بنفس المكان.

في فترة أولى، لم يتغير شيء في علاقة الخضوع التي تربطه بسيده. لقد أُرعبته المدينة في البداية. لكنه بدأ يخطو فيها بخوف خطواته الأولى، ثم أخذ يتجاسر. وبالتبغ الذي جلبه معه من بومباي، والذي باعه للهيبيين، إشتري بدلة. وللمرة الأولى أخفى شيئاً ما عن سيده. وذات يوم اكتشف بذهول وجهه في المرأة: «سأذهب الآن للنظر الى نفسي في مرآة الحمام، فقط من أجل دراسة وجهي في المرأة. الآن، أستطيع بالكاد أن أصدق ذلك. ولكن في بومباي كان يمكن أن يمر أسبوع، وحتى شهر

(10) يحتوي كل حقل مفهومي ، مهما كان موضوعه ، على رؤية ما للعالم ، ويعين للإنسان (ولو بشكل مجوّف أو سلبي) وضعاً ما ، ولا سيما على مستوى الممارسات التي يدعمها. وهذا ما يسمح بالقول بأن بعض المفاهيم (الطب ، على سبيل المثال) تحتوي معامل فردية هام.

(11) ف.س. نيبول ، واحد من بين آخرين ، في «قل لي من يقتل» (Dis-moi qui tuer) - باريس - منشورات Albin Michel - (ترجمة أني سوماتر) - 1983 - ص : 42.

من دون أن أنظر لنفسي في المرأة. وعندما كنت أنظر، لم يكن ذلك من أجل رؤية ماذا كنت أشبه، وإنما لأتأكد من أن الحلاق لم يقص شعري كثيراً، أو لأراقب حبة على وشك البروز. هنا، شيئاً فشيئاً، اكتشفت أن لديّ وجهاً جميلاً. إنني لم أكن مطلقاً أرى نفسي هكذا. كنت، بالأحرى، أرى نفسي عادياً، وأن لديّ سمات لا تُستخدم إلاّ للتعريف بي». ومع اكتشافه لنفسه كفرد، اكتشف الرجل وجهه، علامة تفرّده، وجسده، موضوع ملكيته. إن ولادة الفردية الغربية تطابقت مع إرتقاء الوجه.

وشياً فشيئاً، يفهم الرجل أفضل فأفضل «أسرار» المجتمع الأمريكي. وذات يوم، وكإشارة على تحرره المتنامي من هيمنة مجتمعه، يقوم بمغامرة جنسية مع خادمة في البناء الذي يسكن فيه. لكنه، وهو ما زال عند خط العبور، يشعر بالخجل من عمله، فيمضي ساعات في تطهير نفسه وفي الصلاة. وبعد فترة من الزمن، يترك سيده من دون إبلاغه، ويشغل في مطعم. وتمر شهور يُكمل خلالها سيرة التفرّد التي سار بها رغماً عنه. ويتزوج حينذاك من الخادمة، ويصبح نتيجة ذلك مواطناً أمريكياً مندمجاً أكثر فأكثر في نمط الحياة الذي بدا له غريباً في الأيام الأولى لإقامته. بليغة هي السطور الأخيرة من النص، تلك التي تختم تاريخ هذا الرجل، واكتشاف ملكيته لجسده، وانغلاقه على ذاته، الذي يقطع كل صلة له مع الشعور الذي أحسّ به قبل ذهابه الى الولايات المتحدة، والمتمثل بكونه مندمج في العالم، ومُكوّن من نفس مواده. «في الماضي، كتب الرجل، كنت ممتزجاً بماء النهر الكبير، ولم أكن أبداً منفصلاً، أعيش حياتي الخاصة بي. لكنني تأملت وجهي في مرآة وقررت أن أكون حراً. إنَّ الميزة الوحيدة لهذه الحرية كانت أنها جعلتني أكتشف أنه كان لديّ جسد، وأنه ينبغي عليّ خلال عدد من السنين أن أغدّي هذا الجسد وألبسه. وبعد ذلك سينتهي كل شيء» لقد اختلّ الوجود إذاً في ملكية جسد، وكأنه مجرد خاصية له. إنَّ الموت، بحد ذاته، لن يكون له من معنى بالفعل ؛ إنّه لن يكون إلاّ اختفاء شيء مملوك، وهذا في حد ذاته شيء قليل.

تعدد معاني الجسد

من مجتمع لآخر تتوالى الصور التي تسعى للتقليل ثقافياً من سرّ الجسد. إن عدداً لا يُحصى من الصور الغربية ترسم بالنقط حضور موضوع زائل، لا يمكن إدراكه، ومع ذلك فهو موجود ظاهرياً بشكل لا جدال فيه⁽¹²⁾. إن صياغة كلمة «جسد» كجزء

مستقل، بشكلٍ ما، عن الإنسان الذي يحمل وجهه تفترض مسبقاً تمييزاً غريباً عن العديد من الجماعات البشرية. فالجسد، في المجتمعات التقليدية، ذات التركيب المتجانس، الجمعي، الذي لا يمكن تمييز الفرد فيه، لا يشكل موضوعاً لانفصالٍ؛ إن الإنسان يمتزج بالكون، وبالطبيعة والجماعة. وتصورات الجسد، في هذه المجتمعات، هي، في الواقع، تصورات للإنسان، للشخص. إن صورة الجسد هي صورة ذاته التي تُغذيها المواد الأولية التي تتألف منها الطبيعة، والكون في شكل من عدم التمييز. إن هذه المفاهيم تفرض شعوراً بالقرابة، ومشاركة فعالة من الإنسان في كل ما هو حي. كما نجد، من جهة أخرى أيضاً، آثاراً نشطة لهذه التصورات في التقاليد الشعبية للإشفاء (الفصل 4: «الجسد اليوم»). إن لغة ما قد تستمر أحياناً في إخفاء جذور دقيقة تُؤحد العالم الصغير للجسد مع عناصر الطبيعة، في حين أن التقاليد الشعبية التي ما زالت حية لا تحتفظ في معتقداتها إلاّ بجزء من هذه الصلات. إن لغة الباسك، L'Euskara، وهي إحدى أقدم اللغات الهندو أوروبية، وعمرها بلا شك نحو خمسة آلاف سنة، تشهد على ذلك. فهناك خمس فئات تقابل العناصر الطبيعية للباسك القدماء، وخمس ألوهيات، أفادت بها أيضاً انتروبولوجيا وتاريخ شعب الباسك، ترتب العناصر المؤلفة للشخص البشري، وهي: الأرض، الماء، الهواء، الخشب، والنار. إن هذه الأسس الخمسة للكون تُعطي خمسة جذور قاموسية تُؤلّد عدداً من المصطلحات التشرّحية التي تُدرج في أوردة اللغة الصلة بين الجسد البشري والكون⁽¹²⁾.

إن من غير الممكن التفكير بالجسد، كعنصر عازل للإنسان، ويُعبر له وجهه، إلاّ في البنى الاجتماعية من النمط الفردي، التي يكون فيها البشر منفصلين عن بعضهم

(12) أنظر : د. لوبروتون : «أجساد ومجتمعات...» - مرجع سبق ذكره.

(13) أنظر حول هذه النقطة : دومينيك بيّان (D. Peillen) ، رمز تسمية أجزاء الجسد البشري في لغة الباسك ، في : «الجسد البشري ، الطبيعة ، الثقافة ، وما فوق الطبيعي» (le Corps humain, nature, culture et surnaturel) - المؤتمر الوطني الـ 110 للجمعيات العالمية. مونتيلييه - 1985. مثال آخر من نفس النوع : ميشال تيريان «Le Corps» (Michèle Therrien) «Inuit» - باريس - SELAF/PUB (Quebec Arctique) - 1987. أنظر أيضاً التقاليد البوذية والهندوسية ، الخ.

البعض، ومستقلين نسبياً في مبادراتهم وقيمهم. فالجسد يعمل على طريقة منارة حدودية ليعين حدود حضور الشخص تجاه الآخرين. إنه عامل تفرّد. والمصطلح التشريحي المستقل بشكل صارم عن كل مرجع آخر يشير جيداً أيضاً لانقطاع التضامن مع الكون. ففي المجتمعات التي تقوم على الجماعة الواحدة، والتي يُشير فيها معنى وجود الإنسان للولاء للمجموعة والكون والطبيعة لا يوجد الجسد بصفته عنصر تفرّد، لأن الفرد بحد ذاته لا يتميز عن المجموعة، ولا يُعدّ إلا جزءاً من الانسجام التفاضلي للمجموعة. وبالعكس، فإن انعزال الجسد في داخل المجتمعات الغربية يشهد على وجود نسيج اجتماعي يكون فيه الإنسان منقطعاً عن الكون وعن الآخرين وعن نفسه. إنّ الجسد، كعامل تفرّد على الصعيد الاجتماعي، وعلى صعيد التصورات، ينفصل عن الشخص، ويُدرّك كإحدى صفاته. لقد جعلت المجتمعات الغربية من الجسد ملكية أكثر مما هو أرومة تعريفية. والتمييز بين الجسد والحضور البشري هو الأثر التاريخي للتراجع في مفهوم الشخص، العنصر الذي تتألف منه الجماعة والكون، والنتيجة للانقطاع الحاصل في داخل الإنسان نفسه إنّ جسد الحادثة، الجسد الذي ينجم عن تراجع التقاليد الشعبية. وقدم الفردية الغربية، يدلّ على الحدود بين فرد وآخر، وعلى إنغلاق الشخص على ذاته.

إنّ خصوصية المصطلح التشريحي والفيزيولوجي الذي لا يجد أي مصدر أو أي جذر خارج دائرته، بعكس بعض الأمثلة المذكورة سابقاً، تُعبّر أيضاً عن الانفصال الانطولوجي بين الكون والجسد البشري. فالأول والآخر يُطرحان من خلال نظرة خارجية جذرية. إنّ العقبات الابيستمولوجية التي يثيرها الجسد في وجه محاولات توضيح العلوم الاجتماعية عديدة. وهي تفترض غالباً وجود موضوع غير موجود، إلا في ميخايل الباحث. إنه إرث ثنائية تفصل بين الإنسان وجسده. وما الغموض حول مفهوم الجسد إلا نتيجة للغموض الذي يحيط بتجسّد الإنسان: إنه نتيجة لكونه جسداً، ولملكيته لجسد.

إن الانثروبولوجيا التوراتية تجهل أيضاً مفهوم جسد معزول عن الإنسان. فهي، البعيدة جداً عن الفكر الافلاطوني، لا تنظر الى الوضع البشري كشكل لسقوط في الجسد. إن الثنائية النموذجية للمعرفة (L'épistémè) الغربية لا تدع مجالاً لأن يُستدلّ عليها فيها.... إن العبرية، يقول كلود تريسمونتان، لغة ملموسة لا تُسمّي إلا ما

يوجد. وعليه، فإنه لا وجود فيها لكلمة تدل على «المادة»، أو لكلمة تدل على «الجسد»، لأن هذين المفهومين لا يهدفان للدلالة على حقائق تجريبية، بعكس ما تحملنا على الاعتقاد بذلك عاداتنا القديمة الثنائية والديكارتية. إن أي شخص لم يرَ مطلقاً «المادة»، ولا «الجسد» بالمعنى الذي تفهمه به الثنائية الجوهرية⁽¹⁴⁾. إن الإنسان في العالم التوراتي جسد؛ وجسده ليس شيئاً آخر يختلف عنه. وفعل المعرفة نفسه ليس من صنع عقل مقطوع عن الجسد⁽¹⁵⁾. إن الإنسان، في نظر هذه الانثروبولوجيا، هو مخلوق الله، بنفس الصفة التي تنطبق على مجموع العالم؛ والانقطاع بين الإنسان وجسده، كما يوجد في التقاليد الأفلاطونية⁽¹⁶⁾، هو، في نظرها، بلا معنى. لقد خلِقَ العالم من قبل الكلمة، «بِقَم يهوه صُنِعَت السموات، وبنفخة من فمه، كان كل جيشه...، فَلَأَنَّهُ قَالَ، كُلُّ شَيْءٍ صُنِعَ؛ وَلَأَنَّهُ أَمَرَ، كُلُّ شَيْءٍ وُجِدَ». إن المادة هي انبثاق للكلمة، إنها ليست مُجَمَّدة، ميتة، مُقَطَّعة وغير متضامنة مع أشكال الحياة الأخرى. إنها ليست أمراً معيماً كما في الثنائية. إن التجسد هو من صنع الإنسان، ولكن ليس بدون حادث مُصْطَنع. «إني لا أدرك «جسداً»، فهو يحتوي «روحاً»؛ إني أدرك مباشرة روحاً حية، مع كل غنى معقوليتها التي أجل رموزها في الإحساس الذي أُعْطِيَ لي. إن هذه الروح هي بالنسبة لي مرئية ومحسوسة، لأنها موجودة في العالم، ولأنها تَمَثَّلَت عناصر تغذت منها واستوعبتها وأدَّت لجعلها لحماً. إن جوهر هذا اللحم الذي هو الإنسان، إنما هو الروح. فإذا انثَرَعَت الروح لا يبقى شيء، ولا يبقى «جسد». لا يبقى شيء إلا غبار العالم. وعليه فإن اللغة العبرية تستخدم بلا فرق من أجل الدلالة على الإنسان الحي كلمات «روح» أو «لحم»، التي تعني حقيقة واحدة، هي الإنسان الحي في العالم».

(14) كلود تريسمونتان (Claude Tresmontant) : «بحث في الفكر العبري» (Essai sur la pensée hébraïque) - منشورات Cerf - 1953 ص - 53.

(15) المرجع السابق.

(16) إن المعرفة، بنفس الطريقة التي لدى الكاناك، هي وسيلة طبيعية للتملك وليست عملاً فكرياً بحثاً. لقد لاحظ موريس لينهارت أن العادة الميلانيزية في استشارة شخص ما تبدأ بالسؤال : «ما هو بطنك؟». إن الكانكي الذي يعرف بعض تنف من الفرنسية يجب لدى سؤاله عن رأي شخص ما من قرينه : «أنا، لا أعرف البطن لذاته». إن المعرفة الميلانيزية جسدية، إنها ليست مصنوعة من روح، من أنا متميزة أنطولوجياً؛ إن المعرفة الكانكية، هي بشكل أدق، وجودية.

في أمكنة أخرى، يمكن لكلمة «جسد» أن توجد هكذا في العديد من المجتمعات الأفريقية، لكنها تغطي من مكان لآخر مفاهيم مختلفة جداً. ففي المجتمعات الريفية الأفريقية، لا يكون الشخص محدوداً بتخوم جسده، المنغلق على ذاته. إن جلده وعمق لحمه لا يرسمان حدود فرديته. وما نفهمه نحن بكلمة «شخص» يفهم في المجتمعات الأفريقية بشكل معقد، ومتعدد. إن التعارض الأساسي يكمن في بنية هذه المجتمعات التي لا يشكل الإنسان فيها فرداً (أي غير قابل للتجزئة و متميز). وإنما عقدة علاقات. فالإنسان يذوب في جماعة قدرية لا تُعَدُّ تضاريسه الشخصية فيها مؤشراً على تفردّه. وإنما هي فروق مواتية للتكاملات الضرورية للحياة الجماعية، وباعتد فريد على الانسجام التفاضلي للمجموعة. إن الهوية الشخصية للأفريقي لا تتوقف عند جسده. فهذا الجسد لا يفصله عن المجموعة، وإنما يُدرّجه فيها بالعكس. «إنّ الاتنولوجيين، كما يلاحظ روجيه باستيد، لا ينكرون تنوّع الأفراد بحيث يفرقونهم جميعاً في جماعة ستكون الأولى، وستكون الحقيقة الصحيحة الوحيدة ؛ فهو يعترف بأن هناك أناساً خجولين وأناساً جسورين، أناساً قاسين وأشخاصاً ودودين، لكن هذه الخصائص تتنظّم في عالم واحد، وتكوّن الوحدة الأخيرة للأشياء، التي هي وحدة نظام ما. نظام يُمحى فيه الشخص خلف الشخصية، لأن الشخصية هي تلك التي تقوم بين «أوضاع» تفاضلية، وليست الشخصية التكاملية المحتملة للأمزجة المتعددة»⁽¹⁷⁾. إن الإنسان الأفريقي التقليدي ينغمّر وسط الكون، وفي جماعته، ويُشارك، في إثر أجداده، في عالمه البيئي، وفي الأسس التي تقوم عليها كينونته⁽¹⁸⁾. إنه يبقى نوعاً من القوة، المتصلة بمستويات مختلفة من العلاقات. وهو يستمد من نسيج التبادل هذا مبدأ وجوده.

إنّ الجسد، في المجتمعات الغربية من النمط الفردي، يعمل كقاطع للطاقة الاجتماعية ؛ أما في المجتمعات التقليدية، فهو، بالعكس، الواصل لطاقة الجماعة.

(17) روجيه باستيد (Roger Bastide) ، مبدأ التفرد ، في : «مفهوم الشخص في افريقيا السوداء» (La notion de personne en Afrique noire) - باريس - منشورات CNRS - 1973
- ص : 36.

(18) أنظر ، على سبيل المثال ، لويس - فانسان توماس (L.V.Thomas) - «التعددية المتناسكة لمفهوم الشخص في افريقيا السوداء التقليدية» - في المرجع السابق - ص : 387.

فالكائن البشري يكون، بواسطة جسده، على اتصال مع مختلف الميادين الرمزية التي تعطي معنى للوجود الجماعي. لكن «الجسد» ليس الشخص، لأن مبادئ أخرى تساهم في تأسيس هذا الأخير. وهكذا يتكون الشخص لدى الدوجون (Les Dogon) من تفصل مستويات مختلفة، يندرج فيها بطريقة خاصة جداً ما اعتاد الغربي على تسميته بالجسد. إن الشخص، لدى الدوجون، يتألف من :

1 - جسد: هو الجزء المادي للانسان، و«قطب جذب أسسه الروحية ؛ إنه «حبة الكون» ؛ وجوهره خليط من العناصر الأربعة التي يتكوّن منها كل شيء موجود: الماء (الدم وسوائل الجسد)، والأرض (الهيكل العظمي)، والهواء (النفخة الحيوية) والنار (الحرارة الحيوانية). إنّ الجسد والكون يمتزجان بشكل لا يمكن تمييزه، ويتكوّنان من نفس المواد، وفق نسب الكبر المختلفة. فالجسد إذن لا يجد أساسه في ذاته، كما في علمي التشريح والفيزيولوجيا الغربيين. إنّ العناصر التي تعطيها معناه ينبغي البحث عنها في مكان آخر، في مشاركة الانسان في لعبة العالم، ولعبة جماعته. إنّ الإنسان يوجد من كائن صغير من الكون، وليس بواسطة ذاته، كما في التقليد الاكويني أو الغربي، حيث تُؤسّس ملازمة الجسد، بصفته مادة، وجود الشخص. إنّ علمي التشريح والفيزيولوجيا لدى الدوجون يفضّلان أيضاً الإنسان بالكون بواسطة نسيج كامل من الاتصالات.

2 - «ثماني حبات رمزية تُحدّد موضعها في الترقوات. وهذه الحبات الرمزية، هي من الحبوب الرئيسية في المنطقة، التي تشكل الأساس لغذاء الدوجون، الذين يُعدّون أساساً من المزارعين. إنّ هذا الرمز يُعبّر عن «وحدة الجوهر» بين الانسان والحبة التي بدونها لن يستطيع العيش». إن الاطفال يتلقون حين ولادتهم نفس الحبات التي تلقّاها آبائهم. والثنائية الجنسية الملازمة للكائن البشري يُدلّ عليها هنا من خلال واقع أن الدوجون يتلقى عموماً في ترقوة اليمنى أربع حبات «ذكرية» من والده وأسلافه الذكور، وفي ترقوة اليسرى، أربع حبات «أنثوية» من والدته وأسلافه الإناث. وبهذه الحبات يُدلّ على الشخص في نسب المجموعة وينغرس أيضاً في المبدأ البيئي الذي تقوم على أساسه حياة الدوجون. إنّ الحبات تؤلّف نوعاً من الميزان الحيوي ووجود الانسان يرتبط بصفاتها الإنبائية.

3 - القوة الحيوية (nàma) التي يكمن أساسها في الدم. لقد عرّفها مارسيل غريول بأنها «طاقة ملحّة، لا شخصية، لا واعية، موزّعة في كل الحيوانات والنباتات

والكائنات فوق الطبيعية وفي أشياء الطبيعة، وهي في كينونتها، المرتكز الذي خُصِّصَتْ به مؤقتاً (الكائن الفاني) وأبدياً (الكائن غير الفاني)⁽²⁰⁾. إن هذه القوة تنجم عن مجموع القوى الحيوية المُعطاة من أبيه وأمه والسلف الذي وُلِدَ منه ثانية.

4 - ال Kikinu الثمانية، وهي الأسس الروحية للشخص، المُقسَّمة الى فئتين كلٍّ منها من أربعة أُسس (ذكرية أو أنثوية، عاقلة أو بهيمة) موزعة على توائم من اثنين اثنين. إنها تساهم حسب نوعيتها في رسم نفسية الشخص ومزاجه. ويُحدَّد موضعها في مختلف أعضاء الجسد، ويمكن أيضاً أن يحتفظ بها كاحتياط في أمكنة مختلفة (في بركة أو مذبح أو حيوان...) وذلك حسب اللحظات النفسية التي يعيش فيها أولئك الذين يحملونها.

إنّ تصورات أخرى للشخص في الأرض الأفريقية يمكن أيضاً أن يُشار لها. لكننا استشرعنا سابقاً الكميات اللامحدودة من تميزات «الجسد» التي يمكن مصادفتها. إنّ تعريف الجسد أعطي دائماً مُجَوِّفاً من خلال تعريف الشخص. إنه لم يكن أبداً حقيقة بديهية ومادة غير قابلة للجدل: «فالجسد» لا يوجد إلاّ وهو مبني ثقافياً من قِبَل الإنسان. إنّه نظرة موجَّهة للشخص من قِبَل المجتمعات البشرية التي تحدد معالم تخومه من دون أن تميّزه في أغلب الأحيان عن الانسان الذي يُجسِّده. ومن هنا تنشأ المفارقة في المجتمعات التي لا وجود «للجسد» في نظرها. أو في المجتمعات التي ترى أن «الجسد» حقيقة معقدة على نحوٍ تتحدى فيه فهم الغربي. فكما أن الغابة بديهية للوهلة الأولى، فإن هناك غابة الهندي وغابة الباحث عن الذهب، غابة العسكري وغابة السائح، غابة المختص بالأعشاب الطبية وغابة عالم الطيور، غابة الطفل وغابة الراشد، غابة الهارب وغابة المسافر.. كذلك فإن الجسد لا يأخذ معناه إلاّ من خلال نظرة الانسان الثقافية له.

إن فهم العلاقات بين الجسد والحدثة يفرض وجود علم أنساب، ونوع من «تاريخ الحاضر» (M. Foucault)، وعودة لبناء مفهوم الجسد في المعيار (einstellung) الغربي. كما يفرض أيضاً وجود تفكير حول مفهوم الشخص، بدونه لن يكون بالإمكان

(20) مارسيل غريول (Marcel Griaule) «أقنعة الدجون» (Masques dogons) - معهد التكنولوجيا -

باريس - 1938 - ص : 160.

إدراك مراهنات هذه العلاقة. إننا سنرى، شيئاً فشيئاً، ومع مرور الوقت، أن مفهوماً غريباً للجسد سوف يظهر. من جهة أولى، الجسد كمرتکز للفرد، وحدّ لعلاقته مع العالم، وعلى مستوى آخر، الجسد المنفصل عن الإنسان الذي يعطيه حضوره، وذلك عبر النموذج المُمَيَّر للآلة. كما سنرى الصلات الوثيقة التي تربط بين الفردية والجسد الحديث.

الفصل الثاني

في أصول تصوّر حديث للجسد: الإنسان المُشرَّح

الجسد الشعبي

إن الحضارة في القرون الوسطى، وحتى في عصر النهضة، هي خليط مُبهم من التقاليد الشعبية المحلية ومن المصادر المسيحية. إنها «مسيحية فولكلورية»، وفقاً للصيغة الموقفة لجان دوليمو (Jean Delumeau)، تُغذّي علاقات الإنسان بمحيطه الاجتماعي والطبيعي. وأنتروبولوجيا كونية تحدد بنية الأطر الاجتماعية والثقافية. فالإنسان لا يتميز عن النسيج الجماعي والكوني الذي يندرج فيه، بل يمتزج في جمهور أشباهه، من دون أن تجعل منه خصوصيته فرداً بالمعنى الحديث للكلمة. إنه يعي هويته وانغراسه الطبيعي في داخل شبكة ضيقة من الاتصالات.

ولكي يكون «التفرد من خلال المادة»، أي من خلال الجسد، مقبولاً على الصعيد الاجتماعي، يجب انتظار نمو الفردية. حينذاك سيكون الجسد، فعلياً، ملكية الإنسان، وسيكفّ عن كونه جوهره. إنّ نظرية للجسد كموضوع مستقل عن الإنسان، في نفس الوقت الذي يكون فيه متصلاً به، ويجد فيه موارده الخاصة (خصوصية المصطلح التشريحي والفيزيولوجي)، ستأخذ حينئذ أهمية اجتماعية متزايدة. أما في الجماعات البشرية من النمط التقليدي، الهوليستي (Holiste) ⁽¹⁾، فيسود نوع من

(1) سنتبّئ هنا تعريف الـ holisme (يستعمل مفهوم الجماعة هنا بنفس المعنى البنيوي) الذي أعطاه لويس ديمون : «أيدولوجية تعطي قيمة للكل الاجتماعي وتهمل أو تُخضع الفرد البشري» - أنظر : لويس ديمون : «بحث حول الفردية...» - مرجع سبق ذكره - ص 263.

الهوية الجوهرية بين الإنسان والعالم، وتواطؤ بلا عيب تتدخل فيه نفس المُركّبات. وكما أنّ إنسان هذه المجتمعات لا يمكن تمييزه عن جسده، فإنّ العالم لا يقبل التمييز عن الإنسان. إنّ الفردية والثقافة العالمية هي التي تُدخِل الانفصال.

ولكي نستخلص أيّ تصورات للإنسان (ولجسده) تسبق تلك التي تميّزنا اليوم، تفرض عودة نحو العيد الشعبي في القرون الوسطى نفسها. إننا نعلم كم أنّ هذا العيد كان يكمن حينذاك في قلب الحياة الاجتماعية، ولا سيما في القرن الخامس عشر. لكنّ فهم معنى العيد الوسيطى يتطلب وجود وفرة في مصادرها المعاصرة. إن ابتهاجات الكارنفال والأعياد المشابهة: كأعياد المجانين والحمار والأبرياء الخ.. والأسرار والحماقات والهزليات و«الضحك الفُضحى»، والغوغاء، تعود الى منطقة مُنسيّة من التاريخ.

ففي ابتهاجات الكارنفال، على سبيل المثال، تمتزج الأجساد، بلا تمييز، وتشارك في نفس حالة الجماعة بحيث تصل الى توهجها. فلا شيء في هذه الاحتفالات أكثر غرابة من فكرة المشهد والابتعاد والتملك من خلال النظرة فقط. ففي حماسة الشارع والساحة العامة من المستحيل البقاء بعيداً. إن كل إنسان يشارك في الدفق الجماعي، وفي الامتزاج المُبهم الذي يهزأ من الأعراف والأمور الدينية. إن المبادئ الأكثر تقدّساً تتحول الى سخرية على يد المهزّجين والمجانين وملوك الكارنفال. فالصور الساخرة والضحكات تنطلق من كل الجهات. إن زمن الكارنفال يُعلّق مؤقتاً العادات العرفية ويساعد على إنبعاثها وتجديدها بفضل هذا المرور الى اللامعقول. إنه التماس النفس الثاني بعد أن تكون الضحكة الكبيرة للساحة العامة قد طهرت الفضاء والناس. إن الكارنفال يؤسّس قاعدة الانتهاك ويؤدي بالناس الى تحرر من الغرائز المكبوتة عادة. إنه انفتاح زمن آخر في زمن الناس والمجتمعات التي يعيشون فيها (Intervallum mundi). فما هو رصين في الحياة يطير مُفرقاً أمام الضحكة التي لا يمكن كبتها للجماعة التي وُحّدت بينها نفس التضحية الطقسية بالأعراف والتقاليد. إنه عيد نموذجي للجماعة التي يتّجه مجموع الناس فيها مؤقتاً للاتصال بعيداً عن توترات الحياة الاجتماعية. إن هناك حاجة لكل شيء من أجل صنع عالم: والكارنفال يحمل هذا الوعي للحد الأقصى من قوته. إنّ متع الكارنفال تُحيي واقع الناس الذين يوجدون ويعيشون مع بعض، مختلفين، بل غير متساوين، ضعفاء وبنفس الوقت أقوياء، سعيدين وحزينين، منفعلين وطائشين، فانين وخالدين.

وبالمقابل، لا تبتعد الاعياد الرسمية التي أسستها الفئات الحاكمة عن الأعراف المعتادة، فهي لا تعرض منافذ نحو عالم انصهاري، بل بالعكس. إنها تقوم على الانفصال، وتُسَلِّس هرمياً الممثلين، وتكرس القيم الدينية والاجتماعية وتثبت بذلك بذرة تفرّد الناس. إن الكارنفال يحلّ ويمزج، بينما العيد الرسمي يُثَبِّت ويميّز. إن الانقلابات التي تقوم بها احتفالات الكارنفال، باعتبارها فترة للإفراط والانفاق، تبرز بوضوح نهاية وانبعاث العالم، الربيع الجديد للحياة.

إن الجسد المضحك في الأفراح الكارنفاولية يتعارض بطريقة جذرية مع الجسد الحديث. إنه بديل، ورابط للناس فيما بينهم، وإشارة لتحالفهم. إنه ليس جسداً منفصلاً. وهكذا فإن مفهوم «الجسد المضحك» ينبغي أن يُجَنَّب الالتباسات. فالجسد في المجتمع الوسيط، وبالأحرى، في تقاليد الكارنفال ليس متميزاً عن الإنسان، كما سيكون عليه، بالعكس، حال جسد الحداثة، الذي يُنظر له كعامل تفرّد. إن ما ترفضه بالضبط الثقافة الشعبية في القرون الوسطى، وفي عصر النهضة، إنما هو مبدأ التفرّد، والانفصال عن الكون، والانقطاع بين الإنسان وجسده. إن التراجع التدريجي للضحك ولتقاليد الساحة العامة تدلّ على قدوم الجسد الحديث. كأمر مفصول، وكعلامة على التمييز بين إنسان وآخر.

إن الجسد المضحك يتكوّن من تنوعات ونواشز، يطفح بالحيوية، يمتزج مع الجمهور، لا يقبل التمييز، مفتوح، على اتصال مع الكون، غير راضٍ عن الحدود التي لا يكفّ عن انتهاكها. إنه نوع من «جسد شعبي كبير من جنس خاص» (على حد تعبير باختين)، جسد ينبعث أبداً: يحمل في طياته حياة ستولد أو حياة ستُفقد، لتولد ثانية أيضاً. «إن الجسد المضحك، يقول باختين، لا يبتعد عن بقية العالم، لا ينغلق ولا يُعَدّ مُنْجِزاً ولا جاهزاً. لكنه يتجاوز ذاته، ويتخطى حدوده الخاصة. إن النبرة توضع على أجزاء الجسد التي يكون فيها هذا إما مفتوحاً على العالم الخارجي، أو يكون هو نفسه في العالم؛ أي على الفوهات، والنواشز، وكل المنافذ والتشعبات: كالقلم الفاجر، والأعضاء التناسلية، والأثداء، والبطن الضخمة، والأنف»⁽²⁾. أي كل

(2) ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine): «عمل فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في القرون الوسطى وعصر

النهضة» (L'Œuvre de François Rabelais et la culture populaire au Moyen-

Age et à la Renaissance) - باريس - منشورات Gallimard - «Tel» - Coll. - ص : 35.

الأعضاء التي ستحمل خجل الثقافة البورجوازية.

إن النشاطات التي كان إنسان الكارنفال يستر بها هي بالضبط تلك التي كانت حدودها تُنتهك، تلك التي يطفح بها الجسد ويعيش في كامل توسّعه نحو الخارج: كالتزاوج والحمل والموت والأكل والشرب وإشباع الحاجات الطبيعية. وهذا بتعطش يزداد كثيراً كلما كان الوجود الشعبي وقتياً، وفترات الجذب معتادة والشيخوخة مُبكرة. إنه نوع من الجسد المؤقت، المهيأ دائماً لأن يُغيّر هيئته بدون استراحة. جسد فاجر باستمرار، لا يمكن أن يوجد إلا في حالة انتفاخ وإفراط يستدعيها بلا كلل. إن أمثلة لا حصر لها تجوب أعمال رابليه، أو أعمال سرفانتس (Cervantes) أو بوكاس (Boccace)، ولكن على مستوى مختلف. فالنبرة توضع على نشاطات إنسان غير قابل للتمييز عن جسده، وجماعته، وعن الكون.

لكن منذ القرن السادس عشر، أخذ يتجهز لدى الفئات العالمة في المجتمع الجسد العقلاني الذي يُجسّد تصوراتنا الحالية، الجسد الذي يبين الحدود بين فرد وآخر، وانتهاء الشخص. إنه جسد أملس، معنوي، بلا خشونة، محدود ومتحفظ تجاه كل تحوّل محتمل. جسد معزول، مفصول عن الآخرين الذين هم في وضعية خارجية مع العالم، ومنغلق على ذاته، إن أعضاء ووظائف الكارنفال سُحقّر شيئاً فشيئاً، وستصبح مواضيع للحياة، وللحياة الخاصة. كما ستُنظّم الأعياد وستؤسّس على الانفصال أكثر مما على الاختلاط⁽³⁾.

أنثروبولوجيا كونية

إن الكارنفال هو كاشف سرّ نظام جسد لا يكتفي فقط بموضوعه، وإنما يتخطى إندماجه ليستكشف مكوناته وطاقته في العالم المتناخم. فالإنسان، غير القابل للتمييز عن جذوره الطبيعية، يُدرك من خلال انخراطه وسط القوى التي تحكم العالم. إن الانفصال يبقى مقصوراً على الفئات القيادية الجديدة على الصعيد الاقتصادي

(3) حول قمع الاحتفالات الشعبية إنطلاقاً من التغيير الثقافي الذي أخذ يتجهز آنذاك وبدأ باعطاء نتائجه اعتباراً من القرن السابع عشر، واستهدف، تحت إشراف الكنيسة والدولة، التنديد بالمعرفة الشعبية، إقرأ: ر. موشمبلد (R. Muchembled): «ثقافة شعبية وثقافة النخب» (Culture populaire et culture des élites) - باريس - منشورات Flammarion - 1978.

والأيدولوجي، لكنه لم يفعل فِعله بعد في الفئات الشعبية، حيث المعرفة التقليدية ما زالت حية. فالبرجوازية وأتباع الإصلاح هم الناشرون الأكثر حماساً للرؤية الوليدة للعالم التي تضع الفرد في مركزها، وتنظر للعالم بعيون أكثر عقلانية.

إن الشخص (la persona)، لدى الفئات الشعبية، يبقى خاضعاً لكل اجتماعي وكوني يتجاوزه. وحدود اللحم لا تحمي علامات حدود الجوهر الفردي. إن نسيجاً من الاتصالات يمزج في قدر مشترك الحيوانات والنباتات والإنسان والعالم غير المرئي. فالكل يرتبط ببعضه البعض، والكل يَرُ مع بعض، ولا شيء يكون غير مكتسب، وكل حدث يُصدر إشارة. لقد كان ليفي - بروهل (Lévy-Bruhl) يتكلم في الماضي، وفي صدد حديثه عن المجتمعات التقليدية، عن عقلية «بدائية» تحكمها قوانين المشاركة، وترتبط، بشكل متعاطف، مع كل الأشكال الحية أو الجامدة التي تضغط على الوسط الذي يحيا فيه الإنسان. كما أشار ا. كاسيرر أيضاً لشعور الاستمرارية هذا، و«لوحة كل من يحيا» التي تجعل من المستحيل انفصال شكل من أشكال الحياة عن بقية العالم.

عبر هذا التصور، المتنوع للغاية في أشكاله الثقافية، والذي يسمح بسهولة باستشفاف بنيته الانتروبولوجية، لا يوجد أي انفصال نوعي بين لحم الانسان ولحم العالم. فمبدأ الفيزيولوجيا البشرية مُحتوى في علم الكون. والجسد البشري في التقاليد الشعبية هو الموجّه للانخراط، وليس الباعث على الاستبعاد (بمعنى أن الجسد هو الذي سيُعرّف الفرد ويفصله عن الآخرين، وعن العالم أيضاً)؛ إنه الرابط للانسان مع كل الطاقات المرئية وغير المرئية التي تجوب العالم. إن الجسد ليس كوناً مستقلاً، منكفئاً على ذاته على غرار النموذج التشريحي، وقواعد آداب السلوك، أو النموذج الميكانيكي. والانسان، الذي هو بالفعل من لحم (بالمعنى الرمزي) هو ميدان لقوة ذات قدرة على التأثير على العالم، وهي دائماً مستعدة لأن تكون متأثرة به.

وهذا ما تُظهره أيضاً الشعوذة الشعبية: تسجيل الانسان في نسيج يميز الكل الاجتماعي على حساب الفرد، نسيج يتداخل فيه كل شيء، ويكون للحركة فيه تأثير على الكون من خلال إطلاقها لقوى، عمداً أو سهواً. إننا نجد في «أناجيل المغازل». وهو موجز للمعارف التقليدية للنساء، مطبوع في عام 1840 في بروج (Bruges)، فهرساً مُنظماً للمعتقدات الخاصة بالمرض والحياة اليومية وتربية الاطفال والعلاجات

والجسد البشري الخ. فهرس يُبرز هذه القوة المحيطة التي تتحكم بالعالم. إن من الممكن بفضل مجموعة من المعارف التقليدية، إكتساب هذه القوة، واستعمالها من قِبَل الانسان لصالحه، أو إطلاقها ضد شخص آخر يريد الإضرار به. لنعطي بعض الأمثلة على ذلك: «إذا بال شخص ما بين منزلين أو في وجه الشمس فإنه يصاب بمرض عيون»⁽⁴⁾. «لكي يتجنب المرء الإصابة بشلل الرأس أو الكليتين، يجب عليه الامتناع عن أكل رأس أو لحم قطة أو دب»، «عندما تنبح الكلاب فإنه ينبغي سدّ الآذان، لأنها تحمل أخباراً سيئة. وبالعكس، ينبغي الاستماع للحصان عندما يصرخ أو يصهل». «المرء الذي يشرب الماء المبارك يوم الأحد، أثناء القداس الكبير، سيُبعد الشيطان السيئ الذي لن يستطيع الاقتراب منه طوال أسبوع لأكثر من سبعة أقدام». «عندما يلد طفل جديد ويكون ولدًا، يجب حمله الى والده، ووضع رجله مقابل صدره، وحينذاك لن يموت الطفل مطلقاً بحادث سيئ». إن كل كلمة وردت في «أناجيل المغازل» تشير للصلة الرمزية التي تُخضع بشكل وثيق كل المُركّبات الحيوانية والنباتية والمعدنية والمناخية أو البشرية، إلى أوردة طاقة بارعة، وعلاقات سببية فريدة يبدو أنه ليس للصدفة أو للأمبالاة فيها مطلقاً إمكانية التأثير.

لقد أشار لوسيان فييفر بهذا المعنى، وعبر صفحات جميلة، إلى «ميوعة عالم لا يُحدّد شيء فيه بشكل صارم ؛ وتُغيّر فيه الكائنات نفسها، وهي تخسر حدودها، بطريقة عين، ومن دون إثارة أي إعتراض، شكلها ومظهرها وبعدها بل وعالمها»، كما يُقال. وها هي القصص العديدة لأحجار تنشط وتذبّ فيها الحياة وتتحرك وتتقدم ؛ وها هي الاشجار التي أصبحت كائنات حية، والحيوانات التي تتصرف كالرجال، والرجال الذين يتحوّلون بإرادتهم الى حيوانات. وهناك حالات نموذجية، كحالة الذئب - الدفنة، والكائن البشري الذي يمكن أن يتواجد في آن واحد في مكانين متميزين من دون أن يتفاجأ أي شخص من جراء ذلك: «فهو في الأول إنسان، وفي الآخر حيوان»⁽⁵⁾.

(4) «أناجيل المغازل» (Les évangiles des quenouilles) ترجمه وقدم له جاك لاكاريري

(Jacques Lacarrière) - باريس - منشورات imago - 1987.

(5) لوسيان فييفر (L. Febvre) : «فرانسوا رابليه ومسألة عدم الاعتقاد في القرن السادس عشر»

(F. Rabelais et le problème de l'incroyance au XVI^e siècle) - باريس - منشورات

Albin Michel - 1968 - ص : 404 - 405.

إن الجسد، المنظور له على أساس الانفصال، تجريد بلا معنى. فمن غير الممكن حينئذٍ النظر للإنسان بشكل منعزل عن جسده، حتى بعد أن يضر به الموت. هكذا يُظنُّ أن جثة الضحية ستنزف دماً عندما توضع أمام القاتل. وإذا تمكن قاتل من الإفلات، وهو على قيد الحياة، من العدالة، فإن جثته ستُنشَب بعد دفنها وسيوقع عليها القصاص الذي كانت تستحقه. ولكي يدعم لوسيان فييشر اقتراحه القاتل بأن جسَّ المستحيل ليس من فئات العقلية الوليدة، فإنه يتحدث عن الرجل المقطوع الرأس الذي يمسك رأسه بين يديه ويسير في الشارع. إن كل الناس يرونه، ولا يشك أحد بذلك. هنا أيضاً نرى كم أن الجسد يبقى متضامناً مع الشخص. ومن هنا ينشأ إسراف في الاستعارات العضوية من أجل تعيين الميدان الاجتماعي أو بعض مرافقاته، ولا سيما تلك القائلة بأن الجسد الاجتماعي واحد مثلما هو الإنسان. إن مجموعة متجانسة العناصر (continuum) تمتد، من الأول للآخر، بحيث تشمل الوضع البشري والعالم الطبيعي تحت رعاية الوحي.

ومع ذلك يحصل أن مجرمين تُبتر أعضاؤهم. لكن الأمر يتعلق هنا بأناس يقطعون صلتهم عمداً مع قوانين الجماعة. فالمجرم إنسان تُعدُّ الرابطة الاجتماعية لديه شاغرة، وهو يفرض فرديته ضد إرادة المجموعة وقيمها. إن المستعمرة الاصلاحية لكافكا ترسم هنا خطأً للقدر الذي ينتظره كتعويض عن جريمته. في هذا الخبر، يشهد مسافر برعب توسل المحكوم عليه. ويتحدث الضابط المُكَلَّف بتطبيق العدالة عن العفو الذي استفاد منه المتهمون: «يُنقش فقط بمشط نص الفقرة المُتهَكَّة على جلد المذنب»⁽⁶⁾. ذاك هو قدر المجرم: إن انشقاقه يحقق بشكل منمنم تقطُّع أوصال الجسد الاجتماعي، ولهذا يُعاقب بطريقة مجازية بتقطيع جسده الخاص. فمن خلال المخالفات التي أدين بارتكابها يقدم الدليل على انفصاله عن الجماعة البشرية. إن التعذيب يهدف للرد على تقصيره بحق القواعد المؤسَّسة للميثاق الاجتماعي. ومن الجدير بالملاحظة أنَّ الغنائم الأولى المقدَّمة لسعادة المُشرِّحين هي بدقة غنائم المحكومين بالموت. ولكن رغم كل شيء فإن الإنسان يبقى تاماً من الناحية الانطولوجية سواء قطعت أوصاله من قِبل الجلاد أو بمِنْبُض المُشْرِح بعد تنفيذ عقوبة

(6) فرانز كافكا (Franz Kafka) - «المستعمرة الاصلاحية» (La colonie pénitentiaire)

- (ترجمة الكسندر فيالات) - منشورات Gallimard (Coll. Folio) - ص : 16.

الموت به. والكنيسة، حتى ولو أنها سمحت بالتشريح⁽⁷⁾ بطريقة غيورة جداً، فهي تسهر على أن يكون للانسان «المُشْرِح» حق بقدّاس (يشهده أيضاً المُشْرِح ومساعدته) قبل أن يُدفن مسيحياً. فالمحكوم، بالرغم من جرائمه، لا يكف عن الانتماء للجسم المجازي للكنيسة. وهو يبقى، بعد إفنائه اجتماعياً، إنساناً تحت أنظار الله. إن الطقوس الديني لا يُوجّه إلى ركام من اللحم المُفكّك، وإنما إلى إنسان، إلى عضو من الكون (L'universitas)⁽⁸⁾.

رفات القديسين

إنّ جثث القديسين تُقطّع أيضاً وتُفسّخ، وتُبعثر رفاتها عبر العالم المسيحي. لكن قطعة الجسد المقدسة هي نوع من الكناية عن مجد الله الذي يُحتفى به. إنّ الرفات تحتوي قدرات مؤاتية: كالشفاء من الأمراض، وزيادة المحاصيل، واتقاء الأوبئة وحماية الناس في مشاريعهم، الخ. لكن هذه القدرة على التدخل في مجرى الأشياء ليست إلاّ المؤشر على حضور الله في الرفات. فالعضو المُنتزع من جسد القديس أو القديسة هو الطريق الأرضي الأقصر الى مملكة السماء. إن الجسد المجازي للكنيسة يُعطي لنفسه من خلال رفات القديسين القدرة على الاستشعار بشكل ملموس وبسيط يستجيب لأماني العدد الأكبر من الناس. فهذه الرفات تساعد على تقرب الجماعة بشكل ملموس أكثر من ذاك الذي تعتبره خالقها. إنها لا تُعبد لذاتها، مثلها في ذلك مثل القديسين. لقد أشار الدومينيكاني جاك دو فوراجين لهذه الأقدار القاسية في «الأسطورة المذهبة» (La légende dorée). إن فردية القديس ليست إلاّ صوتاً مُنغماً في جوقة المدائح الموجهة لله. فالقديس ليس إنساناً يعيش من أجل ذاته، لأن الجماعة تخترق وجوده من جانب لآخر. إنه لا يعيش إلاّ عبرها ومن أجلها. وهكذا

(7) ينبغي أن لا ننسى، مع ذلك، بأن العديد من المُشْرِحين أو الفنانين، كفيسال، وميشال انجلو، وليوناردو دافنشي، على سبيل المثال، كانوا يقومون بتهرب الجثث. فقد كانوا ينشون المقابر للحصول على الأجسام التي كانوا بحاجة لها.

(8) حول مفهوم الكون، أنظر بيار ميشو - كانتان (Pierre Michaud-Quentin) «الكون، تعابير عن حركة الجماعة في العصر الوسيط اللاتيني» (Universitas, expressions du mouvement communautaire dans le Moyen Age latin) - باريس - منشورات - Vrin.

1970، ولا سيما ص: 11 الى 57.

يستطيع بدون ألم القيام بالتضحية بحياته. إنَّ القديسين والرفات المتبقية من جثثهم الفانية ليسوا إلاَّ صوراً للتوسط والتذكُّر، وصيغاً للاخلاص لله، تقوم الجماعة بتناول القربان حولها. إنَّ هناك أثراً من الفردية في هذه الوقائع، بلا شك، لكن هذا الأثر يوضح بعمق من خلال استعمال رفات القديسين في هذا الصدد⁽⁹⁾.

وأحياناً لا يقوم الجسد المُقَطَّع للقديس بالكشف عن جوهره الميتافيزيقي كهيكل للروح القدس بشكل المجاز. هكذا يشير بيارو كامبورسي، بشيء من الدعابة، للتقطيع الدقيق الذي طال في عام 1308 جسد الأخت شيارا دو مونفالكو، التي ماتت برائحة القداسة في دير الاوغسطينيين. فقد رُتبت مختلف أعضائها الباطنية بعناية في جرة بالارض، في حين وضع قلبها جانباً. وقد أعجبت الأخوات، اللواتي قمن بأنفسهن بهذا الترتيب الفريد، لكي لا يَدْعَن رجلاً يمس جسداً بقي عذرياً، بالقلب المليء جداً بحب الرب. وتذكر بعض الأخوات حينذاك أنهن غالباً ما سمعن صاحبتهم تقول لهن أنها كانت «صلبت المسيح في قلبها». ونظراً لاستسلامهن لهذا الحدس، فقد غمسن نصلاً في أحشاء السعيدة، واكتشفن بانفعال شكل الصليب مرسوماً بواسطة عدة أعصاب. كما سمح تنقيب أكثر دقة باكتشاف عصب آخر يُصوِّر السوط الذي صُرعَ المسيح به. إن المعجزة لا تتوقف هنا. فأمام جمعية ضُمَّت لاهوتيين وقضاة وأطباء ورجال دين دُعوا بهذه المناسبة، كشف القلب غير الفاني للاخت شيارا، أمام العيون المذهولة للشهود، عن أدوات الآلام «كالعمود، وتاج الشوك والمسامير الثلاثة، والرمح والعصا الطويلة وطرف الحدود، وهي تبدو بطريقة حيّة جعلت بيرانجارو يوخز نفسه بلامسته لرأس الرمح والمسامير الثلاثة، كما لو أنها كانت حقيقة من النار»⁽¹⁰⁾. إن الرفات المقطعة للقديس ليست علامة على تقطيع

(9) حول رفات القديسين، أنظر نيقول هيرمان - ماسكارد (Nicole Hermann-Mascard). «رفات

القديسين : التكوين العرفي لحق» (Les reliques des saints: la formation coutumière

d'un droit) - منشورات Klincksieck - 1975. لنذكر هنا رمزياً القديس بولس : «كما

أن الجسد واحد ولديه عدة أعضاء ، وأن كل أعضاء الجسد هذه ، بالرغم من كل عددها ، لا

تشكل إلا جسداً واحداً ، كذلك هو حال المسيح. إنا كلنا ، بالفعل ، عُمدنا في روح واحدة

لكي نشكل جسداً واحداً» (I. Cor. XII- 12).

(10) أنظر : بيارو كامبورسي (Piero Camporesi) ، «اللحم الممتع على الألم» (La chair

impassible) - منشورات Flammarion - 1986 - ص : 7.

لوحة الشخص، فهي لا تفرّد الجسد. وإنما هي « كناية تُجسّد على طريقتها الجسد المجازي للكنيسة» الذي يندمج فيه الكل، بالرغم من اختلافاتهم. بهذا المعنى، لا يُعبّر تفسيح رفات القديس عن اختزاله الى جسد. فالعضو المُنتشل من الرفات يعني شخص القديس، ويشهد دائماً على أعماله الماضية. إننا هنا على النقيض من عمليات التشريح التي قام بها المُشْرِحون الأوائل بهدف معرفة الداخل غير المرئي للجسد البشري (المفصول، هذه المرة، عن الشخص الذي كان يُجسّده) الذي لا تهمه هوية الشخص إلا قليلاً.

الجسد الذي لا يُمسّ

في عالم موضوع تحت تأثير التفوق المسيحي، وما زالت التقاليد الشعبية تحتفظ فيه برسوخها الاجتماعي، يمثّل الانسان (غير القابل للتمييز عن جسده) رقماً من أرقام الكون، ولهذا فإن إسالة دمه، حتى ولو كان ذلك من أجل معالجته، يعني تمزيقاً للتحالف، وانتهاكاً للمُحرّم.

في مقالته حول المهن المشروعة وغير المشروعة في القرون الوسطى يشير جاك لوغوف للعار الذي يجمع بين الجراح والحلاق والجزار والجلاد⁽¹¹⁾. إنها صفة مبهمة تشهد منذ أمد طويل على أن أولئك الذين يعالجون من خلال خرقهم حدود الجسد لا يتمتعون بتقدير كبير. وككل رجل يضعه وضعه الاجتماعي أمام حضور منتظم لمحرّم ما، فإن الجراحين هم أشخاص مضطربون قلقون في «نظر معاصريهم. لقد منع مجمع تور الديني، المنعقد في عام 1163، على الأطباء الرهبان إسالة الدم. وفي القرن الثاني عشر⁽¹²⁾ تغيرت المهنة الطبية، وتفرعت الى عدة فئات: فئة الأطباء

(11) انظر : جاك لوغوف (Jacques Le Goff) : «من أجل عصر وسيط آخر» (Pour un autre Moyen Age - باريس منشورات Gallimard - 1977 - ص : 93 وماري كريستين بوشيل (Marie-Christine Pouvcelle). «جسد وجراحة في أوج العصر الوسيط» (Corps et chirurgie à l'apogée du Moyen-Age) - باريس - منشورات Flammarion 1983 - ص 119.

(12) أنظر على سبيل المثال : دانييل جاكاد (Danièle Jacquard) «الوسط الطبي في القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر» (Le milieu médical du XIIe au XVe siècle) - جنيف - منشورات Droz - 1981.

الجامعيين من رجال الدين، وهم أكثر براعة في التأمّلات مما هم في الفعالية العلاجية. فهم لا يتدخلون إلا في حالات الأمراض «الخارجية»، من دون أن يمسوا جسد المريض. وفئة الجراحين الذين بدأوا حقيقة بالتنظّم في نهاية القرن الثالث عشر، وعملوا على المستوى الداخلي للجسد، ذاهبين بذلك في اتجاه مخالف لمحرمّ الدم. إنهم غالباً علمانيون، محترقون من قبل الفئة الأولى من الأطباء، بسبب جهلهم للمعرفة المدرسيّة (السكولاستيكية). فأمبرواز باريه (Ambroise Paré)، المعلم الجراح الذي اكتشف ربط الشرايين لكي يمنع النزيف، وأنقذ بذلك عدداً لا يحصى من الأرواح، شُطِبَ من قِبَل عصابة الأطباء الدينيين لأنه لا يعرف اللغة اللاتينية. وفي أواخر حياته فقط بدأت طرقة تُطبق، لكن كلية الطب ظلت تعارض في إعادة طبع مؤلفاته. فقدرة الطبيب على معالجة الناس وشفائهم أقل أهمية من معرفته لللاتينية. وأخيراً فئة الحلاقين، منافسو الجراحين، الذين ينبغي عليهم معرفة استعمال المشط والموس، وكذلك مختلف نقاط الفصد. إن الطبيب يشغل وضعية متميزة، في كل الأحوال، عن ذاك الذي يُفترض أنه يعرف، لكنه لا يلوّث نفسه بدينس الدم، ويزدري الأعمال الوضعية. إن الوضع القانوني للمهن الثلاث بدأ بالظهور منذ القرن الثالث عشر. إنه تسلسل بارع يجعل من أكبر مسافة ممكنة عن المريض والجسد، علامة للوضعية الاجتماعية المرغوب بها أكثر، ومؤشراً على النفوذ الأفضل. إنّ إبعاد الجسد هو بالفعل الذي يقيس الوضع القانوني المتتالي لهذه النظرات المختلفة حول الانسان المريض. لقد بدأت الحركة الابيستمولوجية والانطولوجية التي أدت لاكتشاف الجسد سيرها.

ولادة الفرد

إن صعود الفردية الغربية هو الذي سيؤدي شيئاً فشيئاً، وفق نمط ثنائي، لتمييز الانسان عن جسده، وذلك ليس من منظور ديني مباشر، وإنما على صعيد دنيوي. فالرابطة الاجتماعية بين الفرد والجسد هي ما ينبغي الآن التساؤل عنها، بغية استخلاص أصول التصور الحديث للجسد.

إن بشائر ظهور الفرد على نطاق اجتماعي بليغ يمكن تبيّنها من فسيفساء الثلاثمئة (trecento) والأربعمئة (Quattrocento) الايطالية، حيث لعبت التجارة والمصارف دوراً إقتصادياً واجتماعياً هاماً جداً. فالتاجر هو المثال النموذجي للفرد الحديث، للانسان الذي تتخطى طموحاته الأطر القائمة، الانسان الكوني

(الكوزموبوليتي) بامتياز، الذي يجعل من مصلحته الشخصية المحرك لأعماله، حتى ولو كان ذلك على حساب «الخير العام». إن الكنيسة لم تتخضع به، ولهذا حاولت أن تعترض تأثيره المتنامي قبل أن تخلي المكان شيئاً فشيئاً وتراجع أمام الضرورة الاجتماعية للتجارة التي أخذت بالبروز أكثر فأكثر. إن ج. بيركهاردت يبين، بالرغم من بعض الثغرات، قدوم هذا المفهوم الجديد للفرد الذي يُظهر، بالنسبة لبعض الفئات الاجتماعية المتميزة على الصعيد الاقتصادي والسياسي، بداية توسع المجموعة المتجانسة للقيم والروابط بين الفاعلين. إن الفرد، وسط هذه الفئات، يتجه لأن يصبح المقر المستقل لاختياراته وقيمه. إنه لم يعد مشغولاً بهم الجماعة وباحترام التقاليد. لكن هذا الوعي الذي يُعطي هامش عمل تقريباً لا محدود للإنسان، لا يمس، بالتأكيد، إلاّ قسماً من الجماعة. إنهم، بشكل أساسي، سكان المدن والتجار والمصرفيين. إن عدم ثبات السلطة السياسية في هذه الدول الإيطالية أدّت أيضاً بالأمر لتنمية روح الحساب وعدم الحساسية والطموح والارادية، الخليقة بأن تضع فرديته في المقدمة. إنّ لويس ديمون يشير، بحق، إلى أنّ فكر مكيافللي، المُعبّر السياسي عن هذه الفردية الوليدة، يدلّ على «انعتاق من الشبكة الجماعية للغايات البشرية»⁽¹³⁾.

إن الصورة الحديثة للعزلة التي يضجر منها رجل السلطة تظهر بصيغتها الأكثر بروزاً في الخوف وعدم الثقة اللذين يمكن أن يشعر بهما الأمير في كل لحظة، نتيجة التطلعات الشخصية للمقرّبين منه⁽¹⁴⁾. ففي ظل السيد، وتحت حمايته، برزت فجأة صورة كبيرة أخرى للفردية الوليدة، صورة الفنان. إن شعور الانتماء للعالم وليس الى جماعته الاصلية فقط تَعَزَّز بسبب وضعية النفي التي وجد آلاف الرجال أنفسهم منغمسين فيها، نتيجة التقلبات السياسية أو الاقتصادية في مختلف الدول. فقد تأسست جاليات منفين هامة في المدن الإيطالية، كجالية الفلورنسيين في فيراري، على سبيل المثال. إنّ هؤلاء الرجال المُبعدين عن المدن التي ولدوا فيها، وعن

(13) لويس ديمون : «بحث حول الفردية....» - مرجع سبق ذكره - ص : 79.

(14) جاكوب بيركهاردت (Jacob Burckhardt) : «حضارة عصر النهضة في إيطاليا» (La civilisation de la renaissance en Italie - المجلد الأول - باريس - منشورات coll.

- Denoël «Médiation» - ص 90.

أسرهم، أخذوا بدل الاستسلام للحزن، ينثون شعوراً جديداً بانتمايهم لعالم واسع أكثر فأكثر. لقد أصبح حيز الجماعة ضيقاً جديداً في نظرهم بحيث لم يعد كافياً لجعل طموحاتهم تنغلغ في داخل حدودها فقط. إن الحدود الوحيدة المقبولة من قبل رجال عصر النهضة هؤلاء هي حدود العالم. لقد أصبحوا فعلاً أفراداً، حتى ولو استمروا، في العديد من الوجوه، بالانتماء لمجتمع ما زالت صلات الجماعة قوية فيه. لقد اكتسبوا بالقياس للصلات السابقة درجة من الحرية لم يكن بالامكان التفكير بها قبل ذلك.

إن الكوميديا الإلهية لدانتي كانت معاصرة لهذا التراخي الذي ما زال غير محسوس في الميدان الاجتماعي، الذي يعطي، بطريقة مُفرطة، لآلاف الرجال الشعور بأنهم مواطنون في العالم، أكثر مما في مدينة أو منطقة. إن مغامرة فيرجيل في جهنم، هي مغامرة فرد. إنها تطرح كُمسَلمة الرفع من قيمة الشاعر والفنان. لقد كُتِبَ هذا العمل الكبير بلغة عامية كما لو كان ذلك من أجل مضاعفة النفي الداخلي لدانتي، المُكره على العيش خارج فلورنسا. ولكن بالرغم من غيظه، كان بإمكانه أن يقول بحماس: «وطني هو العالم بصفة عامة». إن إله الوحي، والجماعة، والتقاليد المحلية أصبحت مصادر شكلية ؛ إنها لم تُعد تُرتَّب بطريقة حاسمة قيم وأعمال إنسان متحرر أكثر فأكثر من وصاية الكون. إن الإنسان الكوني (L'uomo universale) بدأ يستمد التوجه النسبي كلياً لتأثيراته على العالم من معتقداته الشخصية. إنه يستشعر أهميته الاجتماعية: إن الطرق المُظلمة للعناية الإلهية لم تُعد هي التي تستطيع أن تقرر حياته الخاصة أو حياة مجتمعه، فهو يعلم من الآن فصاعداً أنه هو نفسه الذي يصنع قدره ويقرر الشكل والمعنى اللذين يمكن أن يأخذهما المجتمع الذي يعيش فيه. إن الانعتاق من الشأن الديني يؤدي الى وعي المسؤولية الشخصية، الذي سيؤدي قريباً للانعتاق من الشأن السياسي في ولادة الديمقراطية.

إكتشاف الوجه

إن جغرافية الوجه تتحول. فالقم يكف عن أن يكون فاغراً، نهماً، ومكاناً للشهية الشرهة أو لصرخات الساحة العامة، ويصبح الآن تابعاً ذا مغزى نفساني، ومُعبراً على غرار الأجزاء الأخرى من الوجه. إنه حقيقة وحيدة لإنسان وحيد ؛ إن جسد الحداثة يكف عن تفضيل الفم، عضو الشرهة، والاتصال مع الآخرين بواسطة الكلام، والصراخ أو الغناء الذي يتجاوزه، والشراب أو الغذاء الذي يدخل منه الى المعدة. لقد أصبح التوهج الاجتماعي للكارنقال والأعياد الشعبية أمراً نادراً. وتَعَدُّل علم القيم الجسدية.

إنَّ العيون هي الأعضاء المستفيدة من التأثير المتنامي «لثقافة العالم». فكل فائدة الوجه تتركز فيها. إن النظرة، الحاشية القاصرة بالنسبة لرجال القرون الوسطى، وحتى عصر النهضة، دُعيت لحظوة متنامية خلال القرون التالية. لقد كانت أداة الاحساس بالمسافة، فأصبحت الأداة المفتاح للاحساس بالحدثة، لأنها سمحت بالاتصال وتركت المتخاطبين على قائمة الاحتياط.

وفي القرن الخامس عشر أصبح رسم الوجه الفردي بطريقة بليغة أحد المصادر الأولى لإلهام الرّسام، وقَلَب في عدة عقود الاتجاه الذي كان ثابتاً حتى ذلك الحين، والمتمثل بعدم تمثيل الشخص البشري من دون اللجوء الى تصوير ديني. لقد ترافق انطلاق المسيحية برفض لرسم الوجه⁽¹⁵⁾، ارتبط بالخوف من أن يصبح فهم صورة الانسان فهماً، للإنسان نفسه. فرسم الوجه لم يُنظر له كإشارة، أو نظرة، وإنما كحقيقة تؤثر على الشخص. وفي أواخر القرون الوسطى، ترك كبار رجال الكنيسة أو المملكة وحدهم رسوماً لأشخاصهم، لكنها كانت مَخْمِيَّة من الرقيات المؤذية بواسطة التناغم الديني للمشاهد التي صُوِّروا فيها وهم محاطون بشخصيات سماوية. إن مثال البابا دفع الواهبين الأغنياء لتمني إدراج صورهم في الأعمال الدينية (كالرسوم الجدارية، والمخطوطات، ثم روافد المذبح) التي ساهموا بكرم في تحقيقها. لقد سمحت الهبة، عن طريق الرعاية المقدسة، للواهب بأن يضمن خلوده الخاص من خلال لَحْظ حضوره الى جانب حضور الشخصيات السامية في التاريخ المسيحي⁽¹⁶⁾.

وفي القرن الرابع عشر، استقطبت مرتكزات أخرى الرسوم الشخصية: روافد المذبح، واجهات القصور، والرسومات الأولى للوحات الصغيرة. وعلى هذه الروافد كان الواهب يُمثَّل في الأغلب بصحبة القديسين. ولكن حصل أن رُسِم، أحياناً، معزولاً عنهم، ولا سيما على الأجنحة الخارجية للوحة. إلا أن الانتساب الديني بالضرورة لحضور الواهب في اللوحة أخذ يتلاشى بشكل خاص مع جان فان أليك (Jan Van

(15) لكن هذه كانت حينذاك ذات أسلوب محدد بدقة ، وليس فيها علامة حقيقية للتفرد.
(16) أنظر ، مع ذلك ، ألمانيا الأوتونية في ظل الظروف السياسية المتميزة بنزعة إقليمية قوية وبضعف الامبراطورية ، حيث أدرج عدد من رسومات الأشخاص في المخطوطات ، وحيث حقق الرّسامون غالباً أيضاً رسومات فردية على لوحات صغيرة. أنظر : جاليان وبيار فرانكاستيل (Galienne et Pierre Francastel) - (رسم الوجه) (Le portrait) - باريس - منشورات - Hachette - 1969 - ص : 61.

Eyck). فلوحة «عذراء المستشار روبان» (La Vierge du chancelier Robin) (نحو عام 1435) وضعت وجهاً لوجه، على طريقة نقاش مهذب بين زوجين، العذراء والواهب. إن طبوغرافية اللوحة لم تميز بين العذراء والرجل الدنيوي: لقد قُسمت المساحة بالتساوي بين المتخاطبين. أما لوحة «رسم ارنولفيني» (Le portrait des Arnolfini) (1434) فتبرز من دون تناغم ديني مباشر العلاقة المنزلية الحميمة بين زوجين. فقد تمدد، عند أقدامهما، كلب صغير لتعزيز البُعد الشخصي للمشاهد. هكذا بدأ يتحقق انزلاق من الاحتفال بما هو ديني الى الاحتفال بما هو دنيوي. لقد شق جيرار دورليان (Girard d'Orléans) الطريق، حوالي عام 1380، بتوقيعه إحدى أولى اللوحات الصغيرة التي ظهر فيها الرسم الجانبي لجان لوبون (Jean Le Bon) فقط. وفي القرن الخامس عشر، انطلق رسم الوجه الفردي، المنفصل عن كل مرجع ديني، في فن الرسم سواء في فلورنسا والبندقية أم في بلاد الفلاندر وألمانيا. وأصبح رسم الوجه لوحة قائمة بذاتها، ومرتكزاً لذكرى، واحتفاءً شخصياً لا يحتاج لأي تبرير آخر. إن الاهتمام بهذا الرسم، أي بالوجه بشكل أساسي، سيأخذ أهمية متنامية عبر القرون (فن التصوير الذي استُخدم بالمناوبة مع الرسم، عدد بطاقات الهوية التي نحفظ بها اليوم وعلى كل منها صورة. إن التفرد من خلال الجسد يتهذب هنا بواسطة التفرد من خلال الوجه).

ولكي نفهم هذه المعطيات، يجب التذكير بأن الوجه هو الجزء الأكثر فردية والأكثر خصوصية في الجسد. إن الوجه رمز الشخص. ولهذا كان استعماله الاجتماعي في مجتمع بدأ الفرد يؤكد نفسه فيه ببطء. إن الارتقاء التاريخي للفرد يشير، بشكل مواز، لارتقاء الجسد، وبخاصة ارتقاء الوجه. فالفرد لم يعد العضو الذي لا يمكن اقتطاعه من الجماعة، من الجسد الاجتماعي الكبير، بل أصبح جسداً قائماً بذاته لوحده. إن الاهتمام الجديد بأهمية الفرد أدى لنمو فن يتركز مباشرة حول الشخص، وحث على إنضاج تصوير السمات. إنه اهتمام بفردية الشخص، كانت القرون السابقة قد جهلته اجتماعياً. إن الفردية مؤثر على ظهور الإنسان المنغلق في جسده، وعلامة على اختلافه عن غيره، وهذا بشكل خاص من خلال الوجه.

صعود الفردية

وكنتيجة طبيعية لنمو الفردية في أوروبا الغربية، ارتبط المجد أكثر فأكثر برجال عديدين: فالشعراء يتمتعون أثناء حياتهم بشهرة كبيرة. ودانتي وبيترارك مثالان

بارزان على ذلك. كما أن ظهور التوقيع على أعمال الرسامين دليل موحى آخر في هذا الصدد. إنَّ أسماء المبدعين في القرون الوسطى بقيت مُغفلة ؛ فقد ذاب هؤلاء في الجماعة، ومنهم، على سبيل المثال، بناء الكاتدرائيات، وبالمقابل، طبع فنانون عصر النهضة أعمالهم بخاتمهم الشخصي. ففي مؤلفه حول «ورشة ايطاليا الكبرى» (Le grand atelier d'Italie) يشير أندريه شاستيل إلى أنَّ «مؤلف اللوحات اتجه، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، لأن يُظهر نفسه بشيء من الحياء أقل مما كان في السابق. إنها اللحظة التي بدأ فيها التوقيع يُغلَن بدقة في شكل بطاقة (cartellino) (ورقة أو لوحة صغيرة يُذكر فيها إسم الفنان والتوضيحات الأخرى حول تنفيذ العمل). كما نجد أيضاً الإدراج الشائع لرسم وجه المؤلف في الزاوية اليمنى للوحة، وهذا ما فعله بوتيسللي (Botticelli) في لوحة «عبادة المجوس» (L'Adoration des Mages)، لآل مديتشي (عام 1476 تقريباً)، إن هذه السمات الجديدة التي انتشرت بعد 1460 تكشف ظاهرياً عن وعي أوضح للشخصية⁽¹⁷⁾. لقد جعل فاساري (Vasari) من نفسه المنشد لهؤلاء الرجال الذين وصلوا فجأة لاعتراف اجتماعي كبير بهم. إن الفنان لم يعد الموجة السطحية التي تحملها روحانية الجمهور، الفنان المجهول الاسم للرسوم الجماعية الكبرى، وإنما أصبح خالقاً مستقلاً. لقد شحن مفهوم الفنان بقيمة اجتماعية ميّزته عن أنواع الحرف الأخرى.

لقد تشرفت المدن الايطالية في عصر النهضة باحتوائها رجالاً مشهورين بين جدرانها: كالقديسين، ولكن أيضاً السياسيين والشعراء والعلماء والفلاسفة والرسامين، الخ. أما السخرية التي تطورت أشكالها أكثر فأكثر إنطلاقاً من الأربعمئة⁽¹⁸⁾، فإنها كانت مُلطفاً لمجدٍ وطموحات لم يعد يُحذَّها شيء. لقد كانت شكلاً للتعويض بالنسبة للمجموعة ولمقاومتها لاستقلالية الأفراد التي تجري على حسابها. لكن السخرية والتهكم لم يكونا ليقاسا مع ضحكة الثقافة الشعبية، ذات الروح الجماعية. إنَّ السخرية هي، بشكل ما، أيديولوجية الوجه، إنها تشير للاهتمام بالقياس، وتفترض وجود المسافة الفردية. وبالعكس، فإن الضحكة الشعبية تتلقى الروح الكارنقالية

(17) أندريه شاستيل (André Chastel): «ورشة ايطاليا الكبرى» (1500 - 1640) - باريس - منشورات Gallimard - 1965 - ص : 177.

(18) ج. بيركهاردت - المرجع السابق ذكره - ص : 118.

لجسد متدفق تحت السخريات، جسد، غير متميز عن الانسان، ويتجه باستمرار نحو الطبيعة والكون والجمهور والإفراط.

إن حركة الاستقلال النسبي للفاعلين في بعض المجموعات الاجتماعية لم تكف عن الازدياد أولاً بأول مع تطاير الأطر الاجتماعية للاقتصاد الوسيط نظراً لتكاثر المصالح الخاصة. فاققتصاد القرون الوسطى يعارض بالفعل وبشكل بنيوي غنى البعض على حساب الآخرين. فهو يتأسس على القياس والاعتدال، والاهتمام بمراقبة المبالغ المدفوعة لقاء الخدمات بدقة. إنَّ هذا الأجر العادل كان يُعبّر عن مفهوم «التضحية المعقولة المطلوبة من المستهلك» (على حد تعبير هنري هوس) والكافية لتأمين حياة أسرة المنتج. لقد كانت القواعد الكنسية النافذة تمنع الإقراض بالفائدة. وكالفن هو الذي ميّز، في عام 1545، بين القوانين السماوية والقوانين البشرية، بهدف تبرير القرض، وبالتالي إعطاء شرعية حاسمة للمشروع التجاري أو المصرفي. وبشكل مواز، من جهة أخرى، وقف الإصلاحيون في وجه المؤسسات الكنسية، ورفضوا السلطة العقائدية للكهنة، وجعلوا من الدين مسألة من مسائل الضمير الشخصي، ووضعوا كل إنسان أمام الله بدون أي وسيط آخر. إنها لحظة هامة من لحظات اندفاع الفردية. ففي هذا السياق انطلقت الرأسمالية في نهاية القرن الخامس عشر، وفي القرن السادس عشر وأعطت للفردية توسعاً متنامياً على مرّ العصور.

ـ الجسد، عامل تفرّد

مع الشعور الجديد بأنه فرد، وذات، قبل أن يكون عضواً في جماعة، يصبح الجسد الحدّ الدقيق الذي يُعيّن الفرق بين إنسان وآخر. إنه، «كعامل تفرّد»، يصبح هدفاً لتدخل نوعي: إنَّ الأكثر بروزاً هو البحث التشريحي عبر التشريح الجاري على الجسد البشري. إنَّ نسيج الجماعة الذي كان يجمع منذ قرون، وبالرغم من التفاوتات الاجتماعية، بين مختلف مراتب المجتمع تحت كنف اللاهوت المسيحي والتقاليد الشعبية، يبدأ إذن بالانقسام. فالبناء الفردي أخذ يتقدم ببطء في داخل عالم ممارسات عصر النهضة وعقلياته. والفرد، الذي كان مقصوراً، في البداية وخلال عدة قرون، على بعض الفئات الاجتماعية المميّزة، وعلى بعض المناطق الجغرافية، وبشكل أساسي على المدن، بدأ يتميز عن أشباهه. وفي نفس الوقت، دفعه التراجع عن الرؤية التيولوجية (اللاهوتية) للطبيعة، ثم التخلي عنها، للنظر للعالم الذي يحيط به

كشكل نقي، غير متحيز، شكل فارغ أنطولوجياً، تمتلك يد الانسان وحدها، من الآن فصاعداً، سلطة صياغته. هذا التغيير في نقل مكان الإنسان وسط الكون أدى لتفريد الفئات البرجوازية. لقد اقترن تفرد الإنسان مع نزع صفة القداسة عن الطبيعة. ففي عالم الانقطاع هذا، أصبح الجسد حدّاً بين إنسان وآخر. وبفقدانه لانغراسه في جماعة الناس، وبانقطاعه عن الكون، أخذ إنسان الفئات المثقفة في عصر النهضة ينظر لواقع تجسّده من خلال زاوية ممكنة. لقد اكتشف نفسه مُثَقَّلاً بجسد ؛ بشكلٍ فارغ أنطولوجياً، إن لم يكن مُحَقَّرًا، طارئاً، وعقبة أمام معرفة العالم المحيط به. لأنّ الجسد، كما سنرى، بقيّة. إنّه لم يُعد علامة على الحضور البشري، غير القابل للتمييز عن الإنسان. وإنما هو شكله التابع. إن التعريف الحديث للجسد يتضمن أن يكون الانسان مقطوعاً عن الكون، مقطوعاً عن الآخرين، ومقطوعاً عن ذاته. فالجسد هو ما تبقى من هذه الانسحابات الثلاثة.

الإنسان المُشَرَّح

إن المؤرّس الأساسي على هذا التغيير في العقلية الذي جعل الفرد مستقلاً، وألقى ضوءاً خاصاً على الجسد البشري، يتمثل في تكوّن المعرفة التشريحية في إيطاليا الأربعمئة، في جامعات بادوا والبندقية وفلورنسا بشكل أساسي، التي تشير إلى تحول انتروبولوجي أخذ. فمع التشريحات الرسمية الأولى، في بداية القرن الخامس عشر، ثم مع ابتداء هذه الممارسة في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أوروبا⁽¹⁹⁾ بدأت إحدى اللحظات الرئيسية في الفردية الغربية. كما أن التمييز الحاصل، داخل نظام المعرفة، بين الجسد والشخص البشري عبّر، في نفس الوقت، عن تحوّل أنطولوجي حاسم. لقد أدت هذه الاجراءات المختلفة لاكتشاف الجسد، في المعرفة الغربية.

قبل ذلك لم يكن الجسد متميزاً عن الشخص الذي يعيره وجهاً، فالإنسان كان غير قابل للانفصال عن جسده، ولم يكن قد خضع بعد لهذه المفارقة الفريدة المتمثلة

(19) التي يذّل عليها بشكل خاص تصنيع المسارح التشريحية الأولى ، ولا سيما ذاك الذي بناه روندوليه (Rondelet) في جامعة مونبيلييه ويعود تاريخه لعام 1556 ، ومسرح بادوا الذي يعود تاريخه أيضاً الى منتصف القرن السادس عشر.

بأنه يمتلك جسداً. فخلال كل مدة القرون الوسطى، كانت التشريعات ممنوعة، بل وحتى لا يمكن التفكير فيها. إن كسر أداة في الجسد كان يشكل إنتهاكاً للكائن البشري، ثمرة الخلق الإلهي. إنه سيكون أيضاً تعدياً على جلد ولحم العالم. ففي عالم القيم السائدة في القرون الوسطى وعصر النهضة، كان الإنسان على اتصال مع العالم، وكان يكتف الكون. ولم يكن الجسد قابلاً للعزل عن الإنسان أو العالم: فهو الإنسان، وهو، على مستواه، الكون. ومع التشريعيين، ولا سيما بدءاً من كتاب «De corporis humani fabrica» (بناء الجسد البشري) لفيسال (عام 1543) ولّد تمييز ضمنى في المعرفة الغربية بين الإنسان وجسده. من هنا استمدت مصدرها الثنائية المعاصرة التي تنظر، بأسلوب ضمنى أيضاً، للجسد بشكل معزول، وفي شيء من عدم الاكتراث للإنسان الذي يعبره وجهه. لقد أصبح الجسد مقروناً بالملكية، ولم يعد مقروناً بالكينونة. لكن الغموض الذي يُرّصع كتاب فيسال هو المثال الموضح والمؤثر لصعوبة هذا المرور.

إن التشريعات الأولى التي مارسها المُشرِّحون بقصد التأهيل والمعرفة تشهد على تغيّر كبير في تاريخ العقلية الغربية. فمع المُشرِّحين يكف الجسد عن أن يُستنفد بأسره في مغزى الحضور البشري. إن الجسد يوضع في حالة إنعدام الجاذبية، ويُفصل عن الإنسان، ويُدرّس لذاته كحقيقة مستقلة. وهو يكفّ عن أن يكون العلامة غير القابلة للاختزال على ملازمته للإنسان، وعلى وجود الكون في كل مكان. وإذا نحن عرّفنا الجسد البشري كمؤشر على انقطاع الانسان عن ذاته، وانقطاع بين الإنسان والآخرين، وانقطاع بين الإنسان والكون، فإننا سنجد للمرة الأولى هذه اللحظات المختلفة في المشروع المعادي للتقاليد للمُشرِّحين الأوائل، وبشكل خاص بدءاً من فيسال. ومع ذلك، فإن هذا التمييز الجاري بين الحضور البشري والجسد، والذي يعطي لهذا الأخير ميزة كونه موضوعاً، بشكل علمي، للتساؤل بطريقة نوعية خاصة، وبغض النظر عن أي مرجع آخر (كالانسان والطبيعة والمجتمع...) لم يكن إلا في مرحلته الوليدة، التي ما زالت تتسلط عليه فيها، ولمدة طويلة، التصورات السابقة، كما تُبرز ذلك بوضوح، وبطريقة غريبة، لوحات العمل الكبير لفيسال، أو العديد من مؤلفات علم التشريح في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولقد كتب روجيه كيللوا في هذا الصدد «إنه لا ينبغي أن توجد هناك، من حيث المبدأ، صور أكثر خضوعاً لأن تكون وثائقية بشكل دقيق، لأن كل نزوة، في هذا الميدان، ستكون

مذنبه وخطيرة»⁽²⁰⁾. هكذا سٌتضاف الى الموضوعية المطلوبة في الشكل التشريحي، والقائمة بالفعل منذ أمد طويل تَتِمَّت ناشئة عن مُخيال قلق، بل وحتى مُعَدَّب.

إن التشريح المُطَبَّق على الإنسان لم يكن مشروعاً مجهولاً قبل عصر النهضة. ويبدو أن القدماء كانوا يمارسونه ولكن بشكل نادر بدون شك. وربما يكون غالين (Galen) قد فتح بعض الجثث. إلا أن فيسال، الساخر، يشير الى أن التصحيحات التي أُدخلت على مؤلفاته بواسطة الممارسة الأكثر انتظاماً لعلم التشريح البشري «تبرهن لنا بوضوح بأنه لم يُقم مطلقاً بنفسه بتشريح جثة بشرية ما زالت طازجة. ونظراً لانخداعه بتشريحاته للقرودة (ولنقبل بأنه اعتبرها جثثاً بشرية مُجَفَّفة ومُحَضَّرَة من أجل فحص العظام) فقد حصل له عادةٌ أَنْ وَصَمَ بلا حق بالخطأ الأطباء القدماء الذي كانوا قد مارسوا تشريحات لكائنات بشرية. وزيادة على ذلك، فإن بالامكان أن نجد لديه نتائج عديدة خاطئة في ما يتعلق بالقرودة نفسها»⁽²¹⁾. وحتى القرن السادس عشر، كانت معرفة الداخل غير المرئي للجسد تُعطى من قبل التعليقات الصادرة حول أعمال غالين. وحتى فيسال، وبالرغم من حملات النقد اللاذع التي لم يُصَن منها، فقد بقي متأثراً بسلفه البارز في بعض النقاط. وفي الواقع، فإن المؤلفات في علم التشريح السابقة للقرن الخامس عشر كانت تعتمد بشكل خاص على تشريح الخنازير، الذي كان يُعَدَّ حينذاك قليل البُعد بنوياً عن تشريح الانسان. فإذا كان الجسد البشري غير قابل للمسّ، فذاك لأن الإنسان، الذي هو جزء من الجماعة والكون، غير قابل للمسّ. وحتى في عام 1300، انتفض البابا بونيفاس الثامن ضد المحاربين في الجيوش الصليبية الذين قاموا بـغَلْي أجسام الشخصيات السامية الميتة في الأرض الأجنبية، لكي يُنقلوا بشكل أكثر ملائمة الهيكل العظمي إلى مسقط رأسه، وذلك لأن عملهم غير إنساني. إنَّها، من جهة أخرى، إشارة على أن الإنسان، في نظر المعاصرين لتلك

(20) روجيه كيلوا (Roger Caillois)، «في قلب الخيالي» (Au Cœur du fantastique) - in

Cohérences aventureuses- منشورات Gallimard - ص : 166.

(21) أندريه فيسال (A. Vésale) «بناء الجسد البشري» (La fabrique du corps humain) - Actes

Sud-INSERM - 1987 - ص : 37. إن هذا المؤلف الصغير المزدوج اللغة (لاتيني - فرنسي)

لا يضم للأسف إلا مقدمة فيسال لمؤلفه. وهي مع ذلك تبقى مقدمة أخاذة بالنسبة لتاريخ علم التشريح، وبالتالي للفكرة المُتكوِّنة عن الجسد في العالم الغربي أيضاً.

الفترة من الزمن، كان دائماً غير منفصل عن جسده، وإنه لم يكن من الممكن التمييز بينهما. لكن بونيفاس الثامن يدين بشدة، في براءته البابوية (De Sepulturis) اختزال الجثة الى مجرد هيكل عظمي، وذلك باسم مبدأ البعث. فالجثة لا يمكن أن تقطع وتُتلف وتُقسّم من دون إفساد شروط خلاص الانسان الذي يُجسّده هذا المبدأ دائماً. وهذا أيضاً برهان، ولكن من نوع آخر، على أن الجسد يبقى علامة الانسان. إن وضع الجسد في قطع يعني تحطيم الكمال البشري، وهذا من شأنه أن يُفسد حظوظه ضمن منظور البعث. فالجسد هو من سجلّ الكائن (الإنسان هو جسده، حتى ولو كان أيضاً شيئاً آخر)، إنه لم يُوضع بعد مسطحاً على سجل الملكية (امتلاك جسد، من المحتمل أن يكون متميزاً عن ذاته).

ولكن في ظل تشابك العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والسكانية، الخ الذي تتجاوز تفاصيل ظروفه إطار هذه الدراسة، يبدأ النسيج الثقافي بالتحوّل، وتقضي الفئات الحاكمة على التقاليد الشعبية، ويتحلّل شيئاً فشيئاً سلطان علم اللاهوت على العقول، ويفتح هذا الطريق أمام ظهور النظرة الدنيوية للعالم، وأمام التماس العقلانية التي استمر طلبها يتلاحق حتى اليوم. إنّ الأسس المنطقية الفكرية التي أطلقت، منذ أيام جاليله، وسط مجموعة من الميادين، من قِبَل الفئات العالمة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، لم تكف عن توسيع تقدمها. ويعكس التقاليد الشعبية والمواقع المسيحية فإن العقلانية تشق طريقها. وسيلعب فتح الأجساد دوراً هاماً في ديناميكية الحضارة. إنّ أحد مصادر تصورنا الحالي للجسد (وبالتالي للإنسان) تتبلور هنا. فمع فيسال تُعلن انتروبولوجيا من نوع آخر عن نفسها، ويبدأ شطر (لم يُستهلك كلياً بعد) جديد في مسيرة هذا العلم، يختلف مع سابقه الذي يجعل من الإنسان (وبالتالي من جسده) جزءاً من الكون. إن علم التشريح الفيسالي يبتعد قليلاً عن ذلك الذي يُميّز اليوم العلوم البيوطبية، لكنّ ما هو أساسي ليس هنا، بالنسبة لنا. فالانقطاع الابيستمولوجي لفيسال جعل التفكير الحديث حول الجسد ممكناً، بالرغم من أنّه لم يكن، في هذا الصدد، إلّا المُبشّر.

ليوناردو دافينشي وفيسال

«أنت يا من تَكبّ على التأمل في هذه الآلة، التي هي آلتنا، لا تحزن لأنك تتعرف عليها من خلال موت الآخرين، بل ابتهج لأن خالقنا زود العقل بمثل هذه الأداة

الممتازة» تلك هي العبارات البليغة لليوناردو دافنشي في الـ Quaderni. وبالفعل فإن طرق علم التشريح الحديث شُقَّت على يد رجلين متباينين جداً. وحتى لو أنَّ التاريخ أعطى حظوة جيدة لقيسال (1514 - 1564)، فإن ليوناردو (1452 - 1519) سبقه في هذه المغامرة بتشريحه ثلاثين جثة، وبتحقيقه لمذكرات وملفات لا تُحصى حول علم التشريح البشري. لكن مخطوطات ليوناردو لم يكن لها إلا تأثير محدود في زمانها، وبقيت فيما بعد شبه سرية لمدة طويلة، بسبب تهاون خليفته فرانسيسكو ملري (Francisco Melri)، الذي اكتفى خلال خمسين سنة بأن يُعيد فقط نسخ بعض المقاطع من المخطوطة المكروسة للرسم. إنَّ ليوناردو دافنشي لم يطبع مطلقاً أفكاره أو رسوماته. وكما كان غير قابل للادراك بسبب اتساع اهتماماته الفضولية ومواهبه، كان أيضاً كذلك بالنسبة للباحثين في القرون اللاحقة. لقد احتقر ليوناردو، كما أشار لذلك جورج سارتون، الاكتشافين الكبيرين في عصره: الطباعة والنقش⁽²²⁾، اللذين كان بإمكانهما أن يُدخِلا عمله في العصر ويُخلِداه، بدل تركه مُبعثراً وبلا عناية. إنَّ الدراسات التي كان ليوناردو ينوي القيام بها حول الرسم أو علم التشريح لم ترَ النور مثل العديد من اكتشافاته التي جُمعت فقط في الـ Quaderni. وحين وفاة ملري، انتقلت هذه الأخيرة من يد إلى يد قبل أن تعرف انتشاراً واسعاً، وخاصة بعد عام 1796، الذي قام فيه شمبزلين (Chamberlaine) بإعادة انتاج قسم من الرسومات التشريحية في كتاب مجلد. وكانت هذه مناسبة للناشرين لإعادة إنتاج المخطوطات بنسخ طبق الأصل (وذلك في أواخر القرن التاسع عشر)، أدت بالنهاية للتعريف بمدى إتساع ونوعية عمل ليوناردو في ميدان علم التشريح. ومما لا شك فيه أن قيسال لم يتعرف مطلقاً على هذه الرسومات وهذه الشروحات، ولهذا آل إليه الفضل في إدخال المعرفة التشريحية في مُدوَّنة العلم الحديث.

لقد أجريت التشريحات الرسمية الأولى في الجامعات الإيطالية، في بداية

(22) جورج سارتون (Georges Sarton)، ليوناردو دافنشي مهندس وعالم، في ليوناردو دافنشي والتجربة العلمية للقرن السادس عشر (Léonard de Vinci et l'expérience scientifique du XVI^e siècle). باريس - منشورات PUF - 1953. أنظر أيضاً في نفس هذا المجلد إلمر بيلت (Elmer Belt): «التشريحات التشريحية لليوناردو دافنشي» (Les dissections anatomiques de Léonard de Vinci).

القرن الرابع عشر، واتخذت جثة المحكوم بالاعدام موضوعاً لها. ثم تتالت فيما بعد، وعلى مسافات زمنية منتظمة، تحت إشراف الكنيسة التي كانت تقيس بدقة الأذونات المُعطاة. ولهذا كانت هذه التشريحات الأولى تتسم بطابع العلنية: كانت احتفالات بطيئة تمتد على مدى عدة أيام، وتحقق لغايات تعليمية موجهة لجمهور من الجراحين والحلاقين والأطباء والطلاب. وقد تعمّمت في القرن السادس عشر وتخطّت حينذاك الغاية الأصلية لتتسع على طريقة المسرح لإشباع فضولية جمهور متعدد العناصر. هكذا أصبحت المسارح التشريحية موضوعاً يُشار إليه في دليل السفر. لقد استشهدت ماري فايون بنص يعود لعام 1690، يشير الى حضور جمهور من أربعمئة إلى خمسمئة مشاهد أثناء جلسات التشريح العلنية في حدائق الملك⁽²³⁾. كما نذكر، من جهة أخرى، إقتراح ديافواروس (Diafoirus) لأنجليك (Angélique) في مسرحية موليير «المريض بالوهم» (Le malade imaginaire) «بعد إذن السيد أيضاً، أدعوك للقدوم في أحد هذه الأيام. لتتسلّى برؤية تشريح امرأة، وهذا ما يجب أن أفكر فيه» (الفصل الثاني - المشهد الخامس). لقد أصبحت عقليات هذا القرن قابلة لأن تستضيف وقائع كانت تملأ بالرعب رجال العصور السابقة، بما فيهم الرجال، من أتباع غاليلان، الذين مارسوا مهنة المعالجة. إن الجسد لم يعد يتكلم عوضاً عن الإنسان الذي كان يحمل وجهه: فالأول منهما متميز عن الآخر. لقد انطلق المُشْرِحون لمعرفة سرّ الجسم، غير مكتثرين بالتقاليد، والمحظورات، وأحراراً نسبياً إزاء الدين. ودخلوا عالم الجسد الصغير بنفس الاستقلال الذهني الذي ألغى جاليله بموجهه بشطحة رياضيات المجال الألفي للوحي. إنّ ماري كريستين بوشيل كانت على حق بقولها «أن المُشْرِحين بفتحهم الجسد البشري، كانوا يشقّون ربما الطريق أمام مكتشفين آخرين، وأنهم فلقوا مع حدود الجسد، حدود العالم الأرضي، والكون»⁽²⁴⁾.

لقد تنظّمت الدروس الأولى في علم التشريح، التي أُجريت على الجثة على

(23) ماري فايون (Marie Veillon) - «ولادة الفضولية التشريحية في فرنسا» (أواسط القرنين السادس عشر والسابع عشر) (La naissance de la curiosité anatomique en France milieu du XVI - XVIIe siècles) في: «علم الأخلاق الطبي وحقوق الانسان» (Ethique médicale et droits de l'homme) - أعمال Sud-INSERM - 1981 - ص : 233 -

(24) م.ك. بوشيل : المرجع السابق ذكره - ص : 137.

طريقة شرح لغاليلان، وعبرت المسافة عن الجسد المُشَرَّح عن تسلسل اجتماعي بارع. وقد تناولت نسخة موجزة عن دراسة لغني دو شولياك (Guy de Chauliac) (1363)، بشكل مثير للإعجاب، هذه الطبوغرافيا الرمزية المتمفصلة كلياً حول العلاقة مع الجسد. إن المشهد يجري في جامعة مونبلييه، حيث مُورس التشريح، بشكل استثنائي، منذ عام 1315. فعلى مسافة قليلة من الطاولة التي وُضعت عليها الجثة، اكتفى المُعَلِّم، وبيده مؤلَّف غاليلان، بقراءة النص المُخَصَّص بصوت مرتفع. وبيده الأخرى، ومن على مسافة يشير الى الأعضاء التي يتكلم عنها. أما الذين يفضُّون الجسد فينتمون إلى ففتين مختلفتين من التحلّاقين. ذاك الذي يقطع اللحم وهو أُمِّي، والثاني الذي يستخلص الاعضاء ليدعم كلام المُعَلِّم هو أكثر تعليماً. وأثناء هذه المحاضرة، كان عدد من الأكليروس من بين الحضور. فمنذ صدور براءة بونيفاس الثامن، والكنيسة تشرف على الاذونات الخاصة بإجراء الأعمال التشريحية. لقد كان هناك كاهن، وراهبة يداها ملتصقتان في وضعية الصلاة، للسهر على خلاص المرأة المعروضة على الأنظار الفضولية للجمهور. كما يلاحظ أيضاً وقار الوجه والاحترام في أوضاع الأجساد.

وتبرز لوحة أخرى، مأخوذة من «تشريح موندو دو لوزي (Anatomie de Mondo de Luzzi) (عام 1532) للاتريان (Latrion) وجانو (Janot) أيضاً بشكل أفضل اهتمام المُعَلِّم بالمسافة. فمن على كرسي هذا الأخير يقرأ مؤلَّف غاليلان ويشير بيده بغموض الى الأعضاء التي يستعجل حلاق باكتشافها، تحت إمرة عالم يُردّد كلمات المُعَلِّم. في هذه اللوحة، اختفى رجال الدين. لقد جرى تغيير في العقلية بين الدراستين.

فابريكا فيسال

«أخيراً، في بادوا، وفي المدرسة الأكثر شهرة في الجامعة... كُرسَتْ اهتماماتي المثابرة للابحاث حول بنية الانسان، ورفضت الطرق المُضحكة المستعملة في الجامعات الأخرى، وانشغلت بعلم التشريح وعلمته بطريقة لم تُبقي شيئاً مما نقله لنا القدماء في الظل»⁽²⁵⁾. في عام 1543، ظهر في بال كتاب فيسال

(25) ا. فيسال : «بناء الجسد البشري» - المرجع السابق ذكره - ص 35.

«في بناء الجسد البشري» (De humani corporis fabrica). إنه مؤلف ضخمة من 700 صفحة، ويحتوي 300 ل-وحة منقوشة بدون شك من قبل جان دو كالكار (Jean de Calcar)، أحد تلامذة تيتيان (Titien). على الفور، يؤكد فيسال استقلاله الذهني إزاء التقاليد الجالينوسية. ويُظهر رسم الغلاف (الذي حققه ربما تلميذ تيتيان) رمزياً فيسال وهو يجري بنفسه عملية على جثة. أما الصورة التالية فتظهره مجدداً وهو يدعو القارئ لأخذ الدرس من مؤلفه. إنه يمسك ذراعاً عارية لتمثال إنسان، وبجانبه ريشة وورقة ليدون عليها تفاصيل ملاحظاته. إن علم التشريح سيتخلص مع أندريه فيسال من ولائه للغاليان. وظهور الـ فابريكا، في نفس السنة التي ظهر فيها De Revolutionibus لكوبرنيك (Copernic)، يمثل تاريخاً هاماً في هذه السيرة التي انتهت باكتشاف الجسد في الفكر الغربي. ومع ذلك فإن الـ فابريكا تقول الكثير عن العقبات الذهنية التي ما زال يجب رفعها لكي يُنظر للجسد بطريقة نهائية كشيء متميز، فرضياً، عن الإنسان.

ولد فيسال في بروكسل في عام 1514 ولم يكن منزل أهله بعيداً عن الأمكنة التي تجري فيها عمليات الإعدام الرئيسية.

إن جزءاً من علم التشريح الوليد، إرثيسم جانبياً، من الناحية التاريخية، في ظل المشائق (أو في جو العزلة الليلية في المقابر). فالجثث تبقى مُقامة هناك لحين تجرّدها من اللحم. إن الملاحظات الأولى لفيسال حول علم التشريح البشري تجد مصادرها في هذه النظرة المفصلة التي تنسى منهجياً الإنسان، ولا تنظر إلا للجسد. لقد قام فيسال بدراساته في لوفان، ثم في باريس، حيث تردد غالباً، حسبما تقول الأسطورة، على المقابر والمشائق ليزوّد نفسه بالجثث التي يحتاج لها للقيام بتشريحاته السرية. وفيما بعد، توجه إلى إيطاليا الشمالية التي كانت حينذاك مواتية للقيام بالتجارب المعادية للتقاليد. وفي عام 1537، أصبح دكتوراً في الطب بجامعة بادوا.

إن لوحات الـ فابريكا ترسم تغييراً ابيستمولوجياً ثقيلاً بالنتائج، لكنها تدفع غرامة بليغة للتصورات السابقة حول الإنسان والعالم، إن المشرّح والفنان لم ينقلا على اللوحات ملاحظة موضوعية لداخل الجسد البشري الذي أصبح مرئياً. فنقل عمق الجسد على الحيز ذي البُعدين للصفحة جعل كل عملية فسخ مستحيلة. إن الفنان، برسمه للأشكال التشريحية، تحت أنظار فيسال المتشددة والمتواطئة، كان ينضوي

داخل إتفاق وأسلوب مُعيّن. إنّه يقوم بعملية نقل رمزية يتشابك فيها الاهتمام بالدقة والأمانة للموضوع، مع اللعبة المبهمة للرغبة والموت والقلق. إن رسم تماثيل الإنسان كان، بعيداً عن أن يكون، بالفعل، محايداً في تلك اللحظة التي ما زالت وليدة بالنسبة لإعادة انتاجها على يد التّقاش. لكن لا وعي الفنان، ولا وعي المُشرّح الذي يسهر على الأمانة للتفاصيل، يتدخّلان في رسم الأشكال، واختيار أوضاع الأجساد، والأساس الذي يجمعها. ومن وراء هذا المظهر الفردي يتدخل بالسالب، النسيج الاجتماعي الثقافي، أي مجموع المحظورات والمقاومات المغروسة في العقول تجاه العمل التشريحي. فالقلق والشعور بالإثم يحيطان بالتشريحات، ويشيران عدداً من الاعتراضات في مكان هذا الانتهاك لوحدة الجسم البشري وهذا التلصص المَرَضِي على داخل الجسد. لقد أضحت كل دراسة في مجال علم التشريح، ولمدة طويلة امتدت حتى القرن الثامن عشر، وما بعده، بمثابة حلّ خاص لهذا الجدل الداخلي الذي يتواجه فيه تعطش المُشرّح للمعرفة مع لاوعيه الخاص والأصداء العاطفية للقيم الضمنية للعصر المنغرس فيه.

إنّ لوحات الـ **فابريكا** ولوحات العديد من الدراسات الأخرى حتى القرن الثامن عشر تعرض أجساداً مُعدّبة، تتناوب فيها صور مُثَقَلَة بالقلق أو الرعب الهادئ⁽²⁶⁾ إنها

(26) كُؤس روجيه كيلوا ، وهو بصدد بحثه عن الخيالي خارج الممرات الضيقة المطروقة ، وخارج البحث القصدي للكُتّاب أو الفنانين ، صفحات جميلة لهذه الدراسات في علم التشريح : روجيه كيلوا ، «في قلب الخيالي» ، المرجع السابق ذكره ص : 165. إننا نفكر ، ونحن نشير أعلاه لصور مثقلة بالقلق ، ببعض لوحات فيسال وت. بيرتولان (T. Bertholin) إنّ رسم غلاف مؤلّفه *Anatomia Reformata* (1651) هو نموذج عن هذا النوع من الصور وج. بيلوس (G. Bilos) والبينوس (Albinus) الذي تواجه موميأوه المتأملة ، فجأة ، أفراس النهر في مؤلّفه : (*Tabulae sceleti et musculorum corporis humani*) ، أما بالنسبة للرعب الهادئ ، فإن الأمثلة عديدة : غوتيه داغوتي (Gauthier d'Agauty) ، على سبيل المثال ، ولوحته الشهيرة «ملاك علم التشريح» (*ange de l'anatomie*) التي أثرت كثيراً على السرياليين ؛ ولوحات أخرى أيضاً «يفتح فيها بشكل كبير ظهر أو صدر نساء شائبات مبتسمات ، مُسرّحات الشعر ومُزخرفات بشكل مثير للإعجاب ، بحيث تستوفين اقتصاد نُسج أجسادهن» (ر. كيلوا - المرجع السابق ذكره - ص : 172) ، أو جوان فالفيرد (Juan Valverde) (1563) ، وشارل إيستيان (Charles Estienne) (1546) ، الخ. من أجل نظرة موجزة حول دراسات علم التشريح ، نحيل الى جاك لويس بينيه (Jacques-Louis Binet) وبيار ديكارغ (Pierre

تعرض على مَرِّ الصفحات الأوضاع الشاذة لمتحف خيالي للتعذيب، وفهرساً حُلِيَّاً لما لا سَنَدَ له: إِنَّ مهمة المُشْرِح لا تسلم من المسؤولية الجُرمية، وهذا ما يُسْتَشْفَى عِبرَ الصور. الجسد المخدوش، والمُقَطَّع إرباً، يشهد هكذا رمزياً على الإنسان الذي يظهر فيها، ويذكر بحصانته الماضية. «في هذه الوثائق التي تدفع دِقَّتْها كل الثمن، يُسوَّى السرُّ الحقيقي أكثر مما في اكتشافات جيروم بوش الأكثر هيجاناً»⁽²⁷⁾. إِنَّ فيسَال يُمثِّل تماثيل أجساده أو هياكله العظمية بشكل متميز بطابعه الانساني. فهي تبدو واقفة، وغير جامدة أو مُجرَّدة من علامات الحياة. إِنَّ الجسد يُمَحَى أمام الحضور البشري الذي يَشْفَى في نعمة حركات الجثة. فالجسد، لدى فيسَال والكثير من المُشْرِحين الآخرين، المنفصل ابستمولوجياً عن الإنسان، والذي لجعل مُستقلاً، يتناقض مع الجسد المُصَوَّر، والمسلوخ، لكنه إنسان قبل كل شيء. إن المكبوت الثقافي لبحث المُشْرِح تتخطى اهتمامه بالدقة. وبعض اللوحات تنطق بأكثر مما كان مؤلَّفها يعتقد. إن الجسد يحتاج ضد الحركة التي تعزله عن الحضور البشري. وبالحاجة على أن يكون، يدلُّ على أنَّه دائماً إنسان. إِنَّ الجسد المُشْرِح حقيقة من قِبَل المُشْرِح يأخذ بثأره الرمزي من خلال الجسد المُصَوَّر الذي يؤكد وضعه كإنسان. إِنَّ فيسَال، خلافاً للظواهر، لا يفضُّ جثة، وإنما إنساناً غير قابل للانفصال عن جسده. إنسان يصبح تحت ضغط المبضع، يفكر في موته، ويكشف بحركاته كُعدْبَ رفض (وهو رفض سبق أن انتهى للفشل لأن التشريح حدث بالفعل) هذا الانزلاق الأنطولوجي الذي يجعل من الجسد مجرد حيلة للشخص، ويهيء هذا الأخير لقدر منعزل مقطوع عن العالم مقطوع عن الآخرين، يتيم بنفسه، وحزين لأنَّه من هذه الزائدة اللحمية التي تصوغ وجهه. «إن إنسان فيسَال، كما يلاحظ ج. كانجيلهم، يبقى شخصاً مسؤولاً عن مواقفه. فالمبادرة في تحديد وضعية الجسد التي يعرض الشخص نفسه بموجبها للفحص تعود له وليس للمشاهد»⁽²⁸⁾. وأفضل من ذلك أيضاً،

= Descargues «دراسات علم التشريح» (Dessins et traités d'anatomie) - باريس - منشورات Chêne - 1980.

(27) روجيه كيللوا - المرجع السابق ذكره - ص : 173.

(28) ج. كانجيلهم (Georges Canguilhem)، إنسان فيسَال في عالم كوبرنيك، 1543، في

«دراسات في تاريخ وفلسفة العلوم» (Etudes d'histoire et de philosophie des sciences) - منشورات Vrin - 1983.

فتمائيل الإنسان، عند فيسال، تأخذ وضعيات الفاعلين الاصطلاحيين في la Commedia dell'arte⁽²⁹⁾.

إن الإدراج القديم للإنسان كشكل للعالم لم يُعد يظهر إلا في النسخة السلبية من أشكال فيسال. فالإنسان، المختصر الى وضع التمثال أو الهيكل العظمي، يعطي رمزياً عطلة للكون. ومعنى الجسد لا يُحيل الى أي شيء آخر. لقد أصبح العالم الصغير بالنسبة لفيسال فرضية غير مفيدة: فالجسد ليس شيئاً آخر غير الجسد. ومع ذلك، وكما في السابق، فإن انتقالاً يفرض نفسه على اللاوعي الشخصي والثقافي للمُشَرِّح. إنَّ الكون، المفصول عن الجسد البشري، رُميَ باهمال للمؤخرة. إنه يتقهقر في المنظر المُهيَّأ لتلطيف المعرض القاسي جداً للتمائيل البشرية: حينذاك تظهر هذه الحقول المحروثة، وأبراج الأجراس والقرى الصغيرة والتلال... إن عالماً اجتماعياً يحيط بالأشكال ويخفف من عزلتها. لكن حضور أناس آخرين، مثل حضور الكون، يُختصر في هذه الإشارات فقط. فبدلاً من فيسال، لم يُعد الإنسان الكوني للعصر السابق إلاً كاريكاتوراً لنفسه: إنَّ كوناً بأسمال بالية يعرض نفسه في خلفية عالم الإنسان المُشَرِّح، إنه أصبح مجرد ديكور.

لقد جعل فيسال الطريق ممكناً، لكنه ما زال عند البداية. إنه الشاهد بالنسبة لمرحلة من التطبيق والتشكيل التشريحي لم يكن ذاك الذي يجرأ على التشريح متحرراً كلياً من التورات القديمة، المغروسة ليس فقط في اللاوعي، حيث يمكن أن تُقهر فيه، وإنما أيضاً وبشكل خاص، في اللاوعي الثقافي للباحث، حيث يمكن أن تتابع فيه تأثيرها لمدة طويلة⁽³⁰⁾.

إنَّ تمثال الإنسان، لدى فيسال، المُنشَق موضوعياً عن ذاته، المُختَصَر لمجرد

(29) حسب ملاحظة كلود جندلمان (Claude Gandelman)، L'art comme **Mortificatio** ، carnis - في «النظرة في النص» (Le regard dans le texte) - باريس - منشورات Méridiens-Klincksieck - 1986 - ص : 54 - 56.

(30) يستشهد ريتشارد سيلزر، الجراح الأمريكي، برسم شخصي لفيسال يزين مقر كلية شهيرة للطب. ويلاحظ كم أنَّ «وجهه مطبوع بتعبير الشعور بالذنب والحزن والخوف». فهو يعلم أنه يستعد للشر، للانتهاك، لكنه لا يستطيع منع نفسه من ذلك لأنه متعصب... إنني أفهمك يا فيسال. فالיום أيضاً، وبعد العديد من السفريات نحو الداخل، أعاني من نفس شعور انتهاك المحظور عندما أتأمل في داخل الجسد، ومن نفس الخوف اللاعقلاني من ارتكاب عمل سيء سأعاقب عليه. لنفكر بذلك، إن رؤية أعضائنا مرفوضة علينا. فكم ممَّا أُعطيَ الفرصة لتأمل

جسد، لا يكفّ عن إظهار رفضه لهذه الحالة الواقعية، من خلال الطابع الإنساني للأوضاع المعروض بها. وبالرغم من أنّه تميّز موضوعياً عن الناس الآخرين، وأصبح فرداً، فإن أسلوب عرض مواقفه يدلّ مع ذلك على رسوخ اجتماعي سليم: إنه يبقى إنساناً تحت النظر. كما أنه، بالرغم من أنه أخيراً مقطوع موضوعياً عن الكون، فإنه ينغمر في منظر طبيعي، هو صورة كاريكاتورية عن العالم الصغير، لكنه برهان على أن فيسال ما زال غير قادر على جعله يختفي كلياً⁽³¹⁾.

إنّ إنسان فيسال يُعلن ولادة مفهوم حديث: مفهوم جسد ؛ لكنه يبقى، من بعض وجهات النظر، خاضعاً للمفهوم السابق للإنسان كعالم صغير. إنه، بخدشه لِلْحِمَةِ، وبغزله للجسد، ويتميزه عن الإنسان، يأخذ أيضاً بالابتعاد عن التقاليد. لكنه ما زال يقف عند طرف الفردية، وفي عالم سابق لعالم كوبرنيك. وبالرغم من كل شيء، فإن الوند الذي وضعه فيسال أساسي لكي يتعلم الإنسان القيام بمراسم الحداد على الكون، وعلى جماعته، ولكي يكتشف نفسه وقد صُعِدَ قريباً على يد الـ cogito. الـ cogito التي تُؤسّس بدقية شرعية الفرد، الإنسان الذي يتوسّل أولاً بنفسه. إن مراسم الحداد تمت في الفكر الغربي، من فيسال الى ديكارت، ومن الـ Fabrica الى «خطاب في المنهج» (Discours de la méthode): لقد طُهرَ الجسد، في مستوى ما، من كل رجوع الى الطبيعة، وإلى الإنسان الذي كان يُجسّده.

إن الجسد، لدى ديكارت، يخضع لاستعارة ميكانيكية. وهذا مؤشر موحى للإنزلاق الذي جرى. وبالعكس، فإن الاستعارة العضوية أصبحت أكثر ندرة في مجال تعيين الميدان الاجتماعي. لقد كسبت الفردية أرضاً كبيرة. فالجسد، «النموذج الممتاز لكل نظام مُنْتَهٍ»، حسب الملاحظة الصحيحة لماري دوغلاس⁽³²⁾، لم يُعَدَّ

= طحاله ، وقلبه ، وللبقاء على قيد الحياة. إنّ الجغرافيا السرية لجسدنا هي رأس مذّوس يعمي العين المُفْتَنَّة بنفسها لقيامها بالنظر اليها وجهاً لوجه» - ريتشارد سيلزر (Richard Selzer) - «اللحم والسكين. اعترافات جراح» (La chair et le couteau. Confessions d'un chirurgien) - باريس - منشورات Seuil - 1987 - ص : 17 (مترجم عن الأمريكية).

(31) يلاحظ ج. كانجيلهم بأن إنسان فيسال يُدرج قدره في عالم سابق، من عدة وجهات نظر، لعالم كوبرنيك. «عن الأرض التي ما زال يستطيع أن يعتقد أنها ثابتة، يحتفظ إنسان فيسال بوضع الجسد الارسطوطاليسي: الجسد الواقف، المرفوع الرأس نحو أعلى العالم، المتوافق مع تسلسل العناصر، الشبيه بتسلسل الكائنات والذي يُعَدّ مرآة له» - المرجع السابق ذكره - ص : 29.

ملائماً للتعبير عن جماعة بشرية أخذ بُعدها الجماعي بالانفصام. فبين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر وُلِدَ إنسان الحداثة: إنسان مقطوع عن ذاته (هنا تحت رعاية إنفساخ أنطولوجي بين الجسد والانسان)، مقطوع عن الآخرين (إن الـ cogito ليست الـ cogitamus) ومقطوع عن الكون (من الآن فصاعداً لن يُدافع الجسد إلا عن نفسه، فبعد أن انتزعت جذوره مما تبقى من العالم، وجد غايته في نفسه، ولم يُعُدْ الصدى للكون ذي الطابع الإنساني).

لقد ارتبط بالفردية، أي بترaxي الروابط بين الفاعلين، وبالمظهر الأكثر إرادية للاتصالات، ومع إعطاء قيمة متنامية للحياة الخاصة، وبالمقارنة مع الحياة العامة، إنبتق في القرن السادس عشر شعور جديد: إنه الفضولية⁽³³⁾. لقد قام بعض الأشخاص، المعاصرين لإضفاء طابع شرعي على التشريح الجاري لغايات البحث الطبي أو التعليم، بإنشاء غرف للتشريح في بيوتهم، جمعوا فيها الأشياء الفضولية التي يمكن للجسد البشري أن يحتويها، أو حتى جثث أناس مُشْرِحين، تعمدوا أن يَضْطَفُوا من بينها الأكثر تشوهاً. ومع ظهور الإمكانية لأن تُجمع لاستعمال شخصي جثث بشرية بقصد إشباع الفضول وهواية الجمع، كما تُجمع مواد أخرى، ومن دون أن يُستشف من هذه الممارسة أقل انفصال عن القيم الاخلاقية، ظهر من جديد إنزلاق للجسد خارج الشخص، وتميّز كفاية في ذاته، وصار قابلاً لأن يُغذّي البحوث والتحقيقات الخاصة: إن الجسد الذي أصبح مادة تشريحية من أجل تبين بنيته الداخلية، ومادة للدراسات الجمالية من أجل تحديد النسب المثالية، أصبح أيضاً مادة للعرض⁽³⁴⁾.

(32) ماري دوغلاس (Mary Douglas) في (De la souillure) - منشورات Maspero - ص : 131.

(33) حول الفضولية، أنظر ك. بوميان (K. Pomian) : «الجامعون ، هواة وفضوليون ، باريس ، البندقية (من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر)» (Collectionneurs, amateurs et curieux, Paris, Venise: XVI^e - باريس - منشورات Gallimard - 1987).

(34) يجب الإشارة أيضاً لتَهْرِيات المومياة بين مصر وفرنسا (المجهزة في الواقع ، في أغلب الاحيان ، قبل وقت قليل من بيعها مع جثث البؤساء والمرضى) التي تميّز بها القرن السادس عشر والثامن عشر. إن بعض الأطباء الذين ثار ضدهم أ. . باري أوصوا بالفعل بأخذ شيء من المومياة لكي يدفَعوا عن أنفسهم عدداً لا يُحصى من الشرور ، ويُطِيلُوا حياتهم. أنظر بعض الملاحظات في هذا الصدد في : فرانسواز لو (Françoise Loux) «بيار - ماري دولا مارتينيير ، طبيب في القرن السابع عشر» (Pierre-Marie de la Martinière, médecin

لقد جُمِعت الجثث أو القطع التشريحية بسبب خصوصيتها، أو لكي يتم التأثر بشكل أفضل، على غرار أمبرواز باري (Ambroise Paré)، بمعرفة مباشرة وأكثر منهجية للجسد، بغية تغذية الممارسة الطبية بشكل أفضل. فالجسد، المقطوع عن الإنسان الذي كان يُجسده، والذي لم يعد إلا علامة مجردة من القيم، أصبح أثراً لا مُبالياً لشخص لم يعد موجوداً، وصار من المشروع، عبر هذا التصور، البحث فيه والنظر، من أجل تشييد بنائه الشخصي، في الخراجات، والقطع، والأجنّة، والأعضاء المشوّهة، أو حفظ جثته المُشرّحة. في عام 1582، أعلن أمبرواز باري عن امتلاكه لجثة بشرية استعملها من أجل إعادة النظر بعلم التشريح بشكل من الأشكال: «أستطيع القول أنني أمتلك جسداً في منزلي، وقد أعطاني إياه الملازم أول المجرم المُسمّى سوجيه، سيد منطقة لا فيريار، وذلك بعد أن نُفِّذَ فيه حكم الاعدام على يد العدالة. إنني أُشرِّح منذ سبع وعشرين سنة مضت، ورأيت تقريباً كل عضلات الجانب الأيمن من الجسد... أما الجانب الأيسر فترك كاملاً بأسره. ولكي أحفظ هذا الجانب بشكل أفضل وخزته بمخز في عدة أماكن، لكي يدخل السائل الى عمق العضلات والأجزاء الأخرى: هكذا رأيت الرئتين كاملتين، والقلب، والحجاب الحاجز، والمعدة والطحال والكليتين، وما يشبه شعر اللحية، وأجزاء أخرى، والأظافر، التي شاهدها بالتأكيد وهي تكبر بعد أن قُصّت عدة مرات»⁽³⁵⁾.

إن اكتشاف الجسد كمفهوم مستقل يتضمن تغيراً في وضع الإنسان. والانتروبولوجيا العقلانية التي أعلنت عنها عدة تيارات في عصر النهضة، والتي تحققت في القرون التالية لم تعد مُدرجة في داخل علم الكونيات. لقد وُضعت خصوصية الإنسان، وعزلته، وأوضحت بشكل مواز، بقية تُسمّى الجسد. لقد كُرسَت المعرفة التشريحية استقلال الجسد والنوع من الوضع في حالة انعدام جاذبية مع الإنسان الذي يجسده⁽³⁶⁾. في «العمل على الأسود» تحكي مارغريت يورسنار قصة

Imago - 1988 - ص : 41. au XVIIe - منشورات

(35) عن ماري فايون : «ولادة الفضولية.. المرجع السابق ذكره - ص : 237.

(36) إن إفراط الطب الحالي بالتخصص في بعض الوظائف أو بعض الاعضاء يتابع اليوم نفس المنطق. ذاك هو التناقض الكبير لكل طب ، هو ليس طب الشخص : هل الانسان هو المريض أم هذا أو ذاك من أعضائه ، أو هذه أو تلك من وظائفه ؟ هل المريض أو المرض هو ما ينبغي

زنون (Zénon)، الشخصية الخيالية ولكن المعقولة، الطبيب وفي نفس الوقت، الكيميائي والفيلسوف، المولود في عام 1510 فقد قام، خلال تجوالاته، بتشريحات سرية، ولا سيما مع زميل مات ابنه منذ مدة وجيزة. ويتذكر زنون: «في الغرفة المُشبعة بالخل التي كُنَّا نشرِّح فيها، لم يُعد هذا الميت يُمثِّل الابن أو الصديق، وإنما فقط المثال الجميل للآلة البشرية...»⁽³⁷⁾. لقد وُلِدَ الطب الحديث في هذا المَكسر الانطولوجي، والصورة التي كوَّنها لنفسه عن الجسد البشري تستمد مصدرها من هذه التصورات التشريحية الصادرة عن هذه الأجساد التي لا حياة فيها، والتي لم يُعد الانسان فيها إنساناً. وهذه إحدى الصور الأخاذة لهذا الانفصال والانسلاخ الانطولوجي: في عام 1560، نشر الاسباني جوان فاليفرد مؤلفه «تشرريح الجسد البشري» (Anatomia del corpo humano) الذي استلهم به أعمال فيسال. إنَّ إحدى منقوشات الدراسة تُظهر تمثال إنسان وهو يُلَوِّح بطرف ذراعه بجلده الشبيه بخرقه، تُكتشف فيها ثقب الوجه. أما يده اليسرى فتُمسِك أيضاً بحزم سكين عذابه الخاص. ولكن، في ذلك الحين، كان فنان قد شقَّ الطريق. فعلى جدار «الحكم الأخير» (Jugement dernier) في كنيسة سكستين (1536 - 1541) صوِّر ميشال انج (Michel-Ange) نفسه بنفسه في شكل تمثال. ورسم وجهه على الجلد المُنتزع من الشهيد القديس بارتيليمي (Saint-Barthélemy) الذي تُمسك به شخصية وقورة، تقف ليس بعيداً عن المسيح - القاضي.

الجسد كبقية

بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولا سيما مع المشروع التشريحي، فُتِحَت الطريق التي تحطُّ من قيمة المعارف الشعبية، وتضفي، بالمقابل، طابعاً شرعياً على المعرفة البيوطبية الوليدة. لقد أصبحت معرفة الجسد وفقاً رسمياً، إلى

= معالجته؟ إنَّ جزءاً كبيراً من الطب الحالي، بنظره غالباً للانسان كظاهرة عارضة لتزييف لا يمس إلّا جسده، يُعلن وفاء لهذا الانقسام الذي بشر به فيسال. إنَّ الحجة المنتظمة التي يُواجه الطب الحديث بها هي أنه يهتم بالمرض (بالجسد، بالعضو المريض) أكثر مما يهتم بالمريض نفسه. إنَّ التاريخ الشخصي للشخص يُعدُّ بلا أهمية.

(37) مارغريت يورسنار (Marguerite Yourcenar) «العمل على الاسود» (L'œuvre au noir) - كتاب الجيب - ص : 118.

هذا الحد أو ذاك، لفئة من المختصين الذين تحميمهم شروط عقلانية خطابهم. إن الثقافة العالمية التي ظهرت حوالي القرن السابع عشر لم تمس إلا أقلية من السكان في أوروبا، لكن هذه الأقلية هي المؤثرة. لقد حوّلت شيئاً فشيئاً الأطر الاجتماعية والثقافية. بينما استمرت التقاليد الشعبية للإشفاء في الحفاظ على تأثيرها، رغم كل العقبات، وفي صيانة معارف عن الإنسان والجسد، تغرف من مصادر أخرى، هي على النقيض من المعرفة التشريحية والفيزيولوجية.

إن الطلاق مع الجسد في داخل العالم الغربي يحيل تاريخياً إلى الانشقاق بين الثقافة العالمية وبقايا الثقافات الشعبية، من النمط الجماعي⁽³⁸⁾. إن المحو الطقوسي للجسد، الذي يُعدّ نموذجياً في الحداثة، يجد هنا مصادره. إن الجسد الذي انحطت قيمته على مستوى الفئات الاجتماعية المميزة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، يبقى في مكانه المركزي، محوراً لانغراس الإنسان في نسيج العالم، بالنسبة للفئات الشعبية. إنّ رؤيتين للجسد تستقطبان المواقف⁽³⁹⁾. الأولى تحط من قيمته، وتبعده، وتنتهي الى تمييزه بصفته، بطريقة ما، مختلفاً عن الإنسان الذي يُجسّده. إن الأمر يتعلق حينئذٍ بامتلاك جسد والأخرى تبقى على الوحدة الجوهرية بين الإنسان وجسده: والمقصود هنا أن يكون الإنسان هو جسده.

إن المعرفة التشريحية تُعزّي الجسد وتأخذه بحرفية المواد التي تضعها تحت المِبْضَع. لقد انقطع الاتصال بين لحم الإنسان ولحم العالم. فالجسد لم يُعدّ يحيل

(38) خلّل ر. موشمبليد جيداً سيرورة التنديد بالمعارف الشعبية على يد الثُخَب في داخل «الثقافة العالمية». «تناقص بدون شك خلال عدة عقود وعي الفئات القيادية لضرورة مهاجمة الكل الثقافي. فمن وجهة نظرهم، لا توجد إلا حضارة واحدة: هي حضارتهم. وفي وجه هذه الحضارة يسود الجهل والخرافات والمفاسد، أي الابتعاد بالنسبة للقاعدة، وهي ابتعاد يجب تصحيحها لكي يُفرض على الجميع نفس الانتماء الى نفس القيم من أجل تأمين استقرار النظام الاجتماعي ودوامه». ر. موشمبليد: المرجع السابق ذكره - ص: 227.

(39) حول أعمال نوربير الياس (Norbert Elias) التي تبيّن إلى أي حد تشهد «آداب السلوك» ومراسيم التصرف الجسدية التي راعتها الفئات الاجتماعية المميزة في علاقاتها مع بعضها البعض، اعتباراً من القرن الرابع عشر، على الاهتمام بتمييز نفسها عن العامة والفلاحين الذين تُعدّ أخلاقهم بمثابة دافع مُبْعَد: أنظر نوربير الياس: «حضارة الاخلاق» (La civilisation des mœurs - منشورات Pluriel - «كتاب الجيب»).

إلا إلى نفسه. وانفصل الإنسان، انطولوجياً، عن جسده الخاص الذي يبدو أنه يقود، وهو مشدود، بالطبع، للإنسان، مغامرته الخاصة. إنه ليس لا مبالياً لكون فيلسوف الـ cogito يُقرّ بافتتانه بعلم التشريح. إن حكاية طريفة تنقل لنا أن ديكارت أجاب زائراً له سألته عن قراءته، قائلاً، وهو يشير إلى عجل مسلوخ على طاولة: «هذه هي مكتبتني». ولتذكّر بهذه الجملة المدهشة من التأملات (Méditations): «سأعتبر نفسي أولاً أن لديّ وجهاً، ويدين، وذراعين، وكل هذه الآلة المؤلفة من عظم ولحم، كما تبدو في جثة أعطيها اسم الجسد». إن صورة الجثة تأتي طبيعياً تحت ريشة ديكارت الذي يشير بذلك إلى غياب القيمة الذي أصبح الجسد موضوعاً له. ويتابع ديكارت وصفه: «سأعتبر علاوة على ذلك، أنني أتغذى، وأمشي، وأحسّ، وأفكر وأحيل كل هذه الأعمال إلى الروح». إن علم القيم الأخلاقية الديكارتي يرفع الفكر، ويقده، في نفس الوقت، الجسد. وبهذا المعنى، تُعدّ فلسفته صدى للعمل التشريحي. فهي تميز في الإنسان الجسد عن الروح، وتعطي للروح الميزة الوحيدة لقيمة ما. إن تأكيد الـ cogito باعتباره وعياً للفرد يركز بشكل موازي على الحطّ من قيمة الجسد. ويشير إلى الاستقلال المتنامي للفاعلين في بعض الفئات الاجتماعية تجاه القيم التقليدية التي كانت تربطها، تضامنياً، بالكون والناس الآخرين. إن ديكارت بوضعه الـ cogito أكثر من الـ cogitamus يطرح نفسه كفرد. إن الإنقسام الذي يُرتّب بين ذاته وجسده نموذجي بالنسبة لنظام اجتماعي يتفوق فيه الفرد على المجموعة. ونموذجي أيضاً غياب القيم الذي يصيب الجسد، الذي أصبح حدّاً فاصلاً بين إنسان وآخر. إن الجسد، بعد كل شيء، ليس إلا بقية.

الفصل الثالث

في أصول تطور حديث للجسد: الجسد المآلة

الثورة الجاليلية

مع المراحل الابيستمولوجية المختلفة الموسومة بأعمال كوبرنيك وبرينو (Bruno) وكيبلر (Kepler)، وجاليله بشكل خاص، مرّ المجتمع «العالم» الغربي، القليل العدد للغاية، ولكن المؤثر، من العالم المغلق للسكولاستيك الى العالم اللامحدود للفلسفة الميكانيكية. لقد انتقل، حسب تعبير كوارى (Koyré)، من «عالم التقريباً الى عالم الدقة»⁽¹⁾. إنه بالأحرى مرور من نمط من المعقولية الى نمط آخر، أكثر

(1) الكسندر كوارى «من العالم المغلق الى العالم اللامحدود» (Du monde clos à l'Univers infini) - باريس - منشورات Gallimard - 1973. من المؤكد أن من غير المطروح أن نُفَصِّل هنا مسيرة هذا التحول الجذري في رؤية العالم الغربي ، التي بدأت في القرن السابع عشر ، وامتدت حتى أيامنا هذه بفعالية متنامية ، على الأقل على صعيد السيطرة على الطبيعة والانسان الذي يُمثِّل مشروعها الأساسي. إننا نحيل هنا الى الأعمال الجذابة لروبير لونوبل (R. Lenoble) وجورج جيسدورف (G. Gusdorf) والكسندر كوارى... فقط تهمننا هنا انعكاسات هذا التغيّر الذهني على التصورات الحديثة للجسد. ومع ذلك فإن من المهم أن نوضح بدقة أن هذا التحول في صورة العالم هو من صنّع «الفئات العالِمة» ، وأن التقاليد الشعبية لن تتأثر به إلاّ ببطء شديد.

دقة بنظر بعض المعايير الثقافية التي أدخلت بقوة للمفاهيم الجديدة الاعتدال والصحة والدقة، الخ. إن ناس عصر النهضة «يعيشون بسهولة في عالم فريد، لم تتحدد معالم الظواهر فيه بشكل دقيق، ولم يضع الزمن فيه، بين الأحداث والموجودات، نظاماً صارماً للتعاقب، ويمكن فيه لمن كف عن الوجود أن يوجد أيضاً، ولا يمنع الموت فيه كائناً من أن يوجد أيضاً. ومن أن ينسحب في كائنات أخرى، شريطة أن يكون هناك بعض التشابه بينه وبين... أولئك الذين ليس لديهم دائماً، وفي كل مكان، يقيننا الغريزي بوجود قوانين»⁽²⁾. ومع القرن السابع عشر وقدم الفلسفة الميكانيكية، فقدت أوروبا الغربية مركزها الديني. فالتفكير حول الطبيعة الذي قام به الفلاسفة أو العلماء تحرر من سلطة الكنيسة، ومن الأسباب السامية، وتموضع في مستوى آخر: على علو الانسان.

ولكن إذا كان العالم قد جعل نفسه على علو الإنسان فبشرط أن يُعقلن الانسان، ويرفض الادراكات الحسية في ميدان الوهم. إن علمي الفلك والفيزياء الجاليليين Galilée يُكتبان في صيغ رياضية. إنهما علّمان مجردان يدحضان المعطيات الحسية والشعور بتوجه الانسان في الفضاء. إنهما أيضاً غريبان جذرياً عن معتقداته الدينية، لأنهما يختزلان مجال الوحي في نقطة صغيرة جداً، تفرق في عالم بلا نهاية. إنهما يجعلان من مكان الإله الخالق أمراً نسبياً. إن غطاء العالم الذي كان يحتوي مشهد الوحي وآلام السيد المسيح تنفتح على الفضاءات اللامحدودة التي كانت تُرعب باسكال (Pascal) كثيراً. لقد حررت الأشكال الجديدة للمعرفة، والفردية الوليدة، وصعود الرأسمالية، بعض الناس من إخلاصهم للتقاليد الثقافية والدينية. وباسكال، الذي تتواجد لديه الروح الهندسية للعالم الجديد، وروح الدقة لدى الفيلسوف الحشّاس لم يتأسس عليه وجود الانسان، عاش بقلق هذا الانقسام بين عصر وآخر... لقد أعطى في «Les Provinciales» صيغة مضيئة من أجل التمييز بين أنماط المعرفة الثلاثة المدعّوة، من الآن فصاعداً، لتفكك جذري. «إن لكل من الأسس الثلاثة لمعارفنا: الحواس، والعقل والإيمان، مواضيعها المنفصلة ومعتقداتها اليقينية في هذا المدى». لكن باسكال يقيس الخطر الذي تجرّه الروح الهندسية على

(2) لوسيان فيبر = «رابليه ومسألة عدم الاعتقاد في القرن السادس عشر» - المرجع السابق ذكره. ص : 409.

الإنسان: فما ينفع الانسان أن يَزِنَعَ العالَمَ إذا فقد روحه.

مع التصدع الابيستمولوجي الذي أدخله جاليله بقوة نهائية، أعطى الرياضيون صيغة العالَم. وأصبح المهندسون السادة الجدد للعمل. في عام 1632، أعطى جاليله، وهو بصدد وصفه، في مؤلفه «الحوار» (Dialoghi)، للقاء تم بين مهندسين في ترسانة مدينة البندقية، كانوا يتباحثون خلاله في نظم العالَم، إشارة التأسيس الرمزي لسيطرة بشرية تماماً على طبيعة حُرِمَت، من الآن فصاعداً، من الأفكار السامية. لقد انقلبت، مع كوبرنيك، وبخاصة مع جاليله، بنية العالَم عن محورها السابق، الألفي، وقُدِّمَت الأرض في فضاء مُغْفَل لا نهائي، صار من المستحيل فيه تعيين مكان الوحي. ولكن كان علم فلك جاليله قد رُفِضَ من قِبَل عدد من وجهاء الكنيسة، الذين يجهلون كل شيء عن علم الفلك؛ ولكن اضطر جاليله، من أجل إنقاذ حياته، لأن يُنَكِرَ اكتشافاته، فإن هذا لم يكن إلاّ حدثاً طارئاً من أحداث التاريخ. إنه الانتفاضة الأخيرة للكنيسة الرومانية من أجل الإمساك بعالَم يفلت أكثر فأكثر من بين أيديها. إلا أن النجاح المؤقت الذي حققته على الرجل لم يستطع إيقاف بث أفكاره عبر أوروبا. إن مرحلة جديدة من المعرفة، كانت بحالة بذرة صغيرة في العصور السابقة (ولا سيما مع نيسال أو ليوناردو) بدأت تقدّمها. إنه الانتقال من العلم التأملي (Scientia contemplativa) الى العلم الفعّال (scientia activa).

إن الأمر، من الآن فصاعداً، لم يعد يتعلق بالتعجب من كرم الخالق في كل من أعماله، وإنما بنشر طاقة بشرية من أجل تحويل الطبيعة أو معرفة الداخل غير المرئي للجسد. وتحت رعاية الرياضيات، صار من المناسب التحقق من الاسباب التي تشرف على تكرّر الظواهر. إن المعرفة العقلانية لقوانينها يجب أن تُعطي للإنسان القدرة على إثارتها على هواه، أو على معارضتها وفق المصلحة التي يجدها في ذلك. إن الطبيعة، المُفَرَّغَة من أسرارها، تصبح «لعبة ميكانيكية» (على حد تعبير روبير لونويل) بين أيدي الناس الذين يشاركون في هذا التحول الابيستمولوجي والتقني. فالمهم الآن أن يصبح هؤلاء «سادة الطبيعة ومُلاّكها». لقد نُقِصَت الاستمرارية بين الانسان وبيئته، والوحدة بين الانسان والطبيعة، لمصلحة خضوع الثانية للأولى بلا جدوى. فمع قدوم الفكر الميكانيكي الذي يؤدي لخلق علاقة سيطرة على مجموع خصائص العالَم، اختفت أناشيد الطبيعة، المقرونة مع ذلك

بأغلبية مفكري العصور السابقة، من أفلاطون الى فلاسفة عصر النهضة⁽³⁾. إن تكريس النموذج الرياضي من أجل فهم معطيات الطبيعة يُقوِّض، لمدة طويلة، الشعور الشعري المرتبط بها. لقد قُطِع التحالف باسم السيطرة. فالمعرفة يجب أن تكون مفيدة، عقلانية، مجردة من المشاعر، ومُنتجة لما هو فعّال إجتماعياً⁽⁴⁾. إنَّ الانسان لم يُعد صدى العالم، ولا العالم صدى الانسان. وبين شخص المعرفة وموضوعها تعود الاتصالات الوحيدة الممكنة للرياضيات. إن الطبيعة لم تُعد العلامة الملائمة التي يندرج فيها وجود الانسان، الطبيعة الاموية، التي تترك فيها مخططات الله، التي لا يمكن النفاذ إليها، دائماً، المكان للمعجزة، والتي لا يُعَدُّ أي شيء فيها أبداً مستحيلاً.

إن السببيّات التي تقوم على المعجزات تستسلم أمام السببيّات الطبيعية، في عالم يُدرك فيه كل شيء وفقاً للنموذج الميكانيكي. إنَّ المنظور اللاهوتي يُمحى. والآلة تعطي صيغة هذا النظام الجديد للعالم: «فالعالم، كما كتب ديكارت، وأعطى بذلك أساس الفلسفة الميكانيكية وبرنامجهما، هو آلة لا مجال فيها أبداً للنظر إلّا لأشكال، وحركات أجزائها». إنَّ الطبيعة تُشَبَّه بمجموعة منتظمة من القوانين ذات الطابع اللاشخصي، والتي لا علاقة لها بالقيم الأخلاقية. فالعالم لم يُعد عالم قيم، وإنما عالم وقائع. وقائع خاضعة لفهم عقلائي، ولمتطلبات الممكن، لأن غير الممكن (Le non posse)، من الآن فصاعداً، لا يمكن أن يُؤلَّد إلّا العدم (Le non esse)⁽⁵⁾ فليس هناك من سيّر لا يمكن للعقل أن يصل الى نهايته.

إن الساعة التي بواسطتها يتحقق اختزال الزمن في انتقال في المكان، والتي تُعَدُّ تعويذة ما لا يمكن إدراكه في ما هو قابل للمسّ، هي الاستعارة المُميّزة، والنموذج

(3) روبير لونوبل : «تاريخ فكرة الطبيعة» (Histoire de l'idée de nature) باريس - منشورات

Albin Michel - 1969 - ص : 326. إنها ستكون شيئاً فشيئاً نهاية نموذج الـ *anima mundi* ، إنه الانتقال من مفهوم ميتافيزيكي للعالم الى مفهوم شرعي وميكانيكي.

(4) على سبيل المثال ، رينيه ديكارت «خطاب المنهج» (Discours de la méthode) - باريس -

منشورات (Garnier- Flammarion) - ص : 53. يضع ديكارت النبرة على المعارف «التي تكون مفيدة جداً للحياة». ويرفض «هذه الفلسفة التأملية التي تُعَلِّم في المدارس». إن المُوجَّه لهذه المعرفة المنتجة ، الخالية من الخُثالة ، هو المهندس.

(5) لوسيان فيبر : المرجع السابق ذكره - ص : 407.

المُتَنَسِّي للفلسفة الميكانيكية (Le mécanisme) ؛ إنها الملجأ الذي يُبرّر دمج كل مظاهر الطبيعة في مجموعة من الدواليب غير المُتغيرة، والتي يمكن التنبؤ بتحركاتها الناشئة عن صدمة أولية وخارجية، لأنها تخضع لقوانين ثابتة. لكن نجاح الفلسفة الميكانيكية يتطلب أن تخضع كل المحتويات التي لا يمكن ظاهرياً اختزالها في هذا النموذج أو أن تُستبعد. إنَّ غزو الزمن بواسطة الساعة، وإضفاء طابع مكاني على الوقت يعرضان صورة حماسية تفيد بأنه ليس هناك في النهاية من شيء يتعذر على الفلسفة الميكانيكية أن تقهره. وبخاصة الانسان، أو بالأحرى، ذاك الجزء المعزول فيه، الذي أصبح جسده.

مع القرن السابع عشر يصل زمن العقلاني الى قسم من الميدان الاجتماعي الذي يقلب النظم الرمزية السابقة. لكن الأغلبية الساحقة من الناس بقيت في نفس اطار الفكر السابق للفكر الكوبرنيكي، حتى ولو كانت قد بدأت تدوي، في وجودها، آثار هذا السلطان الجديد على الطبيعة، ولا سيما من خلال شروط العمل التي يعيشونها في المعامل. إن التصدع الابيستمولوجي الجاليلي ليس إلا موجة سطحية، فالعقليات الشعبية لم تتأثر إلا نادراً بها بالرغم من أنها قلبت نظام العالم.

إن أي شيء لا ينبج من هذه الارادة في السيطرة. وهكذا فإن ديكارت عندما سعى لتعريف طبيعة الأهواء لاحظ أنها ليست إلا إنعكاساً لآليات الجسد: إنها نتيجة لانتقال الأرواح الحيوانية. لكنه ظنَّ أن الإنسان يستطيع أن يتعلم السيطرة عليها: «لست قط من الرأي القائل... بأننا يجب أن نعفي أنفسنا من امتلاك الأهواء، بل يكفي أن نجعلها خاضعة للعقل» (من رسالة الى اليزابيت بتاريخ ١ أيلول / سبتمبر 1645). ويحلّل روبير لونوبل بدقة المقدمات الفرضية لمثل هذا الموقف: «إن الهدوء الموضوعي للتقني الذي هو في صراع مع مشكلة توازي القوى، يحل محلّ الأسئلة المضطربة للأخلاقي، القلق من أسباب الخطيئة، (ديكارت)»⁽⁶⁾. إننا نعثر لدى مكيافللي أو هوبس على أوضاع قريبة الى حدّ ما، لكنها مُطبّقة على الأهواء السياسية. إن حركة الفكر الذي يسعى لاختزال مجموع حركات العالم، أو اضطرابات الوضع البشري في مجموعة من القوانين الموضوعية، وفي تكررات يمكن التنبؤ بها، أخذت بالانطلاق في القرن السابع عشر، ولن تكفّ مطلقاً عن ممارسة تأثيرها فيما بعد.

(6) روبير لونوبل : المرجع السابق ذكره. ص : 335.

الجسد في الفلسفة الديكارتية

إنَّه إنسان الـ Cogito وليس إنسان الـ cogitare أو الـ cogitamus، إنسان الـ «من أجلي، أنا...»، إن ديكارت يطرح نفسه بوضوح كفرد. إن الشك المنهجي الذي يُؤسَّسه في «الخطاب» هو المثال الأكثر وضوحاً على ذلك. فديكارت ينتمي لعصر بدأ الفرد فيه يصير بنية مهمة في المجتمع، ليس في مجموعته بالطبع، وإنما في أهدافه الأكثر نشاطاً. وعلاوة على ذلك، فإنه إنسان التسكع عبر أوروبا. الإنسان الذي يختار، باستمرار، المنفى، إن لم يكن المنفى الداخلي، من خلال انتظام الشك المنهجي، والذي لا يمكن لجسده الخاص ألاَّ يبدو، في نظره، كحقيقة مُبهمة. إن هذا الانتباه الحذر الذي يحمله للجسد هو موقف المسافر المُعجَّبه، حيث سيكون على الجسد الذي لا يُختزل، والذي يتعب، أن يُعَدَّل باستمرار عادات رفاهيته وطرق وجوده، الخ. إن ديكارت يُخلِّد هذا الشعور بالازدواجية، المؤقت دائماً إذا وضعنا أنفسنا على مستوى الحياة اليومية، ويجعل منه مطلقاً في شكل ثنائية. لكن بين الازدواجية والثنائية ستمتد هوة، لأنه إذا بقيت الأولى مشدودة للحضور البشري، بلا نتيجة، فإن الثنائية تعطي للجسد استقلالاً، وتُمَيِّز القطب الروحي في شكل مطلق. إن هناك، بالتأكيد، أكثر من شعور المسافر هذا، أو المنفى إرادياً؛ فالمنطق الاجتماعي والمنطق الثقافي اللذان أدَّيا إلى تفكيك الشخص وأوضحا الجسد، من خلال الصورة السلبية، هما سابقان لديكارت. إن الفلسفة الديكارتية هي فلسفة تُلهِم حساسية العصر، لكنها لا تُؤسَّسها. إنها ليست من صنع رجل واحد، لكنها انطلاقة من كلام رجل تُبلور تصوُّر العالم المتفشي لدى الفئات الاجتماعية الأكثر تقدماً.

وسيعود لديكارت، الذي سيعيش بالحاح فرديته الخاصة واستقلاله، أن يلفظ بطريقة رسمية بشكل ما الصيغ التي تميز الإنسان عن جسده، بجعله من هذا الأخير حقيقة مستقلة، هي علاوة على ذلك، مُحقَّرة وتابعة بصفة بحتة. إن الثنائية الديكارتية ليست هي الأولى التي تقوم بعملية قطع بين الروح (أو النفس) والجسد، لكن هذه الثنائية من نوع آخر، إنها لم تُعَدَّ تقوم على أرض دينية، فهي تُسَمَّى مظهراً اجتماعياً جلياً أشرنا أعلاه لمراحله: اكتشاف الجسد الغربي؛ وجعل كتف الجسد حداً لفرديته الخاصة. ففي مجتمع يمارس فيه الطابع الفردي آثاره الأولى البليغة، يجعل انغلاق الشخص على ذاته من الجسد حقيقة مُبهمة وعلامة على فرديته.

إن الفرد، ثمرة الانقسام الاجتماعي، يجد نفسه مقسوماً، من الناحية

الأنطولوجية، بين جزأين متنافرين: الجسد والروح اللذين تلحمهما الغدة الصنوبرية. إن البعد الجسدي للشخص يتلقى كل عبء خيبة أمل اللاقيمة. وبالمقابل وكما لو كان ينبغي أن يُحفظ للانسان قسطاً من ألوهية، بالرغم من خيبة أمل العالم التي أخذت بالظهور، فإن الروح بقيت تحت وصاية الله. لقد أثقل الإنسان بجسده تضرّر، بالرغم من النظر اليه كآلة، من عدم كونه قابلاً للتشغيل بشكل كافٍ ودقيق في إدراكه الحسي لمعطيات البيئة. إن العقلاني ليس فئة من فئات الجسد، وإنما هو إحدى الفئات الممكنة للروح. وهنا تكمن، في نظر الفلاسفة الميكانيكيين، من جهة أخرى، صفته الأكثر بروزاً. وبما أنه ليس أداة للعقل، فإن الجسد المتميز عن الحضور البشري مُهيأً للحقارة. إن الفكر، بالنسبة لديكارت، مستقل كلياً عن الجسد. إنه يتأسس على الله؛ ومثوله في النفس يركز على الاستبعاد المزدوج للطفل وللمجنون، الذي لم يكن بالامكان التفكير فيه قبل عدة عقود: «نظراً لأن ملكة التفكير هامة لدى الأطفال، ولأنها عند المجانين ليست، في الحقيقة، مُطفأة، وإنما مضطربة، فإنه لا يجب التفكير بأنها مرتبطة كثيراً بالأعضاء الجسدية، وأنها لا يمكن أن توجد بدونها. لأن مِمَّا نراه غالباً بأن هذه الأعضاء تعيقها، لا يُنشج أبداً أنها تُنتجها»⁽⁷⁾.

إن الثنائية الديكارتية هي امتداد للثنائية الفيسالية. ففي كليهما يتجلى اهتمام بالجسد المُتزاخ عن الشخص الذي أعاره وجوده ووجهه. فالجسد يُرى كتاباً للشخص، وينزلق في سجل الملكية، ولم يعد غير قابل للانفصال عن الحضور البشري. لقد انقطعت وحدة الشخص، وهذا الانقطاع يُعيّن الجسد كحقيقة طارئة، غير جذرية بالفكر. إن إنسان ديكارت هو لاصق تتجاوز فيه روح لا تستمد معناها إلا من التفكير، وجسد أو بالأحرى آلة جسدية، يمكن اختزالها لمداها فقط⁽⁸⁾.

وبالرغم من الصعوبات التي لا تُحصى التي واجهها من أجل تبرير هذا الانفجار لدى الإنسان، كتب ديكارت في «التأمل السادس» (La Méditation sixième): «بناء

(7) رينيه ديكارت: «خطاب المنهج» - المرجع السابق ذكره - ص: 206.

(8) على صعيد آخر، تتواجد «الثنائية» بين الإنسان وجسده في المعامل الأولى حيث «العمل الفئات»، الرتيب، المُنهك، القليل الأجر، لا يلتبس لدى العامل إلا قوته الطبيعية، جسده، وليس هويته كإنسان. إن ماركس سيجعل من هذا الاغتراب للعمل تحليلاً عظيماً، أشار فيه بشكل خاص إلى خرافة أغريبا (Agrippa) التي تحوّل فيها إنسان إلى واحد من أعضائه.

عليه، وحتى لو علمت بيقين أنني موجود، وأنني مع ذلك لا ألاحظ قط أنه يخصّ بالضرورة أي شيء آخر بطبيعتي أو جوهري، إلا أنني شيء يفكر، فإني استنتج بقوة أن جوهري يكمن في هذا فقط، وإني شيء يفكر، أو مادة ليس كل جوهرها أو طبيعتها إلا أن تفكر. ومع أن لديّ ربّما (أو بالأحرى بالتأكيد، كما سأقول أحيانا) جسداً أقرنُ به بشكل وثيق جداً، لأنّ لديّ، من جهة أولى، فكرة واضحة ومتميزة عن نفسي، بصفتي فقط شيء يفكر وغير ممدود، ولأنّ لديّ، من جهة أخرى، فكرة متميزة عن الجسد، بصفته فقط شيء ممدود ولا يفكر قط، فإنّ من المؤكد أنني، أي روحي، التي بها أكون من أكون، متميز كلياً وبشكل حقيقي عن جسدي. وأنها يمكن أن تكون أو توجد بدونها»⁽⁹⁾. وفي «الخطاب» تتضمن صياغة اليقين من وجوده الخاص من خلال الـ cogito القدرة الكلية للفكرة، وتثير صعوبة الجمع، رغم كل شيء، بين الجسد وهذه الفكرة. إن طبيعة الإنسان ليست ملائكية، وديكارت يناضل ضد عقبة لا يمكن تجاوزها، هي استحالة النظر للإنسان خارج انغراسه الجسدي. إنه لم يقم إلاّ بملاحظة أن الاتحاد الجوهري بين الجسد والروح يمثل ديمومة الحياة. «لا أنكر مع ذلك، كتب في تأملاته، أن هذه الصلة الوثيقة بين الروح والجسد التي نختبرها في كل يوم لن تكون سبباً لكي نكتشف بسهولة ومن دون تأمل عميق التمييز الحقيقي الكائن بينهما»⁽¹⁰⁾. ويُفصّل ديكارت، في مكان آخر، الفكرة القائلة بأنه إذا أخذنا عضواً من الجسد، اليد على سبيل المثال، فإنها لن تكون مادة ناقصة إلاّ إذا رُبّطت بالجسد، لكنها، بالمقابل، تُعدّ في حد ذاتها مادة كاملة. «وكذلك، يخلص الى هذا الاستدلال الفريد، فإن الروح والجسد مادتان ناقصتان، عندما تُربطان بالإنسان الذي يتألف منهما. لكن، عندما يُنظر لهما بشكل منفصل، تكونان مادتين كاملتين»⁽¹¹⁾.

لقد جُعِلَ الجسد، من وجهة نظر القيم الأخلاقية، غريباً عن الإنسان، ونُزِعَ عنه طابع التقديس، وأصبح مادة لتقصّيات جعلت منه حقيقة مستقلة. إن ولادة نزعة إجتماعية، على المستوى الجماعي، يتفوق فيها الفرد على المجموعة، تتوافق مع

(9) رينيه ديكارت : «تأملات ميتافيزيكية» (Méditations métaphysiques) باريس - منشورات

PUF - 1970 - ص : 118 - 119.

(10) ر. ديكارت : المرجع السابق - ص : 206.

(11) ر. ديكارت - المرجع السابق - ص : 202.

القدوم الحديث للجسد. كما أن انكماش مفهوم الشخص سلط على الجسد إضاءة مُبهمة وسمته، كما قلنا، بأنه «عامل تفرد»، وحدّ للشخص. لكن من المحتم أن نلاحظ أن الجسد أصيب بمؤشر مُخفّض القيمة⁽¹²⁾. إن ديكارت يدفع المفارقة لحده رفضه الاعتراف بنفسه: «إنني لست قط هذا التجميع للأعضاء الذي يُسمّى الجسد البشري». لقد سبق أن أشرنا إلى المقطع من التأملات الذي مثّل فيه ديكارت، من دون أن يطرف بعينه، جسده بجثة. إنّ الجسد يبدو في فكر القرن السابع عشر كأنه الجزء الأقل إنسانية في الإنسان، الجثة في حالة تأجيل لا يستطيع فيها الإنسان أن يتعرف على نفسه. إن وضع الجسد في حالة انعدام الجاذبية هذه من وجهة نظر الشخص تبدو كإحدى المعطيات الأكثر دلالة للحدثة. لئذُكر كم أن هذا التمييز الانطولوجي بين الجسد والروح ليس مفهوماً بوضوح إلاّ من قِبل رجال الفئات المميزة والعالمية في الطبقة البرجوازية. أما الفئات الشعبية فتندرج في تقاليد بعيدة جداً، ولا تعزل الجسد عن الشخص. إن أبايستمولوجيا القرن الثامن عشر (باتباعها الطريق الذي فتحه فيسال بشكل خاص في مجال مسألة الجسد) التي ستُصخب تطوراتها اللاحقة القيم والممارسات العلمية والتقنية للحدثة، ارتبطت دائماً مع هذا الطلاق مع الجسد. طلاق أيضاً، وهو أمر له دلالاته البليغة، مع الخيال الذي يُعدّ بحد ذاته قوة وهم، ومصدراً ثابتاً للأخطاء. إنّ الخيال، علاوة على ذلك، هو ظاهرياً، نشاط غير مفيد، غير مُنتج ولا عقلائي؛ إنه خطايا كبيرة بالنسبة للفكر البرجوازي الفتّي. إن الخيال، بكلمة واحدة، هو أمر فائض بمقدار ما هو الجسد.

(12) أنظر على صعيد آخر أعمال نوربير الياس، المذكورة سابقاً. لقد أعدت بعض شرائح الطبقة البرجوازية أصولاً وقواعد جسدية صارمة للسلوك بدأت بوضع الجسد على مسافة بعيدة، واعتبرت مُحترقاً كل ما يرافقه بفظاظلة الوجود الجسدي للإنسان: كالجشاء والضراط والبصاق الخ... ونظمت بطريقة مضغوطة جداً حصة الجسد في الميدان الاجتماعي. وأبدعت «هذا الهلع من الاحتكاك» (على حدّ تعبير الياس كونتي) الذي ما زال يميز النزعة الاجتماعية الغربية المعاصرة. كما بدأ النشاط الجنسي نفسه بطرح بعض المشاكل. لقد سبق لمونتاني (Montaigne) أن انتفض قائلاً: «مَنْ يصنع فعل اللحم...». هنا نرى أيضاً كم شغلت مسألة الجسد الفئات المميّزة في مجتمع عصر النهضة والقرن السابع عشر التي وصلت الى درجة واسعة من الاستقلال في أعمالها. وتفرّدت، وكَبَتْ على الجسد، ونظّمت بدقة طقوس التفاعل الاجتماعي.

الجسد الفائض

تجعل المعقولية الميكانيكية من الرياضيات المفتاح الوحيد لفهم الطبيعة. وعليه فإن الجسد يُصبح موضوعاً للشك. إن العالم الذي نعيشه ونحس به، كما يبدو بفضل النشاطات الحسية، يفقد حظوته لصالح عالم معقول، ومفهومي بشكل بحت. وكما هو حال الخيال، تُعدّ الحواس خداعة. وعليه فإنه لا يمكن أن نؤسس عليها أقل يقين عقلاني. إنَّ البداهة الحسّية لم يُعدّ بإمكانها أن تبلغ بسهولة، وعلى الفور، حقائق الطبيعة. فهذه الحقائق صارت موضوعاً لإبعاد وتهذيب وحساب عقلاني. وأصبح من الواجب نزع الحثالات الجسدية التي يمكن أن تكتسبها. لقد أعطى ديكارت مثلاً بارزاً ومشهوداً عنها في التأمل الثاني (La Méditation seconde) من خلال مثال قطعة الشمع. فعندما تكون هذه القطعة مُجمّعة حول الفتيلة تبدي، بشكل بديهي، عدداً من الصفات المحسوسة، التي لا يمكن، ظاهرياً اختزالها: الشكل، الرائحة، الحجم، القوام، الخ. ولكن حين إشعالها تبدأ قطعة الشمع بفقدان قوامها الأول، وتنتشر بشكل سائل، وتصبح ملتهبة، وتختفي رائحتها، الخ. وبالنهاية، تبدو الصفات المعطاة عنها بواسطة الحواس وهمية: فلا اللون، ولا الرائحة، ولا القوام تبقى هي نفسها. ومع ذلك فإن قطعة الشمع موجودة هناك. إن ديكارت يجرد الخيال من كل امتيازاته في هذا الصدد. وحقيقة قطعة الشمع لا يمكن كذلك للخيال أن يبلغها إلا بواسطة الحواس. إنَّ الشيء الوحيد المهم هو «قوة الحكم الوحيدة التي تهيم في روعي». ومن المناسب عزل لحظة تملك العقل للعالم من خلال استبعاد «الشهادة المتغيرة للحواس أو للأحكام الخداعة للخيال». فعُبر الغموض الذي تغذيه حواس الانسان وخياله، يشقّ العقل طريقاً، ويُبدّد الالتباسات، ويفرض حقيقته المجردة ضد البديهيّات المحسوسة. إنَّ الوصول الى الحقيقة يكمن في نبش المعاني من حثالاتها الجسدية أو الخيالية. إن الفلسفة الميكانيكية تُعيد بناء العالم انطلاقاً من فته المفكّرة. وهي تفصل بين العالم المسكون من قِبَل الانسان، والذي يمكن لشهادة الحواس أن تبلغه، والعالم الحقيقي الذي لا يمكن بلوغه إلا من قِبَل العقل فقط. إن نتائج مثل هذا الطلاق واضحة تماماً، بالرغم من كل شيء، لديكارت. وهو سيعود إليها في «أجوبته على الاعتراضات الخمسة» (Réponses aux cinquièmes objections).

وكما أقام باسكال ثلاث مراتب للحقيقة وفقاً لزاوية الاقتراب من الظاهرة: أي وفق الحواس، أو العقل أو الإيمان، فإن ديكارت يعلن عن إدراكه لحقيقة الأشياء من زاوية

الحياة اليومية، وإدراك آخر لها من زاوية العقل: «لكنه يجب أخذ الحذر من الفرق الكائن بين أعمال الحياة والبحث عن الحقيقة، التي تُبَيَّن في الذهن عدة مرات. لأنه، عندما يتعلق الأمر بسلوك الحياة، فسيكون شيئاً مضحكاً تماماً ألا يتم اللجوء للحواس. ولهذا يحصل أننا نسخر دائماً من هؤلاء الشكاكين الذين كانوا يُهمَلون، إلى هذا الحد، كل أشياء العالم، والذين كان ينبغي أن يكونوا محروسين من قِبَل أصدقائهم، لكي يحولوا دون أن لا يرموا أنفسهم بأنفسهم وسط تغيُّرات فجائية»⁽¹³⁾. وبنفس الطريقة يكتب ديكارت الى اليزابيت «إنه، فقط باستخدام الحياة، والمحادثات العادية، وبالامتناع عن التأمل وعن دراسة الأشياء التي تمارس الخيال، نتعلم كيف ندرك إتحاد الروح والجسد» (28 كانون الثاني / يناير 1643). لكن الفلسفة لا تُفهم إلا وهي جذرياً منفصلة عن الجسد؛ ويعطي ديكارت في بدء «التأمل الثالث» هذه الصيغة الساطعة: «سأغلق الآن عيني، وأسد أذني، وأحوّل كل حواسي، وسأمحي حتى من فكري كل صور الأشياء الجسدية، أو على الأقل، ولأن هذا يمكن بالكاد أن يحصل، فإنني سأعتبرها باطلة أو خاطئة». إن هذه الجملة ترنّ كأنها بيان للابستمولوجيا الميكانيكية. فهي تضيف صفة شرعية على التمييز الجاري بين الإنسان وجسده. إن الانقطاع بين الحواس والحقيقة يبدو اليوم وكأنه البنية المؤسّسة للحدثة، بالرغم من مقاومة الرومانسيين، والتحليل النفسي وعلم الظواهر الهوسرلي (La phénoménologie husserlienne). إن الإلتقان التقني يعمق أكثر فأكثر هذا التباعد. لقد أعطى سبينوزا صيغة مضيئة للمعرفة الجديدة. فهو يرى أنه ليس بعيون الجسد يجب حلّ رموز أسرار الطبيعة، وإنما «بعين الروح»⁽¹⁴⁾. إن الجسد أصبح فائضاً.

إن الطبيعة، في نظر الفلاسفة الميكانيكيين، لم تُعد الشكل الحي لعصر

(13) ر. ديكارت : «تأملات ميتافيزيكية» - المرجع السابق ذكره - ص : 227.

(14) يقابل ديكارت في «التأملات» (ص 60) بين الشمس المحسوسة التي تتخوف منها عيون الانسان ، والشمس الفلكية. فالعيون ترى صغيراً ما سيقدّر عالم الفلك «أنه عدة مرات أكبر من كل الأرض». إننا نجد لدى سبينوزا نفس الصورة ، مُطبّقة على المسافة. فعيون الإنسان ترى الشمس قريبة جداً ، «على نحو مئتي قدم» ، في حين أن شمس العلم تُعلّمنا أنها توجد على مسافة تبلغ «أكثر من ستمئة مرة قطر الكرة الأرضية». أنظر : سبينوزا (Spinoza) - «علم الأخلاق» (Ethique) - باريس - منشورات Garnier-Flammarion - 1965 - ص : 109.

النهضة، فهي مؤلفة من عدد كبير من المواد المتداخلة، والخاضعة بشكل متبادل لقوانين مقدسة. إنها تمتد في حيز هندسي، غريب بشكل مطلق عن الفئات الجسدية، حيز يمكن فقط لإدراك يقظ جداً أن يدخله. لقد ساهمت سلسلة من الاكتشافات، كالاكتشاف التيلسكوب أو الميكروسكوب على سبيل المثال، واكتشاف المطبعة، وبداية الميكانيكية، أيضاً في فصل نشاط الحواس عن نشاط العقل. مع هذه التأملات التقنية المختلفة التي تُوسّع سيطرة الانسان المنفعي على العالم الذي يحيط به، ظهر استعمال آخر للحواس، لكنه مُنفصل عن الجسد. فالانسان يتوصل لرؤية كواكب محجوبة عن تقويم النظرة وحدها. إنه يدرك البعيدة للغاية والصغيرة للغاية. وهذه الاكتشافات تُعَدّ بمثابة تأكيد تجريبي، بالنسبة للميكانيكيين، على عدم كفاية قدرات الحواس البشرية.

«العالم آلة لا مجال فيها للنظر إلا إلى أشكال وحركات أجزائها». هذه هي الصيغة، التي أعطاها ديكارت، والتي تتكثف فيها الفلسفة الميكانيكية. فبالنسبة لهؤلاء الرجال المُبْعِدِينَ جذرياً عن مصادر وروح عصر النهضة، لم تُعَد الطبيعة إلا شكلاً فارغاً، يُديرها إله ميكانيكي أو حاسب. إن العالم يتألف من دواليب غير مُتغيّرة، لكنها ساكنة في حد ذاتها، وبدون ديناميكية خاصة بها. والحركة تأتيها دائماً من الخارج (ومن هنا أتت فكرة الدفعة المشهورة التي أعطاها الله عند لحظة الخلق). إن كل حركات العالم ستكون نتيجة لهذه الدفعة: تلك هي رؤية ديكارت⁽¹⁵⁾. إن الفلسفة الميكانيكية تركز بالفعل على ثنائية بين الحركة والمادة. فالزمن والمدة لا يظهران في هذا النظام إلا بطريقة لها طابع مكاني (الساعة). والانسان هو موضوع لنفس الانقسام بين الروح، مُوجّه الحركات، والجسد، المادة، الآلة التي تنعكس فيها حركات الروح.

لقد تراقق قدوم النموذج الميكانيكي، كمبدأ لفهم العالم عقلياً، مع انتشار

(15) يلاحظ كلود تريسمونتان أن ديكارت ، ومن بعده مالبرانش (Malebranche) وهيوم (Hume). لم يدرسوا من بين مختلف الحركات الممكنة إلا حركة الانتقال ، أي الحركة الأكثر بُعْداً عن الجهاز العضوي للانسان (L'organisme). «إنّ العالم الديكارتي هو عالم «أشياء» ، أي مواد مُصنّعة. إنه يتميز بجهل كلي لما هو عضوي. فديكارت يخلط ما بين العضوي والميكانيكي ، أي ما بين الخلق والصنع». أنظر ك. تريسمونتان : «بحث في الفكر العبري...» - المرجع السابق ذكره - ص : 32.

الآليات بكل أنواعها منذ القرن السادس عشر، كالمطبعة والساعة، على سبيل المثال، اللتين أعطتا للانسان شعوراً بالقوة على العالم المجهول في السابق. وبنفس الطريقة، فإن تمثيل الجسد ووظائفه بهيكل ميكانيكي يفترض أسبقية بناء الأجهزة الآلية (Les automates) الماهرة التي يبدو أنها تكفي نفسها بنفسها في مجال حركاتها⁽¹⁶⁾. إن إضفاء طابع رياضي على الظواهر الطبيعية لم يُوفّر دائرة البيولوجيا. فالكائن الحي أُخضع لنموذج الآلة واستند فيها كلياً.

إن هذا النموذج يتضمن أيضاً تطبيقات اجتماعية جديدة دشنتها البرجوازية والرأسمالية الوليدة وتعطشها للغزو. فإرادة السيطرة على العالم لم يكن بالامكان حينذاك التفكير بها إلا بشرط تعميم النموذج الميكانيكي. فإذا كان العالم آلة، فإنه سيكون على مستوى تحدي المهندس وصاحب المشروع. أما الجسد، المُفكر بعقل، الاقليدي، فإنه على النقيض من الـ uoris، الجسد التعاقبي، القابل للاستعمال من قِبَل العلوم الوليدة، المُحقّر القيمة بصفته تلك. الأمر الذي يُبرّر العمل الجزئي والتكراري في المصانع حيث يلتصق الانسان بالآلة من دون أن يتميز عنها بشكل حقيقي. إنه جسد الانسان المُجرّد، الذي يُسمَح بالتفكير به. بدون تحفظ، وفق نموذج الآلة.

الحيوان - الآلة

إن الثنائية بين الفكر والجسد، وتفوق الأول عبر الـ cogito، يؤديان لاستنتاج الطبيعة الجسدية البحتة للحيوان، الذي يُطرح بصفته مجرداً من اللغة والتفكير. إن سلوك الحيوان يُصنّف تحت نموذج الآلة. فالحيوان شكل للجهاز الآلي. إن ديكارت

(16) جورج كانجيلهم - «الآلة والجهاز العضوي للانسان» (Machine et organisme) في «معرفة

الحياة» (La connaissance de la vie) باريس - منشورات Vrin - 1965 - ص : 104.

(17) إنها فرضية موعودة بحظوة تاريخية محترمة حتى أيام بافلوف (Pavlov) والسلوكيين

(Behavioristes)، لقد تقدم هذا المفهوم وما زال يساهم في رؤيتنا للحيوان - أنظر جان

بودريار (Jean Baudrillard)، «الحيوانات : أرض وتحولات» (Les bêtes: territoire et

métamorphoses) في صور وصوريات (Simulacres et simulations) جاليله، 1981.. أنظر

أيضاً الصفحات المُتَوَرِّدة لجورج جيسدورف : «الثورة الجاليلية» (La révolution galiléenne) - المجلد 2 - باريس - منشورات Payot - 1969 - ص : 148.

يؤسس نظرية الحيوان - الآلة⁽¹⁷⁾، في الجزء الخامس من الخطاب. فإذا كانت الحيوانات لا تتكلم، فذلك لغياب التفكير لديها، أكثر مما لأنه تنقصها الأعضاء المؤاتية. إن آلية أعمالها تُستنتج من نقص حرية التصرف لديها، وهذا النقص ينجم عن طبيعة تنظيم أعضائها، وليس عن استعمال العقل. وعلاوة على ذلك، فإن إسناد فكر لها قد يعني إعطاءها روحاً، وهي فرضية رفضها ديكارت. إن نظرية الحيوان - الآلة تُعبّر عن حساسية عصر (أو بشكل أكثر دقة، بعض الشرائح الاجتماعية في عصر، هي تلك التي تبلور الثقافة العالمية)، وتعمل بطريقة المكان المشترك. إن ميرسن (Mersenne) يُعلن نصّها أيضاً في مؤلّفه «الانسجام العالمي» (Harmonie universelle) الذي يبيّن فيه اندهاشه من تركيب وحركات ذبابة صغيرة، «بحيث أنه لو كان بالامكان شراء رؤية كل النوايض الموجودة في هذا الحيوان الصغير، أو حتى تعلّم فنّ صنع الأجهزة الآلية أو الآلات التي لديها هذا المقدار من الحركات، فإن كل ما أنتجه العالم أبدأً من ثمار وذهب وفضة لن يكفي من أجل الثمن العادل للرؤية البسيطة للنوايض المذكورة»⁽¹⁸⁾. تلك هي المآثر المدهشة للإله الميكانيكي.

ويتغير ديكارت، المُنكر لكل حساسية تجاه الحيوان، نتيجة التشريعات، التي لا تُحصى، التي أجراها طوال حياته على الحيوانات، بغية فهم «آلة الجسد» بشكل أفضل. (إنه يُغيّر أيضاً الإنسان لقيامه بهذه العادة الدنيئة، ورجال العلم لتجريبهم على أنفسهم: كيف يمكن لآلية أن تعرف الألم؟). وفي رسالة له يُعلن ديكارت أنّ «رأيه ليس بمثل هذه القساوة على الحيوانات، وليس ورعاً تجاه البشر، المتحررين من خرافات الفيتاغوريين، لأنه يُزيّهم من الشك بالخطأ في كل مرة يأكلون فيها أو يقتلون الحيوانات» (رسالة الى مورس، 12 شباط / فبراير 1649). إن الحيوانات وبطريقة ما البشر يلتحقون هكذا بالطبيعة تحت نفس النموذج الآلي. فكلاهما طُهرًا من كل آثار حيوية (Hylozoïstes). إن نزع طابع القداسة يصل لكل الميادين التي يمكن للوضع البشري أن يبلغها، بما في ذلك الكائن الحي. لقد اتفقت العقلية المستنيرة على جعل عمل التحويل الجذري للطبيعة، والتجريب على جسد الانسان أو الحيوان الذي لا يشير أي سخط أخلاقي، أمرين ممكنين ويمكن التفكير بهما.

(18) مذكور في روبير لونوبل، «ميرسن أو ولادة الفلسفة الآلية» (Mersenne ou la naissance du mécanisme) - باريس - منشورات Vrin - 1943 - ص : 54 - 75.

الجسد على غرار الآلة

بالرغم من محاكمتها العقلية الملتوية من أجل البرهنة على اتحاد الروح والجسد، لم توقّر الثنائية على الانسان هذا الانزلاق نحو النزعة الآلية. فالجسد، إن لم يكن الانسان كله، هو، في نظر ديكارت، آلة. إن الإنسان، في إثر الـ cogito، يبدو بشكل جهاز آلي تحرّكه روح. «وكما الساعة مؤلّفة من دواليب وثقالات... أعتبر كذلك جسد الانسان» (التأمل السادس). إن كل تماثل ساعاتي قوي يعمل كنموذج من أجل تفسير حركات النجوم وكذلك حركات الطبيعة أو حركات الجسد البشري. «إن الجسد الحي يختلف عن جسد الانسان الميت بمقدار اختلاف ساعة، أو أي جهاز آلي آخر، عندما تدور، عن نفس الساعة، أو الآلة الأخرى، عندما تتوقف، ويكفّ مبدأ حركتها عن العمل» (بحث في الإنسان - Traité de l'homme).

صحيح أن علم الفيزيولوجيا وعلم التشريح عند ديكارت علّمان تقريبيان، وفيهما العديد من الفجوات، كما لوحظ غالباً، لكن أهمية هذه الملاحظة تبقى ثانوية. فالعنصر البليغ يكمن أكثر في تعرية الجسد، ونزع الطابع الرمزي عنه ؛ وهذا ما تحقق في السابق على يد المُشرّحين. لكن الفلسفة الميكانيكية تمثّل هذا العنصر من خلال الاختزال الميكانيكي، والقبول بطلاقها مع الانسان الذي يعطيه هذا القبول قوامه. إن الجسد البشري آلة ميكانيكية يمكن تمييزها عن الآلات الأخرى من خلال خصوصية دواليبها فقط ؛ إنه، بالأكثر، ليس إلا فصلاً في علم الميكانيك العام للعالم. إن واقع تجسيد الحضور البشري، في هذا العلم، لا يزوده بأية ميزة. ويدفع ديكارت، في «بحث في الانسان»، بعيداً الاستعارة الميكانيكية: «يمكن بقوة، وبشكل حقيقي، مقارنة أعصاب الآلة التي وصفتها لكم، بأنابيب آلات هذه الينابيع ؛ وعضلاتها وأوتارها بمختلف الأجهزة والنوابض التي تُستخدم لدفعها، وأرواحها الحيوانية بالماء الذي يُحرّكها، والتي يُعَدّ القلب منبعها وتجويفات المخ نظراتها. وعلاوة على ذلك، فإن التنفس والأعمال الأخرى التي تقوم بها بشكل طبيعي وعادي، والتي تتعلق بمجرى العقول، فهي مثل حركات ساعة أو طاحونة يمكن المجرى العادي للماء أن يجعلها تدور باستمرار». إن الجهاز العضوي ليس فقط مقطوعاً عن الإنسان وإنما هو محروم، بالاضافة لذلك، من أصلاته، ومن غنى أجوبته الممكنة. فالجسد هنا لم يُعَدّ إلا كوكبة أدوات تتفاعل مع بعضها البعض، وبنية دواليب جيدة الإحكام، وبدون

مفاجآت. ولئن لم يكن الجهاز العضوي البشري متخصصاً كما يمكن أن تكون عليه الأداة أو الآلة الميكانيكية، ولئن كان الجسد والحضور البشري يُشكلان كلاً واحداً، فهذا مما لا يثير أيّ اعتراض. لقد رأينا سابقاً أن الحواس، والخبرة التي تكونت لدى الإنسان عن العالم، لن تكون مصادر قابلة لتشغيل المعرفة إن لم يقم العقل مُسبقاً بتطهيرها. إنَّ العقل يتابع حرمانه للجسد من خلال اختزاله لجهاز آلي.

ويبرزه، من جهة أخرى، للشعور بالقدرة الكلية التي تكتسح الفلاسفة الميكانيكيين، فإن الجهاز الآلي الناشئ عن أيدي الصانع الماهر، يقدم نفسه كصورة للخلق. إن الإنسان يبدو مخلوقاً أقل مما يبدو منافساً للإله الميكانيكي. إن ديكارت يُعطي بالكاد لله ميزة كونه صانعاً أكثر براعة من الصُناع الآخرين: «... كل جسد هو آلة، والآلات المصنوعة من قبل الصانع الإلهي هي الأفضل إحكاماً، وإن لم تكفَّ مع ذلك عن أن تكون آلات. فليس هناك، إن لم ننظر إلا إلى الجسد، أي فرق مبدئي بين الآلات المصنوعة من قِبَل البشر، والأجساد الحية التي أنشأها الله. إنه ليس هناك إلا فرق من حيث الإتيان والتعقيد» (خطاب في المنهج، ص: 102).

«علم تشريح سياسي»

«إنَّ تكنولوجيا سياسية للجسد»، مُحلَّلة جيداً من قِبَل ميشال فوكو تمثِّل الاستعارة الميكانيكية لتصل الى داخل حركات الجسد، وتعقلن قوة العمل التي يُدعى الشخص لبذلها، وتُنشِّق في المؤسسات (المعامل، المدارس، الشكّات، المستشفيات، والسجون، الخ) تراكم الأجساد وفق حساب يجب أن يؤدي الى انقياد الاشخاص، والى الفعالية المرغوبة للعمل الذي شُرِعَ به. إن الجسد، باعتباره موضوعاً من بين مواضيع أخرى، ربما يتميز عنها فقط بجموح أكبر ناشئ عن كونه جسداً بشرياً، وخاضعاً بالتالي لذاتية لا يمكن التنازل عنها، يخضع لمبدأ ترتيب تحليلي يسعى جاهداً لأن لا يُغفل أي تفصيل.

إن الأنظمة تفرض نفسها في القرنين السابع عشر والثامن عشر «كصيف عامة للسيطرة» (على حد تعبير ميشال فوكو)، مدعومة لمستقبل مزدهر. «لقد كُتِبَ كتاب الانسان - الآلة الكبير، كما قال ميشال فوكو، في سجلّين، في آن واحد، السجلّ التشريحي - الميتافيزيكي الذي كان ديكارت قد كتب صفحاته الأولى، ثم أكمله الأطباء والفلاسفة، والسجلّ التقني - السياسي، الذي تكوّن من مجموعة كاملة من

القواعد العسكرية والمدرسية والاستشفائية، ومن الطرق التجريبية والتي فُكِّرَ بها من أجل مراقبة أو تصحيح عمليات الجسد... إِنَّ الإنسان - الآلة لدى لا مِتري (La Mettrie) هو في نفس الوقت اختزال مادي للروح، ونظرية عامة للتقويم، يسود في مركزهما مفهوم «الانقياد»، الذي يَصِلُ الجسد القابل للاستعمال بالجسد القابل للتحليل⁽¹⁹⁾. هكذا تُضاف الى مفهوم عقلاني للعالم، وبدءاً من القرنين السابع عشر والثامن عشر، عقلنة تُرْهِقُ للجسد ولمواقفه، وتحليل اجتماعي لعمله الذي يُدرج العلاقة الطبيعية للإنسان مع جسده في ازدواجية سيأخذها ماركس بالحسبان بقوة، من خلال صورة الإنسان المُخْتَزَل في عضو واحد من أعضائه، المُستعارة من أغريتا (Agrippa).

إن ديكرت يعطي ضماناً فلسفياً للاستعمال الادواتي للجسد في قطاعات مختلفة من الحياة الاجتماعية. فالميتافيزياء التي شرع بها برصانة تجدد، فيما يتعلق بالعالم الصناعي، مُنْقَذُها المميز في تايلور (وفورد) الذي ينجز في الواقع الحكم الذي لفظه ديكرت بشكل ضمني. إن شبيه الآلة الذي هو الجسد سيُصَفُّ مع آلات الإنتاج الأخرى، من دون أن يستفيد من أي تساهل خاص. إن الجسد هو «زائدة حيّة للآلة» مع هذه البقية الضرورية والمزعجة التي هي الإنسان الذي يجسده. لكن الرجل، بالفعل، يعمل أقل مما يعمل هذا الجزء أو ذاك من أجزائه المُجَبَّرَة على التكرار غير المُحِلِّ لنفس الحركات. إن شارلي شابلن يقوم في «الأزمة الحديثة» بنقد مثير للإعجاب لهذا التحويل للإنسان إلى آلة. ويلاحظ ج. كانجيلهم، في إشارته لأعمال جورج فريدمان، «أن الحركات التقنية الزائدة، وهي حركات بيولوجية ضرورية، كانت أول حجر عثرة صادفه هذا التشبيه التقني للحيوان البشري بالآلة»⁽²⁰⁾. لقد عرفت الاستعارة الميكانيكية للجسد حظوة تاريخية كبيرة بالرغم من حدودها الضيقة، والنقد الذي استطاعت أن تكون موضوعاً له. إننا سنجد لها ثانياً، غالباً، في طريقنا أثناء هذا المسار المتعرج وسط الحداثة.

(19) ميشال فوكو (Michel Foucault): «المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن» (Surveiller et punir, Naissance de la prison). منشورات Gallimard. 1975. ص : 138. من أجل تحليل مُعمَّق للأنظمة نحيل الى هذا المؤلف.

(20) جورج كانجيلهم مرجع سبق ذكره ص 126.

انفتاحات

منذ القرن السابع عشر بدأ انقطاع مع الجسد في المجتمعات الغربية. إن وضعه بصفته موضوعاً بين مواضيع أخرى، بدون جدارة خاصة، واللجوء المبذل منذ هذا العصر الى الاستعارة الميكانيكية من أجل أخذه بالحسبان، والأنظمة، والترميمات التصحيحية التي تتضاعف⁽²¹⁾، هي من بين المؤشرات التي تسمح باستشفاف الشك الذي يُثقل على الجسد، والإرادات المتناثرة المبذولة من أجل تصحيحه، أو تعديله إن لم يكن بالامكان إخضاعه كلياً للميكانيكية. إن تصوراً تخيلياً خادعاً ضمناً، غير قابل للصياغة بالتأكيد، يكمن تحت هذه المؤشرات ؛ انه تصوّر يستهدف إلغاء الجسد، ومحوه. بلا قيد ولا شرط ؛ إنه الحنين لوضع بشري لم يُعدّ يدين بشيء للجسد، مكان السقوط.

إن التقنية والعلم المعاصرين يندرجان ضمن الخط المستقيم لهذا المسعى الذي لم يُكذّب مطلقاً منذ ذلك الحين: كيف نصنع من هذا المُفْسِد الذي هو الجسد موضوعاً قابلاً للتشغيل، وجديراً بالطرق التقنية والعلمية. إن العلم يدخل في علاقة مزدوجة بشكل مدهش مع الجسد: إنه النموذج المضاد له، فهو يحتويه، ويسعى للتخلص منه، وبنفس الوقت يسعى باستمرار لفسخه ثانية بوسائله الخاصة وبطريقة غير موفقة. إن كل تاريخ العلم لم يكن ربما إلاّ تاريخ التصحيحات الجارية على نواقص الجسد (في نظره)، الشَّطَبَات التي لا تحصي للهروب من طابع المؤقت وحدوده. إنه أيضاً إغراء من الخالق لأن يُقلَّد ويُؤثَّر عليه تقنياً. إن واجهة أخرى، أكثر بدھية دوماً، تنكشف اليوم: إن الصراع ضد الجسد يكشف بنيته المُخَبَّأة، والمكبوت

(21) «في القرن السابع عشر ضاعف العلم الجراحي بطريقة حاسمة الأمثلة على الأجهزة المُصَحَّحة. لقد بسط الفكر الميكانيكي الجديد خصوبته على جسد أصبح هو نفسه آلة. وتضخمت الترسانة العلاجية فجأة بالأجهزة ، التي ، بالرغم من دواليبها الخشنة والبدائية ، كانت تستهدف التصحيح. لقد كان ينبغي أن يُبتذل المجال الجسدي ، وأن تنعم الميكانيكية لكي تولد مثل هذه الاقتراحات». جورج فيغارللو (G. Vigarello) مجموعة ألعاب مُصَحَّحة : شواخص للتاريخ (Panoplies redresseuses: Jalons pour une histoire) في «Traverses» العدد 14 - 15 (مجموعة ألعاب الجسد) 1979. ص : 121. أنظر أيضاً لنفس المؤلف : «الجسد المُصَحَّح» (Le corps redressé) - باريس - منشورات Delarge - 1978.

الذي كان يدعمه: الخوف من الموت. إن تصحيح الجسد، وصنع ميكانيك منه، وربطه بفكرة الآلة يعني التخلص من هذا الأجل، ومحو «خفة الكائن التي لا يمكن دعمها» (على حدّ تعبير م. كاندورا). إن الجسد هو مكان الموت في الإنسان. أليس هذا ما غاب عن ديكارت، بشكل هفوة، عندما فرضت صورة الجثة، في «تأملاته»، نفسها فجأة على تفكيره من أجل تسمية وضعه الجسدي: «اعتبر نفسي أولاً أن لديّ وجهاً، ويدين، وذراعين، وكل هذه الآلة المؤلفة من عظم ولحم، كما تبدو في جثة، أطلقت عليها اسم جسد». إنها صورة مزعجة أكثر كلما كانت ضرورية أقل. وحتى شاذة.

إنّ دمج الجسد في الفلسفة الميكانيكية يتعرّض بالمتبقي الذي كان مُكرهاً على إهماله تحت طائلة إبطاله، وهو الانسان. فالتعقّد اللاهائي للوضع البشري المرتبط بالبعد الرمزي هو حدّ يصطدم به التشبيه الشائع بين الجسد (أي الفرد) والآلة. إن الجسد المُجابه بطرق العقلنة هذه يبدو كحيوان يسكن في قلب الكائن، الذي لا يمكن إدراكه، إلا بطريقة مؤقتة وجزئية. إن الجسد هو الأثر، الذي يعود تاريخه لآلاف السنين، للأصل غير التقني للإنسان.

إنها غلطة المصادر التي تسعى عدة طرق جاهدة لتصحيحها. إن الدمج الميكانيكي للجسد البشري، الذي يترك بشكل غريب العمق البشري جانباً، يُعبر، في الحداثة، عن الجدار الوحيدة التي من الممكن إسنادها للجسد. إن إعجاب الجراحين أو البيولوجيين أمام الجسد الذي حاولوا أن يُدخلوا إليه الألغاز، أو الإعجاب الأكثر براءة للإنسان الجاهل يُترجمان بنفس الصرخة: «يا له من آلة عجيبة، هذا الجسد البشري». إننا لن نعتدّ المؤلفات أو الفصول التي تشهد على هذا الدمج. فاللغة الشائعة تجعل منه شيئاً مقبولاً. إننا لن نعرف كيف نُعبر بشكل أفضل عن إندهاشنا اليوم من توصيل الجسد بالآلة. لقد تغلبت الفلسفة الميكانيكية تاريخياً على الرؤى الأخرى للجسد. ولحم الانسان يُحمل على الحيرة، كما لو كان على الانسان أن يهبط عن حقيقة قليلة المجد. إن الاستعارة الميكانيكية المُطبقة على الجسد تُرث كما لو أنها تعويض من أجل إعطاء الجسد جداراً لم يكن ليمتلكها لو بقي مجرد جهاز عضوي.

الفصل الرابع

اليوم، الجسد....

ما هو حال التصورات الحالية للجسد في المجتمعات الغربية ؟ لقد رأينا أن العقلانية الوليدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر جدّدت بشكل جذري معايير المعرفة. فما هو حقيقي لم يعد مُستمدّاً من الإرث السلفي للأساس الثقافي. والمعرفة - الحِسِّيّة، جزئياً، المرتكزة على التقاليد، والشائعة، بشكل مُحتمل، بين مجموع الجماعة، استُبدلت شيئاً فشيئاً بمعرفة الاختصاصيين، المؤهلين الوحيدين لتقويم معايير ما هو حقيقي إنطلاقاً من مجموعة من القواعد التي تتطلع لصلاحية مستقلة عن الثقافات، وعن التاريخ. لقد أُعلن الطلاق إذن بين المعارف الشعبية للجسد، التي ما زالت نشطة حتى في أيامنا هذه، ولا سيما عبر تقاليد الإشفاء، والثقافة العالِمة، ولا سيما البيوطبية (Biomédicale).

المعرفة البيوطبية

إنّ الحديث عن الجسد في المجتمعات الغربية اليوم، يؤدي لإثارة الإشارة للمعرفة التشريحية - الفيزيولوجية التي يتركز عليها الطب الحديث. ويفترض هذا الأمر وجود إجماع حول المعرفة والتطبيقات التي تتضمنها، مع نسيان «أن المجتمعات ليست مطلقاً مثلما تبدو أو تزعم أنها تكون، فهي تُعبّر عن نفسها على مستويين، على الأقل ؛ الأول سطحي، يُظهر البنى «الرسمية»... والآخر، عميق، يفتح باب الدخول الى العلاقات الحقيقية، الأساسية أكثر، والى الممارسات المُوحية بديناميكية النظام

الاجتماعي»⁽¹⁾. إن المعرفة البيوطبية هي التصور الرسمي، بشكل ما، للجسد البشري اليوم. فهي التي تُعَلِّم في الجامعات، وعليها تركز مخابر البحث، وهي التي تؤسس الطب الحديث... ولكن بما إنها عنصر من الثقافة العالمية، فإنها معرفة خفية قليلة الانتشار بين صفوف المعاصرين.

وفي الواقع، فإن كل فاعِل، في المجتمعات الغربية اليوم، يعيش مع معرفة ضبابية، الى حد ما، عن جسده. فكل فرد تلقى شيئاً من المعرفة التشريحية والفيزيولوجية وهو على مقاعد المدرسة أو الثانوية، وذلك من خلال النظر الى الهيكل العظمي في قاعات الدرس، والى اللوحات الموجودة في القاموس، أو من خلال استيعاب المعارف المبتذلة التي يتم تبادلها يومياً بين الجيران والأصدقاء، والتي تأتي من التجربة المُعاشاة أو من الاتصال مع المؤسسة الطبية، أو بتأثير من وسائل الاعلام، الخ. لكن هذه المعرفة تبقى مُبهمة. ونادرون. هم الاشخاص الذين يعرفون حقيقة مكان الاعضاء، ويفهمون المبادئ الفيزيولوجية التي تبنى عليها مختلف الوظائف الجسدية. وهذه معارف أكثر من بدائية بالنسبة لأغلبية الاشخاص. وهم لا يعتمدونها في الواقع إلا بطريقة سطحية. أما في ما يتعلق بالوعي الذي لديه عمّا يُؤسّسه فيزيائياً، وعمّا يصنع الداخل السري لجسده، فإن الشخص يلجأ، بشكل مواز، للعديد من المراجع الأخرى.

المعارف الشعبية للجسد اليوم

إن اللجوء الى ممارسات ما زالت حتى وقت حديث مطبوعة بالشك، بالخرافة، والجهل، والمكر، الخ، يشهد على العُوز الحالي للمراجع وجاهزيتها حتى بالنسبة لأشخاص ينتمون بتكوينهم وفتتهم الاجتماعية الى عالم غريب جذرياً عن هذه المعارف. حتى إنسان المدينة الذي يأخذ طريق الريف (أو يصادف مُعالجاً تقليدياً في مدينته نفسها) لا يبحث فقط عن شفاءٍ فُتِلَ الطب في إعطائه له، وإنما يجد أيضاً في اتصاله بالمُعالِج كشفاً عن صورة لجسده أكثر جدارة بإثارة اهتمامه من تلك التي تقدمها له المعرفة البيوطبية. إنه يكتشف، في الحوار مع المُعالِج، بُعداً رمزياً يشير

(1) جورج بالاندييه: «حس وقوة» (Sens et puissance) باريس - منشورات P.U.F - 1981 -

اندهاشه، حوار سيلاحقه التساؤل غالباً لمدة طويلة بعد ذلك. إنه يُغني وجوده بذرة رمزية.

إن المعارف عن الجسد التي يمكن تبنيها في التقاليد الشعبية عديدة، وهي غالباً ضبابية إلى حد ما. فهي تركز بالأحرى على المهارات أو على آداب السلوك التي ترسم بشكل مجوف صورة ما للجسد. لكنها أولاً مع ذلك، وكما قلنا سابقاً، معارف عن الإنسان. فالجسد فيها لا يُنظر إليه مطلقاً بصفته متميز عن الإنسان، كما في المعرفة البيوطبية. إن هذه المعارف التقليدية لا تعزل الجسد عن الكون؛ إنها تتمفصل على نسيج من الاتصالات، يُظهر أن نفس «المواد الأولية» تدخل في تركيب الإنسان والعالم.

لقد كرّست إيفون فيرديه، في دراسة حديثة عن التقاليد التي بقيت حية في قرية مينو الصغيرة بمنطقة البورجونني، صفحات جميلة لتحليل الفيزيولوجيا الرمزية للمرأة، ولا سيما أثناء عاداتها الشهرية. فخلال هذه الأيام القليلة بالفعل، لا تنزل المرأة مطلقاً إلى القبو الذي تخزن فيه المؤن الغذائية للأسرة: كاللحم المُملح، والمُخلّلات، وخوابي النبيذ، الخ... وذلك تحت طائلة إفساد الأطعمة التي تمسّها بطريقة لا يمكن معالجتها. ولنفس الأسباب، لا يُقتل الخنزير مطلقاً أثناء الفترات التي تكون فيها المرأة بهذه الحالة.

إن التأثير المُثِّلِف للدم الذي ينزف منها يمتد أيضاً للمهام التي تقوم بها عادة في المنزل. فقد أعلنت امرأة لفيرديه: «من المستحيل صنع الحلويات والكريمات! كما أن المرأة لا يمكن أيضاً أن تصنع المايونيز أو تُرْكَب البياضات النظيفة. فهذه المهام لن تستقيم»⁽²⁾. إن صلات رمزية وثيقة تُنسج بين جسد المرأة وبيئتها، وتؤثر على العمليات الطبيعية أو على أعمالها المعتادة، كما لو كان حينذاك للجسد، المُتحوّل من خلال سيلان الدم، القدرة على الانتشار خارج حدوده، لكي يغيّر أيضاً ترتيب أمور الحياة. «خلال دوراتها، تلاحظ إ. فيرديه، ونظراً لكونها غير خصيبة، تعطل النساء كل عملية تحوّل تستدعي الإخصاب: لنفكر بالبيض، والكريمات،

(2) إيفون فيرديه (Yvonne Verdier): «طرق القول، طرق العمل» (Façons de dire, façons de faire) - باريس - منشورات Gallimard - 1979 - ص : 20.

والمستحلبات، والصلصات، والسمن، وكل ما يجب «أن يستقيم». إن حضورها سيؤدي لإجهاض كل هذه المظاهر البطيئة للحمل التي يُمثّلها امن في إناء التملّيح، والنبذ في الدنّ، والعسل في الخلية» (ص 37). إن الجسد يشبه حقل قوة في حالة رنين مع ما يقترب منه. إنّ الجسد، في التقاليد الشعبية، يكون على اتصال دائم بالعالم، إنه قطعة غير منفصلة عن العالم. وهذه المعرفة لم تختفِ بشكل تام من الريف، بالرغم من أنها اليوم مجزأة أكثر.

عديدة هي أيضاً مفاهيم الجسد التي تهيم على تفسير الاضطرابات أو الأمراض، والتي تُعيد الوضع البشري إلى وصاية الكون. منها طب التواقيع (Médecine des signatures)، كما نظّره باراسلس (Paracelse) خلال القرن السادس عشر، والذي ما زلنا نجده ثانية في المعتقدات الشعبية التي تؤمن بأن عنصراً معدنياً أو نباتياً يُفترض أنه يساعد على الشفاء من مرض ما لأنه يحتوي في شكله، أو عمله أو مادته بعض التشابه مع العضو المُصاب أو مع مظاهر المرض (على سبيل المثال: الكستناء الهندية التي تساعد على اختفاء البواسير، وحجر اليشب الأحمر الذي يوقف نزف الدم، الخ). والمفهوم الذي نجده ثانية في شكل قريب، في أسس الطب التجانسي (L'homéopathie) ؛ والرؤية الفلكية للجسد التي تدرج الأعضاء تحت تأثير الكواكب السيّارة عبر نسيج من الاتصالات: يبدو الإنسان فيها كعالم صغير. إن نفس العناصر المكوّنة تدخل في تركيب الإنسان والعالم، ولهذا فإن القوانين التي تتحكم بسلوك الإنسان تتركز على صفات الكواكب وحركاتها. إن المُنوّم المغناطيسي ينقل عبر حركة الأيدي طاقة تُحيي المناطق المريضة، وتعيد ثانية للجسد حالة الانسجام مع تيارات بيئته. إن الجسد البشري هنا عبارة عن حقل قوة خاضع لتحولات ومتغيرات يمكن للشافي أن يقاتلها. إن إحصائي المعالجة بإشعاع التمعنط يسجل بواسطة بندوله الطاقة المتصاعدة من النسيج، ويستجوب أداته من أجل تحديد تشخيصه بدقة، وذلك من خلال طرح أسئلة مباشرة عليه، يقوم بالاجابة عليها من خلال دورانات يعرف الممارس معناها. كما يلور مُضمد السر، بالصلاة التي يتم بها، والمُنتقة مع حركات دقيقة يرسمها على جسد مريضه، قوى خيّرة تُسكن المرض. وكذلك يفعل المُوجّه (لامس وساحر النار، الخ) الذي تكمن سلطته في قطع نار الحرق، والشفاء منها من دون أن تترك أي أثر على الجلد. إن مضمد السر أو ساحر النار ليس لدهما أي معرفة خاصة بالجسد البشري، إلاّ أنهما يمتلكان بالأحرى

مهارة مكتسبة بفضل النقل من مُطَبِّب قديم أو بواسطة موهبة شخصية. إنهما يضعان قيد العمل فعالية رمزية، من دون أن يهتمَّا بأسباب الاضطراب أو بأساليب عمل الأعضاء. فالأشياء الوحيدة المهمة في نظرهما هي الإيمان الذي يستثمرانه في عملهما، والصلوات التي يهتمون بها. أما المعتقدات الشعبية فتكتفي من جهتها بالحكم على الآثار الخيرة التي حثَّ عليها هذان المُطَبِّبان، وبالتماسها⁽³⁾.

إن اندماج الانسان في holisme العالم يُعبِّر عن نفسه أيضاً من خلال الاتصال الملائم ببعض الأحجار، والينابيع، والسواقي، والأشجار والنصب الحجرية القديمة والنصب التاريخية الخ.. التي يفترض أنها تساعد على شفاء أولئك الذين يسعون إليها. ونفس المنطق نجده في اللجوء الى القديسين المُطَبِّبين الذين تتجه تقاليدهم اليوم للضياع، تماماً كتقاليد الأماكن المُساعدة التي تحدثنا عنها أعلاه.

إن الخرافة الشعبية ترجع الى القدر السيئ الذي رماه حاسد، والذي يعطل جسد الضحية أو يغطّسه في الشقاء بإصابته لأسرته أو لأمواله. إن رامي القدر استطاع أن يستعمل، من أجل ضمان نفوذه، قلامة ظفر، أو براز أو شعر عائد لضحيته. ويتركز حضور الشخص هنا كلياً في القطع الدقيقة المأخوذة من جسده. إن «السحر الجذّاب» يفترض كمُسلّمة وجود صلة نهائية بين العناصر التي كانت في يوم ما على اتصال، ولا سيما المواد المترعة من الجسد (الأظافر، الخ) ؛ أما «السحر بالتقليد» (حيث يتم العمل على دمية تشبه الضحية، الخ) فيؤثر فيه الشبيه على الشبيه. وعبر هذين المنطقين، يجعل اللحم من نفسه شيئاً يمكن للسحر أن ينفذ اليه وينتهكه. إنَّ الجسد، في السحر الشعبي، لا يُحاصر داخل حدود جلده، وكل ما يصنع الهوية الاجتماعية للانسان: أي أمواله، وأقربائه ومواشيه، الخ. فالجسد لا يُعَدُّ مقطوعاً عن الشخص، إنّه يُجسّد وضعه، ويبقى متضامناً مع كل المواد التي تنفصل عنه أثناء حياته. إن القطعة المأخوذة من الجسد تضمن إذن رمزياً حدوث التأثير على وجود الضحية.

(3) من أجل وصف أكثر عمقاً للمعارف التقليدية للجسد ، نحيل الى فرانسواز لو (Françoise Loux) :

«الجسد في المجتمع التقليدي» (Le corps dans la société traditionnelle) -

باريس - منشورات Berger- Levrault - 1979 - وتحت إشراف ف. لو : «مضمدو السرّ

والألم» (Panseurs de secret et de douleur) - مجلة Autrement - العدد 15 - 1978.

هكذا نلاحظ عبر هذه الممارسات التقليدية المختلفة وجود صلة رمزية وثيقة بين البشر ومحيطهم.

زينة المسرح

سلبت المعارف العلمية حول الجسد هذا الأخير من كل قيمة ذات طابع أخلاقي. ووضعت عارياً على غرار النموذج الميكانيكي. وفي هذا يكمن إفلاس انثروبولوجي ستستفيد منه معارف أخرى حول الجسد، سيلجأ إليها أشخاص فاعلون وهم في صدد بحثهم الواعي، إلى هذا الحد أو ذاك، عن إضافة روحية، ليست هنا في الواقع إلا إضافة رمزية.

إن الطابع الفردي للعديد من قطاعات الحياة الاجتماعية الغربية يترك الأشخاص أحراراً، نسبياً، في اختياراتهم، وذلك عبر خضوع شكلي لسلسلة من القواعد. لكن كل هذا لا يتم من دون انعكاسات على الطريقة التي يتصور الأشخاص بها أجسادهم. إنَّ العالم العقلاني «غير قابل للسكن» هنا حيث ينقص البعد الرمزي. أما العالم الخائب الأمل فيتطلع إلى روحانيات جديدة، لا تخلو غالباً من صورة ظاهرية، هي موضوع لاستثمار نفساني كبير، وتقوم على تشكيلة واسعة من تصورات جسدٍ مُقتلَع الجذور من أرضه الأصلية، تستند إلى فلسفة وأتماتٍ الحياة كانت تعطيها معنى، مُبَسَّطة أحياناً حتى الكاريكاتور، ومُتحوِّلة إلى طرق تقنية.... إن سيرورة إعادة ترميز بدأت بالتَّمرُّس. إن المخيال يأخذ هنا بثأره من خلال إعادة القيمة للجسد. لقد ربط الانقطاع الابيستمولوجي الجاليلي مصيرهما بعد أن رمى كل منهما في نفس الإهانة، ولهذا فإنهما سيحرران نفسيهما بنفس الحركة.

إن الإنسان العامي يُلقى على جسده معرفة متعددة العناصر تشبه زينة المسرح (Le manteau d'Arlequin)، معرفة مصنوعة من مناطق ظل، وعدم دقة، وغموض، ومعارف تقريباً مجردة يضيف عليها بعض التضاريس. وغالباً ما تُعَدَّل الصيغة العامة للنموذج التشريحي الفيزيولوجي بواسطة المعتقدات المُبتدلة اليوم حول الأمواج والطاقة والكواكب، الخ. إننا نشهد في المجتمعات الغربية تعدداً في التصورات، المُنظَّمة إلى هذا الحد أو ذاك، حول الجسد، والمتنافسة مع بعضها البعض.

إنَّ كُلَّ فرد «يحيك» رؤيته الشخصية للجسد، ويُحكِّم صياغتها بطريقة معقدة، من دون اهتمام بالتناقضات أو بعدم تجانس الاستعارات. ونادراً، بالفعل، ما يبدو هذا

التصور متماسكاً إذا قارنا العناصر التي يتألف منها. إنَّ المريض، في الوقت الحاضر، يتوجّه أولاً الى طبيب عام أو الى أخصائي في العضو أو الوظيفة التي تجعله يتألم. وهكذا يعتمد في البداية الأسلوب التشريحي - الفيزيولوجي للجسد. لكن نفس هذا المريض، الأمين على الميل الذي يقود الى إخفاقات الطب التي يلتمسها المُطَبِّب، يمكن فيما بعد أن يلجأ الى مُنَوِّم مغناطيسي أو الى مُضَمِّد سرّ، بل أن يتوجّه الى أشكال الطّبّ «العذبة» ويستشير طبيباً تجانسياً، أو معالِجاً بطريقة الوخز بالابر. وهذا من دون أن يهتم بواقع أنه ينتقل هكذا، وبدون تماسك، من رؤية الجسد الى رؤية أخرى.

ويمكن لنفس الشخص أن يعكف، من جهة أخرى، بشكل نظامي، على ممارسة اليوغا أو التأمل وفق طريق الزنّ (Zen)، وأن يتمنى أن يتدرب على طريقة التدليك الصيني أو الياباني التي يمكن أن يقترحها عليه، بإشراف، نادي التنشيط الثقافي في حيّه، كما يمكنه أيضاً، وبشكل مواز، القيام بتحليل نفسي إذا ظنَّ أن الجسد يُبلور الألعاب البارعة واللاواعية للرغبة والكبت.

وفي كل يوم، يمكن لنفس الشخص أن يقرأ في صحيفته المحلية البيانات الاعلانية للممارسين الذين يعرضون عليه خدماتهم: كالمُؤمّن المغنطيسيين، والاختصاصيين في المعالجة بإشعاع التمعنط، والنُشَاك (وجميعهم بعيدون عن الأرض الأصلية لهذه الممارسات، وغالباً ما يكونون مكرّين أكثر مما هم مُطَبِّبين)، والعَرَّافين، والمشعوذين، والمُنَجِّمين الفلكيين وغيرهم من الميتافيزيكيين، الخ... وإذا ما سُكِبَ أيضاً في الوسط «النفساني»، فإنه سيستطيع، بالشكل الموافق له، أن يقوم بدورة تدريبية في مجال الطاقة الحيوية، وغيره من مجالات المعالجات الجسدية التي تقوم على نماذج نظرية مختلفة.

جماعة ضائعة ؟

إنَّ المعاني المُعلَّقة بالانسان وبجسده بدأت تعوم، وتتزوج فيما بينها بلا تمييز، وتتطعم ببعضها بشكل متبادل. وهذه الحركة لم توفر المفاهيم الشرقية الكبرى. فاليوغا، والشَمَّانِيَّة (Le Chamanisme)، والزنّ، والوخز بالأبر، والتدليك، من مختلف التقاليد، والفنون الحربيّة، اختزّلت لبعض الأفكار البسيطة، لقبضة من الصيغ

(*) مذهب عبادة الطبيعة والقوى الخفية.

النموذجية، ولحركات بدائية ؛ لقد تحولت الى مجرد تقنيات جسدية. وبدأت تعوم في حالة انعدام جاذبية، وتستعد لكل الانحرافات.

إنّ هذه الطرق العديدة التي تستثمر اليوم سوق المعالجات أو الخيرات الرمزية هي، مع ذلك، غريبة جذرياً، بل وحتى متخاصمة. لكنها لا تعيش في حالة تناقض بالنسبة للأشخاص الذين يسعون فقط للوصول الى فعالية العلاج. ولئن وجدوا الشفاء بفضل هذا المفهوم أو ذاك للجسد، فإن هذا لا يقودهم أبداً للانتماء اليه مرة واحدة وللأبد.

إنّ هناك ميل كبير للاعتقاد بأن نموذج الجسد الذي كرّسته المراجع البيوطبية يستحوذ على الإجماع. إلاّ أن المعارف حول الجسد، سواء أتت من الشرق، أو من كاليفورنيا، من زمنٍ ولّى، أو أنها أدت الى التكنولوجيات المتقدمة في بعض المستشفيات، هي اليوم مقبولة على حيدٍ سواء. لقد أصبحت الألبسة المريحة التي نلبسها في صدف النشاطات الشخصية أو طلب المعالجة. ومع ذلك، فإن من الصحيح أن الإنسان الريفي في الماضي، أو حتى في بعض المناطق الريفية اليوم يُكرّ أيضاً من مضمد السرّ الى رافع القدر، أو من المُنوّم المغناطيسي الى الورع تجاه القديسين المطيبين، من دون أي اهتمام بتماسك الموقف. إنّ عدة طبقات من المعارف الخاصة بالجسد تكسّ فوق بعضها البعض، والشخص، في بحثه عن العلاج الفعّال، لا يتحرّج أبداً من الانتقال من نموذج شافني لآخر، حسب سمات اضطرابه، لكن الإنسان في هذا السياق التقليدي، يغرف وفقاً لمواقفاته الشخصية ولمعارفه التجريبية من داخل مجموعة من طرق العلاج التي تحوز على موافقة الجماعة بأسرها. وكل طريقة من هذه الطرق تساهم في النسيج الاجتماعي والثقافي الذي يؤمّن للإنسان ألفة نظرتة عن العالم. إن التماسك النسبي في المواقف الذي كان يتجلّى في المجتمعات التقليدية، والذي ما زال حياً، طوعاً أو كرهاً، في المناطق الريفية، يُمحي أمام نماذج مؤقتة، أكثر قرباً من الملتصقات السيريالية، عندما ندخل في المجتمعات الحديثة.

إن الإنسان الفاعل في البلاد الغربية يخلق المعرفة التي لديه عن جسده، المعرفة التي يعيش معها يومياً، إنطلاقاً من إسقاط من نماذج غريبة، مهضومة جيداً الى هذا الحد أو ذاك، وذلك من دون أن يهتمّ بملاءمة الاستعارات. إن الإفراط في الصور

الحالية للجسد لا بد أن يُذكر بالجسد المُقَطَّع للإنسان المصاب بالفصام. إن للشخص نادراً صورة متماسكة عن جسده، إنه يُحوَّل هذا الجسد إلى نسيج مبرقش من مصادر مختلفة. فأي نظرية حول الجسد لا تشكل موضوعاً لإجماع لا عيب فيه. إن الفرد، الذي لديه حرية الاختيار بين عدد غفير من المعارف الممكنة، يتذبذب بين معرفة وأخرى من دون أن يجد مطلقاً تلك التي تناسبه كلياً. إنَّ حرّيته كفرد، وقدرته على الخلق تتغذيان من عدم اليقين هذا، ومن البحث الدائم عن جسد ضائع، هو في الواقع بحث عن جماعة ضائعة (أنظر: الفصل 1 و2).

الفصل الخامس

تجميل الحياة اليومية

الحياة اليومية والمعرفة

إنّ الواقع الاجتماعي لا يُجمّد مطلقاً، ويُخلّد، ويصبح بالتالي موضوعياً، إلّا بطريقة مؤقتة. إنّه حيّ، ومنسوج في داخل شبكة من العلاقات التي لا تكون مطلقاً ثابتة بشكل حقيقي، بل تبحث دائماً عن علاقة جديدة. إنّ كثرة وقائع وحركات الحياة اليومية تُطْلِقُ في هذا الصدد تحدّياً من العسير دعمه. لقد تبيّن جورج بالاندييه جيداً، وربما بلمسة سُخرية، إنّ علم اجتماع الحياة اليومية «يتصنّع النظر للنسخة السلبية... إنه يتحدّد بدقة من خلال ما يتجنب النظر اليه، أكثر مما ينظر إليه»⁽¹⁾. إنّ لانهاية الحياة اليومية (لانهايتها أيضاً) ليست مفهوماً لاهوتياً، وإنما هي إثبات متذل لهروب الزمن، ولتراكم يوم فوق آخر مختلف عنه بشكل طفيف، لكن عمله يُساهم، ببطء أو بقسوة، حسب الظروف، في تحويل الحياة اليومية. إنها أيضاً إثبات لتعقد الموضوع وللتعدّد غير المُملّ لمعانيه.

إنّ الحياة اليومية هي الملجأ المضمون، ومكان الاشارات المُطمئنة،

(1) جورج بالاندييه : «محاولة للتعرف على الحياة اليومية» (Essai d'identification du quotidien- في «الدفاتر الدولية لعلم الاجتماع» (Cahiers internationaux de sociologie) المجلد LXXIV -1983- ص : 5.

والمجال الانتقالي (على حد تعبير ويتيكوت) للراشد. إنها الملجأ الذي يشعر فيه بأنه محمي وسط نسيج صلب من العادات والروتين، خلقه بنفسه مع الزمن، من مجريات معروفة جيدة، ومحاطة بوجوه مألوفة. في هذا المكان تُبنى الحياة العاطفية والعائلية، والمهنية وروابط الصداقة، ويُحَلَم الوجود. وهنا أيضاً تخدم آثار الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية التي تُضَيِّرُ بالعلاقات الحميمة، وتُناقش وتُكَيَّف مع الحساسيات الفردية. وهنا أخيراً تكون نوايا الفاعلين ملكات، ويحس كل فاعل بأنه سيد نفسه، بعكس الميدان الاجتماعي الذي يفرض السلوك والقواعد التي لا تحوز دائماً على انتماء الجميع. إنّ الحياة اليومية تنصب جسراً ضيقاً بين العالم المُراقب والهادئ المتوفر في البيت، والمصادفات والفوضى الظاهرة في الحياة الاجتماعية.

وتلعب الاستعمالات المُنظَّمة للجسد دوراً أساسياً في شعور الأمن الذي يولد من الطابع الواضح والمألوف للحياة اليومية. إنّ تَصَفُّح كتب الطقوس طوال النهار يدين بفعاليته لهندسة معمارية للحركات والأحاسيس والإدراكات الحسية التي تصنع جسداً للفاعل، وتخفف عنه جهداً كبيراً جداً من اليقظة، في مجرى مختلف سلاسل حياته. إنّ هناك في أساس كل كتب الطقوس تنظيماً دقيقاً للجسد. تنظيم هو، في نفس الوقت، مُشابه دائماً، ومُغاير دائماً، بشكل غير ملموس. إن الإنسان يوجد عاطفياً في العالم، وسلوكه ليس فقط انعكاساً لوضعه الرمزي في نسيج الطبقات أو الفئات الاجتماعية. فمزاجه يُلوّن الحركات والأحاسيس، ويُعدّل الانتباه للأشياء، ويُكدِّر الجسد أو يجعله جاهزاً، ويُصَفِّي الأحداث. إنّ نهار اليوم ليس تكراراً لنهار الأمس. وأحاسيس وكلمات وانفعالات أو حركات البارحة لا تتكرّر في اليوم الحالي. إنّ عدداً غفيراً من الاختلافات يتكدّس، ويُعدّ أساسياً لوجود الانسان، وليس أقل إثماراً بالنسبة للباحث من النسيج المتخلّف الذي يرسم خطّه الأحمر عبر الزمن. إن دراسة الحياة اليومية المتمركزة حول استعمالات الجسد تُدْكَرُ بأن الإنسان، في رغبة الأيام هذه، ينسج مغامرته الشخصية، ويكبر ويحب ويشعر باللذة أو الألم، باللامبالاة أو الغضب. إن نبضات الجسد تُشَمِّع استمرارية أصداءها في علاقة الشخص بالعالم، عبر تصفية الحياة اليومية. وهذا الفصل يدعو للبحث في وضع علامات هذا الاقتصاد الجسدي.

تعود دراسة الحياة اليومية لاختصاص علم أقل مِمّا تعود لفنّ. فهي تتطلب لدى الباحث نوعية ما من الانتباه لعالمٍ عائم بالمعاني. وبنفس الطريقة التي وصف بها

باشلار (Bachelard) الشعر كوظيفة يقظة، يكتسي فهم عالم الاجتماع نوعاً من التلوين الكيماوي، يتجلى في توضيح المعاني التي حلت اللفة كل عمق لها. إن رمز إدغار بو (Edgar Poe) على الرسالة المسروقة هو فصل أساسي في بيانه الابستمولوجي. فالتكرارات التي تنسج بشكل لا ينتهي نسيج الحياة اليومية تُذيب تضاريسه. إنَّ النظرة، المعتادة على حضورها، تنزلق على الأشياء والأحاسيس أو الأعمال من دون أن تكون على اتصال بها. كما أنَّ علم اجتماع الحياة اليومية يدنو من ابتذال الأيام على طريقة الرغبة المُنسيّة في الأشياء الغريبة. إنه ينظر «بنظرة بعيدة» الى الزاوية المعتادة للحس، المادة الأولى، بشكل ما، التي تُبنى الحياة الاجتماعية بأسرها إنطلاقاً منها. إنه ييني الغريب في قلب البدهة.

إن الوجود الجماعي يركز على تشابك طقوس تكمن وظيفتها في إدارة العلاقات بين البشر والعالم، وبين الناس فيما بينهم. فكل إنسان، عبر مسيرته الخاصة، وبأسلوبه الخاص. يُرمز العدد الغفير من الأوضاع التي يصادفها. إن الحياة اليومية هي المكان المميز لهذه العلاقة، لهذا اللقاء الذي يتجدد، في كل لحظة، مع الحس ووحدة الإحساس. إنَّ تكرّر الأعمال يؤدي الى تآكل الشعور بعمق وخصوصية الأشياء. فغير المُنتظر، وحسب درجة الغرابة التي يحتويها، يثير القلق أو مناقشات لا تنتهي تستهدف التقليل من أسرارها. إن الحياة اليومية هي المكان، المجال الانتقالي (على حد تعبير ويتييكوت)، الذي يُدجّن فيه الإنسان واقع الحياة، ويمكن أن يوسّع، انطلاقاً منه، ميدان عمله عبر شعور من الشفافية النسبية⁽²⁾. شفافية ليست، مع ذلك، إلّا الحادث العارض لنظرة، بالقدر الذي لا تكون فيه معلومة، وإنما مبنية.

إن أساليب الجسد لا تنجو من هذا الأثر للشفافية. فإضفاء الطابع الاجتماعي على الشخص يقود الى هذه الأحادية في الحياة اليومية، والى هذا الشعور بأنه يسكن بشكل طبيعي جسداً من المستحيل أن يفصل عنه. وعبر الأعمال اليومية للإنسان،

(2) بهذا المعنى تُعدّ الحياة اليومية «المكان للعديد من الديالكتيكات التي نعيشها ، وللروتين = وللحدث» ، أنظر كريستيان لا ليف ديبيناي (Christian Lalive d'Epina) : «الحياة اليومية ، محاولة لبناء مفهوم اجتماعي واثروبولوجي» (La vie quotidienne, essai de construction d'un concept sociologique et anthropologique) في مجلة «الدفاتر الدولية لعلم الاجتماع» - العدد : LXXIV - 1983.

يصبح الجسد غير مرئي ويُحى طقوسياً من خلال التكرار الذي لا يملُّ لنفس الأوضاع. والاعتیاد على الإدراكات الحسية. إن السرّ الذي يحتويه عمق جسده الخاص، بشكل فرضي، يتذرع بتكرار نفس الإشارات. ضمن هذه الشروط، لا يُعطى وعي الانغراس الجسدي للحضور البشري إلاّ بواسطة فترات التوتر التي يصادفها الفرد. حينئذ يولد الشعور المؤقت بالازدواجية (La dualité) (شعوراً مبتدلاً، من ال-مناسب فصله بشكل مطلق عن الثنائية: Le dualisme). إنّ الألم الثابت، والتعب، والمرض، وانكسار عضو، على سبيل المثال، تقلّص ميدان عمل الإنسان، وتُدخل شعوراً مضنياً بالازدواجية التي تقطع وحدة الحضور: فالشخص يشعر بأنه أسير لجسده يتخلّى عنه. إن نفس الشعور يظهر في الرغبة بإنجاز عمل أو انتصار بدني من المستحيل تحقيقه بدون براعة أو تدريب. إنّ الانفصال عن الشخص المحبوب، وما يجزّئه معه من شعور بالوحدة، هو أولاً امتحان للجسد. لكن هذه الازدواجية التي يشعر بها الشخص لا تقتصر فقط بهذه الأزمات الشخصية. إنّ أوضاعاً أخرى تعرفها أيضاً. منها على سبيل المثال، حالة نزف الدم أثناء الدورات الشهرية، أو تجربة الحمل لدى المرأة. إنها يمكن أيضاً أن ترتبط باللذة عبر النشاط الجنسي، والعاطفة اليومية، وسلوك الإغراء، الخ. ولكن في الاقتصاد الجسدي للحياة اليومية، يجب ملاحظة أنّ هذه الأشكال للازدواجية لا تُعاش بنفس الأسلوب. فتجربة اللذة تُعاش بطريقة معتادة، طبيعية، وتتجه لأن تضمّ الحضور. وبالعكس، تُعاش تجربة الألم والتعب، دائماً، بأسلوب غريبة مطلقة، وشكل لا يقبل أن يقتصر على الذات. إنّ ازدواجية الألم تمرّق الحضور، بينما تُغنيه ازدواجية اللذة بعيد جديد. وعلاوة على ذلك، فإن تجربة الألم أو المرض تقود، بسبب غيريّتها، الى القلق وعدم اليقين. إنّ كل المظاهر التي يقوم طابعها الغريب، بقلب أحادية (Le monisme) الحياة اليومية (الانصهار بين أعمال الشخص وجسده) تتلقّى مواصفات دقيقة. إنّ اخصائيين (كالأطباء، والمُطبين، ورافعي القدر، وعلماء النفس، الخ) يقومون بمهمة إعادة إدخال الحسّ حيث يكون غائباً، وإقامة التماسك حيث يميل الجماعي لأن لا يرى إلاّ الفوضى. إنّ عبء القلق الملازم للمظاهر غير المعتادة يُلقَى هكذا أو يُخفّف بواسطة الترميز الجاري بمساعدة المُعالج.

إنّ إحدى المؤشرات الأكثر دلالة على إضفاء طابع اجتماعي على الجسد، تكمن في التقليل من هذه الازدواجيات القابلة لأن تُضَرَّ بشعور الحضور. ولهذا السبب تُصَبّ عملية ترميز أساليب الجسد في أحادية طالما أن الشخص لم يُفصل

عن انغراسه المعتاد. ولحماية هذا الشخص بشكل دائم، يسهر العديد من الاخصائيين على صحته. صحة يتضمن تعريفها هذا التطابق المنسجم مع الذات الذي يُميّز الأحادية ويُدّلّ عليه، في المنطقة الغربية، من خلال الكتمان النسبي للنشاطات الجسدية. إن الجسد، ضمن الشروط العادية للحياة، أصبح شفافاً بالنسبة للشخص الذي يسكنه. إنه ينزلق بميوعة من مهمة لأخرى، ويتبنّى الإشارات الحركية المقبولة اجتماعياً، ويجعل نفسه قابلاً للاختراق من قِبَل معطيات البيئة، عبر نسيج متواصل من الأحاسيس. إن الجسد، بصفته شرطاً للإنسان، لا يكف عن إنتاج وتسجيل الإحساس، عبر نوع من الآلية. إنه بهذا المعنى الـ *coincidentia oppositorum* الأكثر إثارة للدهشة في الحياة اليومية: إنه البداهة المُنسيّة، الحاضر- الغائب الذي يفرض وجوده نفسه بشكل مُنقَط عبر انقضاء اليوم.

الجسد في وضعه الأقصى: تحوّل نحو الحياة اليومية

على طريقة علم الاجتماع المجازي (opophatique) تقول لنا قصص السجناء أو المنفيين، بقوة، ما هو ليس جسد الحياة اليومية⁽³⁾. ففي هذه التجارب المحدودة التي تُسلَب فيها الحرية، وبخاصة عندما يُضاف الى ذلك التشوُّش، وضرورة العيش مع آخرين في حبس لم يعتد عليه الإنسان الغربي، يتلهّى الجسد، فجأة، بالإحساس بحاجة مُلِحّة للحُكم بجرأة على التجربة السابقة المغروسة في الحياة اليومية، وفي ثقافة لا تُعطي للجسد إلا الانتباه الأكثر حذراً. إن هذه الأوضاع الحُدُثيّة تأخذ هكذا طابع المكان الكاشف. في هذه الظروف، يتأسس جسد الضحية في شكل من الوجود المُثَنّى. إنّ ثنائية التجربة الجسدية في الحياة اليومية، تكون، دائماً تقريباً، مؤقتة وبلا نتيجة (إلا في حالة مرض، أو حادث خطير يُشوّه بشكل نهائي صورة الجسد) وترتفع هنا إلى قدرة بلا جدوى وسلبية دائماً. إن النضال المُتجدّد في كل يوم من أجل البقاء يتضمن أولاً نضالاً ضد الجسد، وجهداً مستمراً بشكل دائم من

(3) أو بالأحرى، إنها تصف لنا نموذجاً آخرّاً للحياة اليومية. منها، على سبيل المثال يوم إيفان دينسوفيتش. إنه يوم من بين أيام اعتقاله الأخرى التي بلغ عددها 3653 يوماً. لكنه «يوم طيب»، بالرغم من كل شيء لأن المعتقل حافظ فيه على كرامته الشخصية. أنظر الكسندر سولجنتسين (Alexandre Soljenitsyne) «يوم إيفان دينسوفيتش» (Une journée d'Ivan Denissovitch). منشورات Julliard 1963 (ترجمة: مورييس دو كايو).

أجل دفع حدود التسامح الشخصي بعيداً، وإسكات الجوع والبرد، ونتيجة المعاملة السيئة وقلة النوم. إن وعي الإنسان الموجود في السجن أو معسكر الاعتقال ينتهي أحياناً إلى شكل من الشائبة الحقيقية أكثر مما ينتهي إلى الإزدواجية، باعتبارها في مجمل الكلام تجربة مألوفة. إن الجسد يخضع هنا لنوع من الاستقلال ؛ انه مكان هندسي لكل العبوديات ولكل الآلام. إن وعي الشخص يوضع في حالة انعدام الجاذبية، ويعيش في التمزق واقع تجسده. إن وجود المنفي يُشَبَّه، حسب المنظور الافلاطوني أو الغنوصي، بسقوط في الجسد، فهو يتحقق باستمرار في الـ ensomatose. فالضحية يُعارض جسده بارادة عاتية، مُرتبطة بقوة طبعه ورغبته في البقاء. لكن الإنهاك والجوع والخصومات والمعاكسات تقود المنفي إلى خيط هش يُعَدُّ الموت فيه أحياناً أمراً بسيطاً. إن المفارقة الضالة لهذا الوضع تتضمن مع ذلك أنَّ الفرد المحجوز في مركز الاعتقال لا يستطيع أن يدع نفسه يتميز عن الآخرين، وذلك تحت طائلة إثارة رد فعل الحُرَّاس: إن المحو الطقوسي للجسد يُدفع هنا إلى حُدِّه الأقصى. فالذي يحوج جسده أو وجهه من رتبة الأجساد أو الوجوه الأخرى يُعَرَّض نفسه لمحو حقيقي لحضوره من خلال الموت⁽⁴⁾. إن روبير انتيلم يتذكَّر «أن أي شخص لم يكن عليه أن يُعبَّر عن شيء لأجهزة الأمن النازية (الـ SS) بواسطة وجهه. فهذا الأمر يمكن أن يكون بداية لحوار، ويمكن أن يثير على وجه رجل الأمن شيئاً ما غير هذا النفي الدائم، شيء يكون هو نفسه بالنسبة للجميع. وبما أن هذا التعبير كان غير مفيد، بل خطيراً، فقد كان علينا في علاقاتنا مع أجهزة الأمن النازية، أن نقوم بأنفسنا بجهد نفي من وجهنا، يكون متفقاً تماماً مع الجهد الذي يبذله رجل الأمن»⁽⁵⁾. ويضيف في مكان آخر، هذه الجملة الرهيبة التي تَنصَّبُ هي أيضاً على الوجه، المكان الأكثر إنسانية لدى الإنسان: «إنَّ رطوبة العين، والقدرة على الحكم، هما ما يُعطيان الرغبة في القتل. يجب أن تكون أملساً، شاهباً، وخاملاً، فكل فرد يحمل عينيه

(4) أنظر التحليل المُعمق في هذا الصدد في دافيد لوبروتون : «الإنسان المُشوَّه : بحث في تقديس الوجه» (L'homme défiguré: essai sur la sacralité du visage) مجلة : الأزمنة الحديثة (Les temps modernes) - العدد 510 - كانون الثاني / يناير 1989.

(5) روبير انتيلم (Robert Antelme) : «النوع البشري» (L'espèce humaine) منشورات Gallimard - Coll. «Tel» - 1957 - ص : 57.

كخطر» (ص: 241). إنَّ منطق القتل في المعسكر يَهْدِي كل منفي الى حقيقة جسده فقط، ويلغي بطريقة متعمدة السمات الأخرى للوضع البشري. إن تحويل الأجساد الى صابون أو الى دخان ليس إلا نقطة النهاية لهذه الآلية التي لا بد منها.

إنَّ نبضات الجسد المستمرة التي تشعشع التجربة المقبولة، بشكل حرّ، والهادئة للحياة اليومية في ضمير الفاعل تصبح في سياق المعسكر حدثاً حيوياً من المستحيل السكوت عنه. إن الجملة الأولى لشهادة روبير انتيلم لها دلالة بليغة: «ذهبت أبول» (ص: 15). ويكتب جورج هيفرنو، الذي خضع لأسر طويل، كصدي: «رجال مع بعض، رجال يأكلون، يهضمون، يتجشأون، يقعون مع بعض، ويذهبون مع بعض الى دورات المياه»⁽⁶⁾. إن الاختلاط يوضّح بدهاء سمات حياة الجسد التي لا تشير اليها من حيث المبدأ قصص الحياة التقليدية، والسير الذاتية والروايات، وذلك مخافة ارتكاب خطأ في الذوق⁽⁷⁾. وبالفعل، فإن ما يلزم هو نظرة غريبة وليس النظرة المألوفة لكي تخصّص الحياة الشخصية للجسد بمؤشر تخفيضي. ومع ذلك، فإن حياة الشخص كلها تقع تحت تأثير هذه المظاهر الجسدية المبتذلة، التي لن يكون بدونها إلا إنساناً آلياً، أو تمثلاً صحيحاً بشكل تام.

لكن الإنسان الغربي يُحرّك اليوم بشعور مفادُه أنَّ جسده هو بشكل ما شيء آخر غيره، وأنه يمتلكه كما يمتلك مادة خاصة جداً، هي بالتأكيد حميمة عليه أكثر من المواد الأخرى، إن وحدة الجوهر بين الإنسان وانغراسه الجسدي تجد نفسها، بشكل مجرد، منقطعة بهذه العلامة الفريدة للملكية: ملكية الجسد. إن الصيغة

(6) جورج هيفرنو (Georges Hyvernaud) - «الجلد والعظام» (La peau et les os) - منشورات Ramsay - 1985 - ص : 63 -

(7) هناك مؤشر آخر لهذا المحو الطقوسي للجسد في الحياة الاجتماعية : فعبر عقد تحالف ضمني مع القارئ، تُهمل غالباً في العلوم الاجتماعية الإشارة لبعض المعطيات المتعلقة بالجسد (الصحة ، التبول ، الإفراز ، الخ). إن من غير الممكن الحديث عن بعض الأشياء من دون نقض الاتفاق الضمني ، ولكن الثابت جداً ، حول آداب السلوك. إن من الممكن الحديث عن كل شيء ما عدا القواعد ، والضراط ، والتجشؤ ، والهضم... وفي الأدب أو السينما تسود أيضاً هذه القاعدة الضمنية القائلة بأن من غير اللائق الحديث عن بعض لحظات حياة الجسد. وبالعكس ، فإن أدب السجون ، والمعسكرات ، مصنوع من كل هذا المكبوت الذي يأخذ مظهراً أساسياً في السياق الإجمالي للأشهر أو للاختلاط.

الحديثة للجسد تجعل منه بقية: عندما يُقطع الانسان عن الكون، وعن الآخرين، وعن نفسه. وهذا الانغراس للحضور يتّجه لأن يُمحي بشكل طقوسي. فمكانة الجسد في طقوس الحياة اليومية هي مكانة النور - الظلام، والحضور - الغياب. وكما أن الإنسان لا يمكن أن يُميّز عن الجسد الذي يعطيه شكلاً ووجهاً، فإن هذا الأخير يكون حاضراً للغاية، في أصل كل الأعمال الانسانية ؛ ولكن كما أن الطقوس تتّجه لإخفاء الشعور بحضوره، كما لو أنّه كتلة سحرية يتلّهى الجسد بالرؤية فيها في نفس الوقت الذي يختفي فيه، فإن الجسد يكون غائباً للغاية. إننا سنُحلّل في فصل لاحق، وتحت إسم المحو الطقوسي للجسد، هذه الحركة الاجتماعية التي تُسوّي مسألة إزدواجية الجسد في المجتمعات الغربية. إلّا إذا دلّ طبع شاذ، بالنسبة لنفسه أو لنظرة الآخرين، على شكل من الإلحاح الذي لا يُرْمِزُه الميدان الاجتماعي: إنها لعبة مع الطقوس التي أدخلتها مجموعات فرعية (كموديلات الحلاقة والألبسة الخ) أو استحالة الاستسلام لها (التخلف الجسدي، البدانة، الخ).

لقد بُهرّ جورج هيفرنو، في المعتقل الذي أمضى فيه عدة سنوات من حياته، بفيضات تعابير الجسد في الحياة الجماعية. ولكي يُميّزها، يجد ثانية لغة الثنائية: «إن دورات المياه، مع ذلك، تلخص بشكل أفضل وضعنا. أفضل من البق. إنها أكثر كمالاً، وأكثر دلالة... كنا نتخيل أن لدينا روحاً، أو شيئاً ما مشابه. وكنا فخورين بذلك. فهذا كان يسمح لنا بأن ننظر من أعلي الى القردة، والخس. لو لم يكن لدينا روح، لما كان لدينا إلّا مِعَدَات حيوانية، تُملأ بين بين، ثم نذهب لثفّرغها. وهذا كل وجودنا. كنا نتحدث عن كرامتها. ونتصور أننا كنا على حدة، أننا هي»⁽⁸⁾. ويلاحظ في مكان آخر، بشكل أكثر تصريحاً، بأنه «لم يُعد يوجد بالنسبة لنا إلّا هذه المعارك الساخرة مع جسدنا. فحياة الجسد تكتسح كل الحياة. كل الحياة أو كلها تقريباً، إذ بقي بالكاد بعض الذكريات القديمة الممزقة، التي ستنتهي بعد استنفادها كلياً هي أيضاً، بحيث لن يبقى من شيء غير الجسد، وحكاته وإسهالاته وإمساكاته وبواسيره وبقّه، ما يُوضع بداخله، وما يخرج منه، ما يهاجمه، ما يقرضه وما يُدْمِره» (ص 79). إنّ السجين يرى تحت التهديد وضعه كإنسان يتطابق مع سقوط واحد في الجسد، من

(8) جورج هيفرنو - المرجع السابق ذكره - ص : 53.

خلال تجربة عرفانية (غنوصية) لا لجوء فيها الى أي تجاوز (transcendence). فتحت إنارة الحياة اليومية، تُلطّف تضاريس الجسد ويعيش الشخص في علاقة من الشفافية النسبية مع نفسه. إنّ جسده لا يضع أمامه إلاّ صعوبات مؤقتة، وحتى الهموم التي يصادفها لا تقوده الى هذا الشعور الحديّ بأنه مُسَمَّر في جسد حُوِّلَت حياته السرية ضده بشكل مكتّم. وذلك أحياناً على الرغم من أمراض خطيرة، تُسجّل بقوة على الصعيد الخيالي: كالسرطان والسيدا (Le sida)، على سبيل المثال، اللذان يمكن أن يقودا الى هذا النوع من التصور. إنّ البدهة المعتادة للجسد (جسده أو جسد الآخرين) تُعطّسه عموماً في تكتم لا يخرج منه إلاّ للحظات⁽⁹⁾. وهذا سبب اندهاش البطلة الشابة في رواية كارلو كاشولا. ففي حين أنها تذهب مع والدها ورفيقين لها الى المحاكمة التي يمكن أن تنتهي بالحكم على خطيئها بالسجن لمدة طويلة، تأتيتها فجأة الرؤيا بأن الحياة، وفي مقدمتها نشاطات الجسد، ستستمر، بالرغم من كل آلامها. «ومن دون أن تشك بذلك، ابتعدت مائة خطوة. وحين التفتت للوراء، أبصرت الرجلين اللذين يولان على حافة الطريق، قبل أن يصعدا ثانية في العربة. فحتى في اللحظات الأكثر مأساوية في الحياة، يجب أن تُشبع الاحتياجات الأولية: كان هذان الرجلان يولان، ووالدها كان نائماً. أما هي، فجوعها كان كبيراً لحدّ أنها لم تعد تستطيع انتظار لحظة الوصول لتأخذ فطور الصباح»⁽¹⁰⁾. إن طرق الجسد تصاحب الحضور البشري، بشكل صامت، عبر الدفقات الحسية والحركية التي لا تنتهي، وتُقيم فيه عضوياً بشكل ما.

النفْس الحسّي للحياة اليومية

في الظروف العادية للحياة، يعطي تيار إحساسي مستمر لنشاطات الانسان قوامها وتوجّهها. فالصور أو الأصوات، بشكل خاص، تفرش بشكل دائم الميدان المُدرك. إنّ الشخص، بالتأكيد، يكون بعيداً عن أن يمتلك وعياً شاملاً للمُنشّطات

(9) هذه الحالة لا تنطبق بشكل بديهي عندما يتعلق الأمر «بحب ولید» (على حد تعبير فرانيسكو البيروني) حيث يسري في جسد الآخر حد أقصى من الانتباه، ورغبة بامتصاصه؛ أو عندما يتعلق أيضاً بمرض قريب يؤدي لأن تُفحص في جسده كل الاشارات القابلة لأن تُساعد في التشخيص.

(10) كارلو كاشولا (Carlo Cassola): «La ragazza» «كتاب الجيب» - ص 276.

(stimuli) التي تخترقه. لأن الحياة ستكون مستحيلة من جراء ذلك. ففي مجرى الحياة اليومية، يُصَفَّى زبد حسي فقط بواسطة انتباه الشخص، حيث أن عدداً لا يُحصى من المُنشّطات لا يصل الى الوعي. إن أساساً صوتياً وبصرياً يرافق تنقلاته، والجلد يُسجّل كل تغيّرات الحرارة، وكل ما يلمسه بشكل دائم. وإذا بدت حاستي الشم أو الذوق كنشاطات أقل بروزاً، فإنهما لا تحضران بشكل أقل في علاقة الشخص بالعالم. لكن الآثار النفسية التي يُثيرها وضعها خارج الدارة هي التي تسمح للعالم الحسي بأن يبيّن إلى أي حدّ يتمرس في ديمومة مطلقة، طالما أن الإنسان حيّ، بشكل مستقل عن الوعي الذي يمكن أن يمتلكه. إن علم النفس الفضائي، أو ذاك الذي يقتصر أكثر على المعذبين، يعرف «جوعاً حسيّاً» ينجم عن عدم كفاية المُنشّطات التي يدرّكها شخص معزول حسيّاً. إن التجربة التي يخضع لها الشخص تكون خطيرة على توازنه النفسي. لقد أنجزت، على كل حال، عدة تجارب في المختبر، في هذا الصدد⁽¹¹⁾. وأظهرت أنه عندما تُحيّد المعطيات الحسيّة لسبب أو لآخر، فإنّ هلوسات تظهر شيئاً فشيئاً من أجل سدّ هذا «الجوع»، لكن هذه التجارب تُخضع الحياة النفسية (Le psychisme) لاختبار قاسٍ، ولا يمكن أن تُتابع الى ما لا نهاية. إن الحرمان الاحساسي أصبح سريعاً أحد الطرق التقنية «للتعذيب الخاص»، الذي يستهدف زعزعة الشخص نفسياً، إنطلاقاً من النفي المنهجي للوظائف الحسّاسة للجسد. هنا أيضاً، يمكن لعلم الاجتماع المجازي أن يقول بأن الإنسان لا يعرف العيش من دون هذه الاستمرارية العضوية، بشكل ما، بين إدراكاته الحسيّة وبيئته المباشرة.

إنّ دفق الحياة اليومية بتقطيعاته المعتادة يتّجه لأن يحجب لعبة الجسد في الإدراك الحسي للعالم المحيط به، أو في الأعمال المُنجزّة بواسطة الشخص. إنّ تحديد موقع الجسد عبر نبضات الحياة اليومية، يعني الإلحاح على الديمومة الحيوية لأساليبه الخاصة، ولطابعه كوسيط بين العالم الخارجي والشخص. ومهما كان الوجه الشاذ الذي تتخذه التجربة البشرية، فإنها تتركز بأسرها على استعمالات الجسد. فالإنسان يسكن، جسدياً، مكاناً وزماناً حيّاته. لكن بداهة الانفجار، كما قلنا، وبشكل مشابه للرسالة المسروقة، تحجب المعطيات. لقد كان جورج سيمّتل أول من عرّف

(11) أنظر على سبيل المثال : لوبوديف (Lebedev) وغازارين (Gagarine) : «علم نفس الفضاء» (Psychologie du cosmos). منشورات موسكو.

كيف يعطي وصفاً ثميناً للمكانة البارزة للجسد في الحياة اليومية. ففي بحثه «حول علم اجتماع الحواس»، يلاحظ إن الإدراكات الحسية، بالخصائص التي تلون كلاً منها، تشكل أسس الحياة الاجتماعية. لكن الإدراك الحسي للعالم لا يكتفي بمعرفة هذه السمات، إذ أن نوعية عاطفية ما تبرز بعمله بشكل وثيق. إن الإعلام الذي تدركه الحواس هو إذن مفهّم أيضاً، فهو يُخبر بطريقته عن الحياة الخاصة، الحقيقية أو المفترضة، للشخص الذي تصدر عنه. وهكذا فإن الحياة اليومية تُفَرَّش بمواصفات نعزوها للأشخاص الذين نلتقي بهم. إن «هالو» عاطفية تخترق كل المبادلات، وترتكز على وتائر الأصوات، ونوعية الحضور، وطرق الحياة، وإخراج التعابير إلخ. إن تبادل النظرات هو الأكثر دلالة، وهذا بمقدار ما تُعتبر النظرة الحاسة المميزة للحدث. إن النظرة تشهد جيداً، بهذه الطريقة، بأنها تشارك إنفعالياً بالتبادل من خلال الاستدلال فقط على معاني الاشارات الصريحة، إلى هذا الحد أو ذاك، المُستَحصلة من قبل الشخص المُخاطَب. إن التعاطف أو النفور، الثقة أو عدم الثقة هي أمور تسمح ظاهرياً بأن تُقرأ. «بتخفيض عيونه، يقول سيمل، أنتزع من ذاك الذي ينظر إليّ شيئاً قليلاً من إمكانية اكتشافني»⁽¹²⁾. إن النظرة، بالفعل، تكتسح وجه الآخر، وتجبره على عقد اتفاق، في آن واحد، حول اللفة، وحول المتعة التي يأخذها من التبادل. وهناك أيضاً النظرة الشاردة عبر الجمهور أو المقاهي، والانفعال السري الذي غناه، في الماضي، بودلير أو نيرفال عندما أثار الوجه لدى المتسكّع صدى سري، والفة فورية، لم يكن أي شيء يسمح بالتنبؤ بهما. عديدون هم راصدو الانفعال. إن الإدراك من خلال النظرة يجعل من وجه الآخر العنصر الأساسي في هويته، والجذر الأكثر دلالة لحضوره. إن اللقاء بين الأشخاص يبدأ دائماً بتقويم للوجه. فالفترة الأولى هي الفترة التي تلتقي فيها النظرات، ويجري فيها تقويم متبادل لنوعية الحضور. وبهذا الاتصال الأول تتعلق غالباً نبرة التبادل ونهايته. إن النظرة هي بالفعل إتصال، لأنها تشبه هنا اللمسة. إنها نوع من اللمس البصري المتبادل، المختصر أحياناً إلى حد يكون معه فعّالاً في صياغة الرأي. إن انصوت يكثف أيضاً على طريقته نوعية حضور الشخص، وذلك بأسلوب تلمحي

(12) جورج سيمل : (Georg Simmel) - «بحث في علم اجتماع الحواس» (Essai sur la sociologie des sens) - في «علم الاجتماع والابستمولوجيا» (Sociologie et épistémologie) - منشورات P.U.F - 1981.

أكثر. إن سيمّل يلاحظ، بالمقابل، «أن العين تعطينا زيادة على مدة كينونته، راسب ماضيه من خلال الشكل المادي لسماته، حيث أننا نرى، إذا جاز القول، تعاقب أعمال حياته وقد بُعثت أمامنا في نفس الوقت». إن سيمّل، بالتأكيد، يتقدم قليلاً، وهو ينسى أن الظاهر هو غالباً القناع الأكثر براعة من بين الأقنعة؛ إلا أن من الممكن أن نتبين هنا مخيلاً كاملاً للقاء يضمّ المؤشرات البصرية أو السمعية وحتى الشمّية المأخوذة من المُخاطَب. إنَّ هناك فيما وراء التبادل الشكلي بين الأشخاص الفاعلين، تبادلاً آخر أكثر رسوخاً يجري في نوع من أحلام اليقظة، أو الهواجس التي يكون فيها جسد الآخر، وجماله مرتكزاً لغطاء صور. ومن المحتمل أن يكمن الشيء الأساسي بكل لقاء في هذا المنجم المخيالي. إنَّ تغيّر الوجه أو الصوت، والإشارات الحركية للتفاعل، والواتر الشخصية تغرس اللقاء، وتوجّهه وفق خط قوة أكثر فعالية مما يُوحى به المضمون الإعلامي الدقيق للمحادثة.

إلا أنه ينبغي التذكير بأنّ سيمّل لاحظ أيضاً كم يؤثر الإطار الاجتماعي على التوجهات الحسيّة. فالبنى المدنية تشجع على استعمال ثابت للنظرة. إن نظرة إبن المدينة تُلتمس باستمرار من قبل المشهد المتميز جداً للمدينة (واجهات المحلات، التشابك في خطوط سير طرق السيارات والمشاة، الاختلاف في أشكال وألوان الأرصفة، الخ). إن السَّمْع، الذي يُجابه ضجيج السيارات أو الأشغال، لا يُعدّ حاسة سعيدة في سياق المدينة، مثله مثل حاستي اللمس أو الشمّ، اللتين تنزعجان غالباً أكثر مما تفتّحان. إنَّ الحياة الاجتماعية في المدينة تحثُّ على نمو زائد للنظرة، وعلى تعليق أو استعمال مُتبقّي للحواسّ الأخرى، التي لا يجد الإنسان في النهاية الإمكانية لاستعمالها بشكل كامل إلاّ في داخل منزله.

سيطرة النظرة

إنَّ النظرة هي اليوم الشكل المهيمن على الحياة الاجتماعية في المدينة. لقد استشف سيمّل هذا في بداية هذا القرن، حيث لاحظ «أن علاقات الناس في المدن الكبيرة تتميز، إذا قورنت بتلك الموجودة في المدن الصغيرة، بتفوق واضح لنشاط النظر على نشاط السمع. وهذا ليس فقط لأنّ اللقاءات، في المدن الصغيرة، التي تتمّ في الشارع هي، في أغلب الأوقات، عبارة عن تعارف يجري فيه تبادل بعض الكلمات، ويُنتج مظهرها لنا ثانية كل الشخصية. وليس فقط الشخصية الظاهرة. وإنما

قبل كل شيء بسبب وسائل الاتصال العامة...»⁽¹³⁾.

إنَّ تبدُّل وضع الحواسِّ، والأتمتة التدريجية للنظر لم يفوتا على مُحلِّل من أبناء المدن حاد النظر مثل و. بنجامين. ففي أفكاره حول التصوير، يلاحظ بدوره: «... أن إتقان فهم هيئات الوجه، وجعله أكثر دقة، أصبح ضرورة حيوية. فسواء أتيننا من اليسار أو من اليمين، ينبغي جيداً أن نعتاد على أن يُنظر إلينا من أي جهة كانت. ومن جانبنا أن ننظر إلى الآخرين»⁽¹⁴⁾.

Cum grano salis، إن محضر الضبط هذا يبدو دائماً أكثر ملاءمة. إن من جوهر المدينة أن تضع المازّة في وضع ينظرون فيه الى بعضهم البعض (من مقاربات تختلف حسب الأمكنة). لكن الحياة الاجتماعية الغربية تدفع اليوم هذا المنطق بعيداً عبر ضرورات هندسية معمارية تميّز إمكانية الرؤية: ممرات طويلة في المنظور، طوابق مُزاحمة تُطلُّ على فناء، قاعات مكشوفة، حواجز مُعمّنة مُستبدلة بزجاج، أبراج، الخ... أو في أمكنة أخرى، مخططات لسير المشاة أو لطرق السيارات، تخطيط المدن المتنامي، تنظيم الغابات، وحافات الانهار، والبحيرات، والساحل، والجبال، وجثّ الغابات، الخ... جرد وسبر مُنظَّم لكل المعطيات «السياحية» الممكنة ؛ أو أيضاً ابتذال استعمال المنظار المُقرَّب على الشواطئ أو جهاز التلفزة في المجال المنزلي، ونمو تقنيات التجسس بواسطة الأقمار الصناعية، إلخ... إنَّ البنايات البرجية

(13) جورج سيمل : «بحث في علم اجتماع الحواس»... المرجع السابق - ص : 230 - ويُكمل سيمل : «قبل النمو الذي عرفته العربات العامة ، والخطوط الحديدية والترامواي ، في القرن التاسع عشر ، لم يكن لدى الناس الفرصة للقدرة (أو على واجب) على النظر لبعضهم البعض بشكل متبادل خلال دقائق أو ساعات متتالية من دون التحدث مع بعض. لقد قدمت وسائل الاتصال الحديثة لحاشة النظر وحدها ، وهي الجزء الأكبر بكثير من كل العلاقات الحسّية بين إنسان وآخر ، وهذا بنسبة تتزايد نمواً بشكل دائم ، ما ينبغي أن يُغيّر كلياً أساس المشاعر الاجتماعية العامة. إنّ الواقع أنّ الانسان الذي يظهر حصراً للنظر يكتسي طابعاً لغزياً أكثر وضوحاً من طابع الإنسان الذي ينكشف حضوره من خلال السمع ، بالتأكيد حصته في هذه الحالة من عدم اليقين القلق ، وفي هذا الشعور بافتقاد الوجهة بالنسبة الى مجموع الحياة ، هذا الشعور بالعزلة ، هذا الشعور بأننا نصطدم ، من كل الجهات ، بأبواب مُوصدة».

(14) ولتر بنجامين (Walter Benjamin) «تاريخ صغير للتصوير» (Petite histoire de la photographie - في : «شعر وثورة» (Poésie et révolution) ، باريس - منشورات Denoël 1955 - ص : 29 - 30.

العالية التي تنتصب في أعالي المدن، أو الضواحي هي المراصد المنطوية على مغالطات تاريخية في عالم يبدو، بكل حال، أنه لم يعد لديه ما يخفيه. إنها اللمسة الأخيرة لإفراط في تعريض المجال الاجتماعي للضوء، هو بدون شك أمر لا بد منه. لقد أصبحت النظرة الحاسة المهيمنة للحدثة. إن انتشار آلات تصوير الفيديو في المحلات، ومحطات القطار، والمطارات، والمصارف، والمترو، والمصانع، والمكاتب، وبعض الشوارع أو المفترقات الخ... تبين وجود انحراف في توجيه النظرة نحو وظيفة مراقبة، لا ينجو أي أحد منها.

إنَّ سمات أخرى مرتبطة بضرورة تنظيم سير المشاة والسيارات تساهم في تضخيم أهمية النظرة. إنَّ الاشارات المكتوبة أو الشبيهة بالايقونات تتضاعف، وتنتشر حتى الإبهام. ولهذا تصبح اليقظة ضرورية لكي لا يوضع وجود الانسان في خطر وسط هذه المتاهة من الإشارات.

إننا نرى أكثر فأكثر العالم عبر شاشات، هي ليست فقط شاشات الأجهزة السمعية البصرية المعروفة (التلفزة، الفيديو، شاشات الحاسوب، الخ..). لكن، بنفس الطريقة، تقدم لنا دَرَاة السيارة أو القطار عرضاً لصور غير متحركة، قريبة من السابقة. أمَّا الأبنية المرتفعة، والمجمّعات الكبيرة والأبراج، الخ... فتعرض علينا نظرة نحو الخارج ليست أقل خضوعاً للنظرة المسرحية. «إن البرج المؤلف من أربعمئة وعشرين طابقاً والذي يستخدم كتوء في منهاتن، سيستمر، كما كتب ميشال دو سيرتو، في بناء الوهم الذي يخلق قُرَاءً، ويُغَيِّر، بشكل سهل القراءة، تعقّد المدينة، ويجمّد في نص شفاف حركيتها الكثيفة. وهل ضخامة عدد النصوص التي نراها تحت أعينا شيئاً آخر غير تصوّر؟»⁽¹⁵⁾ إن من غير المفيد الذهاب الى نيويورك من أجل التحقق من مثل هذا الانطباع. فمنذ أن تبتعد النظرة بما فيه الكفاية عن الأرض وتتجاوز سطح المنازل. لتشرف على المكان، يشعر الفرد بغربة وضعه، ويدرك حضوره في العالم في شكل صورة ظاهرة⁽¹⁶⁾. لقد كَبُرَ هذا الشعور، في بعض الأحياء، من خلال الفراغ الذي يحيط

(15) ميشال دو سيرتو (Michel de Certeau) - «تطبيقات مكانية» (Pratiques d'espaces) - في مجلة «Traverses» - العدد 9 - «مدن مرعوبة» ص : 5.

(16) إن فيليب ك. ديك (Philip K. Dick) هو الذي أنتج أكثر رواية أخاذة حول فكرة الإفراط في تعريض المكان للضوء، والنظرة المبتذلة، أنظر : ف. ك. ، ديك «جوهري - موت» =

بأبنية موضوعية على طريقة مكعبات فوق مجال مُعَقَّم. وعند الطرف الآخر، يبدو أنَّ بعض الأحياء، أو حتى المدن، المُصمَّمة بشكل عقلاني، حيث يكون لكل شيء فيها وظيفة مُحدَّدة، تدفع الانسان وتجربته الحشّية. إن التصميم المُصغَّر لبرازيليا جميل إذا نُظِرَ إليه بشكله الذي يشبه العقاب وكتله المنتظمة الهندسية. إنها ساحرة إذا نُظِرَ اليها من الطائرة. لكنها، بالنسبة لرجل الشارع، نوع من المُبتعد، أو الترتيلة ذات النظرة المجردة (الهندسية). إنها معادية للحواس الأخرى، ولتسكع المارّة. إنها مدينة سنقوم فيها بفعل شيء ما، لكننا لن نتزّه فيها. إننا نعلم في هذا الصدد طرفة رجل الفضاء السوفياتي الذي زار برازيليا وأعلن لمضيفيه أنه لم يكن يظن بأنه سيصل بهذه السرعة الى المريخ.

وبعيداً عن الضجة أو الروائح الكريهة، تتلخص التجربة الحشّية لإنسان المدينة بشكل أساسي في تجربة النظر. إن النظرة، والإحساس بالمسافة والتصور، بل والمراقبة، هي الموجه الأساسي لتملّك الإنسان للوسط المحيط به. إنَّ من الممكن، بدون شك، تحليل بعض الممارسات التي ظهرت في الولايات المتحدة في الستينات، مثل النقوش والفن الجداري بشكل خاص، كردّ على توظيف النظرة في المدن الحديثة. إنها محاولة لإعادة الحسّ، وللغثور على نضارة النظرة في برقشة أسلوب التعبير الخطّي. لقد رأت أولى النقوش النور في عام 1961 في الأحياء الأكثر فقراً في نيويورك. وبعد أن كانت في البدء موجهة للدلالة على إحداثيات تجار المخدرات، انحرفت هذه الممارسة شيئاً فشيئاً وتحوّلت الى تأكيد جماعي للهوية. وهكذا عرف المترو تحوّلاً أخذاً. لقد التهمت الإشارات المتعددة الألوان الجدران، وانتشرت من بناية لأخرى. كما أدخل الفن الجداري مواضيع وألوان في المجال الوظيفي جداً للمدن. إنَّ النظرة هي، بالطبع، التي ما زالت تُلمس، لكن نظامها لم يَعد كذلك. إن تحوّلًا لعبياً يُقَرِّبها من جسم كامل يرفضه بالذات النسيج المديني. فالحركة الجماعية أو الفردية التي تملك أهداباً مكانية لتلصق عليها طابعاً يدلّ على

= (Substance-mort) - باريس - منشورات Denoël - 1978. ونظراً للأهمية الاجتماعية لعمل ديك. أنظر : دافيد لوبروتون : «فيليب ك.ديك ، مُهزَّب العلم - الوهم (Ph.K.Dick, un contrebandier de la science-fiction) - مجلة : **Esprit** - العدد 10 - تشرين أول / اكتوبر 1988.

شكل من أشكال المقاومة ضد بنية المدينة وشروط الحياة التي يفرضها تنظيمها. هنا، توجد رغبة بأن يُعاد للنظرة مكان للسير والكشف والمفاجأة. إنّ النظرة تَحْتَلِس، للحظة، الفتنة وتغوص في لعبة الحواس. أما الجسد فيعطى فترة تأجيل. ويكون عمق ما للعالم حاضراً في جديد أمام مستعمل المدينة.

إن انتصار الهندسة المعمارية والتخطيط العقلاني للمدن الذي يشهد على خضوع المدينة لحركة سير السيارات لم يكن ملائماً، إلا نادراً، للتجربة الجسدية للإنسان. «إن التخطيط العضوي للأحياء القديمة» (على حد تعبير س. بيتوني)، الذي كان يشجع على التسكع، وينشط الحواس، والحيوية، ويكثر من إمكانية اللقاء والمفاجآت، يُحى أكثر فأكثر.

إنّ الطرق المُخصّصة للمشاة تمثل محاولة لإعادة منطقة حسيّة وتنقيّة أوسع لسكان المدينة، محاولة لإعادة ديناميكية جسدية الى داخل مراكز المدن، كان تدفق السيارات والضيق المعتاد للأرصّة يسمح بها أقل فأقل. إنّ إنسان المدينة إذا أراد أن يعيش في جو أوسع من الإلفة مع جسده، خارج ميادين وقاعات الرياضة، سيجد بالأحرى في الريف مكاناً للتسكع ملائم لنشر حواسّه بشكل مميز، وعلاقة طبيعية مع الأمكنة التي يجوبها.

لقد أصبحت المدينة مكاناً للتسكع أقل مما هي نسيج للمسافات التي ينبغي القيام بها في ضوء «ضرورة السير» (على حد تعبير ب. فيريليو). إنّ أولى الأمور التي يلاحظها المهاجر (أو المسافر العائد من إفريقيا أو آسيا، على سبيل المثال)، هي سرعة سير المشاة في المدن. وهذا ما يتذكره مهاجر شاب قادم من السنغال عن أول سفرة له بالمترو: «هاه، إننا نُسرّع مثل المجانين» ويشرح لي زميلي: «هكذا الحال هنا. كل الناس يسرعون». كان الوقت متأخراً، حوالي الساعة الخامسة أو السادسة مساءً. إنها الساعة التي يعود فيها الناس من أعمالهم. قلت: «لكن هناك أناس يدفعوني بقوة، ويضربوني بكفهم هنا». فأجابني: «لا، أنّ هذا التدافع قوي، لأنّ كل واحد يريد أن يستعجل»... سألته: «ما هذا ؟ هل هي الحرب ؟». فقال لي: «لا، إنها ليست الحرب. بل إنّ كل الناس يستعجلون من أجل العودة الى بيوتهم»⁽¹⁷⁾. بالنسبة للإنسان

(17) عمر ضيا (Oumar Dia) ورينيه كولان - نوغ (Renée Colin- Nogues) «يا كاري، السيرة الذاتية لعمر» (Yâkârê, L'autobiographie d'Oumar) باريس - منشورات Maspero.

المستعجل هناك شيء واحد يهّم النظرة، إنّ جسده هو ما يشكل عقبة في طريق اندفاعه. لقد استبدلت المجتمعات الغربية ندرة المواد الاستهلاكية بندرة الوقت، إنّهُ عالم الإنسان المستعجل.

الأمكنة التي نعيش فيها

يعيش الغربيون في بيوت مُتغيرة. ومع ذلك، يمكن أن نُسجّل أنّ المساكن التي تؤلّف المُجمّعات الكبرى، ومدن - عُنابر النوم، والبنائيات البُرجيّة الخ... هي «آلات للسكن» (على حدّ تعبير لو كوردزييه) أكثر مما هي امتدادات مادية للجسد البشري». إنّها مكان وسكن بلا نوعية، لإنسان بلا نوعية. فكل غرفة تخصص بغاية مشتركة، ورُقّة الفواصل لا توقف الأصوات بين مسكن وآخر. وهذا مصدر للاختلاط والنزاع بين الجيران. إنّ المكان المسكون، الاستبدادي، يصبح حينئذٍ منتجاً للسلوك. فهذه الأبنية «في ضواحي المدن هي مثل المنشآت الهشّة للمعارض الدولية، والمباني المرفوعة بفضل التقدم التقني، والمدعوّة لأنّ يجري التخلّص منها بعد فترة وجيزة من الاستعمال، كما يُتخلّص من علب المحفوظات الفارغة»⁽¹⁸⁾. في هذه الأمكنة، «أصبح البيت نوعاً من أنواع الخيم، من دون أن يتمتع ساكنه بحرية البدوي» (على حدّ تعبير أرنست جينجر). هنا، تُختزل ألعاب الطفل وإرادته في الإنفاق البدني بسبب العديد من المحظورات التي تطوّق مكانه. إنّ الأخطار التي تحيط به (سير السيارات على سبيل المثال)، وضيق الأمكنة، وأحياناً وجود المروج الخضراء أو الحدائق، والسيارات المتوقفة تمنع الألعاب الجماعية. ويُشكّل صراخ الأطفال المأخوذين بنشاطاتهم سبباً للنزاعات بين الجيران. وكذلك استعمال الدراجات الآلية أو النارية، لأنّ أي شيء لم يُفكّر به من أجل تخفيف الضجة في مفهوم الأبنية. حتى مجرد المتعة البسيطة في الإنفاق البدني يوبّخون بسببها أحياناً. إنّ ضيق غرف المنزل يُعرقل أيضاً انتقالهم، ويحرّمهم من أنّ يعزلوا ولو للحظة، ويخلق خصومات بين الإخوة وتوترات في الأسرة. والشيوخ لم يقدّ لهم مكان في هذه البيوت الأكثر ضيقاً مما كانت في السابق، وهذا ما يمنع غالباً إصطحاب المرضى أو المحتضرين،

= 1982 ص : 118 - 119.

(18) هـ. هوركهايمر (H.Horkheimer) وت. ادورنو (T.Adorno) «ديالكتيك العقل» (La dialectique de la raison - باريس - منشورات Gallimard - 1947 - ص : 129.

وحضور الأقارب الى جانب الشخص المتألم. إنَّ الحياة الاجتماعية التي يقيسها المكان بعناية قصوى جعلت من الضروري وضع المرضى والمُسنِّين في المستشفيات في حين أنَّ بإمكانهم، في أمكنة أخرى، أن يستمروا في تلقي العلاج في بيوتهم أو أن يُنْهوا فيها حياتهم وهم محاطون بأفراد أسرهم.

في هذه المساكن، يُختزل الجسد في مجموعة من الحاجات المُحدَّدة بشكل اعتباطي ؛ ويُشَبَّه بشكل صافٍ، منزوع الجذور من كل وجودية، بلا تاريخ، بلا مؤهلات، وبلا حجم. إنه يُدْرَك من أجل «أن يعمل» في مكان، لا من أجل أن يعيش فيه. إنَّ الأجهزة الصناعية نفسها تستبعد الجسد. فهي لا تُقدِّم أي سبيل للتاريخ، ولا تغتنى مع مرور الزمن، بل إنَّها تكون لا زمنية، ولا تعطي أي حظ للذاكرة. إنها لامبالية، محايدة، وبدون رواث. لقد أدرك أ. ميتشرليش جيداً، على مستوى الحياة اليومية، وجود عُصاب نفسي شائع وناشئ عن هذه الأمكنة الوظيفية. «فالمكان الذي يدفع لا يستطيع أن يُنتج إلا ردود فعل تملُك إلزامية: ويشهد على ذلك هوس الصَّفَل والنظام»⁽¹⁹⁾. إنَّ الجسد الذي يَشْفُ بين السطور في المنازل المبنية وفق هذه الخصائص، وفي بعض التُسج المدنية الخاضعة كلياً لهيمنة سير السيارات، يشبه تمثالاً: إنَّه جسد وظيفي، عقلائي، ومُقطَّع وفق أيديولوجية حاجات تُقَطَّعه وتحرمه من البعد الرمزي الذي يُعَلِّفه. إنَّ الجسد الحي هو غالباً متضائق، كما يشهد على ذلك، على صعيد آخر، ترايد عدد الحوادث التي يقع المشاة والدراجون ضحية لها، ولا سيما من بين الأطفال أو الأشخاص المُسنِّين. هل هو جسد فائض ؟ إن الجسد يصبح أحياناً يوتوبيا المدينة والمنزل.

حيث تسود وظيفية المنزل أو المجال المدني، تُختزل التجربة الحسِّية والجسدية، أو تنزلق على منحدر الضيق، وتصبح، في النهاية، غير مريحة. وعندما يقول هولدرلن أن الإنسان يسكن شاعرياً، يشير الى ضرورة وجود مِخيال للبيت والحي. وهذا الملحق الذي تبنى فيه متعة الوجود في مكان يمكن فيه التعرف على النفس يُقاس غالباً على مقياس الانسان الغربي.

(19) الكسندر ميتشرليش (Alexandre Mitscherlich) - «التحليل النفسي وتخطيط المدن» (Psychanalyse et urbanisme) - منشورات Gallimard - 1970 - ص : 159 (ترجمة فرنسية).

أما في المنزل التقليدي، بالمقابل، فيمكن القول أن كل التجربة الجسدية تكون مُستشعرة. إنه مليء بالروائح، والأنغام والأصوات، الملموسة بفعل المواد التي تُوَسَّسُه. إنه نوع من «جسد لا عضوي للإنسان» (على حد قول ماركس)، يحميه من البيئة الخارجية ويشجع على حيوية الأسرة أو المجموعة. إنَّ علاقة الشخص بمسكنه تنتصب من المعطيات البصرية، والشمية والصوتية والحسية والحركية، الملموسة والمسموعة، الخ... لقد كتب باشلار صفحات جميلة عن المنزل في نظره «إنه أحد أكبر قوى الدمج بواسطة الأفكار والذكريات وأحلام الناس... إنه يستبعد الحوادث الممكنة الحدوث، ويضعف مجالس الاستمرارية. وبدونه، سيكون الإنسان كائناً مُبعثراً»⁽²⁰⁾ إن المنزل والمجال الاجتماعي التقليدي يُدرجان الإنسان في عالم مبني على مستواه. إنَّ مسكنه، الذي يُعَدُّ امتداداً يصنعه الإنسان لجسده، وتوسّعاً ثقافياً لهذا الأخير، يُؤمِّن له الأمن الجسدي والمعنوي في آن معاً. إنه مجال استكشاف بالنسبة للطفل، وخاصة في تلك الأماكن الأكثر سرية: كالحقو أو مخزن المؤن. إنه مجال حسي متميز، ملائم لنمو الخيال، ولإقامة اللفة الأكثر سعادة.

الضجيج

تعجُّ الحياة اليومية أيضاً بأصوات: أصوات الأشخاص أو حركات الأقرباء، الأجهزة المنزلية، الإذاعة، التلفزة، الأسطوانات، قرعة الخشب، الحفريات، أصداء الشارع أو الجوار، رنّ الهاتف، الخ... إنَّ لوحة لا تقطع من الأصوات لا تكفّ عن طبع مجرى الوجود وإعطائه طابعه المعتاد. لكن الصوت يبدو، في الأغلب لوعي المعاصرين بشكل مضايقات تُسمّى الضجّة. إنَّ الضجّة هي أكثر ما يزعج الإنسان طوال الحياة اليومية، إنها الصوت المرتفع الى مرتبة **الضغط**. إنَّ نصف الشكاوى المُسجَّلة بسبب الإزعاج تتعلق بالضجّة: النباح الذي لا يهدأ للكلاب (حتى في المدينة)، أجهزة التلفزة والإذاعة، وموجة الـ Hi-fi، المرفوعة بقوة شديدة. أما الأشياء التي يُعَدُّ تحدّيها أكثر صعوبة فهي السيارات وسيرها الذي لا ينقطع، ومرور الشاحنات، والأشغال، وأنظمة الإنذار التي تندلع بدون سبب، وصفارات سيارات

(20) غاستون باشلار (Gaston Bachelard): «جماليات المكان» (La poétique de l'espace) - منشورات P.U.F - 1957 - ص : 27 - وقد صدرت ترجمته العربية عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت.

الاسعاف أو الشرطة. وضجيج آلات جزّ العشب في الريف، الخ... لقد سبق لريلك، في بداية القرن، أن شهد على الفوران الصوتي الذي لا ينقطع، في باريس، حتى في الليل. «أقول أنني لا أستطيع منع نفسي من النوم والنافذة مفتوحة. الترامواي يسير وهو يرن عبر غرفتي، السيارات تمرّ عليّ. باب يغلق في جهة ما، لوح زجاج يقع وهو يطلقطق. أسمع ضحك القهقهات العالية، والهمهمة الخفيفة للبرق. ثم فجأة، ضجة خافتة، مخنوقة... إنّ شخصاً ما يصعد الدرج. يقترب، يقترب بدون توقف. يبقى هناك، يبقى لمدة طويلة هناك، يمرّ. ثم من جديد الشارع. إمراة تصرخ: «آه، إخرس، لم أعُد أريد». الترامواي الكهربائي يسير بعجلة، يهتزّ كلّ، يمرّ من فوق، من كل جهة. شخص ما ينادي، أناس يركضون بسرعة، يلتقطون بعضهم، كلب ينبع. يا له من سكون، كلب ! حوالي الصباح هناك ديك يصيح، وهذيان لا نهاية له. ثم فجأة، أنام⁽²¹⁾. هكذا تتجلى الحياة الاجتماعية من خلال عمق صوتي لا يتوقف مطلقاً. فالتركيز المدني، المتحالف مع حضور الوسائل التقنية (سيارات، حافلات، دراجات نارية، دراجات آلية، مترو، الخ) في كل مكان يُحوّل هذا النسيج إلى ضجيج.

ويبدو المنزل، من حيث المبدأ، ومن هذه الزاوية، كمنطقة مميزة لتخفيف الضجيج الخارجي، ولاستقبال الأصوات المعتادة التي تساهم في إعطاء الإنسان شعوراً بالأمن الشخصي.

إننا لا نتحمّل جيداً المعلومات السمعية التي تصلنا إلّا إذا انبثقت منا أو كان لدينا الامكانية للتأثير عليها. فكما أن روائعنا الجسدية الخاصة لا تزعجنا إلّا نادراً، فإن الضجيج الذي نحدثه لا ندرك بأنه غير مريح. إنّ الآخرين دائماً هم الذين يحدثون الضجيج.

إنّ الصمت يعدّ اليوم إحساساً نادراً، أو حتى مجرد رفاية سمعية. وباستثناء الحداثق العامة أو المقابر أحياناً، فإن أمكنة المدينة تزخر بالضجة، ولا تنجو المنازل إلّا بصعوبة من التسربات الصوتية الآتية من الخارج. وحتى المستشفيات وقعت

(21) ر.م. ريلك (R.M.Rilke): «Les cahiers de Malte Laurids Brigge» - باريس - منشورات

Coll.Point - Seuil - 1966 - ص : 12.

داخل حلقات الضجة. وأحياناً، تبت الأنشطة التجارية في الشوارع أو الأحياء ألعابها وموسيقاها غير مكبرات الصوت. إنّ الضجة هي أكثر التلوثات التي أنتجتها الحداثة مكرراً، إنها أصعب ما يمكن الدفاع عن النفس منها. إن الضجة هي الصوت الأعلى من ترددات الصوت البشري وغير المنتظر، الذي يحدث رجفة، ويُعَبِّئ فوراً حالة من اليقظة والحذر، مشحونة بالانزعاج إذا ما استمر مدة من الزمن.

وغالباً ما يُفْرغ الاعتياد على الضجة الحدة والانزعاج. فالعمال في بعض المصانع، على سبيل المثال، ينتهون للتأقلم معها بالرغم من تنافر أصوات الآلات. إنّ المرء يعتاد على قوة صوتية شديدة، ويصل للقدرة على العمل، والنوم والكتابة والقراءة والأكل والعيش في مكان زاهر بالضجيج. لكن التجربة تُظهر، مع ذلك، أنه كلما كان الأطفال معرضين أكثر للضجة، كان لديهم سهولة أقل على تعلّم القراءة. إنّ استمرار وجود مستوى صوتي عالٍ في محيطهم يمنعهم من حل رموز الإشارات، ويقرنها بمعنى دقيق. إنّ ما يشبه الدفاع الفعّال للجسد ضد غزو خارجي يصبح حينئذٍ عائقاً في وجه اندماج اجتماعي أفضل. إن الوجود الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه من الضجة، يخضع لضغط ثابت، ولحالة إثارة لا يكون واعياً لها دائماً. بهذا المعنى، يُعدّ الضجيج أمراً غير مسموح به، تماماً مثل الصمت المطلق للحضور الحشوي.

ولكن حتى لو أصاب الإرهاق الصوتي، على كل حال، الجهاز العضوي للانسان شيئاً فشيئاً، فإن الضجيج يُعدّ موضوعاً لتقويم شخصي، وليس من المعطيات الموضوعية. إن الحكم الفردي يزيد أو يخفف من الآثار الممكنة للضغط الصوتي. إنّ هوة المشي يستمعون، على سبيل المثال، إلى موسيقى بدون تصفية جويّة وبتردّد عالٍ. إنهم يبتنون سوراً صوتياً بآلاتهم، ويقدمون نوعاً من الفقاعات السمعية المليئة بما يقرع. إنّ ضجة البعض هي المصاحبة الصوتية المعتادة للبعض الآخر. إنّ مفهوم الضجة عبارة عن حكم قيمي ينصبّ على منشطٍ ما. هكذا يسرد باشلار أنه دافع عن نفسه من اعتداء المطارق الثاقبة التي كانت تُستعمل في شارعهِ، في أحد أيام الأشغال، من خلال تخيُّله بأن الأمر يتعلق في الواقع بالعصافير النّقارة الخضر في ريفهِ. إنّ الضجة، التي تُفَرِّغ من خلال المعنى والقيمة التي تُعطى لها، تصبح مقبولة، وتدمج بدون خسارة في الحياة اليومية.

ويدخل أمر رمزي آخر في عملية إدراك الأصوات الآتية من الخارج. فضجة جهاز التلفزة، الذي يتسرب بالكاد عبر جدار رقيق جداً، ومع ذلك لا يكون صوته

مرفوعاً بقوة شديدة، يمكن أن تُعدّ بمثابة اعتداء على الجار المتعب الذي يريد أن ينام، في حين أن ضجيج السيارات في الشارع، الذي له تردد أعلى بكثير، يكفّ منذ مدة طويلة عن أن يكون مزعجاً له. إنّ الضجة، هي الحضور غير المرغوب فيه للشيء الآخر، في داخل جهازه الشخصي. إنها غزو صوتي يمنع الشخص، الذي هو ضحية له، من الشعور، وهو في منزله، بأنه محمي داخل دائرته الشخصية. فصراخ الأطفال، ومرور دراجة آلية، وجهاز تكييف الجار أو مذياعه، تعدّ بمثابة اعتداءات لا تُحتمل، وقد تؤدي أحياناً لنتائج خطيرة (مشاجرة، شتائم الخ...). إنّ ضحية الضجة ينظر الى دائرته الحميمية وكأنها ذات مسام يمكن النفاذ منها، ومُهدّدة باستمرار من قبل الآخر. ولهذا فإنه لم يُعدّ يستطيع أن يستسلم.

لقد أدركت مشاريع ووكالات الإعلان جيداً، منذ عدة سنوات، القيمة الضرورية للسكون في الحياة اليومية التي أنهكتها الضجة الى حدّ ما. وبدأ التركيز اليوم على ضرورة إسكات محرك السيارة، والأجهزة المنزلية، وآلات جَزّ العشب. إن التذرع بالسكون أصبح ملجأً تجارياً فعّالاً. وصار من المطلوب إخماد الصوت في المنازل والمكاتب والمشغل، وتخفيف ضجة الآلات في بعض المشاريع. إنّ الانسان لم يُعدّ يحتمل أن تصمّ ضجة محرك سيارته المناقشات، وصار يخشى أن يسمع جيرانه صباح يوم الأحد صوت آلة جز العشب الخاصة به. لقد أصبحت الرفاهية السمعية منطقة حرجة بالنسبة للحساسية الجماعية، وقيمة إجماعية. فكل شخص يجهد للتخفيف من إنتاجه الصوتي، ويتمنى الحصول من جيرانه على نفس الضمانات. إنّ السكون يُبحث عنه هنا أقل مما يُبحث عن دمج الضجة بشكل أكثر انسجاماً في الحياة اليومية، وعن تخفيف حدّة الصدمة الصوتية للأجهزة، التي صار من الصعب الاستغناء عنها.

الروائح

تشير روائح الحياة اليومية أولاً الى الالفة الأكثر سرّية للفرد: أريج الجسد، والأقارب والمنزل والألبسة والمطبخ وكل غرفة بشكل خاص، والحديقة والشارع. إن متغيرات فصلية للروائح تأتي من الخارج: روائح الأشجار والأزهار والثمار؛ الروائح التي تصعد من الأرض المغمورة بالمطر أو المحففة بالشمس. وتسود، في الدائرة الخاصة للشخص، العديد من الروائح، حتى ولو كان الانتباه الذي يوجّه لها لا يحظى بقيمة رفيعة أو يكون غالباً محجوباً على الصعيد الاجتماعي والثقافي. فمن الصعب

ذكرها لطرف ثالث، إلا إذا كان المراد الانكشاف أمام أنظاره. وتشهد على ذلك التجربة التي عاشها عالما اجتماع قاما بأجراء بحث، لدى سكان مُنتَقِنين بالصدفة، حول روائح السكن. فمن خلال الحوار مع المخاطَبين بدون توجُّهات محددة، ومن خلال تركهما للمحادثة تتغذَّى من ذاتها، مع تداعي الأحاسيس الشمِّية، وجدا أنفسهما وقد أصبحا، رغم إرادتهما، موضوعاً لبوح بأسرار حميمة أكثر فأكثر، بحيث أنَّ ربع محادثتهما فقط، في نهاية هذه المرحلة الأولى، بدت قابلة للاستعمال أثناء مراجعة دراستهما. لقد اكتشف كل شخص، بعد أن استُجِوبَ بحرية حول تجربته الشمِّية، عدداً كبيراً من الملاحظات التي يمكن البوح بها، والتي تمس تفاصيل حميمة من الحياة اليومية التي لا يمكن لتذكرها أن يُزهر إلا إذا ترك الكلام يسير على هواه، من دون محاولة توجيهه وفق أقيية مُحدَّدة. إنَّ الروائح، في الاستحضار الذي لا إكراه فيه، هي مُركَّب مختار لزبد الأيام. لكن الباحثين، حين قاما، بالمقابل، بنفس اللقاءات بعد أسبوعين، وكانا مُزوَّدين هذه المرة باستمارة أسئلة أكثر جموداً، لم يعودا يحصلان إلا على أجوبة مُنتظرة، تلك التي تُنقُط فقط «الروائح الكريهة»⁽²²⁾.

إنَّ الشَّمَّ هو، بدون شك، الحاسة الأقل تغيراً، والأقل قابلية للوصف من بين حواسنا، في نفس الوقت الذي يُعدّ فيه حاضراً للغاية، ومؤثراً في العمق على سلوكنا. إن المصطلح الشَّمِّي قليل الاتساع ومُخفَّض غالباً للقيمة. فمن الأسهل قول ما يُشَمَّ كريهاً من أن تتحدد، على سبيل المثال، بدقة طبيعة ما يُشَمَّ بشكل ممتع. إنه الحاسة التي يثير استحضارها مقاومة أكثر، بسبب صعوبة تبينها والتردد الذي تبديهِ الجماعة في مجال الاهتمام بها. ولكن منذ أن يتم تجاوز حدود الكبت، يقود واقع الحديث عنها، ذاك الذي يتجرأ على الكشف عن قلبه، بعيداً في داخل حياته الخاصة.

إنَّ مجموعة بلا روابط من الروائح تحدد معالم الحياة اليومية، ولكن بطريقة طفيفة وسريّة ؛ وعندما يجري الحديث عنها مع الآخرين، فإنها نادراً ما تكون تلك التي يستحضرها الشخص. إننا نعيش في فيض شَمِّي يفرش عالمنا الحسِّي، من دون أن يكون لدينا وعي بذلك. لكن أثر الروائح يتناقص بسرعة، ويُضعف بسرعة أكبر من

(22) لقاء مع ب. دارد (P. Dard) وأ. بلانشيه (A. Blanchet)، في مجلة Autrement - «الروائح»، ماهية حاسة» (Odeurs, l'essence d'un sens) العدد 92 - أيلول / سبتمبر 1987.

الْمُنْشَطَاتُ الْجِسْمِيَّةُ الأُخْرَى. فلكي نحسّ بروائح الحياة اليومية، روائح أولئك الذين نعيش معهم، تلك التي تنبعث من المطبخ، أو تتصاعد بشكل مميز من بعض الغرف: كروائح الخشب، والغسيل والرطوبة والكتب الخ... ولكي نحسّ بكل هذه الروائح التي يتشكل منها النسيج الشّمّي للوجود، وبُعده الأكثر الفة، على وجه الاحتمال، والأقل قابلية للانتقال، يجب بالفعل وجود التناقض والاختلاف. لأنّ الانسان يتكيف بسرعة مع أي محيط شّمّي، وتكفي لذلك بضعة دقائق. فإذا بقي عدة دقائق في نفس الأمكنة، فإنه لا يعود يحسّ بالروائح التي شدّت انتباهه في البداية.

وإذا كان الشّم، بالنسبة لرجل الشارع، تجربة هي بالأحرى قاسية وقابلة بشكل سيء للتمييز، فإن المتخصص بشّم العطور قادر، بالمقابل، على أن يّبين، في دقيقة واحدة، عدة آلاف من الروائح العطرية. كذلك فإن الضرير بالولادة يكون، هو أيضاً، مدعواً لأنّ يُتَمَي، علاوة على حاستي السمع واللمس، حاسة شّمّ حادة جداً لكي يتعرف على من يتحدثون معه. إنّ الروائح، في هذه التجارب الحديثة، يمكن أن تبدو متفاوتة بشكل خارق للعادة. لقد توصلت هِلن كيلر، التي لم يكن لديها تحت تصرفها إلا حاستي اللمس والشّم، للتعرف على زوارها من خلال الرائحة الشخصية التي تتصاعد منهم. لقد طوّرت في هذا الصدد نوعاً من علم سِمَات يقوم فقط على المعلومات الشّمّيّة التي تتلقاها. «أحياناً، يحصل لي أن ألتقي بأشخاص ليس لديهم رائحة فردية متميزة: فأجدهم نادراً نشطين ومُشْتَجِبِينَ. وبالعكس، فإنّ الناس الذين توجد لديهم رائحة متميزة بقوة يمتلكون غالباً الكثير من الحياة والطاقة والذكاء. إنّ روائح الرجال هي، عموماً، أقوى، وأكثر حيوية، وأكثر فردية من روائح النساء. إنّ هناك، في عطر الشباب، شيئاً ما بدائي، شيئاً ما يأخذ من النار، من الإعصار ومن موج البحر. إنّنا نحسّ فيه نبضات القوة والرغبة في الحياة. إنّني أحب أن أعرف ما إذا كان الآخرون يلاحظون مثلي أن كل الأطفال الصغار لهم نفس العطر، عطر صافٍ، بسيط، لا يمكن حلّ رموزه، مثل شخصيتهم التي ما زالت نائمة. إنّهم لا يبدؤون إلا في سنّ السادسة أو السابعة بامتلاك عطر خاص يمكن إدراكه. إنه عطر ينمو وينضج بشكلٍ موازٍ لقواهم الجسدية والفكرية»⁽²³⁾.

(23) ذكره بيار فيلاي (Pierre Villey) : «عالم العميان» (Le monde des aveugles) - باريس -

منشورات Flammarion - 1914 - ص : 241.

إنَّ كلَّ رجل، في سِرِّه، يثَّ رائحة، بغض النظر عن الطريقة التي يستحمُّ بها أو يتعطَّر، رائحة وحيدة تتصاعد من جلده، وتتداخل، بدون شك، مع التبادلات التي يغذِّيها مع الآخرين. إنَّ رائحة كلِّ شخص توقيع. فكما الخطوط التي تحُدُّ يده، لا تعود الروائح التي يثَّها إلَّا له. لقد أظهرت أعمال أجريت على أطفال السهولة التي يتعرَّف بها هؤلاء على رائحة أمهم⁽²⁴⁾. كما أنَّ أطفالاً تتراوح أعمارهم بين سبعة وعشرين وستة وثلاثين شهراً، كانوا قد وضعوا في وضع يختارون فيه بين كزتين لهما نفس اللون والشكل، كانت أم كلِّ منهم قد لبست واحدة منهما، فعرَّفوا على التي لبستها الأم بنسبة سبع مرات من عشرة. وجرت تجربة قريية في دار حضانة حيثُ لجعل أطفال، تتراوح أعمارهم بين عشرين وستة وثلاثين شهراً، يشمُّون بدون تعليق كنزة أمهم. إنَّ الطفل الذي كان يميَّكث بعيداً شيئاً ما عن رفاقه كان ينعزل عنهم أكثر فأكثر. وإذا كان عدوانياً تجاه الآخرين، كان يهدأ ويتبَّتي حينئذٍ سلوكاً متميزاً: إنه يتمدد على الكنزة، يشمُّها، يحملها إلى فمه ويضمُّها إلى صدره، الخ.. إنها مادة انتقالية، بالمعنى الذي أعطاه ويتيَّكوت لهذا التعبير، ولكن مع خصوصيته أنَّ الأمر يتعلق بمادة صادرة عن أمه ومطبوعة بسماتها الأكثر حميمية. إنَّ رائحة الأم تعمل كما لو أنَّها تحلَّ رمزياً محلَّ حضورها. ويقول الطفل عفويّاً للشرُّبيَّة التي تقدِّم له الكنزة: «رائحتها طيبة»، «إنها رائحة ماما» الخ. كذلك يهدأ الطفل الذي يبكي إذا أُعطي إحدى قطع الألبسة العائدة لأمه، والتي ما زالت مُشبعة برائحتها الخاصة. إنَّ الغلاف الشَّبي الذي يُطلِّقه كلُّ رجل هو مثل توقيع على حضوره في العالم. إنه أثر خفيف، لكن كل أفراد الأسرة يعرفون كيف يتعرَّفون عليه من بين كل الآثار.

إنَّ الرائحة الجسدية المُرتبطة بنتاج الحرارة الخاصة بكل فرد لا تكون، بدون شك، هي نفسها في كل لحظات النهار، والحالات المختلفة لصحته. فالإنسان المريض، الخاضع لمعطيات بيولوجية غير مُعتادٍ عليها، يلاحظ تغيُّر رائحته المعتادة شيئاً ما، وذلك سواء بسبب انفعالات مبتذلة أم بسبب أمراض أكثر خطورة تُفسد بشكل محسوس حرارته الجسدية الخاصة. فعندما لا «يشمُّ» الإنسان جيداً، يكون مريضاً. إنَّ

(24) أشرنا في السطور التالية إلى عدة تجارب قام بها هـ. مونتانييه (H. Montagner) - أنظر : هيوبرت مونتانييه : «الطفل والاتصال» (L'enfant et la communication) - باريس - منشورات Pernoud-Stock - 1978 - ص : 239 وما بعده.

شخصية لارس جستافسون (Lars Gustafsson) في «موت مربى النحل» المُصَّاب بسرطان يقترب من مرحلته النهائية يرى كلبه، الذي كانت تربطه به علاقة عاطفية منذ سنوات، يتحول عنه بقسوة ويهرب منه بنوع من الرعب: «كما لو كان هذا الكلب خائفاً، والله يعرف لماذا... لقد تصرفت معه تماماً كما كنت أتصرف دائماً منذ إحدى عشرة سنة... قد يُقال بحق أنه لم يُعد يُعرَف عليّ، أو بشكل أَصَحَّ أنه يُعرَف عليّ، ولكن فقط عن قرب، قرب شديد جداً، عندما أُجبره على النظر إليّ، والاستماع إليّ، بدل تركه يتبع رائحتي وحدها... إن الأمر سيكون كما لو أنّ رائحتي تغيّرت فجأة بطريقة واضحة بحيث أن الكلب وحده سيكون قادراً على أن يأخذ ذلك بالحسبان»⁽²⁵⁾.

إنّ الغلاف الشّمّي للإنسان ليس إذن أبداً من المعطيات الثابتة. إنه يتغير حسب الحالة الجسدية للشخص طوال اليوم، وحتى ربما طوال حياته. ومع ذلك، فإن صيغته الأساسية تبقى تقريباً هي نفسها. إنّها تشبه وجهاً، ليست اختلافاته إلاّ متغيرات لنفس الموضوع.

إن الرائحة التي يشمّها الجسد تكون حميمة الى حد أنّ توسّعه خارج الذات تكون غالباً محدودة باستعمال المُعَطِّرات. إننا لم نُعد نتحمل أن نشمّ الآخر من دون أن يشمّنا. إنّ ب. سوسكيند يقترح على طريقته، وفي سياق آخر، مثلاً موضّحاً: «الشباب جان باتيست جرونوويّ، في نفس الوقت الذي يشمّ فيه تيرييه، القسّ الذي استقبله، يبدو أنه يملك جوهره كما لو أنه كان ينشرها شيئاً فشيئاً في كل نفحة يمتصّها. وكان القسّ عند هذا الحد مُفعماً بالرعب بحيث بدا أنه يماثل بين رائحته وروحه، ويخشى أن يفقدها إذا تابع الرضيع لمدة أطول امتحانه. «كان يبدو لتيرييه أن

(25) لارس جستافسون : «موت مربى النحل» (La mort d'un apiculteur) باريس - منشورات Presses de la Renaissance - 1983 - ص : 29 (الترجمة الفرنسية). إنّ عدداً من الأمراض تُظهر روائح معروفة جيداً. إننا لن نُفَصِّل هذه النقطة التي عالجهها بشكل جيد جداً ر. وِنتِر (R. Winter) في «كتاب الروائح» (Le livre des odeurs) - باريس - منشورات Seuil - 1978 (الترجمة الفرنسية) ص : 110 ، لقد أُشِس بعض الأطباء تشخيصاً بناء على الشمّ. إن ر. سيلزر (المرجع السابق ذكره - ص : 24) يسرد قصة زيارة طبيب الى مريض ملازم لسريه في التبيت ، حيث لم يهتم إلاّ برائحة المريض قبل أن يقوم بصياغة تشخيصه.

الطفل كان ينظر إليه بمنحَريه ويتفحصه بلا مجاملة، وبعناد أكثر لا يعرف كيف يفعله بعينيه، وأنه كان يلتهم بأنفه شيئاً ما كان ينبعث من تيريبه من دون أن يستطيع هذا أن يحفظه، أو أن يخفيه... إنَّ لديه شعوراً بأنه عارٍ وبشع، ومتروك لنظرات شخص ما كان يثبته من دون أن يُسلم منه شيئاً. لقد كان يبدو أن هذا الاستكشاف الشَّمي يخترق حتى جلده، ويدخله في العمق»⁽²⁶⁾.

لقد أحسَّ تيريبه بالامتحان الشَّمي الذي كان موضوعاً له على شكل تعرية بلا مجاملة واختبار وعي يكشفه بأسره، ولكن بمبادرة من شخص آخر غيره. هل ستكون الروائح حينئذٍ الجزء الحسي من الروح، أم أن الروح ستكون فقط مصدر هذا الانبثاق؟ إننا نتذكر، على كل حال، الخوف الذي أحسَّ به ج.ب. جرونوي عندما اكتشف أنَّ أية رائحة لا تتصاعد منه. لهذا لم يكف حينئذٍ عن تصنيع رائحة لنفسه ليلتحق بالجنس الذي يدرك أنه لا يمكن أن ينتمي إليه إنَّ كان بدون رائحة.

وبالنسبة للطفل، ليس هناك روائح كريهة، ليس هناك إلا روائح، وخاصة إذا تعلق الأمر بفوحان صادر عن الجسد. إن الطفل يقرن ببطء، تحت ضغط التربية، أي نظام القيم الخاص، المنقول بواسطة أهله، روائح الجسد بالتقزز، ويدفعها عن نفسه أكثر فأكثر، وخاصة عندما يكون مع الآخرين. ولكن قبل ذلك، لا يعاني الطفل من أي نفور من الانبثاقات الجسدية، إنه يحب أن يلعب ببرازه وبوله، ويحب حتى أن يشمها، ويتحسَّس بدون شك من الرائحة المتميزة جداً التي تتصاعد منها. إنَّ أيَّ شيء في مجال حياته لا يزعجه شئياً. بل إنَّ هناك حتى ابتهاج لدى الطفل من استعماله للكلمات المحظورة في المصطلحات (بشكلٍ متناسب مع المُحرَّم الذي يُثقل عليها)، كما لو كانت تحسُّ هي نفسها بأنها رديئة، وأنَّ المتعة باستعمالها أكبر بنفس المقدار. إن فولكلور الضراط الطفولي، في هذا الصدد، غني بشكل خاص. إنَّ نزعة اللَّعب المُخلَّة بالحياة لدى الأطفال، والتي درسها كلود جينيويبه⁽²⁷⁾، تُظهر مصادر

(26) باتريك سوسكيند (P.Suskind) : « العطر » (Le parfum) كتاب الجيب - ص : 26 (ترجمة فرنسية).

(27) كلود جينيويبه (Claude Gaignebet) : « الفلكلور المُخلَّ بالحياة لدى الأطفال » (Le folklore obscène des enfants - باريس - منشورات Maisonneuve et Larose - 1974).

لا تُحصى لهذه الروائح البرازية التي تملأ الفرد بالتقزز عندما يكون في مكان عام (ضراط، براز، بول، الخ...) لكنه يتعود عليها جيداً عندما يكون وحيداً أو عندما يتعلق الأمر بتغوطاته الخاصة. إن الرائحة تكون محظورة اجتماعياً، أما على المستوى الفردي، فإنها تندمج في الوجود، ربما بشيء من الحياة، لكن تأثيرها يساهم في متعة الحياة اليومية. إنَّ هذا هو ما يستدعيه الطفل في علاقاته مع الآخرين، من دون لفٍّ ودوران، ونظراً لأنه لم يكتسب بعد قواعد السلوك التي ستؤثر عليه فيما بعد، لكنه سيقاوم لمدة طويلة قبل أن يستبطن هذا الحس الاجتماعي بالشَّم الذي يكمن أساساً في الكبت.

إننا نعيش، مثل الطفل، في عالمٍ مُثقل بروائح، لا نعيها بالضرورة، لكنها تؤثر بدون شك على نبرة سلوكنا مع الآخرين. لقد وضع الشَّم، فوراً، قيد المساهمة عندما تعلق الأمر بقَدْح خصم ما: «لا أستطيع أن أشُمَّه»، «إنَّه شخص نَتَنٌ»، «إنَّه مُدْخَنٌ»، إلخ. كذلك من المدهش ملاحظة أنَّ النزعات العنصرية دعمت أيضاً كراهيتها للآخر على الرائحة الكريهة التي افترض أنها تتصاعد منه. ومن ذلك العامل اليهودي (foetor judaicus) التي يقول المعادون للسامية أنهم يميزون به اليهودي عن الناس الآخرين، أو الجيفة (La jiffa) التي تُعدُّ المُميِّز الشَّمِّي هذه المرة للبلاد العربية. كما أن رائحة الافريقي، يمكن التعرف عليها من بين ألف رائحة، برأي بعض «الذين يعرفونه»، إنها رائحة العرق، الرائحة النَّتِنَة المتصاعدة من الألمان، برأي إدغار بيريللون (Edgar Bérillon)، المفتش القديم في ملاجئ المجانين. ففي عام 1915، كتب، وهو متأثر بحماسة الشَّمِّي، إنَّ الأطباء الفرنسيين الذين «كان عليهم أن يعتنوا بالجرحى الألمان تعرّفوا عفويّاً على رائحة خاصة، مميزة جداً، تنبعث من الجرحى. لقد اتفقوا جميعاً على التأكيد بأنَّ هذه الرائحة تُضِرُّ، بسبب نتنها، بشكل مُتعب بحاسة الشَّم... وقد أكَّد لي عدة طيارين أنهم عندما وصلوا لفوق التجمعات السكنية الألمانية، تنبَّهوا لوجود رائحة معينة أصابت أنوفهم حتى عندما كانوا يطيرون على علوٍ كبير جداً... إنَّ الألمان يقترب من الأنواع الحيوانية التي يثير لديها الخوف أو الغضب نشاطاً مبالغاً

(28) حول رائحة الفقراء ، أنظر آلان كوربان (Alain Corbin) «الرائحة النتنة والترجس : الشَّم والمخيال الاجتماعي» (في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) (Le miasme et la jonquille. L'odorat et l'imaginaire social) (XVIII^e et XIX^e siècle) - باريس - منشورات

فيه للغد الذي تفرز روائح كريهة...»⁽²⁸⁾. من جهة أخرى، نجد فيما وراء الراين، في نفس العصر، تنديداً مُناظراً برائحة الفرنسي. وفي اليابان يتحدث شوزاكا اندو (Shusaka Endo) عن «الرائحة الجسدية الخائفة، رائحة الجبنة الخاصة بالأجانب». كما يُطلق تعبير Bata Kussai (وتعني حرفياً نتن الزبدة على الروائح التي تنبعث من الجسد الغربي)⁽²⁹⁾. إن الآخر يُدفع بطبيعة جسدية مختلفة، منحرفة بيولوجياً شيئاً ما، ولا يمكن لإفرازاتها أن تكون إلا غير ممتعة بالنسبة لأولئك الذين يُجسّدون الطبيعة «الصحيحة». ومن عدم القدرة على شمّ الآخر ينجم بالفعل أن الروائح التي تتصاعد منه لا يمكن أن تكون إلا «رديئة»، وزنخة، ومنتنة، الخ... إنها على كل حال فريدة، ومثيرة لاشمئزاز عفوي. إن الآخر يكون دائماً رديء الرائحة، عندما لا يكون متمعاً برائحة القداسة.

وبالرغم من سمعة عدم الحساسية الشمية لدى الإنسان الغربي، يُظهر تفكير حول حياته الخاصة أن بعض الروائح لا تكف عن مصاحبة وجوده طوال الحياة اليومية. إن الخطاب لا يرفع من قيمة هذه الروائح، لكنها مع ذلك تبقى مؤثرة عليه بشكل سري. إن مرض فقدان القدرة على شمّ الروائح مرض مُضني ينزع من الوجود البشري جزءاً من متعته. وبالعكس بعض المجتمعات الأخرى التي دفعت بعيداً فن العطور فإن المجتمعات الغربية لا تضع الروائح في وضع تجميلي، فمكانها بالأحرى هو مكان علم التجميل. إنها تؤثر خارج الدائرة الواعية للإنسان، لكنها لا توجّه أقل سلوكه. إن الخطاب الاجتماعي يُنّدد بالأحرى بالروائح: «روائح: دائماً رديئة». هكذا يمكن أن يكون القاموس الحديث للأفكار المستوردة. إن روث وينتر يستذكر تجربة

Aubier - 1982 - ص : 166.

— حول «الجيفة» ورائحة العرق - إقرأ : لوران ديسبوت (Laurent Dispot) «البيان البدائي» (Le manifeste archaïque) - باريس - منشورات Grasset - 1986 - وحول (Le fœtor judaïcus) : ليون بولياكوف (Léon Poliakov) : «تاريخ النزعة المعادية للسامية ، من فولتير الى فاغنر» (Histoire de l'antisémitisme, de Voltaire à Wagner) - باريس - منشورات Clamann-Lévy - 1968.

(29) أنظر : برينو بيروللي (Bruno Birolli) : «في الغرب ، هل نحن كلنا نتن زبدة» (A l'Ouest sommes-nous tous des «pue-le-beurre») مجلة : Autrement - «الروائح ، جوهر الحس» (Odeurs, l'essence d'un sens) - العدد 92 - 1987.

قام بها بعض الباحثين من كاليفورنيا على العلاقات بين الروائح والتقارب⁽³⁰⁾. فقد جاب بعض المشاركين المُعطِّرين بشكل متفاوت حديقة عامة، ولاحظوا ردود الفعل التي أثارها مرورهم. ثم جلسوا على مقاعد وطلبوا معلومات، الخ. وبدا أن أولئك الذين كانوا مُعطِّرين جيداً أبعادوا المارة الذين كانوا في جوارهم، بالرغم من الرائحة الممتعة المتصاعدة منهم. فعن المرأة المُعطِّرة «كثيراً» قيل أنها «لعوب»، إنَّ الرجل المُعطِّر كان بدون شك هنا ذلك الذي يُعرِّض نفسه الى عدم الارتياح لتبادل الحديث معه، لأنَّه كان يُخالف قاعدة ضمنية تقرر بين الرجولة وغياب الرائحة الطيبة. إنَّ الرجل الذي يتعطر يُسبب الشتيمة لفحولته، ويُعرِّض نفسه للشك.

إن كل فرد مغلق في داخل فقاعته الشمية (التي لا يحسَّ هو نفسه بها) يبدو أنه لا يقدر على السماح بدخول رائحة جسدية أخرى غير رائحته الى داخل مجاله الحميم، إلّا إذا كانت هذه الرائحة معروفة من قبله، ومُعْتَاد عليها سابقاً (وهنا يتعلق الأمر إذن بقريب هناك اتصالات جسدية ممكنة معه). إن الروائح الفؤاحة الكريهة هي روائح الآخر. وليست روائح الأقارب. إن الإعلان، من جهة أخرى، يُحذِّرنا في هذا الصدد: إن الآخرين هم الذين يدركون الروائح التي تتصاعد منكم. إنكم لا تُحسُّون بها بأنفسكم. إن الإعلان يركز سلبياً على الرائحة الخاصة التي يدعو للتخلص منها بفضل العديد من المنتجات المُزيلة للروائح. إن النساء، بالتأكيد، هُنَّ المُستهدفات أكثر من قِبَل هذه الفكرة الذنيَّة التي تجعل من الجسد مكاناً سيئ الرائحة بشكل طبيعي. ولكن أليس الجسد مكان الآخر بذاته، في نظر الفكر الغربي الذي يميز الانسان عن جسده ليجعل منه، في أفضل الأحوال، أنا آخر (un alter ego) ؟

إنَّ الشَّم، على الرغم من مكانته في الحياة الشخصية، يُحاط اجتماعياً بالشك، ويخضع للكبث. إنه الشيء الذي لا نتحدث عنه، إلّا من أجل التستر على رائحة كريهة. أما في المجال الاجتماعي، فيُبحث عن الصمت الشَّمي من خلال لجوء ملحوظ الى مُزيلات الروائح. إنَّ العطر لا يكون قبولاً، ولا يشكل لمسة حاسمة في لعبة الاغواء، إلّا بشرط أن يُستعمل عند حدِّ المحو. أما الكثير من العطر فغير مريح. وإذا كان من المناسب اليوم أن لا يكتفي المرء فقط بمحاربة روائح

(30) روث. وينتر - «كتاب الروائح» - المرجع السابق ذكره - ص : 10.

الشخصية (رائحة النفس والعرق، الخ) وإنما أيضاً أن يُفَوِّحَ منه (في حال المرأة) رائحة محتعة، فإن هذا ينبغي أن يتم برصانة. إن سحر العطر يُستمد من البراعة في استعماله. إنَّ الصُّنْعَ الشَّمِّيَّ الذي، هو مزيج للصراع بين الروائح الجسدية وتأكيد الشخصية الذاتية، عبر العطر ومعجون الأسنان، والمياه العطرية والصابون، الخ... يضاعف صُنْعَ المظهر الجسدي أو اللباسي. إن ما يأتي عفواً من الجسد، حتى في حال عدم الاحساس بالروائح، لا يمكن أن يدعو إلاً للشك وللشطب، وذلك بغية تعديل النص الأصلي. لقد استشف هنري ميللر جيداً هذا الاتجاه الذي تدفعه الولايات المتحدة بعيداً جداً: «إنهم لا يدعوك تشمُّ الرائحة الحقيقية، ولا أن تذوق المذاق الحقيقي لأي شيء كان. فكل شيء مُعَقَّم، ومُعَلَّف بورق السيلوفان. إن الرائحة الوحيدة المقبولة والمُعترف بها بصفقتها تلك، هي رائحة النفس الكريهة، وكل الأمريكيين لديهم شعور بعارٍ قاتلٍ منها... إنها الرائحة الصحيحة للتعبُّن فعندما يموت يمكن للجسد الأمريكي أن يغسل ويُطهَّر... لكن الجسد الأمريكي الحي الذي تتحلَّل فيه الروح يصدر رائحة كريهة دائماً. إنَّ كل الأمريكيين يعرفون ذلك، ولهذا السبب يفضلون أن يكونوا أمريكيين مئة بالمئة، أي منعزلين ومُتجمِّعين في آن واحد، بدل العيش متقاربين مع القبيلة»⁽³¹⁾. إنَّ الرائحة هي الجزء الرديء من الجزء الرديء الآخر في الإنسان، المتمثل بلحمه. إنَّ نفيًا منهجياً يثابر إذن اجتماعياً على أن تُنتزع من الروائح امتيازاتها في الميدان الاجتماعي. فالإنسان حيوان لا يشمُّ (ولا يريد أن يشمُّ)، وفي هذا يتميز عن الأنواع الأخرى. بنفس هذه الروح، يقرن فرويد في مؤلِّفه «تَوَعُّكُ في الحضارة» (Malaise dans la civilisation)، بين تراجع الشَّمِّ ونمو الحضارة. إن الإنسان، بانتصابه عامودياً، يتخلص من تبعيته لحاسة الشَّمِّ، ويتميز عن مملكة الحيوان. وهذا التغير في نظامه الحيوي يقوده الى تفضيل النظرة. إنه تحليل بليغ لزمن ولمجتمع يُدرجان الشَّمِّ والنظر عند الطرف الأقصى في سُلَّم التسلسل الحسِّي.

(31) هنري ميللر (Henri Miller) «العين المسافرة» (L'œil qui voyage) - باريس - منشورات Buchet-Chastel ص : 144 - (ترجمة عن الأمريكية).

الفصل السادس

محو طقوسية أم تكامل الجسد

الجسد الحاضر - الغائب

تتحكم شبكة واسعة من الاستراحات الجسدية المتقابلة بالتبادلات بين الشركاء الاجتماعيين. ففي نسيج اجتماعي واحد يتشاطر الفاعلون، عبر هامش ضيق من المتغيرات، نفس الأحاسيس والتعبير الانفعالية والإشارات الحركية والإيمائية ووضعيات الأجساد، وقواعد السلوك التي تُنظّم التفاعلات، والتصورات وغير ذلك من الأشكال الجسدية. إنَّ تجاربهم البدنية تُحيل بمرآة الواحدة منها للآخرى، وتؤسّس ما يُسمّى بالحسّ المشترك (sensorium commune). وإذا ما بقيت هناك اختلافات، مُرتبطة بأسلوب الشخص الفاعل وفقته الاجتماعية، على سبيل المثال، فإنها لا تكون ملموسة إلا نادراً طالما لم يتمّ تجاوز عتبة بناء اجتماعي آخر.

إنّ تقارب التجربة الجسدية والإشارات التي تظهر بها للآخرين، والمشاركة المشتركة في الطقوس التي تُنظّم الحياة الاجتماعية هي الشروط التي تجعل من الممكن قيام الاتصال والانتقال الثابت للحسّ في داخل مجتمع ما⁽¹⁾. إلا أنه يبدو غريباً، من خلال التواطؤ القائم مع الجسد الظاهر في مرآة الغير، وألفة الشخص مع

(1) يمكن، في هذا الصدد، ملاحظة الآثار القاتلة المُتولّدة في مجتمع تحلّل أطره الاجتماعية، ويختفي فيه كل بُعد للتنبؤ. أنظر، على سبيل المثال، كولان تورنبول - (Colin Turnbull) : «شعب من المتوحّشين» (un peuple des fauves) - منشورات Stock - 1973.

ترميز استعمالاته الجسدية الخاصة طوال حياته اليومية. أن يُمحي الجسد، ويختفي من ميدان الوعي، وتضعف ألوانه وسط الطقوس اليومية شبه المؤتمنة.

ومع انسياب الحياة الجارية، يتلاشى الجسد. إنَّ الجسد الحاضر للغاية، لأنه المرتكز الحتمي لِلحَم الكائن في العالم - الذي هو الإنسان - هو أيضاً غائب للغاية عن وعيه. إنه يبلغ هنا وضعه المثالي في مجتمعاتنا الغربية حيث مكانه هو مكان الصمت والتكتم، والانعحاء، والاختفاء الطقوسي. هكذا استطاع جورج كانجيلهم أن يُعرِّف، بلا قلق، حالة الصحة بأنها «لا وعي الشخص لجسده»، ورينيه لوريش (René Leriche) أن يقول بأنها «الحياة في صمت الأعضاء». لقد دُكرت هذه الصيغ غالباً، لكنها تُبرز، على طريقة الهفوة، كم هو ضروري، اجتماعياً، إنمحاء الجسد في حياة كل يوم، وكم ترتكز «الصحة» على كبت لشعور التجسد الذي لن يكون الإنسان، مع ذلك، موجوداً بدونه. وكما لو أن وعي الجسد كان المكان الوحيد للمرض، فإن غيابه فقط هو الذي يُعرِّف الصحة. في هذه الشروط، نجرؤ بالكاد على تذكُّر أن الجسد هو، مع ذلك، المرتكز المادي، والفاعل لكل الممارسات الاجتماعية ولكل التبادلات بين الأشخاص. إنَّ جعل حجب الجسد علامة للصحة يُعبِّر بكل بداهة عن ضرورة التكتم الذي يُثقل على التعابير التي تتجه إلى تذكير الإنسان بوضعه كَلَحْم.

إن إضفاء طابع اجتماعي على التعابير الجسدية يتم في ظلّ الكبت. ففي نظر مجتمعات أخرى أكثر استضافة للجسد، يمكن القول بأن النزعة الاجتماعية الغربية ترتكز على محو للجسد، وعلى ترميز خاص لاستعمالاته، يُترجم من خلال إبعاده⁽²⁾. طقوس منع (لا تلمس الآخر، إلّا في بعض المناسبات الخاصة، حيث يسود نوع من الالفة بين المتخاطبين...) لا تُظهر جسداً عارياً أو مُعرّى جزئياً، إلّا في بعض المناسبات المُحددة، (الخ...) أو تنظيم للاتصال الجسدي (المصافحة باليد، التقبيل، المسافة بين الوجوه والأجساد، أثناء التشارك في العمل، الخ). لنفهم من هذا جيداً أن كل مجتمع يتضمن تنظيماً طقوسياً للنشاطات الجسدية. ففي كل لحظة، يرمز الشخص عبر جسده (إشارات الحركة والإيمائية، الخ) الى طبيعة علاقته مع العالم. بهذا المعنى، يُعتبر الجسد، مهما كانت المجتمعات البشرية، حاضراً دائماً

(2) أشرنا بتفصيل أكثر لهذا «المحو الطقوسي للجسد» في دافيد لوبروتون «أجساد ومجتمعات» - المرجع السابق ذكره - (الفصل الرابع).

بشكل بليغ. ومع ذلك، فإن المجتمعات يمكن أن تختار بين وضعه في ظلّ أو ضوء الحالة الاجتماعية إنها يمكن أن تختار بين الرقص والنظرة، بين الشكر والمسرح، بين الإدخال أو الاستبعاد النسبي للأساليب الحسية والحركية من الوضع البشري. لقد اختارت المجتمعات الغربية المسافة، وميزت بالتالي النظرة، ونظّمت في نفس الوقت الشّم واللمس والسمع، بل والذوق في الفاقة.

إنّ هذا الموقف المانع لاستعمالات الجسد لم يكن بالامكان رسم معالمه دائماً بسهولة في التاريخ الغربي لقد أظهر نوربير الياس. في مؤلفات هامة، كيف أن الجسد، قبل عصر النهضة، وأيضاً بعده بالنسبة للطبقات الاجتماعية الأكثر بُعداً عن البرجوازية، لم يُحرم من تعبيراته المادية، ولم يكن موضوعاً لطقوس فرضت وضعه على بُعد مسافة ما. فالمرء يصق، يتجشأ، يقوم بحاجاته في وجه العالم، يتمخّط بيده ويلمس نفسه⁽³⁾. كذلك، فإنّ المصطلحات الخاصة «باللوازم الوضيعة» (على حدّ تعبير م. باختين) غنية بشكل لا معقول. إنّ صفحات لا تُحصى لرابليه تنتشر فيها، بنظرنا، كلمات شاذة أو غير مفهومة تشهد على ذلك اليوم. لقد حُمِلَت الانفعالات دائماً لأوجها، حتى ولو تناوبت في فترات متقاربة وتناقضت مع بعضها البعض. إنّ البكاء أو الضحك هما دائماً في الإفراط (بالنسبة لنا) وفي اللحظة. إنهما يتبددان بسرعة مثل السرعة التي يصلان فيها، لكنهما يُقالان بالصيغة الجماعية⁽⁴⁾. إنّ الولائم أو الأعياد توفر المناسبة للشراقة والفجور. أما النشاط الجنسي فلم يُهذَّب أخلاقياً كما سيكون عليه الحال في القرون التالية. لقد كانت الطبقات الاجتماعية التي تألّف منها المجتمع الوسيط، وحتى مجتمع عصر النهضة، مضيافة تجاه تعابير الجسد. لقد رُسِّخَ الجسد بصفته المكان الأساسي والسعيد للوجود، وليس بصفته حادثه المصطنع، والمضني الى هذا الحد أو ذاك، الذي يجب السعي لنسيان حضوره.

إنّ الإنسان الغربي يُعبّر ضمناً، بطريقة غريبة، وخلال حياته اليومية، عن إرادته في أن لا يتّمس بجسده، وينساه ما أمكنه ذلك. إن وعياً متبقياً يمكن أن يبلغه بشكل شرعي. على الأقل، على مستوى الحياة اليومية، لأنّ تفاخر الجسد بنفسه، كما

(3) أنظر ، على سبيل المثال ، نوربير الياس (Norbert Elias) «حضارة الاخلاق» (La civilisation des mœurs - منشورات Calmann-Lévy - 1973 .

سنرى، يُعدّ أمراً مقبولاً في بعض الأمكنة، وبعض اللحظات، ولأن الإعلان يعرضه أكثر فأكثر ويُظهر أوضاعاً أو أمكنة من الجسد كانت قبل ذلك تحاط بأكثر قدر من التكم (إعلانات الأوراق الصحية، والسدادات الدورية، وحاميات السليب، والألبسة الداخلية، الخ). لكن الحياة اليومية لم تتضرر، حتى هذه اللحظة، في طقوسها وقيمها من هذا «التحرر».

إنّ الجسد لا يشفّ، بشكل حقيقي، الى وعي الانسان الغربي إلاّ في لحظات الأزمة والإفراط فقط: لحظات الألم والتعب والجراح والاستحالة البدنية في إنجاز هذا العمل أو ذاك، أو في لحظات العاطفة، والنشاط الجنسي أو اللذة أيضاً، أو، بالنسبة للمرأة، على سبيل المثال، أثناء الحمل أو الدورات الشهرية، الخ. وهي أوضاع تضيّق ميدان عمل الشخص، وهذا فقط ما فكّر به ج. كانجيلهم ور. لوريش، أو بالعكس توسّعها ولكن بشكل نادر. ومن هنا ينبع تمثيل الإدراك الحسي للجسد بمرض كامن.

إنّ الأمر الرمزي الذي يطبع الجسد بطابعه يعطي للشخص سبل الإخفاء القصوى لهذه الحقيقة المبهمة التي ارتبط بها. إنّ الجسد هو الحاضر - الغائب، إنه، في آن واحد، محور إدراج الإنسان في نسيج العالم، والمرتكز الذي لا بد منه لكل الممارسات الاجتماعية. إنه لا يوجد في وعي الشخص إلاّ في اللحظات التي يكفّ فيها عن القيام بوظائفه المعتادة، عندما يختفي روتين الحياة اليومية، أو عندما ينقطع «صمت الأعضاء».

إنّ العديد من الممارسات الجسدية المعاصرة لا يثور إلاّ ضد التغطية الممكنة للمجال الحسي فمطلب «الإصغاء للجسد» الراسخ يُعبّر عن القصور الذي يحسّ به الشخص الذي يسعى، على نمط التّصنّع، للنضال ضد الصمت الذي ينفذ إلى لحمه. لقد أشرنا سابقاً، في عدة مناسبات، لنمو الاضطرابات النفسية المرتبطة بالترجسية، والشعور بعدم الإحساس بشيء، والفراغ الداخلي، وذبول الحواس والذكاء، وبياض الوجود، واللانعمية. إن الاستكشاف الحسي الذي يشجع عليه صندوق العزل، والتدليك، واليوغا، والفنون الحربية، وغيرها من الممارسات التي تقترح استعمالاً

(4) أنظر : جورج هوزنجا (Jurgen Huizinga) «خريف القرون الوسطى» (L'automne du Moyen-Age منشورات Payot - 1961).

مستحدثاً للجسد، تُعبّر عن الضرورة الانثروبولوجية لتحالف جديد مع جسديّة قليلة الاستعمال في العصر الحديث. في هذا الصدد، يُعدّ بليغاً تفكير كنجي توكيتسو، وهو يتحدث عن الاكتشاف الذي سيحدثه على ممارسة مكثّفة للفنون الحربية: «في أحد الأيام، وأنا ذاهب الى المدرسة، في ضوء الربيع، كنت أسير مع بقعة ظلّي السوداء على الطريق الترابية التي تشرف على حقول الأرز. حاولت أن أسير حقيقةً، وأن أكون حاضراً في كل خطوة، ولكن بلا جدوى، هذا الإحساس بأنني لم أكن موجوداً، وهذه المحاولة غير المُنجزة لأن أوجد بشكل حقيقي وجهاني نحو بحث عن وجود الذات من خلال الفنون الحربية»⁽⁵⁾. إنّ الطلب الملازم للفنون الحربية، بصفته وعياً رمزياً، يعكس، بالفعل، اهتماماً بتكامل الحركة والإحساس في لعبة الحياة، ويهدف الى توحيد للشخص. تماماً مثل رياضة الشياتسو والرقص، الخ... حيث يتواجه الممارسون مع أنفسهم، أو بالأحرى مع أجسادهم المُعرّضة للنظر، والتي يعملون بناء عليها على تنشيط أحاسيس، وقدرة جموحة على التحرك. وحركيّة نادرًا ما يمكنها، في أي مكان آخر، أن تُعطي مقاسها الكامل.

إن المقصود هو بلوغ الاستعمال الأكمل للذات، وتحقيق التكامل بين مختلف مستويات وجودها. إنّ هاويّاً للسباقات الطويلة، يركض في أيام الأحد، يُعبّر عن نفس الشعور، مُصاغاً بطريقة أخرى: «إننا نجد ثانية سلوك الطفولة، والصبا... إنه الهدوء، والانفراج». إنّ الاستعمال الجسدي للذات يؤدي الى ابتهاج، ويقود الى شعور تام بالوجود.

إن البحث عن الرفاهية عبر الاستعمال الجسدي الأفضل للذات، وفي الالتزام الطاقوي مع العالم بشكل خاص، يستجيب أيضاً، إذا ما اخترقته شبكة من الاشارات (الصحة، الشكل، الشباب، الخ) الى ضرورة إعادة نوع من الرسوخ الانثروبولوجي الذي جعلته الشروط الاجتماعية للوجود في العصر الحديث وقتياً. ولأن الجسد لم يُعدّ المركز المُشيع للكائن، فقد أصبح عقبة، ومركزاً مُثَقلاً ومُضنياً. إن الممارسات والخطب التي تستهدفه تصبح حينئذ مكتسحة، على القياس العكسي للضمور الذي يشكل الجسد موضوعاً له طوال وجود الشخص. إنها الحدود، والقوة «لملحق

(5) كنجي توكيتسو (Kenji Tokitsu) - «طريق الكاراتيه» (La voie du Karaté) - باريس - منشورات Seuil - 1979 - ص : 7.

روحي»، لأونصة إضافية من الحسن، تبنى من خلالها، بشكل مؤقت، متعة أكبر بالوجود. إن الجسد الذي نتحدث عنه، ونُعلن عنه، ونحرره، الجسد الذي نبحث عن آثاره في الرياضة، الجسد المنتصر، السليم، الشاب، والبرونزي اللون، في القصة الحديثة، ليس هو جسد الحياة اليومية، المشعشع في ابتذال الأيام. وإذا كان المِخيال الجديد للجسد خالياً من التأثير على الحياة اليومية، فإن آثاره تبقى قاصرة، وتعني المِخيال أكثر مما تتعلق بالجسد الذي يعيش.

طقوس المحو

يدو أن وجود الجسد يحيل الى جاذبية مُخيفة يجب على الطقوسية الاجتماعية أن تتحاشاها. إن الأمر يتعلق، بشكل ما، بنفي يرقى الى مرتبة المؤسسة الاجتماعية، كما يشهد على ذلك موقف الرزاة التي تُلبس كُفَّاز في المصاعد أو في وسائل النقل المشترك حيث يسعى المرء جاهداً وبضيق لجعل نفسه شفافاً للآخر، ولجعل الآخر شفافاً أيضاً. كما يشهد على ذلك أيضاً التحفظ في لمس شخص مجهول أو في تعريض أنفسنا لأن نُلَمَسَ من قبله، الأمر الذي يؤدي لاعتذارات لا بد منها، عندما يحدث اللمس ولو بحدوده الدنيا. أو - أيضاً الحرج الذي يولد من الحوار مع شخص أجنبي لا يعرف الطقوس الغربية. أو ذاك الذي يولد لدى شخصين متجاورين إذا فُوجيء أحدهما بموقف غير لائق، أو شاذ. أو عندما يفلت من أحدهما تعبير جسدي ينبغي عادة كتمُّه: ضراط، تجشؤ، قرقرة ماء المعدة، الخ... في هذه الظروف من الاتصال مع الغير، التي لم تُعد الطقوس تأخذها على عاتقها بطريقة مباشرة، يفقد الجسد فجأة سلاسته السابقة، ويصبح ثقيلاً ومُزهقاً. إن تعابير شائعة عديدة تحضر للحديث عن القلق الذي يولد من هذا التغيّر في نظام الجسد: «لم أعد أعرف أين أضع نفسي، الخ». إن الترميز الجسدي يفقد مؤقتاً قدرته على التآمر، لأن معطيات الوضع تلغي جزئياً آثاره. فالجسد يصبح ثانية سراً، ولم يُعد المرء يعرف كيف يتناوله. إن انتظارات الفاعلين لم تُعد تستجيب أو أنها تدع المجال لتوقع تفرغات مُقلقة لقد كُفَّت الأجساد عن الانسياب في المرأة الأمانة للإنسان الآخر، في هذا النوع من الكتلة السحرية التي يُمحي فيها المتخاطبون في ألفة الرموز، في نفس الوقت الذي يضعون فيه أنفسهم في واجهة المشهد بشكل ملائم. إن قلقاً عميقاً ينبثق من انقطاع الحسن، ويضع الجسد لسوء الحظ في حالة بداهة.

إنَّ كل طرق التفاعل الاجتماعي تتأسس إنطلاقاً من تعريف مقبول بشكل متبادل. فالوضع يُحدَّد ضمناً بهامش للأوضاع الجسدية، والإشارات الحركية والإيمائية ؛ وهناك مسافة محددة تفصل بين المتخاطبين الذين يعرفون بالحدس (حدس هو ثمرة تربية تصنع الجسد) ما يمكن لهم جسدياً أن يسمحوا به تجاه بعضهم البعض، وما يمكنهم أيضاً أن يقولوه لبعض عن تعابيرهم الجسدية الخاصة من دون أن يخشوا إحراج بعضهم البعض بشكل متبادل. إنَّ هناك أصولاً مقبولة للسلوك الجسدي تختلف حسب جنس المُخاطب، ووضعه، وعمره، ودرجة قرابته، أو حسب اللفة وسياق التبادل، الخ.. وكل سلوك مُنْقَلَب من تعريفه الاجتماعي يوصم بعدم اللياقة. إنه يمكن أن يُثير الخجل لدى الذي يعي أنه قطع الإطار القائم، والخرج لدى الذي واجه الأمر: رائحة كريهة، نفس قوي جداً، موقف بذيء، ضجة غير مُراقَبة، ضحكة مجنونة، الخ.. إن هذا الأمر يُوجِّه الانتباه بقسوة نحو جسد يجب أن يبقى متكتماً، وحاضراً دائماً، ولكن داخل شعور بغيابه. إنَّ الحرج الذي يبرز ويُشوِّش التبادل يمكن، مع ذلك، أن يُمحيى بشكل طقوسي، من خلال تصنُّع اللامبالاة، أو بالأحرى أيضاً من خلال الدعابة، المستعدة دائماً لترميز الأوضاع الصعبة وتبديد الخجل أو التحفظ. إنَّ الجسد لا يجب أن يبدى أية خشونة قابلة لأن تضعه موضع القيمة. لقد وصف سارتر ببراعة نادل، المقهى الذي يذوب كلياً في الأوضاع الجسدية والحركات والائماءات التي يقرنها بممارسة لمهنته. فوفاءً منه لأصول السلوك التي تستجيب للتعريف الاجتماعي لعمله، يمحي بشكل طقوسي حضور جسده، في الوقت الذي يقوم فيه بإنجاز مهمته برشاقة، بفضل لجوء الى مجموعة تقنيات جسدية يتحكم بها بشكل خاص: «إنه يمتلك حركة حيّة ومَشْنُودَة، ودقيقة جداً. حينئذ يأتي نحو المستهلكين بخطوة حيّة جداً، ينحني بشيء من الاستعجال، يُعبِّر صوته وعيناه عن اهتمام شديد مليء بالاعتناء بطلب الزبون، أخيراً ها هو يعود وهو يحاول أن يُقلِّد في مشيته الدقة الصارمة لإنسان آلي لا نعرف من هو، وهو يحمل صينيته بشكل من جسارة البهلوان... إنَّه يلعب ليكون نادل مقهى»⁽⁶⁾. ومع الحيوية لا يكفَّ جسد نادل المقهى عن الخضوع للحركات المهنية التي تعلَّمها. إنَّ جسده، الممثل، يبقى

(6) جان بول سارتر (J. P. Sartre) - «الكائن والعدم» (L'être et le néant) - باريس - منشورات

Tel-Gallimard - 1943 - ص : 95.

ضمن إطار الرصانة. هكذا نقاد، في الحياة الجارية، بواسطة شبكة من الطقوس التي تحي بداهة الجسد في نفس الوقت الذي تدرجه فيه، بمرونة، في الوضع الذي يعيشه.

وفي هذا يكمن واقع بنيوي لم تشرع فيه ميثولوجيا تحرير الجسد. إن التفاعلات تبقى تحت إشراف المحو الطقوسي للتعبير الجسدية، بالرغم من أن سلسلة من الأوضاع يمكنها أن تُعرض هذا التأكيد للجدل. إن فحماً أكثر تنبهاً يُظهر، بعيداً عن المظاهر، وربما بالرغم من تعديلات بارعة، وقساوة أقل، إن من غير المناسب دائماً للمرء أن يعرض كثيراً جسده خارج إطار الطقوس التي تُسجل انسياب الحياة الاجتماعية، والتي تحتفظ به في الضوء - العتمة، وفي الحضور - الغياب⁽⁷⁾.

وعلى صعيد التفاعلات اليومية لا يُغيّر شيء من المحو الطقوسي: إن الأمكنة أو الأوقات المميّزة هي التي تقطف الانفاق. فالنشاطات الحركية أو الحسية، والبحث عن الحدود عبر الحد الأقصى من الالتزام الجسدي (الاختبار الطويل، الماراتون، التدرّب على البقاء، الخ...) تميل للانعقاد من السيطرة الاجتماعية. إنها نشاطات يدركها الفاعلون ويحشّون بها كما لو أنها تقع على الهامش، وتوضع أكثر تحت ظل المبادرة الفردية حتى ولو كانت القيم الشيطنة في لحظة ما توجّه بشكل ملموس، كما رأينا، اختيار الفاعلين. إنها شواطئ الزمن، والأمكنة المنظّمة لهذا الغرض، التي تدير قسماً هاماً من هذه النشاطات الجسدية. ولو كان لهذه النشاطات أصداء فردية، تعوّض، في آن معاً، ضمور الوظائف الجسدية في العصر الحديث، وتشجع على لعبة الاشارات التي بفضلها يُحدّد الفاعل موقعه على طريقته في الجو الاجتماعي للحظة ما، فإنها لا تتداخل إلا بشكلٍ مُتّبِق مع ما يشكّل هذا الأساس غير المحسوس للحياة اليومية والمهنية للشخص الفاعل. إن الاتصال الجسدي مع

(7) بيّنا، في موضع آخر، أن محو الجسد ليس أبداً مزاجاً يُوضع عليه. إن أوضاعاً عديدة، طقوسية أيضاً، تسمح بتراخي في أصول السلوك الجسدي وفي الكلام المسموح به حول تعابير الجسد: مثل لحظات الاحتفالات (حفلات الغرّس، الاجتماعات العائلية، المآدب، الأعياد، الخ) الثياب الرياضية، والحفلات الراقصة، الخ التي تشجع على إباحيات السلوك والكلام. كما أنّ حفلات الاستقبال، والاحتفالات، والحفلات الراقصة، الخ هي مناسبات لوضع الجسد موضع القيمة تحت إشراف الإغواء.

الآخر، المجهول، يبقى، على سبيل المثال، مُحَرَّمًا.

إنَّ النشاطات الجسدية للإنسان الغربي تبقى في الظل بالرغم من رفع بعض التحفظات، والتمسك بخطاب أكثر تحرراً في الظاهر: فمنذ بضع عشرات من السنين فقط، كانت استعمالات الجسد أكثر في قلب الحياة (بنفس الطريقة التي كان عليها الموت أيضاً)، في وقت كانت فيه الدراجات والمشى، والاستحمام في الأنهار أو البحيرات تشكل جزءاً من ابتذالية الأيام. وكانت بنية المدن، الأقل انفتاحاً على سير السيارات، تترك مجالاً ملموساً للحسيّة، وللتسكع، وللقدرّة على التحرك وحركة الجسد. إن هذا الغياب للّحم وللحساسية من بدهاء العلاقة مع العالم، يدفع الأشخاص الفاعلين لتنمية نشاطات إنفاق جسدي، على هامش حياتهم اليومية، يعيدون بواسطتها هويتهم بشكل مؤقت. فيما أن الجسد هو المكان والزمان الحميمين للوضع البشري، فإن من غير الممكن، بالفعل، إبعاده كلياً. لكن التحالف الانطولوجي بين الإنسان وجسده لم ينعقد مجدداً، مع ذلك، إلا بطريقة إرادية ومؤقتة، من خلال تمارين أو إلزام يفرض نفسه، لكنه لا يحلّ المشكلة الأساسية، مشكلة ضمور الوظائف الجسدية في مجرى الحياة اليومية.

إنَّ ساعات الرياضة والركض السريع، والانغماس في فريق لتعلّم التدليك الصيني أو الكاراتيه، والتسجّل في دورة للطاقة الحيوية هي عبارة عن مُعْتَرِضَتَيْن في الحياة الشخصية، وأمكنة متميزة تُرفع فيها الأحكام المُشَبَّقة المعتادة، ويتراخى فيها جزئياً المحو الطقوسي للجسد. ففيها لا يعرف المرء إلا نادراً جيرانه، وإذا حصل فمن خلال المشاركة الحرارية في لحظات الانفراج التي «ينفجر» أثناءها بالأحرى إرادياً كلما كانت الحياة الخاصة أقل تهديداً. في هذه الشروط يمكن أن تقام تمارين مشتركة تستعمل الجسد، كما يمكن القبول بالاتصال بيد أو جلد الآخر بالقدر الذي تكون فيه المعاملة بالمثل ممكنة دائماً، وحيث يكون كل واحد بدوره أداة ثم فاعل، مادة ثم فاعل.

لقد أدركت ا.بييرين جيداً توزّع الجسد بين الفرق العلاجية ذات التوسط الجسدي التي شارك بها. إنَّ الاتفاق يكون عارضاً، لكنه ضروري لحسن سير الدورات التدريبية. إنّه يوضح كم كان صعباً أن يحيا المرء تعليق الطقوس والتحفظات التي تنأسس عليها الحياة اليومية. «يكفي أن يرفض شخص واحد القاعدة الضمنية، ويقول: «أعطيك جسدي إنَّ أنت أعطيتني جسدك»، و«كل الأجساد صالحة لإغناء

تجربتي»، لكي تنحطم القاعدة.... إنَّ البحث الداخلي، الفردي هو الذي يتغلَّب سواء على مستوى التعليمات أم على مستوى التمارين الجماعية⁽⁸⁾. أما الآخر فهو ذاك الذي يسمح للبحث الشخصي بأن يتم، إنه أولاً أداة مريحة، وحتى لو وُضِعَ الجسد قيد اللعبة من خلال اللمس، فإن المظهر الارادي للتمارين لا يرفع مُحَرَّم الاتصال، وإنما هو يغير مكانه فقط من خلال القاعدة التي تصنع، بشكل متناوب، من كل مشارك موضوعاً أو فاعلاً للبحث أو للتدريب في تعلُّم تقنية أو طلب إحساس. إن جسد الحياة الجارية (أي الجسد الممكن للرغبة أو اللذة) ليس هو الذي يعطي نفسه للآخر في علاقة متساوية، وإنما هو جسد مفصول عن ما هو غريزي. إنَّ الاتصال الجسدي لا يستهدف فاعليْن بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وإنما التكرار لعمل أو لتقنية أو أيضاً التجريب لشعور في رؤيا تعلُّم، حتى لو تعلَّق الأمر بعمل يتناول الحياة الخاصة. إنَّ الآخر هو شريك الصدفة الذي يُعَدُّ تَوَرُّطه الجسدي شرطاً لتورُّطي تجاهه. هكذا تُظهر التجربة أنه، عندما يجب أن تتكرر التمارين بين شخصين أو عدة أشخاص، فإن اقتراب الشركاء هو الذي يجمع المشاركين أكثر من قرابتهم الممكنة. فالاتصال ليس هو اتصال فاعل محدد في علاقة مُختارة. فحتى لو أن المناسبة يمكن أن تحدث واللذة يمكن أن تقع، والعلاقة أن تتخطى إطار الرياضة أو التدريب، فليس موضوع هذه التمارين، ولا الطقوسية التي تقودها تكون، على كل حال، ملائمة لهذه التتمات. إن المظهر العلائقي يكون قصير الدارة. والآخر هنا ليس له من معنى إلاَّ تشجيع أحاسيس ذاك الذي يفيد التمرين، علماً بأن المتتالية التالية تعكس الأدوار. إنَّ تبادل الأساليب الجيدة هو الذي يُبرز بوضوح أن الجسد ليس هنا المكان الغامض لوجود الشخص، وإنما هو «ميكانيك الجسد» الذي يلطف علم النفس فهمه، من دون أن تُعَدَّل حقيقةً ثنائية الجسد - الشخص والإزدواجية بين هذه التمارين والحياة اليومية. إنَّ الثنائية تُخَفَّف أحياناً بدون شك، لكنها لا تُلغى. هكذا استطاعت ا. بيرين بدعابة أن تشير إلى تجربتها حول مجموعات التورط الجسدي، مشيرة الى تبعية المشاركين لكلام المُحَرِّكين: «لحد أنه تكوَّن لدي غالباً الانطباع بأنني أقاد لاكتشاف أحاسيسي على طريقة الزيارات الموجَّهة في المتاحف. لقد كنت أسمع من يؤكد

(8) إيليان بيرين (Eliane Perrin) - «عبادات الجسد» (Les cultes du corps) - لوزان

منشورات Favre - 1985 - ص : 162.

تماماً «أنَّه سيكون لدينا بعد لحظة إحساس بالحرارة هناك وبالوخز هنا، الخ» (ص 159). إنه مثال جميل للجسد المُرقَّى إلى مرتبة الأنا الآخر الذي تنعقد معه علاقة إغواء. إنها حصّة الذات التي يجب تعلُّم كيف تُدجَّن حضورها وتُعدَّل مواردها في اتجاه اللذة.

الجسد المُعرَّض

يقوم الإعلان، بشكلٍ موازٍ، بتقديم جسور للأمام حين يتناول مواضيع جسدية تمس الحياة الخاصة وتقرن بالخجل حين يُكشف الحجاب عنها علناً. فعلى طريقه «بارد»، و«حديث» تُذكر الأكياس الواقية من الحمل، والألبسة الداخلية، وحامي - السليب، والسدادات الدورية، ومزيلات الروائح، والجوارب، والورق الصحي. إن الاستعمال الطقوسي للدعابة يُفرِّغ حرج المشاهد أو المستمع أو القارئ، أو حرج المبال الذي يستجوبه إعلان جداري. وتُعدّ الدعابة طريقة ثقافية لنزع سلاح الإبهام أو لتناول مواضيع محظورة أو حساسة، من خلال التلميح. وبفضل اللجوء إليها، يمكن، أثناء مناقشة جارية، اقتراح مظاهر للوجود تُعتبر غير سرية. إنّ الدعابة ترفع، طقوسياً، التحفظات، وتسمح بالتطرق للمواضيع الأكثر بطراً أو الأكثر إثارة للشك. إن مجال الإعلان يتعاطى بالنسبة للحياة اليومية مع صورة الثياب الرياضية أو بعض الاحتفالات (مأدبة زواج، على سبيل المثال) كما يتعامل مع لحظة استثنائية يُسمح فيها، من دون خرق القاعدة، بالإفلات من جزء من الرقابة على تعابيرها الحميمة. إنّ المآدب بين الأصدقاء أو الاحتفالات العائلية تؤدي لإذابة القصص المُبهمة. فالدعابة تجعلها لا هجومية في الوقت الذي تنقذ فيه الريح من مضمونها رغم كل شيء. في هذا السياق، يصبح شيء من الإباحية مسموح به، لكنها تُفرَّغ بواسطة الضحك.

إنّ التواطؤ الذي يفرضه الأسلوب المسترخي للإعلان يستدعي حسّ الدعابة لدى من يتوجّه إليه. فهو يطري سعة أفقه، ويخطئ مقدماً كل نقد تجاهه. فكيف يمكن للمشاهد، إلّا إذا كانت لديه «أحكام مُسبقة» ولم يكن «عصرياً»، أن لا يتسم أمام هذا الطفل الذي يترك مَبُولته ويمدّ بشكل لا نهائي وراءه لفافة من الورق الصحي، قبل أن يقتحم مكتب أبيه (بينما ينشغل هذا بشكل واضح بإجراء عقد هام مع مجموعة من رجال الأعمال) ليطلب إليه مساعدته. إنه اقتحام الخاص للعام، بفضل دعابة ورعونة الطفل المحسوبة بعناية، الطفل الذي ليس لديه، بالطبع، حُكم مُسبق عن هذه الإزدواجية.

إن أي إحساس لم يُصدم بفضل الأسلوب الساهر الذي تكمن وظيفته الاجتماعية في السماح بتناول مواضيع محظورة ليقول، كما لو أن الأمر يتم عرضاً، حقائق لا يمكن التعبير عنها مواجهةً. إنَّ الدعاية، في الاعلان كما في الحياة، تجعل بعض الصور أو الكلمات المُختلَّسة من الحياة الخاصة مقبولة، في حين أنها ستكون مزعجة لو تمَّت صياغتها بطريقة أخرى. لكن ضرورة هذا التحويل من أجل حماية الموضوع أو السلوك المكشوف تظهر جيداً أن الجسد يبقى متأثراً بالحواس والقيم، المكان الرمزي الذي يحاول الاعلان تهذيبه. فهو يتكلم، بشكل بليغ، عن «المُحرَّم» أو عن «الأحكام المُسبقة» عندما يستذكر الأعمال الحميمة التي تجري عادة بتكتم. لكن الاعلان، بالنهاية، وتحت غطاء تأكيد القيم الجسدية، وعرض الحياة الخاصة بكل استرخاء، يحو ببراعة ما ينبثق من الجهاز العضوي، بحيث يتم «تحرير» الجسد تحت رعاية الصحة، ومن خلال استبعاد «حيوانية» الانسان: فرواحه، وإفرازاته، وعمره، وتعبه هي أمور محظورة. كذلك، يفرض التقدم الاجتماعي للرياضة⁽⁹⁾، أو الرقص الحديث نموذجاً للشباب والحيوية والإغواء أو الصحة. إن الجسد المتحرر للاعلان هو جسد نظيف، أملس، صافي، شاب، فاتن، سليم، رياضي. إنه ليس جسد الحياة اليومية.

إن المجتمعات الغربية هي، من حيث النزعة العامة، أقل ترحيباً، وأقل اشتمالاً للمعطيات الجسدية المتعلقة بالوضع البشري من مجتمعات أخرى وُجِدَتْ في زمان أو مكان آخر. فإذا كانت كل المجتمعات تُطَقِّس التعابير الجسدية، وتُرمِّز الأمور الحميمة⁽¹⁰⁾ والتافهة من دون أن تدع شيئاً بلا عناية، فإن الترحيب المخصَّص للمعطيات البدنية والحركية أو الحسية يختلف بشكل بارز. لقد بيَّنا ان بعض المجتمعات تمتص الجسد كما تمتص الأفراد كما بيَّنا كيف أن مجتمعات أخرى، وهي تميز بالعكس الفرد، لا تستطيع إلا أن تضع النبرة على حدود الجسد، التي تعمل حينئذٍ كعامل للتفرد. إنَّ الرقص يمكن أن يكون في قلب الحياة الاجتماعية أو أن يُصوَّر

(9) إن الرياضة ، التي يسعى الاعلان بدون انقطاع في طلبها ، برزت اليوم كنموذج للامتياز الاجتماعي ، إقرأ ، في هذا الموضوع ، الملف الذي نشرته مجلة «Esprit» حول «العصر

الحديث للرياضة» (Le nouvel âge du sport) - عدد نيسان / ابريل 1987.

(10) د. لوبروتون : «أجساد ومجتمعات» - المرجع السابق ذكره .

وجهاً للجزء الملعون. والحدائث، حتى لو كانت غالباً ذات وجهين في هذا الموضوع (أنظر فقرة: نسبة «العودة» للجسد) هي في مجموعها مِضْيَافَةٌ للجسد بشكل معتدل. إنها تقوم على أساس نفي طقوسي للتعبير الجسدية. فأمام ضربة، أو قرقرة معدة أو تجشؤ، يتصرف كل شخص كما لو أنه لم يسمع شيئاً. إلا إذا أتت الدعابة، في الوقت المناسب، لتضفي طابعاً طقوسياً على الحرج بمحوه بشطحة، وقد يحصل أن يكون الهدف من وراء مخالفات قاعدة الرصانة إلحاق الخزي بالشخص المُخَاطَب. إن إحتقار أصول السلوك إذا بقي من جانب واحد فإنه يعكس الاهتمام بتأكيد رفعة تسلسلية أو رغبة في ممارسة السلطة. كما يمكن أيضاً أن يُعبّر عن مخالفة قاعدة الرصانة من خلال النَّفْس الرديء والرائحة الكريهة، وبعض البذاءة أو الكلمات المُسترخية، الخ. فكل شيء يتعلق بالاتفاقات الاجتماعية وبعبة التسامح بين المتخاطبين المعنيين.

إنَّ المترو، والحافلة، والقطار، والمصعد، وصالة الانتظار هي الأمثلة الأكثر بروزاً للإبعاد الذي يطال الجسد وللحرج الذي يولد من الاحتكاك الجسدي الذي لم يأت شيء لترميزه. إن الطقوسية تُدْفَع هنا إلى أوجها في تطّلعها للإخفاء. فالعادة تريد أن يُشترَ التّقارب الجسدي المُتَوَلَّد في وسائل النقل المشترك أو المصعد من خلال تصنّع اللامبالاة تجاه الآخر. فالنظرة توجّه إلى أي مكان آخر حيث لا يكون الشخص الآخر واقفاً وجهاً لوجه. إن النظرات تُغَيَّب نفسها، وفاءً منها للسلوك الذي ينبغي التمسك به في هذه الظروف، وتنشغل بعدم جلب الانتباه أو بعدم إزعاج الآخر.

وإذا كان على الأجساد أن تتلامس، أو فقط أن تُحْتَكَّ ببعضها، فإن اعتذاراً موجزاً يفرض نفسه من أجل التعويض على خرق الحُظُر الضمني للاحتكاك. إلا إذا وصل الجمهور لحد فرض هذه الاحتكاكات في شكل من الانصهار الأخرق، وتعليق الحظر مؤقتاً. هنا يعثر الشخص المغمور وسط الجمهور، على الوضع الجماعي ثانية، وتذوب حدوده الشخصية وحدود جسده. إنها اللحظة الوحيدة التي لا يكون فيها الاحتكاك أو التقارب الجسدي مع الآخرين غير مريح له.

إنَّ هناك اليوم تَغْيِراً في بعض أصول وقواعد السلوك، وبروزاً لعبية أخرى في الحساسية. فالعري على الشواطئ أو التلفزة، والأفلام تعرض أزواجاً يقومون بعرض حياتهم الجنسية. والعَدَاوُون يجوبون المدن أو الحدائق العامة ويساهمون في التخفيف من الموانع التي كانت تُثقل على جسد الإنسان. كما أن تعميم الرياضة في

الحياة اليومية ساهم في طمس الاختلاف الذي كان واضحاً في السابق بين لباس المدينة ولباس الرياضة. إنّ طرْقاً جديدة لجعل الجسد يتكلم أخذت بالظهور. ولكن على مستوى الحياة اليومية، وفي العلاقات مع الآخرين، وفي أغلبية أصول وقواعد السلوك الجسدية التي تنظّم الحياة الاجتماعية، فإن شيئاً لم يُغيّر من المحو الطقوسي للتعابير البدنية. إنّ الأمكنة المميّزة، المُنظّمة، التي تسيّر وفق جدول زمني طقوسي، هي تلك التي تستقبل في الأغلب الجسد ذا القيمة الرفيعة: صالات تحسين الشكل، الملاعب الرياضية، الحدائق العامة، قاعات الاستماع للموسيقى، المجالات الاعلانية، والشواطئ في الصيف، الخ...

إنّ حيلة من حيل الحداثة تسعى لتمير ما هو ليس إلاً مديحاً للجسد الشاب، السليم، الفارع، والصحي، على أساس أنه تحرير للأجساد. إن الشكل، والأشكال، والصحة تفرض نفسها كهمّ، وتحثّ على قيام نموذج آخر من العلاقة مع الذات، والولاء لسلطة مُهمّة ولكن فعّالة. إن القيم الأساسية للحداثة، تلك التي يضعها الاعلان في المقدمة، هي قيم الصحة والشباب والاعواء والمرونة والنظافة الصحية. إنها أحجار الزاوية في القصة الحديثة حول الشخص وعلاقته الإلزامية مع الجسد. لكن الإنسان لا يملك دائماً الجسد الأملس والنقي الذي تصوره المجلات أو الأفلام الاعلانية، ويمكن حتى القول أنه نادراً ما يستجيب لهذا النموذج. وهذا ما يفسر النجاح الحالي لهذه الممارسات التي توضح معالم الجسد (الركض السريع، تمارين تحسين الشكل، وتمرين بناء الجسم الخ..). وكذلك نجاح علم الجراحة التجميلية أو الترميمية، ونجاح علاجات تنحيف الجسم، والانطلاقة المدهشة لصناعة دهون التجميل.

الجسد المَخْفِي

لئن كانت مقولة تحرير الجسد عبارة عن كليشه غامضة ومُبهمّة تطال قليلاً الحياة الجارية للناس، فإن الوضع المُحَقَّر للأشخاص المُسِنَّين، وللمعاقين أو «المجانين»، بل وللمصابين بأمراض خطيرة (كمرض السيدا أو السرطان..) أو للمحتضرين ما زال يبرهن على ذلك. إن الجسد يجب أن يمر بشكل غير مُؤلَفٍ للنظر في التبادل بين الناس الفاعلين، حتى ولو كان الوضع يتطلب، مع ذلك، وضعه موضع البداة. إنه يجب أن يتسرب ثانية إلى القوانين النافذة، ويجب على كل واحد أن

يكون لديه القدرة على أن يعثر لدى من يخاطبهم، كما في المرأة، على مواقفه الجسدية الخاصة وعلى صورة لا تفاجئه قط. بهذا المعنى، يشير من لا يلعب اللعبة، مختاراً أو غصباً عنه، حرجاً عميقاً. إنّ القلق يظهر عندما تكفّ عن العمل إشارات المطابقة البدنية مع الآخر، وعندما تمنع خشونات الجسد الآلية الاجتماعية للمحو المعتاد من أن تأخذ مكانها. إن الجسد الشاذ يتحوّل الى جسد غريب، كثيف في اختلافه. إن استحالة القدرة على التطابق جسدياً معه (بسبب وهنه، وفوضى حركاته وشيخوخته، و«بشاعته»، وأصله الثقافي أو الديني المختلف، الخ) يكمن في أصل كل الأضرار التي يمكن أن يتحمّلها فاعل اجتماعي. إن الاختلاف يتحول إلى وُضمة تتأكد بصراحة، إلى هذا الحد أو ذاك. إن أي شخص لا يكون، بشكل مُسبق، بالطبع، معادياً للمعاقين، أو «للمجانين»، على سبيل المثال، ولا أحد لا يكون غير مكترث بمصير المُسيئين؛ ومع ذلك فإن الاستبعاد الذي يُعدّ هؤلاء وأولئك موضوعاً له يشهد على القلق المُبهم الذي يثيرونه. ليس هناك من شيء أخاذ، في هذا الصدد، أكثر من ملاحظة سلوك المازّة عندما يشاهدون مجموعة من الأطفال أو البالغين المعاقين عقلياً وهم يتنزّهون في شارع أو عندما يدخلون إلى مسيح. إن العداء، على كل حال، نادراً ما يكون ظاهراً، لكنّ النظرات لا تكفّ عن التوجّه إليهم، وعن التعليق. هكذا تتجلى المأساة اليومية لسيدة تريد أن تحتفظ الى جانبها بطفلها «المنغولي»، فتجتذب إليها وإلى ابنها عند كل خروج لهما أنظار كل المازّة. إنه عنف صامت، ومخاتل، ذاك الذي تتجاهله.

إنّ الجسد يجب أن يُمحي، وينحلّ في ألفة الإشارات. لكن هذا التنظيم المائع للاتصال، سيأتي المُعاق جسدياً أو المجنون ليقوم، لا إرادياً، بالإخلال به، وحرمانه من وزنه البديهي. إن الجسد ينتصب أمام الوعي مع كل إتساع عودة المكبوت. بهذا المعنى، يصبح من المشروع التساؤل عمّا إذا كانت أصول السلوك الجسدية المقبولة في مختلف لحظات الحياة الاجتماعية لم تُعدّ طقوساً للتجنّب.

إنّ ييار هنري، في البحث الذي خصّصه للعميان، يبرهن بدهاء القلق أو اللئس اللذان يمكن أن يولدا عن التفاوت بين الانتظارات الجسدية المختلفة. وهذا على الرغم من أن النوايا المتتالية للأشخاص الموضوعين قيد التساؤل كانت واضحة وخالية من أي غموض: «لكن يقترح ضرير على سيدة تقوده في ظرف مؤقت إن يُغيّر مكانه بالنسبة

لها، ويطلب اليها السماح له بأن يمر ذراعه تحت ذراعها فإنه ليس هناك ما قد يشير نوعاً من سوء الفهم بينهما أكثر من هذا، وخاصة إذا كان ذراعا السيدة عاريين أو إذا كانت تلبس فستاناً خفيفاً. ولهذا فإن الضرير يفضل التخلي عما سيكون مريحاً له، إحتراماً منه للثّاقات، أو بسبب الخشية من الالتباس⁽¹¹⁾. إنّ على هذا الأخير أن يُخضع نفسه لقانون جسدي غير ملائم له، يضاعف الصعوبات التي يصادفها طوال حياته، عندما يكون حاضراً مع أشخاص لا يعرفهم ويجب عليه أن يراعي ما قد يشير حساسياتهم. «إن الضرير المتكيف جيداً مع عماه ينبغي أن يكون قادراً على «لمس كل شيء». لكن هذه الطريقة في التصرف ليست اجتماعية. وبفعل قوة الأشياء، فإنّ عليه، إذا أراد أن يكون مقبولاً، أن يمثّل لقواعد السلوك التي يعتبرها المجتمع طبيعية» (المرجع المذكور - ص: 375).

إنّ أصول وقواعد السلوك الجسدية الضمنية ولكن الراسخة تتحكم بسلوك الأشخاص الفاعلين، وتنع التهديدات التي تأتي مِن لا نعرفه، وتضفي طابعاً طقوسياً على الظهور الممكن للقلق في داخل التفاعل. لكن النسيج الطقوسي يفشل في إلغاء حصة المجهول في اللقاء مع الإنسان الحامل للمعاق. ونظراً لواقع وَهْنِهِ، فإن هذا الأخير سيجد نفسه، إلى حد ما، مُستبعداً على الفور من التبادلات الأكثر شيوعاً بسبب عدم اليقين الذي يُغلّف كل لقاء معه. أمام هؤلاء الأشخاص الفاعلين، ينقطع نظام الانتظار، ويتعاطى الجسد فجأة مع بداهة غير ملموسة، ويصبح من الصعب التفاوض على تعريف متبادل خارج الاشارات المعتادة. فكيف يمكن التعامل مع الضرير أو العاجز، ذاك الذي يرتاح على مقعد متحرك؟ كيف نتبيّن ما إذا كان، أم لا، محتاجاً لمساعدة؟ وهل يجب أن نطرح على أنفسنا السؤال؟

إن الإنسان الذي لديه إعاقة حركية أو حِسّية يثير، بمجرد حضوره، إحراجاً وحيرة في التفاعل معه. إنّ الديالكتيك المائع للكلام أو للجسد يتقلّص فجأة، ويصطدم بالكثافة الحقيقية أو المُتصوّرة لجسد الآخر، ويؤلّد التساؤل حول ما ينبغي، أم لا، فعله معه أو قوله له. ويكون القلق أكثر حيوية كلما كانت الصفات الجسدية للشخص أقل تشجيعاً على التشبه به. لقد حُطّمت المرأة ولم تُعدّ تعيد إلّا صورة

(11) بيار هنري (Pierre Henri) «العميان والمجتمع» (Les aveugles et la société) - باريس - منشورات P.U.F. - 1958 ص : 179.

مُقَطَّعة. إن مصدر كل القلق يكمن بدون شك في استحالة قذف النفس في الآخر، والتشبه، بأي طريقة كانت، بما يُجسده في عمق جسده، أو في سلوكه. إن هذا الآخر يكفّ عن أن يكون المرأة المطمئنة للهوية الذاتية. إنه يفتح ثغرة في الأمن الأنطولوجي الذي يضمّنه النظام الرمزي⁽¹²⁾. إن «لعبة» بارعة ولكن مثقلة بالقلق دخلت فوراً في نظام الانتظار. إنَّ عدم اليقين الذي يحيط بتعريف العلاقة يتواجد أيضاً لدى الشخص المُعاق الذي يتساءل في كل لقاء جديد عن الطريقة التي سيُقبل بموجبها. فحتى لو أنَّ من يخاطبه يُظهر مودة تجاهه، فإن الصعوبة في أخذ مضمون طلب الآخر بالحسبان تؤدي أحياناً لجرح حساسيته. لقد لاحظ بيار هنري بعد تحقيق طويل حول هذا الموضوع «أن أغلبية العميان يشكون من الطابع غير الملائم للمساعدة التي يُراد تقديمها لهم، ومن عدم مهارتها وعدم فعاليتها. فكلُّ مُبصر لديه أفكاره الخاصة به، ليس فقط عن الطريقة التي ينبغي أن يتعامل بها مع الضريح، وإنما أيضاً عن التقية التي يجب على هذا الأخير أن يتبعها في مختلف ظروف الحياة العملية (ص 329). إن عدم اليقين الذي يثقل على اللقاء يساهم في إدانة صعوبة المفاوضة المتبادلة. إن السهولة التي بموجبها يدخل كل واحد في الطُّقس لم تُعدّ مقبولة. فالجسد لم يُعدّ مَسْحُوراً من قبل الطقوس، بل أصبح حاضراً بشكل ثقيل، ومُزبِكاً. إنّه يقاوم الترميز لأن هذا لم يُعدّ يُعطى فوراً، بل يجب الذهاب للبحث عنه، مع تعريض النفس لسوء الفهم. ذاك هو أحد مصادر الرفض الضمني الذي يُعدّ الأشخاص المصابون باعاقة، أو بفوضى في سلوكهم، موضوعاً له.

ومع ذلك، فإنَّ الإنسان الحامل لإعاقة لا يقيم بالضرورة انقطاعاً مع الرمز الجسدي. بل يمكنه أن يستمر في الإحساس بأنه «طبيعي»، وأن يعاني من النظرات التي لا تكفّ عن الإثقال عليه، أو من الحرج الذي يُحدثه. «إنَّ الفرد المَوْصُوم بالعاهة يتَّجه، كما كتب أ. جوفمان، لأن يكون لديه نفس الأفكار التي لدينا عن الهوية... ومن

(12) وهذا، بعكس بعض المجتمعات الأخرى التي لا تحافظ على أي حكم مُسبق تجاه العجز، وتدمج الأشخاص الذين يشكون منه في قلب التبادل الرمزي، من دون أن تأخذ منهم أي شيء؛ إننا نتصرف من خلال أسلوب الاستبعاد تجاه هذه الفئات (الإعاقة، الشيخوخة، الجنون، الموت...) وذلك بفك رموزها وتخصيصها بعلامة سلبية، عندما تقوم هذه المجتمعات بإدراجها بصفتها شريكاً بحصة كاملة في انتقال الحس والقيم.

المؤكد، أن ما يعاني منه في أعماق نفسه ربما يكون الشعور بأنه شخص «طبيعي»، رجل مشابه لكل الآخرين، أي، شخص يستحق فرصته وقليلًا من الراحة»⁽¹³⁾.

إن الشخص الذي يعاني من إعاقة لا يُنظر إليه، في مجتمعاتنا الغربية، باعتباره إنساناً بحصة كاملة، وإنما عبر المؤشور المُشوّه للشفقة أو للإبعاد. إن شاشة نفسانية تنتصب بينهما. فالحديث لا يجري عن الإعاقة، وإنما عن المُعاق، كما لو كان من جوهره كشخص أن يكون مُعاقاً، أكثر من أن يكون لديه إعاقة. إن الإنسان يُختزل هنا في حالة جسده فقط، المطروحة كمُطلق. إنه يُستنتج، بشكلٍ ما، من الطريقة التي يظهر بها جسده اجتماعياً. إن الإنسان المُعاق لم يُغذَّ يُنظر إليه باعتباره شخصاً فاعلاً، أي باعتبار أنه يحتوي شيئاً ما أكثر إن «هذا الشيء ما، الذي هو تقريباً لا شيء»، يُعطي معنىً ومحيطاً لوجوده، ولكن باعتبار أنه يمتلك شيئاً ما أقل. وإذا لم يكن التشريح قَدراً، لأن المجتمعات والأشخاص الفاعلين يُرمّزون بطريقتهم، فإنه يصبح قَدراً بالفعل عندما يرى الإنسان نفسه محروماً من تصوير شيء آخر غير صفاته الجسدية.

إنّ الإنسان المُعاق يُدّكر، في سيره، وبقوة تفلت منه وتستمد فقط من حضوره، بالطابع الوقتي للوجود، ويُوقظ قلق الجسد المُدمّر الذي يصنع المادة الأولية للعديد من الكوابيس الفردية والتي لا تنجو منها أية جماعة بشرية؛ إن بتر الأعضاء، والعمى، والشلل، وبُطء الحركات هي الصور النموذجية للكابوس. إنّ الإنسان المُعاق يُدّكر بهشاشة الوضع البشري التي يصعب الدفاع عنها. وهذا ما ترفض الحداثة بإصرار أن تدركه.

غموض «تحرُّر الجسد»

أما بالنسبة «للمجنون»، فهو مثير الإضطراب، وذاك الذي يُخلُّ بطقوس التفاعل. إنه ينفخ «اللبة» هناك حيث تسود خطورة الاتصال الاجتماعي. إنّ القوى التي يحتويها جسده لم تُعدّ مَرْجوة في الطقوس: فهو يتكلم بصوت عالٍ عن الأشياء الحميمة التي من المعتاد السكوت عنها، ويستطيع أن يستمني بطريقة تفاخرية، ويتعزّى ويصرخ. ويعتدي على الآخرين، ويجرح نفسه إرادياً، ويُقطّب وجهه،

(13) ارفينغ جوفمان (Erving Goffman) : «وَضْمَة» (Stigmate) باريس - منشورات Minuit - 1975 - ص : 17.

ويحرض، إلخ. إنَّ تألمه يجعله غير قابل للفهم في حركاته أو سلوكه. إنَّ غياب القدرة على التنبؤ، وبالتالي صعوبة تحقيق الانسجام بينه وبين الانتظارات الجسدية في التفاعل، يلامس هنا ذروته. إنَّ العنف المتعلق بالمرض العقلي الذي يعاني منه المجنون يومياً، والذهول الكيماوي الذي يُحبس في داخله، والجدران التي تُضاف إلى الإبعاد، تُظهر جيداً خطورة مخالفاته للنظام الأخلاقي للمجتمع. إنَّ «المجنون» يجد ثانية أصل معنى كلمة السخرية: إنه يستجوب بعمق الأشخاص الفاعلين عن الطريقة التي يتولَّون بها المحظورات وعن التحفُّظات بشأن طرقهم الجسدية. إنه لا يُسامح لكونه أعطى للجسد مثل هذا الإعلان، عندما يكون عليه أن يختفي بطريقة حذرة في العلاقة الاجتماعية. إنَّ «المجنون» يعمل على بعث المكبوت، ليس فقط مكبوته، وإنما، فيما وراء ذلك، ذلك الذي يؤسِّس التبادل الاجتماعي. إنه يُبيِّن أنَّ الحياة الجارية تركز على طقوس تجنُّب الجسد، وأنَّ هذا الأخير لا يجب أن يظهر «كشيء مادي»، وذلك تحت طائلة إثارته للرفض.

إنَّ هناك اليوم في الخطاب المعتمد حول الجسد نظرة أخرى، وانتباه آخر. وأصول سلوك اجتماعية متغيِّرة. إنَّ مِخيال الجسد هو أساساً الذي تعدَّل في العمق من خلال هذا الشغف، ولكن من دون أن يتعدَّل النموذج الثنائي.

هل تشكل المعطيات الجسدية للوضع البشري في مجتمعنا اليوم موضوعاً لتقويم أقل معيارية، وتثير، نتيجة لهذا الواقع، لدى الأشخاص الفاعلين شعوراً عاماً بالرفاهية مهما كانت علاقاتهم بالجسد؟ إنَّ هذا، بالفعل، هو ما يوجد في أساس التأكيد القائل «بتحرر» الجسد أو «بالعودة» إليه. إنَّ التغيُّر الحالي في وضع الجسد، على مستوى الخطاب الاجتماعي، تولَّد لدى المرء شعور المتعة بأنه هو نفسه، من دون أن تتداخل في الحكم المُنصَّب عليه النماذج التجميلية النافذة، مثل: العمر، والإغواء، والإعاقات المحتملة إلخ. إنَّ المؤشرات الاجتماعية الأكثر دلالة «لتحرُّر» مدروس للجسد ستكون التكامل كشركاء بحصة كاملة في ميدان الاتصال (شركاء غير موصومين بوصمات) مع الشخص المُسيَّر، أو الذي لديه إعاقة، الشخص السمين أو الحامل للتدب. إن هذا يمكن أن يكون أيضاً الاستعمال الاجتماعي الأكثر مثابة للمكانيات الحسِّية والعضلاتية والحركية أو اللَّعبيَّة للإنسان.

إن الجسد لم «يُحرَّر» اليوم إلاَّ بطريقة مُجرَّأة، ومقطوعة عن الحياة اليومية.

وخطاب التحرير والممارسات التي يثيرها هي من صنع الطبقات الاجتماعية الوسطى أو المميزة. وهذا «التحرر» يتم أقل تحت إشراف اللذة (حتى ولو كانت هذه حاضرة غالباً بشكل لا يمكن إنكاره) مما وفق أسلوب العمل على الذات، والحساب المُشخَّص، الذي سبق أن أعطيت مادته في سوق الجسد في لحظة معينة. إن الافتتان يساهم في زيادة قسوة القواعد ذات المظهر الجسدي (أن تكون رفيعة، جميلة، برونزية اللون، حسنة الشكل، شابة الخ... بالنسبة للمرأة ؛ وأن يكون قوياً، ديناميكياً وبرونزي اللون، الخ، بالنسبة للرجل) وبالتالي أن يحافظ بطريقة واضحة، إلى هذا الحد أو ذاك، على احتقار للذات لدى أولئك الذين لا يستطيعون، لأي سبب كان، إنتاج إشارات «الجسد المحرّر». إنه يشارك أيضاً في تحقير الشيخوخة التي ترافق وجود الانسان. فهي تغذّي، بالنسبة لبعض فئات السكان (الأشخاص المُستَين، والمعاقين، الخ) الشعور بأنهم مستبعدون بسبب صفاتهم الجسدية. بهذا المعنى، يمكن القول بأن «تحرر الجسد» لن يكون فعلياً إلا عندما سيختفي هُـمُ الجسد.

الفصل السابع

التقدم في السن غير المستموح به: الجسد المهزوم

الجسد غير المرغوب به

يفرض نفسه هنا فصل خاص عن التقدم في السن، وعن التصور الاجتماعي للشخص المُسنّ. وهما كاشفان ثمينان للوضع الحديث للجسد، يسمحان بتهذيب التحليلات السابقة.

إنّ التعريف الذي يُعطيه إرفينغ جوفمان للموصوم لا يوفّر الشخص المُسنّ: «فرد قد يكون بإمكانه بسهولة أن يجعل نفسه مقبولاً في دائرة العلاقات الاجتماعية العادية، يمتلك خصوصية تستطيع أن تفرض نفسها على انتباه أولئك الذين يلتقون به من بيننا، وتحوّلنا عنه، بحيث تدمر الحقوق التي يمتلكها تجاهنا بسبب صفاته الأخرى»⁽¹⁾. إننا نتبيّن بالفعل، في النفي الاجتماعي المزخرف، إلى هذا الحد أو ذاك، الذي يميز الشيخوخة ويضعها إزاء الحياة الاجتماعية العادية، العمل الاجتماعي ذا العلامة المميزة. إن الشخص المُسنّ يحمل أحياناً جسده كما لو أنه وصمة يكون صداها حياً، إلى هذا الحد أو ذاك، بحسب الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وبحسب نوعية استقبال المحيط العائلي. إنّ هناك حالة افتراضية قوية بحدوث وصمة في مرحلة التقدم في السنّ.

(1) إرفينغ جوفمان : «وصمة» - المرجع السابق ذكره.

إنَّ الشيوخوخة هي اليوم «هذه القضية الرمادية الممكنة»⁽²⁾ التي تحاصر فئة من السكان، غامضة، خيالية قليلاً، وتائهة في الحداثة. إنَّ الوقت لم يُعد للتجربة وللذاكرة. كما أنه ليس أكثر للجسد التاليف. فالشخص المُسنّ ينزلق ببطء خارج الميدان الرمزي. ويخرق القيم المركزية للحداثة: قيم الشباب، والإغواء، والحيوية، والعمل. إنه تجسيد للمكبوت. وكذكير بالطابع العرضي والهشّ للوضع البشري، فإنه يُمثّل وجه الغيرية المطلقة. إنه الصورة غير المسموح بها للتقدم في السنّ الذي لا يُمسك بأي شيء من مجتمع يمارس عبادة الشباب، ولم يُعد يعرف كيف يُرمّز واقع الشيوخوخة أو الموت.

إنَّ عمل التقدم في السنّ هو المُذكّر بموت يتقدم في سيره عبر صمت الخلايا، ومن دون أن تكون هناك إمكانية لايقافه. فالشخص المسن يتقدم نحو الموت ويجسد في نفسه الأمرين اللذين لا يُستَيان في العصر الحديث: التقدم في السنّ والموت. إن الشيوخوخة والموت ليسا بالفعل من المُحرّمات (des tabous)، كما يُقال غالباً؛ فالمُحرّم ما زال له معنى في النسيج الاجتماعي. وهو يُحيل الى حدود تُبنى حولها هوية مشتركة للمجموعة. إلا إنَّ الشيوخوخة والموت لا يقوموا بهذا الدور، إنهما مكانان للشذوذ، ويقعان اليوم خارج الميدان الرمزي الذي يعطي معاني وقيماً للأعمال الاجتماعية: إنهما يجسدان عدم قابلية الجسد للاختزال.

إنَّ المُسنّ يُختزل، في الإدراك الحسّي المشترك، في جسده فقط، وخاصة بالطبع في المؤسسات. «أجساد مَنفِيّة، مُخبّأة، ثم مَنسِيّة. إنَّ «المُسنّين الصغار» المُلجأ كانوا أجساداً هرمة. أصبحت غير نافعة. كانت قد خَدَمَت ولكنها لم تُعد قادرة على الخدمة، انها أجساد لا نعرف ما نصنع بها، ونضعها هناك بانتظار تحقق رغبتها بالموت». تلك هي الجمل الأولى من مقالة ل: ن سيباغ - لانوي (R. Sebag-Lanoë) تصف فيها الصدمة التي أَحَسَّت بها لدى دخولها الى مركز للاقامة الطويلة والمتوسطة الأجل. في أغلب المؤسسات يُحى العمق البشري والخصوصية الفردية تحت اليافطة الوحيدة للجسد التاليف، الجسد الذي ينبغي فقط تغذيته وغسله. إن المُسنّ لم يُعد تاريخه، لم يُعد شخصاً فاعلاً، إنه جسد مهزوم يجب العناية بصحته

(2) أنظر مجلة «Communications» - العدد 37 - 1983 - «القضية الرمادية الممكنة» (Le Continent gris).

وبقائه⁽³⁾. وتاماً مثل حامل الإعاقة، يُعدّ المُسنّ مادة لجسده، وليس فاعلاً بحصة كاملة. لقد جعلت سيمون دو بوفوار الشخصية المركزية في روايتها «المرأة المُجربة» (La femme rompue) تقول: «لقد استسلمت لجسدي». إنّ التقدم في السنّ بالتعبير الغربي، يدلّ على التقليل التدريجي للجسد، وعلى نوع من الخضوع لازدواجية تعارض بين الفاعل وجسده وتجعله تابعاً لهذا الأخير. إنّ المرض، والألم هما مثالان آخران، ولكن مؤقتان، للازدواجية الملازمة لوضع الانسان. لكنّ التقدم في السنّ يقترن هنا بازدواجية نهائية. فالمُسنّ، في الإدراك الاجتماعي، سيُختزل دائماً في جسده، الذي سيدعه شيئاً فشيئاً، لحدّ أن يبشّا (Bichat) استطاع أن يكتب: «أنظروا الإنسان الذي ينطفئ عند نهاية شيخوخة طويلة. إنّهُ يموت بالتفصيل. فكل وظائفه الخارجية تنتهي الواحدة بعد الأخرى. وكل حواسّه تنغلق بشكلٍ متتالي. إن الأسباب العادية للأحاسيس تمرّ عليها من دون أن تُؤثّر بها»⁽⁴⁾. إن الشيخوخة تعبّر عن اللحظة التي لم يعد فيها كبت الجسد ممكناً، اللحظة التي يُعرض الجسد نفسه فيها لنظرة الآخر في نهار لم يعد موالياً له.

إن سيمون دو بوفوار تذكر الفضيحة التي أثارها في سرّها عندما كتبت في نهاية «نظام الأشياء» (L'ordre des choses) أنها وصلت الى عتبة الشيخوخة. إنّ تأكيد

(3) إنّ ما تقصّه مساعدة ممرضة في المُلجأ عن يوم من أيام عملها مثال على ذلك. فهي لا تتكلم، في أي لحظة، عن الأشخاص الذين كُلفت بهم. إنّ كل عملها، أو على الأقل العمل الذي تحدث عنه، يُختصر، على ما يبدو، في مجموعة إلزامية من حركات العناية بأجساد مُقفلة من الأسماء: تغيير المبصقات، تحضير العربة للإفطار، التنظيف (قذارة المراحض والمغاسل)، تزيين النزلاء الخ. ولكونها مُلاحقة بالوقت وبمجموع ما يجب عليها أن تفعله. تعطي الانطباع بأنها تركض باستمرار. أن الشهادة تبدو لنا كاشفة لما يجري بالفعل في العديد من المؤسسات. أنظر: نيقول بينوا - لابيير (Nicole Benoit-Lapierre) وب. سيفايسكو (P. Cevasco) وم. زافوروبولس (M. Zafiroopoulos): «شيخوخة الفقراء» (Vieillesse des pauvres) - باريس - منشورات Ed. Ouvrières - ص: 26. وهناك أيضاً جملة رمزية قالتها إحدى الزيلات: «هنا يُستَهْزأ جيداً بكرامة الناس. ولا يُألى بهم إطلاقاً، وهذا كل شيء».

(4) ك. بيشّا (X. Bichat): «بحوث فيزيولوجية حول الحياة والموت» (Recherches physiologiques sur la vie et la mort) - باريس - منشورات Bresson, Gabon et Cie - ص: 1802.

هذا الأمر لنفسها يعني تحطيم ميثاق الصمت الذي كان يجبر عدداً لا يحصى من النساء الأخريات على تحديد مواقعهن. إنها كانت تُسمَّى ما لا يُسمَّى.

التقدم في السن

إذا كان الناس في الماضي يهرمون وهم يشعرون بأنهم يتبعون سيراً طبيعياً يؤدي بهم إلى اعتراف اجتماعي متزايد، فإن إنسان الحداثة يقاتل بشكل دائم كل آثار عمره، ويتوجس خيفة من أن يهرم مخافة أن يفقد وضعه المهني، ولا يعود يجد عملاً أو يفقد مكانه في ميدان الاتصالات⁽⁵⁾.

إن الشيخوخة بالنسبة لأغلبية الغربيين، ولا سيما من الطبقات الشعبية، ولكن ليس فقط منهم، تعني الاستسلام لعمل جَدَّاد بطيء يكمن في تجريد النفس من الأمور الأساسية التي كانت تقوم عليها الحياة، وفي التخلي عن الأعمال التي كان لها قيمة عالية في الماضي، والقبول شيئاً فشيئاً بواقع عدم امتلاك إلا رقابة ضيقة على الوجود، بصفته واقعاً مشروعاً. إنه تجريد يمكن أن يصبح مطلقاً، وأن يدفع بعض الأشخاص المُسِنَّين في مؤسسة ما لجمع الاحجار أو الخرق، وللاحتفاظ بساعة مُنبِّهة أو بصورة، باعتبارها الشيء الوحيد الذي عاش بعد غرق السفينة، والذي يبقى الإشارة الوحيدة لوجود ماضٍ. وأنه تخلي من الذات يؤدي إلى انكماش الميدان الى حدٍّ لم يُعد يبقى فيه إلا جسداً جامداً وشبه غير نافع، ويطلب مساعدة الغير من أجل إشباع حاجاته الأكثر بدائية. إنه تراجع تدريجي لترميز حضوره في العالم، وانكفاء إلى نوع من الأرض الحيوانية التي يكون الرمزي فيها مُتَبَقِّياً، إلا إذا تأخَّر معتنٍ يقطِّع عند وسادة المُسِنَّ وتعلق باعادة حسِّ الى وجوده من خلال نوعية حضور يمتزج فيه الكلام والحركة والإصغاء.

(5) يشرح لويس - فانسان توما ، بالعكس ، أن الافريقيين يحبون أن يشيخوا عندما يُسألون عن أعمارهم. من أجل صورة مختلفة عن الشيخوخة ، في مكان آخر ، أنظر : لويس - فانسان توما «الشيخوخة في افريقيا السوداء» (La vieillesse en Afrique noire) ؛ وجورج كوندوميناس (Georges Condominas) : «البكر ، والقدمات والاسلاف في جنوب شرق آسيا (Aînés, anciens et ancêtres, en Asie du Sud-Est) : (Moses Finley) ؛ وموسيس فينلاي (Les personnes âgées dans l'antiquité classique) ، في مجلة : «اتصالات» (Communications) - المرجع السابق ذكره.

إنَّ تخلي الذات والنشاطات الملازمة للحياة اليومية التي تُعتبر الآن وكأنها بدون أفق، يُترجم جيداً لدى العديد من الأشخاص الأصغر سناً الذين يموتون خلال الأسابيع الأولى لدخولهم الى المؤسسة، أي عندما يبلغ التجريد أوجه، ولا يعود الشخص، من الآن فصاعداً، مُختزلاً في جسده فقط. وإذا لم يمت، فإن نوعاً من الموت الرمزي هو الذي يستبطنه شيئاً فشيئاً عبر خضوع متنام تجاه الأشخاص الذين يعتنون به. إنه إنكفاء على ذات سيكون دائماً أكثر تقلصاً ومتنازلاً القيمة، ويمكن أن يصل إلى حدّ الالتواء أو الانطراح في الفراش عندما تُفوّض أمور نشاطات الجسد كلها للمُعَتِّين. وعندما يُفقد كل شيء، يبقى جسر الجسد أو حتى الجنون: إنها طريقة أخرى للكفّ عن الوجود هناك.

إنَّ التقدم في السن هو سيرورة غير محسوسة، بطيئة للغاية وتفلت من الوعي لأن أي تباين لا يظهر فيها بوضوح؛ فالإنسان ينزلق بمرونة من يوم لآخر، من أسبوع لآخر، من سنة لأخرى، وأحداث حياته اليومية هي التي تفضح انسياب الأيام وليس وعي الزمن. ومع البطء الذي ينجم عن الإدراك، يندمج الزمن بالوجه، ويدخل الخلايا، ويضعف العضلات ويُصغّر الطاقة، ولكن بدون صدمة، بدون انقطاع قاسٍ ولمدة طويلة في الحياة، يكون الأشخاص المُسيئون آخرين. «إن من الصعب جزئياً تحمُّل الشيخوخة، تقول سيمون دو بوفوار، لأننا كنّا دائماً نعتبرها نوعاً غريباً: أنا، أصبحت شخصاً آخر، في حين أنني ما زلت أنا نفسي»⁽⁶⁾. إنَّ الهَرَمَ سيُمرّ بخطى الإنسان، إنه لا يُنقل مطلقاً، فكل يوم يتقدم خطوة على الطريق، لكن المسافة تبدو طويلة، والمسيرة التي ما زال ينبغي إنجازها مهما كان العمر لا تنضب. إنَّ البدهة تقود السير، وشعور التماثل يبقى مساوياً لحاله. إنَّ الزمن، الأمين والمُصير مثل ظلي، يسجل أثره في العلاقة مع العالم. فليس بين يوم وآخر تتغير النتائج، وتفسد الصحة، وإنما بشكل غير ملموس، وبدون صدمة. إنَّ الذكرى، بشكل خاص، هي التي تُذكر بما كان يمكن للشخص أن يفعله أيضاً بدون خسارة في السنة السابقة. لقد قال بروس (Proust) كم أن الشيخوخة هي، من بين كل الحقائق الانسانية، تلك التي تبقى لمدة طويلة الأكثر تجريداً. إنَّ شعور الشيخوخة يُعبّر عن ظهور قطرة الماء التي تجعل الإناء يطفح. وبما

(6) سيمون دو بوفوار : «الشيخوخة» (La vieillesse) - باريس - منشورات Gallimard - 1970 -

أن صورة الجسد تتقلب مُجدداً باستمرار، وتعكس ثانية بأمانة ما يكون الشخص مؤهلاً، من الناحية الجسدية، لإنجازه، وتصاحب التعديلات الفيزيولوجية التي يكون موضوعاً لها، فإن الشخص لا يكون لديه انطباع بأنه يشيخ. إننا نندهش جميعاً حين ننظر، على سبيل المثال، الى صور شخصية يعود تاريخها لعدة سنوات. ولأن انسياب الزمن لا يكون مطلقاً قابلاً للدراك جسدياً، فإنه يوحى بشعور بالجمود. ويجب بالضرورة أن تمر فترة زمنية ويجري فحص واع من أجل ملاحظة أن الجسد يتغير. إن الأمير سالينا في «غيبار» (Guépard) يتذكر، في فجر يوم موته، أنه عرّف دائماً انسياب «السائل الحيوي» خارجه. إنه يقارنه بهرب «حبات الرمل المضغوطة التي تنزلق واحدة إثر واحدة، بدون تسرع وبدون تراخ، عبر الثقب الضيق للساعة الرملية، في بعض لحظات النشاط المكثف والانتباه الكبير، كان هذا الشعور بالتزك المتواصل يختفي، لكي يتقدم ثانية بهدوء أعصاب عند أقل فرصة، وأقل صمت، وأقل محاولة استبطان.... كان الأمر يجري مثل ضربة رقاص الساعة الذي يفرض نفسه عندما يسكت كل شيء». لقد عانى سالينا، منذ مدة طويلة، من مدّ الطاقة الحيوية بدون قلق. إنه لم يكن نزيهاً للزمن، أكثر من الفصد الرفيع لوريد لا أهمية له. لكن زمناً يصل يكون فيه لقطرة ماء واحدة القدرة على جعل الإناء يطفح. لقد أوقفت حبة رمل شفافية الأشياء. وعلم سالينا حينذاك أنه شاخ.

صورة الجسد

صورة الجسد هي التصور الذي يُكوّنه الشخص عن جسده ؛ والطريقة التي يبدو له بها بشكل واع الى هذا الحد أو ذاك عبر سياق إجتماعي وثقافي يضيف تاريخه الشخصي عليه طابعاً خاصاً. إن جيزيلا بانكو تتميز عبر تفكيرها السريري حول مرض الذهان بين محورين يني تشابكهما بشكل أساسي صورة الجسد. وهذه الصورة تنظم حول شكل يتجلى في: الشعور بوحدة مختلف أجزاء الجسد، وإدراكها ككل، وبحدودها الدقيقة في المكان، ومضمون هو: صورة جسده: كعالم متماسك ومألوف تدرج فيه أحاسيس يمكن التنبؤ بها والتعرف عليها⁽⁷⁾. لكن يبدو من

(7) جيزيلا بانكو (Giséla Pankow) : «الانسان وذهانه» (L'homme et sa psychose) - منشورات Aubier - 1969.

الضروري أن نضيف إلى هذا المفهوم محورين آخرين مرتبطان بشكل حميم: محور المعرفة، أي معرفة الشخص الفاعل، ولو كانت بدائية، للفكرة التي يكوّنها المجتمع عن العمق غير المرئي للجسد، معرفة من أي شيء يتكوّن، وكيف تتنظّم الأعضاء والوظائف. وهذه المحاور الثلاثة تصاحب الانسان طوال وجوده، وتحتذي تدريجياً بالأحداث. إنها مؤشرات ضرورية تُعطي للإنسان الشعور بانسجامه الشخصي ووحدته. إنّ صورة الجسد هي هنا مقياس به تُقوّم الأعمال المُشجّرة أو التي ستعجز، إنهمقياس مألوف في علاقته مع العالم. عند هذا المستوى، لا يوجد من حيث المبدأ، صراع بين الحقيقة اليومية للشخص والصورة التي يُشكّلها عن جسده.

وهناك أخيراً، وفيما يتعلق بالشخص الذي يتقدم في السنّ (وكذلك المعاق والمهاجر، الخ) هذا العنصر الأخير الأساسي المتمثل بالقيمة، أي بالنسبة للشخص الفاعل استبطان الحكم الاجتماعي الذي يحيط بالصفات الجسدية التي تميزه (جميل / بشع، شاب / هرم، طويل / قصير، نحيف / ضخم الخ). فحسب تاريخه الشخصي والطبقة الاجتماعية التي بداخلها يبنى علاقته بالعالم، يتبنّى الشخص الفاعل حكماً يطبع حينئذٍ بطابعه الصورة التي يُكوّنها عن جسده، والتقدير الذي يُكِنّه لنفسه.

وتخضع هذه العناصر الأربعة لسياق اجتماعي، ثقافي، علائقي وشخصي، بدونه ستكون صورة الجسد، وكذلك هوية الشخص، أمراً لا يمكن التفكير به. ومع ذلك، فإن سجل القيم هو الذي يمثل هنا وجهة نظر الآخر، ويجبر الشخص لأن يرى نفسه من زاوية مؤاتية إلى هذا الحدّ أو ذاك. إلّا أن الشيخوخة تُصاب بإشارة سلبية. فعند هذا المستوى يتسرب شيئاً فشيئاً، في الصورة التي يُكوّنها الشخص عن جسده، شعور بانخفاض القيمة الشخصية. وعند الطرف الأقصى، يمكن أن يُعاش الخضوع الذي تُجبر عليه خسارة الوظائف الجسدية، كأنّه تنويع لحياة مُعجزة. إنّ الكلمات الاستعطافية التي تُقال أمام وسادة الطفل المُعمّد في منطقة سارا بالسنگال تُعبّر عن ذلك بصراحة: «ليعش لمدة طويلة، ويكون لديه ذكاء، وأب وأم، وليُعمر من الأيام أكثر من أكبر المُسنّين في القرية، وليصبح هَرماً للحدّ الذي يصبح فيه رأسه كُله أبيضاً: وللحد الذي لا يعود فيه قادراً على المشي» (ذكرها لويس - فانسان توما). إنّّه يمكن أن يُعاش أيضاً على طريقة انحطاط، وقرف من الذات، بحسب المسار الشخصي للشخص المُسنّ، وحسب قيمه، والمعنى الذي يعزوه لأعماله، ونوعية

حضور المحيط. إن نفس وضع الخضوع يمكن أن يصبّ، حسب عوامل التغيير هذه، في مواقف متعارضة.

ويجب في هذا الصدد الإشارة الى الحكم الاجتماعي الذي يقود الى الصدمة الأكثر وضوحاً للتقدم في السنّ سواء لدى الرجل أم لدى المرأة. فالمرأة المُسنّة تفقد اجتماعياً الإغراء الذي كانت أساساً تدين به الى نضارتها وحيويتها وشبابها. أما الرجل فيمكن أن يربح مع الزمن قوة إغراء متنامية، لأننا نرفع لديه من قيمة الطاقة والتجربة والنضج. إن البعض سيتحدث عن «إغراء الأصداء الرمادية» وعن «الشيخ الجميل»، هذه الصفات التي لن تقترن مطلقاً بالمرأة. إنّ المرأة التي ما زالت تسعى لإغراء رجل أصغر سناً منها ستجذب من المجتمع حكماً بدون مجاملة، في حين أنّ العكس سيكون مقبولاً تماماً ويشهد، في حدّه الأقصى، على «اخضرار» الرجل. لقد كانت سيمون سينيوري تقول بحق بأن المرأة المُسنّة كانت تُعمّد باسم «الجلد الهرم»، في حين يُقال عن الرجل المُسنّ: «إنّه يترك تأثيراً كبيراً». إنّ الشيخوخة تدمغ بشكل غير متساوٍ في الحكم الاجتماعي المرأة والرجل. إننا نرى هنا، بشكل مستقل عن عمر الأشخاص، فقدان صورة اجتماعية متعارضة للرجل والمرأة، صورة تجعل من الأول شخصاً فاعلاً يركز تقويمه الاجتماعي على مظهره أقل مما على انطباع عام معين عن علاقته بالعالم، ومن الثاني موضوعاً للخطف تتقهقر قيمته مع مرور الزمن، بعكس الرجل الذي يبقى دائماً مُغرياً بشكل محتمل.

من هذه المؤثرات تنجم الملاحظة القائلة بأن العاملين الذين يأخذون على عاتقهم الشخص المُسنّ في مصلحة للأقامة الطويلة أو المتوسطة الأجل يمكن أن يؤكّدوا الوصمة، أو بالعكس أن يخففوا، من خلال موقفهم الودّي، الحكم على الذات الذي كان المُسنّ قد استبطنه. إن العاملين هؤلاء يمكنهم أن يشرعوا مع الشخص المُسنّ في عملية إعادة بناء لصورة الجسد، من خلال عمل مباشر على الجسد، يؤدي إلى إعادة بناء الحسّ. إن هناك عدة أعمال ممكنة ؛ منها، على سبيل المثال، إتباع عدد من المقترحات الموضوعة من قِبَل رينيه سيباغ - لانوي: إنّ تعاد للشخص المُسنّ هويته من خلال تسميته باسمه، والسعي لإعادة بناء خطّ حياته ؛ تشجيع الحفاظ على العلاقات الأسرية ؛ تنظيم مكان المؤسسة على أساس شخصي من خلال التشجيع على تكوين أمكنة ملائمة للتبادل ؛ تنفيذ سياسة الحركة من أجل الحدّ من استقالة الجسد وملازمته للفراش وذلك من خلال تطبيق رياضة بدنية مناسبة

؛ العناية بالألبسة وتزيين الشعر بغية إعادة النزعة الرجسية ؛ تشجيع الاتصال بين المعنني والمعنى به في الاتجاهين⁽⁸⁾. ويمكن التفكير أيضاً بإقامة ورشة تجميل تسمح للأشخاص المسنين بالعناية بوجوههم، وبالتبرج، وبالاغتناء بزينة شعرهم ؛ فالوجه هو، بدون تلاعب بالكلمات، عاصمة الجسد. إننا، من خلال التأثير إيجابياً على شعور وجهه، سنشجع لدى الشخص المُسنّ العودة الى نرجسية طبيعية، كانت قد انفصلت عنه شيئاً فشيئاً من خلال استبطان خطاب اجتماعي يجعل من الشيخوخة الدرجة الصفر في الإغراء. ومن خلال إحياء شعور الوجه، سنؤكد للشخص المُسنّ بأن التجاعيد لم تُثَلّف هويته، وإنه يمكن أن يجد متعة في العناية بمظهره. إنه سيُفَعِّل مجدداً حركاته ومشاعره، ويؤكد ثنائية ذكرياته، ويعثر على عمق حياته الذي كان يضيق شيئاً فشيئاً. ومن خلال هذه الأعمال، نشجع على تشييد حقل للحواس والقيم، يمكن أن يسمح للشخص المُسنّ بأن يستعيد تذوقه لوجوده، وأن يعيد استثمار علاقته بالعالم.

نظرة الآخر

إننا، من خلال جسدنا، نُعرِّض أنفسنا لعمل الزمن والموت. لكن صورة الجسد التي يصطنعها الفرد تتقوّل وفقاً لتقدمه في الحياة، وهي لا تعفيه من تقويم قاسٍ جداً لتقدمه في السن. إن الآخر، بشكل خاص، هو الذي يعكس في المرأة، وفي شكل متناقض القيمة، تسجيل الشيخوخة. إن صورة الجسد ليست من المعطيات الموضوعية، إنها ليست واقعاً، وإنما قيمة ناتجة أساساً عن تأثير المحيط والتاريخ الشخصي للفاعل. فليس هناك مطلقاً تقويم قاسٍ للإحساسات الناشئة عن الجسد، وإنما حلٌّ لرموز المنشطات وإسناد للحس⁽⁹⁾. إن التعرف على مَنْ يحسّ، والنغمة الايجابية أو السلبية التي تُعزّأ إليه يعكسان معادلة معقدة بين التأثيرات الاجتماعية والثقافية، وتجربة الشخص في مجال الطريقة التي رُبِّيَ طفل بها، ولا سيما في علاقاته مع أمه. وهكذا فإن الشعور بالشيخوخة هو مزيج لا يمكن تمييزه لوعي الذات (عبر الوعي الحاد لجسم يتغير) ولتقويم اجتماعي وثقافي. إن شعور الـ ensomatose (السقوط في

(8) رينيه سيباغ - لانوي : « بحثاً عن الهوية الضائعة ، الحركية النفسية وعلم دراسة الشيخوخة » (La psychomotricité) 1984 - المجلد 8 - ص : 39 - 44.

(9) انظر : د. لوبروتون : « أجساد ومجتمعات » - المرجع السابق ذكره.

الجسد) ليس من المعطيات الخام، إنه استبطان لحكمٍ يخفض من قيمة الشيخوخة، قبل أن يكون حكماً شخصياً.

إنّ أشياء الجسد، وبدون شك أيضاً أشياء الرغبة هي التي توحى بيسمة الزمن. فعندما تكفّ نظرة الآخر عن التوجه الى الذات مع تعليقها بشكل طفيف حيث لعبة الرغبة تستعجل اللحظة، يبدأ وعي الفرد لتقدمه في السنّ بالظهور.

ومن نظرة الآخر هذه يُولد الشعور المجرد بالشيخوخة. وفي نفس نظام الوقائع، تقوم المتتاليات الاجتماعية والفردية، في آن واحد، بإعادة صياغته في وعينا: أعياد الميلاد، الانفصال، رؤية الأطفال يكبرون، رؤيتهم يذهبون بدورهم، رؤية قدوم الأحفاد الأوائل، التقاعد، الاختفاء المفاجيء والمتواتر أكثر فأكثر للأصدقاء، الخ. إنّ المعنى الذي يُعطى لهذه الأحداث، وقيمتها تحيل ثانية الى القيم الأخلاقية والى الطريقة الشخصية التي يعتاد عليها الشخص. ومع ذلك، فإن الشعور بالشيخوخة يأتي دائماً، ويكون علامة في ذاته لاستبطان نظرة الآخر. إن العنصر ثانية على صور شخصية قديمة تظهر وجهاً لم يُعد هو تماماً وجه صاحبه، ورؤية الوجه المتغير للآخرين بعد طول غياب، يؤديان لقيام مجابهة حميمة مع الزمن المُتحوّل. لقد فعل الزمن فعله، وبطريقته في العطاء، على وجه الآخر، وعلى وجه الشخص نفسه من حيث حركاتهما وطريقة وجودهما. إن الشيخوخة برة تستغرق وقتاً طويلاً لتظهر. إنها شعور يأتي من الخارج ويعطي أحياناً جذوراً يمكن أن تنضج قبل الأوان وأحياناً بالعكس تتأخر للغاية لأنها مقياس لتذوق الحياة عند الشخص. إنها ليست فقط رقماً زمنياً، فهي لا تبدأ في سنّ محدد بدقة، وإنما هي مجموعة مؤشرات الشخص وحده هو الذي يعرفها⁽¹⁰⁾. إنّ الشيخوخة شعور. ففيها تتقاطع معطيات يدمجها الميدان الاجتماعي بصعوبة. هي الجسد من جهة، ولكن أكثر أيضاً، من جهة ثانية، طابعه العابر والموت. إن الوضع الحالي للأشخاص المُسنّين، والنفى الذي يسم العلاقة التي يعقدها كل منهم مع تقدمه الخاص في السنّ، ونفي الموت أيضاً، هي إشارات تظهر تردد الانسان الغربي في قبول معطيات الوضع الذي يجعل منه أولاً كائناً من لحم.

(10) «لأن العمر لا يُعاش على طريقة العيش لذاته ، ولأنه ليس لدينا تجربة شفاقة مثل تجربة الـ Cogito ، فإن من الممكن للمرء أن يُعلن بأن هُزم في وقت مُبكر ، أو أنه يعتقد بأنه شاب حتى النهاية». سيمون دو بوفوار المرجع السابق ذكره - ص : 311.

الفصل الثامن

الإنسان وقرينه: الجسد الآن الآخر

مخيال جديد للجسد⁽¹⁾

منذ نهاية الستينات، ومع توسع متنامي، إنطلق مخيال جديد للجسد، واكتسح ميادين للممارسات وللخطب كانت غير معروفة حتى ذلك الحين. فبعد فترة من القمع والتكتم يفرض الجسد نفسه اليوم كموضوع لتفضيل الخطاب الاجتماعي، ومكان هندسي لإعادة غزو الذات، الأرض التي ينبغي ارتيادها، المرصاد اللانهائي للأحاسيس التي لا تُحصى التي تحتويها، ومكان للمجابهة المرغوب بها مع المحيط بفضل الجهد (الماراثون، الركض السريع، الخ) أو البراعة (الانزلاق) ؛ إنه المكان المُمَيِّز للرفاهية (الشكل) أو لحسن المظهر (الاشكال، بناء الجسم، التجميل، والجمية الغذائية، الخ).

إنَّ إغراءً أمومياً يرفع الطاقات الاجتماعية في نوع من الشهوة المفاجئة للجسد. لكن الغموض الموروث من القرنين السادس عشر والسابع عشر. والبرزه بشكل خاص لحظات فيسال (1543) أو ديكارت (1637) لم يتم التخلي عنه بعد. فالنموذج الشائعي ما زال باقياً، وهو يصاحب «تحرر الجسد». إننا نعرف صورة كلوزو (Clouzot) في

(1) ظهرت صياغة أولى لبداية هذا الفصل في «مجلة علماء النفس» (Le journal des psychologues) - عدد : تموز / يوليو - آب / أغسطس 1988 - العدد : 59 : «المظهر البدني» (L'apparence physique).

«الغراب» (Le corbeau)، حيث تؤدي دفعة لمصباح معلق في سلك كهربائي لتعديل لعبة الظل والنور، وتستتر التعارض، وتقلب القيم، لكنها تحترم، بالرغم من كل شيء، القُطبيّة: «أين الظل، أين النور».

إنّ ما يبقى، إنّما هو التقسيم بين الإنسان وجسده. فاليوم، وعبر هذه الممارسات وهذه الخطب، يكفّ الجسد عن أن يُشكل مكاناً للخطأ، والمُسوّدة التي يمكن تصحيحها، كما رأيناه مع التقنية. إنه لم يعد الـ ensomatose (السقوط في الجسد) وإنّما حظّ الجسد، اللحم، وطريق الخلاص. في هذه الحالة كما في الأخرى يعارض نفس الفصل، ضمناً، في الشخص (La persona) بين حصة الجسد وحصة الانسان غير القابلة للفهم.

لقد سبق أن قلنا بأنّ الإنسان لا يمكن فينومينولوجياً تمييزه عن لحمه. فهذا اللحم لا يمكن أن يُعتبر ملكية ظرفية، إنه يجسد وجوده في العالم، وبدونه لن يكون. إن الإنسان هو هذا الشيء الذي لا أدري ما هو، وهذا اللاشيء تقريباً الذي يتخطى انفراسه الجسدي، لكنه لا يعرف كيف ينفصل عنه. إن الجسد هو موطن الإنسان، ووجهه. إنّ لحظات من الإزدواجية على منحدر كربه (المرض، الطابع العابر، الاعاقة، التعب، الشيخوخة، الخ) أو على منحدر مُمتنع (اللذة، الحنان، الأحاسيس، الخ) تعطي للفاعل الشعور بأن جسده يفلت منه، ويتجاوز ما كان عليه. أما الثنائية فهي شيء آخر. إنها تُقطّع وحدة الشخص، غالباً بشكل ضمني، وتؤدي إلى خطاب اجتماعي يصنع من مشاهد الازدواجية هذه قدراً. إنها تُحوّل الإفراط الى طبيعة، وتجعل من الإنسان حقيقة متناقضة تُعزّل فيها حصة الجسد، وتخصّص بمعنى إيجابي أو سلبي حسب الظروف. إن الثنائية الحديثة لا تفسخ بين النفس (أو الروح) والجسد؛ إنها أكثر شذوذاً، أكثر تردداً. إنها تتقدم وهي مُقنّعة، مُلطّفة، بأشكال عديدة لكنها تركز كلها على رؤية ثنائية للإنسان. إنّ الجسد، بصفته مكاناً للابتهاج أو للاحتقار، يُدرك، من خلال هذه الرؤية للعالم، وكأنه شيء آخر غير الإنسان. إنّ الثنائية المعاصرة تُميز الإنسان عن جسده.

أمام كفتي الميزان، وكفة الجسد المحتقر والمخلوع من قبل التكنولوجيا والعلم، وكفة الجسد المُدلل من قِبَل مجتمع الاستهلاك، يقف الفاعل الاجتماعي ناظراً أمام جسده الخاص، بنفس الطريقة التي تأمل فيها تمثال فالقيرد بتفكير، بدون ألم

ولا حنين، جلده الذي أمسك به بطرف ذراعه مثل ثوب قديم، كان يتهياً لتكليف خيَّاطه بمهمة تجديده. إن تجميل وضعية جسده، ومظهره الارادي لن يكونا، على كل حال، من دون أن يُحافظ على بعض التواطؤ السابق لأوانه مع الحداثة.

إنّ هذا المخيال للجسد يتابع بأمانة واجتماعياً محاكمة النزعة الفردية التي تطبع المجتمعات الغربية بطريقة متسارعة منذ نهاية الستينات: إنه استثمار الدائرة الخاصة، الاهتمام بالأناء، تعدّد أساليب الحياة، التفتيت الذري للأشخاص الفاعلين، البطلان السريع للمراجع والقيم، والتردد. إن زمناً آخر للفردية الغربية يرى النور، ويُعدّل بعمق العلاقات التقليدية تجاه الجسد.

الجسد، علامة الفرد

رأينا، في بنية إجتماعية من النمط الفردي، الشخص يعي ذاته، كشكل مُكتمل. مُحدّد جيداً في لحمه، ومنغلقاً فيه. إن الجسد يعمل كمركز حدودي، «كعامل فرؤد» (على حدّ تعبير دوركهيم)، كمكان وزمان للتمييز. إن الجسد، بطريقة ما، هو ما يبقى عندما نفقد الأشياء الأخرى، إنه الأثر الملموس أكثر من غيره للشخص الفاعل، وذلك منذ أن ينفصم النسيج الرمزي والصلات التي كانت تربطه بأعضاء جماعته. إن النزعة الفردية تكتشف الجسد في نفس الوقت الذي تكتشف فيه الفرد؛ وتميز الأول يُؤلّد تمييز الآخر في مجتمع تتراخى فيه الصلات بين الفاعلين أكثر فأكثر، وذلك تحت إشراف الإدخال أقل مما هو تحت إشراف الفصل. حينئذٍ تكمن وظيفة سلسلة من الطقوس في إدارة علاقة بالجسد الذي أصبح أكثر غموضاً. إنّ قواعد آداب السلوك، التي تتضمن أصول وقواعد التعامل الجسدية الدقيقة، توضع في مكانها، وتضفي طابعاً إجتماعياً على العلاقة مع الجسد بناء على أسلوب الكبت. إن القيم التي تُخصّص للجسد هي بالأحرى سلبية، وهي تُقرنه بالحرَج، بل والخجل، والخطأ (على حدّ تعبير ديكرت). إنها تسدّد هدفها على هذا الملحق المبهم، المعيب، ولكن الذي بدونه لن يكون الإنسان.

في الفترة الثانية من الانطلاقة الفردية، فترة التفتيت الذري للفاعلين وانبثاق حساسية نرجسية، أصبح الجسد الملجأ والقيمة الأخيرة، وما يبقى عندما تتلاشى الملاجئ والقيم الأخرى، وتكون كل علاقة اجتماعية ذات طابع عرضي. إن الجسد يبقى المرساة، الوحيدة القابلة لأن تشدّ الشخص الى يقين، ما زال مؤقتاً بالتأكيد،

ولكن بواسطتها يمكنه أن يرتبط بحساسية مشتركة، ويلتقي بالآخرين، ويشارك في تدفق الاشارات وأن يحسّ دائماً بأنه على صلة مع مجتمع يسود فيه عدم اليقين. إنّ المجتمعات الغربية، التي تجابه عدم ترميز علاقاتها بالعالم، والتي تتغلب فيها العلاقات الشكلية أكثر فأكثر دائماً على علاقات الحواس (وبالتالي القيم) تُؤلّد أشكالاً مستحدثة للحياة الاجتماعية تعطي ميزة للجسد، ولكن للجسد الذي يلبس قفاز الاشارات العابرة⁽²⁾، ويُعدّ موضوعاً لاستثمار متزايد.

إن المجتمع، مع تشابك الطقوس الشكلية الى هذا الحد أو ذاك، التي ما زالت تستمر في التحكم به، وبالتالي في تنظيم العلاقات الاجتماعية وعلاقات الانسان مع محيطه، يصبح إطاراً ملائماً ولكن غير مُستثمر، ومُفرّغ، جزئياً من الحسّ. وهكذا يتوسع هامش استقلالية الفاعل بنفس المقدار من جراء ذلك. ويتعدّل العنصر الماسك للرابطة الاجتماعية، ويصبح «ميكانيكياً» ويفقد شيئاً فشيئاً بعضاً من «طابعه العضوي»⁽³⁾. إن الحديث يجري بالأحرى عن الاتصال والاحتكاك والحرارة والرفاهية والحب والتضامن، أكثر مما يجري عن تلك القيم التي هجرت الميدان الاجتماعي. هكذا يتكاثر على هذا الفراغ من الحسّ أخصائيو الاتصال والاحتكاك والحرارة والرفاهية والحب والتضامن. إنّ أمكنة وأزمة مُهيأة لهذه الغاية، ومنتجات وخدمات تساند بطريقة مُجزّأة هذه الضرورات الاجتماعية التي تدفع الشخص للبحث في دائرته الخاصة عمّا لم يُعدّ يستطيع انتظاره من الحياة الاجتماعية العادية.

ومن الارتياح المنتظم لصلوات تحسين الشكل، إلى اتباع دورات المعالجة الجسدية الجماعية، ومن مزاولة الركض السريع الى الماراثون، ومن استعمال دعاء العزل الحسّي الى رياضات الانزلاق، ومن دهون التجميل الى نظام الحماية الغذائية، يسعى الفرد من خلال التأمل في جسده (ولأن الجسد هو نفس مكان الانقطاع) لأنّ يحيا تفتحاً في داخل حياته الخاصة. إنّ الحياة الخاصة تصبح القيمة الأساسية في

(2) إن الرمز هو المادة الأولية للتحالف الاجتماعي، وما يعطي معنى وقيمة للتبادل. إنّ الثقافة (على حد تعبير ليفي - شتراوس) هي مجموعة من النظم الرمزية، ومزيج من الصلابة وعدم الثبات. أما الإشارة فهي ليست إلا شيئاً وقتياً، إنها الصيغة القاصرة للرمز. إنها تحيل الى افتتان مؤقت. إنها ليست مثل الرمز، الذي يمثل بنية الهوية الشخصية والاجتماعية.

(3) إنّنا نعكس هنا الاستعارات الشهيرة لدور كهانم.

الحدائث. إنها تشمل البحث عن الأحاسيس الجديدة، أحاسيس الرفاهية الجسدية، واكتشاف الذات، وتتطلب الاتصال مع الآخرين ولكن دائماً باعتدال وبطريقة مراقبة. لقد خلَّت صياغة الحياة الخاصة محل البحث عن الحياة المشتركة التي كانت سائدة في الستينات.

إنَّ الإنسان الهادئ الأعصاب، البارد، يعتني بمنظره. وما يطلبه من الآخرين هو أساساً توفير جوٍ ونظرة. إن الجسد يصبح نوعاً من شريكٍ نطلب منه الوضع الأفضل، الأحاسيس الأكثر أصالة، والتفاخر بالإشارات الأكثر فعالية. لكن هذا الشريك يجب عليه أيضاً أن يعطي (لسيده ؟) مزيجاً من الروح القتالية والمرونة، من القوة والجلد، من الطلاقة والأناقة، وذلك من دون أن يتخلى مطلقاً عن إغرائه. إنها متطلبات نموذجية للتخفيف الحالي لعلامات الأنثى والذكر. وهذا مثال من بين العديد من الأمثلة الأخرى: «الرجل يفكر بنفسه («هذا ليس جديداً») إنه يفكر أيضاً ببشرته («هذا، لم يكن يريد أن يُخفى») لقد تغيرت الأزمنة : كان هناك زمن، كان فيه مثل هذا الرجل... ينادي بحق الاقتراح، يكتشف، يزق، يُطالب بهويته أمام مرآة قاعة حمامه. يجرؤ أخيراً على الاعلان بصوت عالٍ عما كان يفعله بالسرّ، عندما كان يحصل له أن يختلس كريم صاحبتة، طلاء وجهها، بل ومنتجات صباغة شعرها. إن الرجولة من الآن فصاعداً، لم تُعد تخشى شيئاً. لقد غيَّرت معاييرها وأبطال «نظرتها». إنَّ من الظرافة اليوم أن يكون الرجل «نظيفاً»، صافياً من رأسه حتى قدميه. فالنجاح هو قبل كل شيء أن تكون جيد البشرة» (من إعلان لأحد مستحضرات التجميل). إن الجسد الخاص هو الشريك الأفضل والأقرب من الذات، المندوب الأكثر انتصاراً، ذاك الذي من خلاله يُحكم على الإنسان.

لقد نما هذا المِخيال للجسد مثل نبتة جديدة في التربة التقليدية لثنائية الانسان - الجسد الخاصة بالحياة الاجتماعية الغربية منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر. لكن القيمة المخصصة للجسد انقلبت. فبدل أن يكون علامة السقوط، أصبح هذا نوعاً من خشبة الخلاص. وليس في هذا الأمر إلاّ تحويل في الثنائية المُخفَّفة الخاصة بالفردية الغربية عندما تضيق هذه أكثر فأكثر، وهي تعطي دائماً المزيد للفرد في نفس الوقت الذي تُحرِّره فيه من قيود رسوخ البنية الاجتماعية. لقد عدَّلت الحساسية الأكثر نرجسية للفردية المعاصرة عبارات العلاقة الثنائية بين الإنسان وجسده.

إنَّ أمكنة من الجسد كانت، في الماضي، تخضع لضرورات التكتّم بدافع الحياء، أو بسبب الخشية من إثارة الضحك، أخذت تفرض اليوم نفسها بدون صعوبة، «بدون عُقد»، وأصبحت العلامات الأساسية للرجولة، أو للشباب. لقد أصبح الجسد العاري للمرأة الحامل يُمثل قيمة إغرائية في الإعلان. والسراويل القصيرة التي يلبسها الرجال ابتذلت خلال الصيف، ليس فقط في محطات الاستحمام، وإنما أيضاً في المدن. إنَّ أفخاذ الرجل لم تُعد تدعو للابتسام. والرجل البارد لم يُعد يخشى من إظهارها في الأمكنة العامة. وكذلك حال العدائين عندما يركضون على أرضفة المدن. إن جسد الرجل وجذعه أصبحا من القيم الجنسية التي تكتسح الاعلان أو ملصقات السينما. إن «بناء الجسم» Lebody-building هو الترجمة، بتعابير الممارسات الاجتماعية، لهذا الإعزاز الجديد الذي أخذ يدعو أيضاً، منذ عدة سنوات، للسخرية. إنه لأمر نموذجي أنَّ السينما الأمريكية في السبعينات، سينما الأزمة والشك، التي تدور حول أبطال هُشّين ومُعذّبين (داتسون هوفمان، الباشينو Al-Pacino، دو نيرو De Niro، وجين فوندا، الخ) تخلي اليوم المكان لأبطال عدوانيين، واثقين من أنفسهم، من هواة «بناء الجسم»، مُصَفَّحين بالأسلحة الأكثر إتقاناً، وهذا، بغرابة، عبر نزعة احتفالية بالجسد لا يلاحظ طابعها التناقضي: رامبو، روكي، أرنولد شوارزينا، براءدوك، وشارل برنسون، الخ، إنها كتلة هجينة من العضلات والفولاذ، آلات الحرب. لقد حُقِّقت صورة آلة الجسد بشكل ملموس في الأدوار التي يُحبّها أرنولد شوارزينا، وسيلفستر ستالون. ومن المهم أن نلاحظ أن بعض الممثلين والممثلات، وجين فوندا هي المثال الأكثر دلالة، رافقوا هذا التغيير في الحساسية، وجعلوا من أنفسهم أتباعاً ومُدّاحين للجسد ذي العضلات. وتطالب النساء بالحق بالقوة، وتدخل بدورها الى صالات الرياضة وتربية العضلات. وبنفس الوقت الذي يركز فيه جسد الرجل على الجنس، يهتم جسد المرأة بالعضلات. إن العلامات التقليدية للمذكر والمؤنث تتجه لأن تتغير، ولأن تغدّي فكرة الخشونة التي تترسخ أكثر فأكثر. فالجسد لم يُعد قدراً نستسلم له. إنه مادة نصوغها على هوانا. لقد تعدّلت بعُمق علاقة وعي الشخص لجسده. فالخيال المعاصر يخضع الجسد للإرادة، ويجعل من الجسد مادة مُميّزة لبيئة الارادة.

وكلما تركز الشخص أكثر حول ذاته، كلما أخذ جسده مزيداً من الأهمية لحدّ اكتساح ميدان اهتماماته ووضعه في وضعية ثنائية. وضع الشخص في حالة انعدام

جاذبية بالنسبة لانغراسه الجسدي الخاص، حينئذ يصل الإعجاب بالجسد لنقطة التوهج. إن الجسد يصبح حينذاك قريناً، أنا آخر.

الجسد الأنا الآخر

في عصر أزمة الزوجين، والأسرة، و«الجمهور المنعزل»، يصبح الجسد مرآة، ذات أخرى، نتعايش معها بكل أخوة، بكل متعة. في اللحظة التي ينسحق فيها القانون الاجتماعي بهدوء في الفردية المرتبطة (حيث يحل الارتباط المتبادل شيئاً فشيئاً محل الثقافة)، والتي يشهد فيها التفتيت الذري للفاعلين على الانفجار النووي الذي مَسَّ قلب الحياة الاجتماعية الغربية، دُعِيَ الفرد لاكتشاف جسده وأحاسيسه وكأنه عالمٌ في حالة توسع مستمر، وشكل قابل للسمو الشخصي. وتخلّيه عما هو اجتماعي ربح الفرد عالمًا خفيفاً من المناسب أن يحافظ على إغرائه، ويستكشف دائماً أكثر حدوده: إنه جسده الخاص المرفوع الى مرتبة الأنا الآخر (Alter ego)، والذي لم يعد الجزء الملعون الخاضع للتكتم والصمت («إنَّ الصحة، كما كان يقول ر. لوريش، هي الحياة في صمت الأعضاء»). لقد تحرك الجسد وأخذ مكان الشخص، الذي يلعب دوراً مُرشداً، ويشهد على رواية حديثة لفكرة أفلاطونية. إن خسارة لحم العالم هي بالفعل التي تدفع الشخص للاهتمام بجسده من أجل إعطاء لحم لوجوده. إنه يبحث عن حياة إجتماعية غائبة بفتحه في ذاته نوعاً من المجال الحوارى يُمثّل الجسد بامتلاك مادة مألوفة، تُرفع الى مرتبة الشريك. إن الخطاب، في المخيال الاجتماعي، يقوم غالباً بدور الكاشف في هذا الصدد: فكلمة جسد تستعمل غالباً كمعادل لكلمة: فاعِل (sujet) أو شخص (personne).

إنه المرور من الجسد المادة الى الجسد الفاعل. إنَّ ما يناسب أكثر مِخيال التوريث⁽⁴⁾ يتحقق هنا، في ارتقاء الجسد الى مرتبة الأنا الآخر، الشخص بحصة كاملة، وفي نفس الوقت المرأة (ليس مرآة الآخر في ميدان الرمز، وإنما مرآة الكائن

(4) لنأخذ الآن بتعبير الاشتيهام ، لأنَّ التوريث (cloning) يعود لمِخيال الذات ، ولبريق نرجسي ينسى الطابع غير الوراثي ، أي غير القابل للانتقال ، لما يُولف هوية الشخص الفاعل. إن التوريث لن يكون مطلقاً النسخة الثانية للشخص ، لأن الكثير من المتغيرات غير القابلة للمراقبة تدخل في اللعبة أثناء تربيته. وعلاوة على ذلك ، فإن الشروط الاجتماعية والتاريخية لنموه ستكون مختلفة بعمق.

في الإحالة لنفسه)، الاستثمار. إنَّ الفرد يصبح نسخته الثانية الخاصة وصورته الخالدة، من خلال وساطة القانون الوراثي الحاضر في كل خلية. إنَّه حُلُم جعل الذات برقة الأوعية الشعرية، عبر الاستيهام الذي يتخيَّل بأن شخصية الفاعل بأسرها، تُستمد بشكل كامن، من الجينة. إنَّه المِخيال الذي يحيط بالأفكار الاجتماعية البيولوجية التي تؤكد الطابع الوراثي للعديد من الصفات (الذكاء، القوة البدنية، الجمال، الخ) بالرغم من تكذيب علماء الوراثة أنفسهم⁽⁵⁾. إن الإنسان، في هذا المِخيال، هو إنبثاق لجسده في شكل الجينة (بل «العزق»). إن الجسد ينفصل عن الشخص الفاعل ويستطيع، في النهاية، أن يقوم لوحده بمغامرته الشخصية. فيما أنه قد طُرِح كشيء آخر للإنسان، فإنه يجمع في نفسه مثله كل صفاته الشخصية.

إن الجسد المفصول يُصبح في المِخيال الحديث الطريق الأقصر من أجل بلوغ وتحويل الشخص الفاعل اللامادي الذي يكسيه لحماً وأحاسيس. ففي إثر أحداث أيار / مايو 1968، طالبت عدة ممارسات نفسانية بالجسد باعتباره مادة علاجية، بالمقابل مع الكلام الذي سيكون من جهته وفقاً على التحليل النفسي. لقد طُلِب من العمل على الجسد أن يُعدَّل طَبَعَ الشخص الفاعل ويُزيل أسباب القلق أو التردد لديه. فمن خلال التأثير على الكتلة المِفصلية أو العضلية كان يُفترض أن تُحَلَّ التوترات الشخصية، ويُوفَّق بين الإنسان وطفولته أو وجوده الحالي من خلال التوفير في القيام بفحص الوعي، وبمسار نفسياني يقتصر على «تحليل الكلام»، حسب التعبير الشائع لاتباع هذه الممارسات. وحسب كلمة زازي (Zazie)، فإن هؤلاء الأخيرين يقولون للتحليل النفسي: «أنت تتكلم، تتكلم، ولكن لا تفعل شيئاً». وبنفس الوقت الذي يُعدُّ فيه الجسد أداة لرسم خارطة انعدام وجوده فإنَّه يَدُلُّ على النقاط التي يجب

(5) حول «علم الاجتماع الحيوي» أنظر أطروحات ويلسون (Wilson) في «علم الاجتماع الحيوي» (Sociobiologie) - منشورات Rocher ، 1987 - ومن أجل نقد لهذه الأطروحات انطلاقاً من علم الوراثة. أنظر : ا. جاكارد (A.Jaccard) : «مدح الاختلاف ، علم الوراثة والناس» (Eloge de la différence, la génétique et les hommes) ، باريس - منشورات Seuil 1978 - و«عند خطر العلم» (Au péril de la science) باريس - Seuil - 1982 - ومارشال سالينز (Marshall Sahlins) : «نقد علم الاجتماع الحيوي ، مظاهر انثروبولوجية» (Critique de la sociobiologique, Aspects anthropologiques) - باريس - منشورات Gallimard - 1980.

تحويلها جسدياً من أجل حلّ عقدة التوترات النفسانية. إن اللاشعور سيكون مادياً ومقروءاً بسهولة من قِبَل المتخصص في «فنون الجسد» الذي يتطلع لتحرير الأنا من هذا التأثير، بطريقة بسيطة وسريعة: «أياً من كنتم، يقول أحدهم، إذا أردتم أن تتحوّلوا، فابدأوا بجسدكم (ب. سالومون). إن العلاقة الثنائية بين الجسد والشخص الفاعل تشجع على إقامة أولوية من هذا النوع، لأن التأثير على أحدهما سيؤلّد بالضرورة نتائج على الآخر. إن وحدة الشخص لم تُعدّ تُدرك في الأسفل، ولا في الأعلى. إن الطاقة الحيوية، برأي لوين، تطرح كأمر مُسبق أنّ «تغيّرات الشخصية مشروطة بتغيّرات الوظائف الفيزيولوجية». إنّ جعل الإنسان أثراً لجسده يؤدي الى تنمية الاستيماء الذي يمكن للتدليك بسيط أو لمجرد تمرين تنفسي أن يُعَدّل وجود الشخص نفسه. «إنّ الجسد، يقول ج. فيغارللو، يصبح كتلة ينبغي إنقاصها، وركاماً من التعقيدات التي ينبغي حلها، وتثير غزوة يد اجنبية بغية المحو، وتغيير المكان والتصحيح. إنه حلم تحويل الأشخاص الناجم عن ضغط معين مادي وملمس، يُمارس عليهم، ويُزهر في هذه الحركات التي لا توضّح مطلقاً افتراضاتها المُشبكة. إنها التدليكات التي تريد بلوغ المناطق المنسيّة، وهذه التصحيحات التي تشير الى التوترات غير المُدركة»⁽⁶⁾.

تغيير الجسد من أجل تغيير الحياة. إنّ طموحات الحداثة أكثر تواضعاً من طموحات الستينات. وهناك مثال أخاذ على هذا التحوّل في الموقف يتجلّى لدى جيرري روبن، مؤلّف «إفعل ذلك» (Do it) أحد المؤلّفات الكبرى للثقافة المضادة الامريكية في سنوات الستينات. سأكون شيخاً آمناً من هذا التهديد (السرطان، الأزمة القلبية، الخ...) (يفتح خزانة مليئة بقارورات وعلب الأدوية). لقد التزمت بإطالة مدة حياتي للحد الأقصى. لهذا أتناول الفيتامينات، والاملاح المعدنية. وأكل الحبوب عند الإفطار، والسلطة عند الغداء. لا أستهلك مطلقاً اللحم ولا الأغذية المُسَمّنة. أهتم بجسدي كما لو كان الأمر يتعلق بثورة. آكل لأتغذّى وليس من أجل المتعة. هذه تتمات طبيعية أخذها من أجل توازني العام. وأستهلك منها من أربعين الى خمسين باليوم. وتلك الـ Max Epi التي تحمي من الحوادث القلبية. وهذه البيتاكاروتين المستخلصة من النباتات والتي تؤخر شيخوخة الخلايا. وتلك أخرى تمنع نمو السرطان

(6) جورج فيغارللو (G. Vigarello) : «مخبر العلوم الانسانية» (Le laboratoire des sciences humaines) - مجلة «Esprit» - العدد 62 - شباط / فبراير 1982.

أو تُنظف الدم من فضلاته. وهذه الـ Ginseng الذي يقوّي طاقتي ويحصّرني للمجهودات الرياضية. كما أخذ أيضاً فيتامينات مثل تلك التي تساعدني على النوم في الليل، وفيتامينات ب⁽⁷⁾. إنه مثال جميل للابتذال الحالي للخطاب الثنائي: إدارة الجسد الخاص كما لو كان الأمر يتعلق بآلة يجب أن نأخذ منها الحد الأقصى من المردود. لقد حلّلت وحدة الشخص تحليلياً بغية القيام بالاستعمال الأكثر عقلانية لكل أجزائه وعدم ترك أي شيء بوراً بلا عناية. إننا نجوب الجسد كما لو أنه مادة ينبغي تدليلها، أو شريك يجب اكتساب حظوته، أو محرك من المناسب عدم إهمال أي قطعة منه من أجل حسن سيره كمجموعة. إن الحماية الغذائية هي بالفعل واجهة أخرى لهذا التدخل الحيوي في الذات، والتي تعرف اليوم نجاحاً متنامياً عبر تعدد المحلات التي توزع منتجاته: توجيه الغذاء حسب مستلزمات «الشكل»؛ البحث عن عقلانية تُعدّل المعطيات الرمزية المرتبطة بالوجبات؛ الرجوع إلى قيم جديدة عبر المنتجات «الحيوية»، الخ..

إنّ الجسد يُشَبَّه، في شكل مرن، بآلة يجب العناية بها. وهذه أمثلة أخرى: «انتبهوا للجذور الحرة، هذه الظواهر الطبيعية التي تشكّل انطلافاً من الأوكسجين الذي نتنفسه. إن هذا يعني القول أن الجهاز العضوي يتأكسد تماماً كما يصدأ الحديد أو ترنخ الزبدة..» (إعلان لمنتجات «Eradical»)، أو «راحة، مرونة، انتصار»، هذه الكلمات لم تُعد تنتمي حصراً لمصطلحات السيارة، (فالإنسان) يطالب بها الآن من أجل بشرته. إنّ الكثير من النجاحات تمرّ في كل الميادين من خلال الشكل الكبير والرفاهية في كل يوم» (إعلان لمنتجات: Clinique Formule Homme). إن نموذج الجسد القابل للاشتغال والمليء بالحيوية هو هنا، بغرابة، نموذج الآلة المُعْتَنَى بها جيداً، والمُراقَبَة بشغف. إنها مادة جميلة يجب معرفة كيف تُؤخذ منها أفضل النتائج.

(7) داني كوهن - بانديت (Danny Cohn-Bendit) : «أحبناها كثيراً الثورة» (Nous l'avons tant aimée la Révolution) - باريس - منشورات Points Actuels - ص : 36. إن تحويل الجسد الخاص بدل تحويل العالم هو مرحلة مبتدلة في خط سير العديد من المناضلين القدماء في سنوات السبعينات. أنظر أيضاً : س. لاش (C.Lasch) «عقدة نرسي» (Le Complexe de Narcisse) - باريس - منشورات Laffont - 1981 (ترجمة عن الأمريكية).

ونظراً لإدراك هذه المادة كموضوع داخلي، كأنا آخر، يجري الحديث مع «الجسد»، يلاطف، يُداعب، يُدَلِّك، يستكشف كأرض متميزة ينبغي غزوها، أو بشكل أفضل، كشخص ينبغي إغراؤه، إنَّ الجسد يصبح ملكية من الدرجة الأولى، مادة (أو بالأحرى موضوع) لكل الانتباهات، لكل الاهتمامات، لكل الاستثمارات (هنا أيضاً، بالفعل، يجب تحضير المستقبل)، مادة يجب المحافظة جيداً على «رأسمالها» الصحة، و«تنمية» «رأسمالها» الجسدي في الشكل الرمزي للإغراء. إنَّ المرء يجب أن يستحق شبابه وشكله ومظهره. إنَّ عليه أن يناضل ضد الزمن الذي يترك آثاره على البشرة، والتعب و «الكيلوغرامات الزائدة»، وعليه أن يحافظ على نفسه، ولا «يُهملها». إنَّ تجميل الحياة الاجتماعية يركز على إخراج مصفًى للجسد، على أناقة العلامات الجسدية التي يؤكدُها والتي بفضلها يطرد منه قلق الزمن الذي يمرّ. إنَّ عليه أن يُطوِّع هذا الشريك المتردد، ليجعل منه رفيق طريق ممتع.

إن شهوة الجسد تُعدّل مضمون الثنائية من دون أن تُغيّر شكلها. فهي تتجه لإضفاء طابع نفساني على «الجسد - الآلة» الذي يُتابع نموذجها هنا أيضاً تأثيره بطريقة خفية تقريباً. لكنها تُغيّر انفعالاته. إنَّ الجسد - الآلة (أو الجسد غير المُشْرَح) كان يُعبّر عنه نزع الصفة الرمزية عن اللحم، ويترك الشخص بعيداً كقيمة نبيلة، لا تُمسّ. إنه يُبرز بوضوح أخذه بالحسبان بصفته مادة صافية، بصفته أمراً حقيقياً موحداً وثنائياً. إنَّ الجسد الأنا الآخر لا يغير في شيء من نزع الصفة الرمزية التي يُعدّ الجسد مادة لها، بل انه، بالعكس، يشهد على ذلك بشكل آخر، من خلال إضفاء صفة نفسانية على المادة، بجعلها أكثر قابلية لأن تُسكن، وبإضافة نوع من التثمة الروحية عليها (تثمة رمزية). إنه يساعد، على صعيد الفرد، على وضع بديل للعلاقة مع الآخر. إن الرمزية الاجتماعية تتجه، حيث تنقص، لأن تُستبدل بعلم النفس. إن قصور الحواس لم يُعدّ يُعزّا لما هو اجتماعي، وإنما هي تُحلّ فردياً في خطاب أو ممارسات نفسانية، والجسد هو «دالٌّ عائم» ملائم بشكل خاص لهذه التغيرات. إنَّ الجسد يتباهى بقيمة تتناسب، مباشرة، مع النسيان أو الاحتقار الذي كان موضوعاً له في العصر الآخر للثنائية: إنَّ الجسد - الآلة (الذي يبقى بشكل بارع) هو الذي يجب، أقل من حقل الأحاسيس والإغراء، أن يُعطى أوسع مدى من خلال مضاعفة التجارب. إنَّ نوعاً من التباهي يتضافر مع المحو الطقوسي للجسد، الذي يستمر في تنظيم الميدان الاجتماعي. إنَّ ثنائية شخصية تأخذ مداها.

الجسد الفائض

منذ العصر الحجري الأخير، والإنسان له نفس الجسد، نفس الامكانيات الجسدية، نفس قوة المقاومة للمعطيات المتقلبة للبيئة. وطوال آلاف السنين، وحتى اليوم، مشى البشر، في الجزء الأكبر من العالم، من أجل أن ينتقلوا من مكان لآخر، وركضوا، وسبحوا، وأنفقوا وقتهم في الانتاج اليومي للخيرات الضرورية لبقاء جماعتهم. ولم تستعمل مطلقاً، بدون شك، كما تستعمل اليوم في المجتمعات الغربية، القدرة على التحرك، وسهولة الحركة، والمقاومة الجسدية للانسان. لقد أخذ الإنفاق العصبي (الضغط) تاريخياً مكان الانفاق الجسدي. وجُعِلَت الطاقة البشرية البحتة (أي موارد الجسد) سلبية، وغير قابلة للاستعمال ؛ وحُلَّت الطاقة التي لا تنضب المُعطاة من قبل التجهيزات التكنولوجية محل القوة العضلية. إن تقنيات الجسد، حتى الأكثر بدائية منها (مثل المشي، الركض، السباحة، الخ) تتراجع ولم تُعَد تُلمس إلا جزئياً في مجرى الحياة اليومية، وعلاقة العمل، والتنقلات، إلخ. إننا لم نَعُد نستحم عملياً في الأنهار أو البحيرات (إلا باستثناء بعض الأماكن النادرة المسموح بها)، ولم نَعُد نستعمل الدراجة (وليس بدون خطر) أو الأرجل إلا نادراً من أجل الذهاب الى العمل أو الانتقال من مكان لآخر، بالرغم من اختناقات المواصلات في المدن، الخ. بهذا المعنى، كان جسد الانسان في سنوات الخمسينات أو حتى الستينات أكثر حضوراً للغاية في وعيه وموارده العضلية، وأكثر تواجداً في قلب الحياة اليومية. لقد كان المشي والدراجة والسباحة والنشاطات الجسدية المرتبطة بالعمل أو بالحياة المنزلية أو الشخصية يشجع على الانغراس الجسدي للوجود. في ذلك العصر، كان مفهوم «العودة» للجسد يبدو غير لائق، ومن الصعب الإمساك به. وفي غضون ذلك بالفعل، لم يكف التزام الإنسان الجسدي بوجوده عن الانحطاط. لقد أضفي طابع اجتماعي على هذا الجزء غير القابل للتعرف من الانسان، وذلك على نمط المحو، كما صُغِرَ، وأُخْفِيَ. وأتجه البُعد الملموس والجسدي للوجود البشري للبقاء في أرض مُستريحة، وذلك بقدر ما كان الوسط التقني يتسع.

لقد اتجهت للضمور النشاطات الممكنة للجسد، تلك التي يبني الشخص بواسطتها حيوية علاقته بالعالم، ويعي نوعية ما يحيط به، ويهيكل هويته الشخصية. إن جسد الحدأة يشبه الأثر. إنه عضو فائض للإنسان، لم تستطع الترميمات التقنية

(السيارات، التلفزة، السلالم والأرصفة المتحركة، المصاعد، الأجهزة من كل نوع...) أن تتوصل لإلغائه كلياً. إنه بقية، شيء لا يمكن أن يُقهر شيء تصطدم الحداثة به. وكلما ضاقت حصة النشاطات الخاصة للجسد في المجال المحيط به، كلما صار من المضني تحمُّله. لكن اختزال النشاطات الجسدية والحسّية لا يتم من دون أن يُحدث آثاراً على وجود الشخص نفسه. فهو يمسّ رؤيته للعالم، ويحدّ من ميدان تأثيره على الواقع، ويُقلّل من الشعور بقوة الأنا، ويُضعف معرفته المباشرة للأشياء. إلّا إذا كُيِّح هذا التآكل بنشاطات تعويضية، مُهيّأة خاصة لتشجيع النشاط الحركي والحسّي أو الجسدي للإنسان، ولكن على هامش الحياة اليومية.

إن ضُمور قدرة الانسان على التحرك وحركيته بسبب اللجوء المستمر للسيارة. واختزال مساحة المساكن، وإضفاء طابع وظيفي على الغرف والأمكنة، وضرورة الانتقال بسرعة لكي لا نزعج الآخرين. إن الجسد، في الحياة الاجتماعية، يُعاش غالباً وفقاً لنمط الرحمة، والعرقلة وكمصدر للعصبية أو التعب أكثر مما يُعاش وفقاً لنمط الابتهاج أو للإصغاء لموسيقى حسّية ممكنة. ونشاطات الشخص تستهلك من الطاقة العصبية أكثر مما تستهلك من الطاقة الجسدية. ومن هنا نشأت الفكرة المشتركة المنتشرة اليوم عن «التعب الجيد» (المرتبط بالنشاطات الجسدية) و«التعب الرديء» (المرتبط بالإنفاق العصبي).

إنّ الأمكنة المُخصصة للتسكع في المدينة، والأحياء القديمة، والأرصفة، أصبحت مع مرور الزمن أقل استضافة للمتّنزهين، كما خضعت البنى المدنية لضرورات حركة سير السيارات. إن تخفيف مجال التسكع، وتركيز النشاطات في مراكز المدن المُشبعة، والمحشورة بالجمهور، هي التي تساهم في حرمان المازّة من وتيرة تسكعه الشخصي لتخضعهم للضرورة غير المعروفة لسير مُشاة سريع. إن الانتقال الوظيفي من مكان لآخر يتجه لأنّ يحلّ محلّ التسكع (باستثناء أيام الأحد بدون شك) الأمر الذي لا يحدث من دون ترك آثار على المتعة الحسّية والحركية.

لقد استكشف ب. فيريليو جيداً وبحدس ملحوظ، في سنوات السبعينات، هذا الضعف في النشاطات الجسدية البحتة للإنسان، وأشار، بشكل خاص، إلى كم «أصبحت بشرية المدينة بشرية جالسة». فيما عدا الخطوات القليلة التي تُمشى من أجل الوصول الى السيارة أو الخروج منها، تبقى أغلبية الناس جالسة طوال اليوم. لقد

طرح فيريليو جيداً مشكلة المأزق الناشئ عن الإقلال من قيمة الوظائف الجسدية في وجود الإنسان، ولا سيما على صعيد إعداد الهوية الشخصية. «قبل أن يسكن الحي، والمسكن، يسكن الفرد جسده الخاص، ويقوم معه علاقات كتلة، وزن، زحمة واتساع.... الخ. إن قدرة الجسد على التحرك وحركيته هي التي تسمح باغناء الإدراكات الحسية التي لا بد منها من أجل بناء هيكلية الأنا. إن إبطاء، بل إلغاء هذه الديناميكية المتحركة، وتثبيت المواقف والسلوك الى أقصى حد، يؤدي الى تشويش الشخص بشكل خطير، والإضرار بقدراته على التدخل في الواقع»⁽⁸⁾.

لقد اختصرت الحداثة قارة الجسد. ولأن هذا الأخير كَفَّ عن أن يكون مركز الإشعاع للشخص، فقد خسر الجزء الأساسي من قوة تأثيره على العالم، وأخذت الممارسات والخطب التي تحاصره هذا الاتساع. ولأنه غائب عن الحركة العادية للحياة، أصبح موضوعاً لهم ثابت التصق به سوق كبير ومراهنات رمزية جديدة. إن الممارسات الجسدية تقع على مفترق تتقاطع فيه الضرورة الانتروبولوجية للصراع ضد التقطيع الذي يُشعر به، ولعبة الإشارات (الأشكال، الشكل، الشباب، الصحة، الخ) التي تضيف الى اختيار نشاط جسدي ما تنمى اجتماعية حاسمة. وإذا كان الشخص قد «تحرر» من هذه الممارسات، فذلك لا يعود إلى مبادرته فقط، لأن الجو المحيط بلحظة ما حثّه على القيام بذلك وفقاً لبعض الأساليب، إلا أنه يتغلق بهذا بالتزام شخصي كلما شعر بنفسه بضرورة النضال ضد انعدام الوجود الذي يوفره له عدم استعمال طاقته الجسدية.

ولكن لا يمكن أن تكون هنا «عودة» للجسد. فالجسد موجود دائماً هناك، وهو قابل للتمييز عن الإنسان، الذي يُعطيه حضوراً، مهما كانت طبيعة استعمال هذا الإنسان لقوته وحيويته وطاقته الحسية. إن استعمالاً آخر للذات، عبر الجسد، هو بالأحرى الذي يظهر، إنه هم جديد: هم إعادة حصة اللحم والحواس التي كان يفترقها الوضع الغربي إليه. إنه جهد لتجميع هوية شخصية مُجرّأة في مجتمع مُجرّء.

إن الاهتمام المتنامي بالصحة والوقاية يقود أيضاً لتنمية الممارسات الجسدية

(8) بول فيريليو (Paul Virilio) : «بحث في لا أمان الأرض» (Essai sur l'insécurité du

territoire - باريس - منشورات Stock - 1976 - ص : 269.

(الركض، مجرى القلب، الخ). كما يقود أيضاً الأشخاص الفاعلين لإعطاء وعي أكثر تيقظاً لجسدهم وغذائهم ووتيرة حياتهم. إنه يحثُ على البحث عن نشاط جسدي منتظم. هنا أيضاً يتجلى استعمال للذات يستهدف إعادة توازن مقطوع، أو من الصعب الحفاظ عليه، بين وتيرة الحداثة والوتائر الشخصية. إنَّ تصوراً أقلَّ قدرياً للمرض بدأ يظهر. فالمرض يجد في طرق الحياة، وفي العادات الغذائية وصحة الحياة الخ الشروط المواتية لانطلاقه.

مما لا يمكن إدراكه في العالم الحديث إلى ما يمكن إدراكه في الجسد

إنَّ النزعة الفردية الحادة التي نعرفها اليوم ليست أبداً إشارة على تحرر الشخص الذي يجد في موارده الخاصة الوسائل لإدارة مستقلة لوجوده. فالغوص في العالم الداخلي بحثاً عن أحاسيس شاذة، والانطلاق في الصحارى أو المناطق الجليدية سعياً وراء المغامرة أو لإحراز «المركز الأول»، وتذوق المجابهة مع العناصر التي تقف عند حدود الذات، واختبارات الماراتون أو التزلج التي تُكَمَّل حتى نهايتها بالرغم من التعب، والركض اليومي أو الساعات الأسبوعية التي تُعاش في الرياضة الخاصة بصيانة الشكل، هي كلها ممارسات وخطب تتم في ظل الرقابة المُبهمة لكتلة من القيم التي تنقسمها، في آن واحد بشكل مشترك أو متميز، الفئات الاجتماعية. إنها قيم الشباب، الشكل، الصحة، الإغراء، وقدرة التحمُّل، والمرونة... وهي قيم أساسية للإعلان. إنَّ هذه الأساطير الحديثة تركز على قيمة صفات ترتبط بالوضع الجسدي. فكل شخص، في عالمه الشخصي وحسب وضعه الاجتماعي، يحيك بمساعدة نخبة من الاشارات التي يوفرها له سوق المواد الاستهلاكية، ووسائل الاعلام، والاعلان. إن الطلبات تتكاثر، وتضم شمل أشخاص من نفس الفئة الاجتماعية حول مواقف واهتمامات وأبحاث قريبة.

إن قبضة من الأوامر المؤقتة، ذات القيمة العالية بشدة، تضيف طابعاً اجتماعياً على أرخبيل من الأشخاص المبعثرين. إن تحولاً انتروبولوجياً يغير من طبيعة الرمز الذي بدلاً من مزج الأشخاص في جماعة متضامنة، لها نفس القدر، وتشاطر نظام حواس وقيم مُستثمرة بقوة، يقوم بتكديسهم بواسطة استهلاك مشترك للاشارات والقيم، ولكن باعتبار كلاً منهم شخصاً خاصاً. إن الاشارات تختفي سريعاً، وتدفع الانسان لبحث متجدد باستمرار. إن الإنسان الفردي، بغوصه في المرأة التي يغرف منها الشعور برفاهيته وباغرائه الشخصي، يرى صورته الخاصة أقل مما يرى تبعيته

السعيدة تقريباً لإحكام الاشارات. إنّ نعمة نرجسية تخترق اليوم الحياة الاجتماعية الغربية.

إن النرجسية هي بالأصل عبارة عن وضعية استقلال، وحيلة للشخص الذي يعسكر على تخوم ما هو جماعي وفردى، ويجد نفسه مَحْجِيّاً من التزام مُفسد تجاه الآخرين. إن الشخصية النرجسية ترى أن فرديتها الخاصة أكثر جدارة بالاهتمام مما يحيط بها، لكنها لا تستبعد مع ذلك التبادل الرمزي. إننا نعلم، بالعكس، أي قوة جذب تمارسها، بشكل غريب، على الآخرين. إنها تحب الحب الذي تكون هي موضوعاً له أكثر للغاية من أولئك الذي يُحبونها. إنها توظف في شخصها الخاص طاقة يذرّها الآخرون بالأحرى ضمن الرابطة الاجتماعية. لقد كتب فرويد في هذا المجال صفحات أصبحت تقليدية.

إن نرجسية الحداثة هي أولاً خطاب، إنها إحدى أحجار الزاوية في الأساطير الحالية. فهي تُسمّى جواً ما للحياة الاجتماعية، وشكلاً ذا نزعة عامة أكثر مما هو هيمنة، وقوة اجتماعية خاصة ببعض الفئات، وبعض الأمكنة. إنها إحدى أوردة الحياة الاجتماعية. لكنها ليست الوريد الوحيد. وهي تهمنا هنا لأن النرجسية الحديثة هي، بالضرورة، أيديولوجية الجسد، والسعي المتعمّد لبلوغ أوج الإحساس والأغراء، الذي يمثل لموقفٍ مُشترَخٍ وإرادي في آن معاً. إنها الثنائية التي تُشيدّ الجسد في استثمار. لقد حلّل جان بودريار جيداً تغير الاتجاه الحالي للنرجسية. فمن مكان للسيادة تحوّلت إلى أداة للرقابة الاجتماعية، أداة لا «تُسْتَعْمَل» (من قِبَل مَنْ؟)، وإنما يتم اختيارها «بشكل حرّ» في جاذبية جوّ اجتماعي، في لحظة معينة، يقوم بتقريب اختيارات الأشخاص نحو ممارسات، ومواد وخطب متشابهة. إنّ كل واحد يتبع اندفاعات لعبته الداخلية مثل تمرين حرية عندما لا يقوم إلاّ بالامتثال لأوامر ميدان اجتماعي كان يجهل تأثيره عليه. إنّ ما يميز هذه النرجسية عن تلك، التقليدية، التي تكلمنا عنها أعلاه، هو أن قانون القيمة يتحكّم بعملها. إنها نرجسية مُوجَّهة، وتمجيد مُوجَّه ووظيفي للجمال باسم استثمار وتبادل الإشارات»⁽⁹⁾، كما يلاحظ ج. بودريار.

(9) جان بودريارد (Jean Baudrillard) : «التبادل الرمزي والموت» (L'échange symbolique et la mort) - باريس - منشورات Gallimard - 1976 ، ص : 172. أنظر أيضاً ريتشارد سَنِت (Richard Sennett) : «طغيانيات الحياة الحميمة» (Les tyrannies de l'intimité) - باريس =

إنَّ نرجسية اليوم ليست مؤشراً على انغماس في التكاسل، والتمتع بالوقت الذي يمرّ، حتى ولو وُلدَ اللذة ؛ إنها أيضاً نتيجة لعمل على الذات، وسعي لإضفاء طابع شخصي على العلاقة مع العالم من خلال وضع إشارات خاصة باللباس والمواقف، وكذلك إشارات جسدية، بالمقدمة. إنها ذِكرٌ للشخص الأول في القصة الأسطورية. إنَّ الأمر لا يتعلق هنا فقط بوضعية الشخص ضمن الرابطة الاجتماعية، والتي تترجم من خلال إثارة للإشارات، وإنما أيضاً، وبشكل خاص، بالشعور الحميم المقرون بهذه الوضعية. إنَّ النرجسية الحديثة هي لذة تجد إنجازها في الشعور المُهم حول أفضل ملاءمة ممكنة مع الإشارات ذات القيمة في زمن ما. إن مفارقتها تكمن في كونها مُحثّاً للحياة الاجتماعية ؛ فهي تُعبّر عن وَهم اختيار شخصي، وعن شعور بوحي سيّد عندما لا يعود رسوخ بنية الجو الاجتماعي يُدرك بصفته تلك، وإنما حين يُوسّع أيضاً ميدان تأثيره في الدائرة الأكثر حميمية للشخص⁽¹⁰⁾.

إنَّ النرجسية الحديثة تترجم هذا الواقع المتناقض ظاهرياً ؛ واقع وجود مسافة نحو الذات نفسها، وحساب، إنَّها تحوّل الشخص الى عامل يجعل من وجوده ومن جسده شاشة تُنظّم فيها الإشارات بشكل موافق. إنَّ الليبيدو (الشبق) النرجسية تلتقي بالإشارات الاجتماعية للانتباه للذات وتملّكها. وهي تغرف، للقيام بذلك، من المعرض الكريم للطلبات وللأساطير التي تُكوّن جوّ لحظة ما. وذلك بعكس الطابع اللازمي، بشكل ما، للنرجسية التقليدية:

وتعود المفارقة الأخرى للنرجسية الحديثة لوجهها المُتغيّر، وللإفتانات المؤقتة التي تعطيها مظهر المكان المخصص لحفظ ألبسة المشاهدين في المسرح. لقد قُطعت الليبيدو النرجسية، وغطّت، إنتقائياً، ممارسات أو مواد وفقاً لترقيم رمزي خاص بلحظة معينة. إنَّ عمل الإشارة يُنتج قصة تكوّنت سابقاً، ويقوم الشخص

= منشورات Seuil - 1979 (1974 ، مترجم عن الأمريكية) ؛ أنظر أيضاً كريستوفر لاش (C.Lasch) «عقدة نرسيس ، الحساسية الأمريكية الجديدة» (Le complexe de Narcisse) La nouvelle sensibilité américaine - باريس - منشورات Laffont - 1981 (1979 ، مترجم عن الأمريكية) ؛ وجيل ليبوفيتسكي (Gilles Lipovetski) - «مجتمع الفراغ» (La société du vide) - باريس - منشورات Gallimard - 1985.

(10) يذهب ريتشارد سنيت لحد القول «بأنَّ النرجسية هي علم الاخلاق البروتستانتي في العصور الحديثة».

بسردها وفقاً لنبراته الصوتية الخاصة. إنَّ موهبته تستمد من القدرة على تنظيم المواد الأساسية التي يمتلكها الجميع وفقاً لأكثر الأنماط شخصية. إنَّه يخلق حياته الحميمة أقل مما يُعدُّ بالنهاية مُنتجاً من قِبَلها إجتماعياً. إنَّ الجسد الذي يعتقد الفرد أنه يمتلك جوهره المنسي ليس إلاَّ إعادة لقصة. فهو الحادث المصطنع الذي يولده فيه جوُّ لحظة ما. إنه سيكون بهذا المعنى موضوع رغبة أقل مما هو همٌّ، موضوع متعة أقل مما هو أمر ضروري.

وإذا كانت هناك إدارة للجسد بصفته ملكية شخصية للشخص، فإن هذه الملكية تخضع لنفس التقلبات التي تعرفها البورصة. إن القيم المؤكدة في لحظة اقتصادية تكفَّ قريباً عن أن تكون كذلك نتيجة اندفاع قيم جديدة: ففي سِنِّ عَوَمِ الحسِّ والقيم، لا يعود للجسد إلاَّ عمق شاشة. عليها يُعرَض الوهم المتجدد باستمرار لمجموعة مؤقتة تُبنى فيها هوية فردية أصبحت جزئياً بدون جذور. إن الجسد استعارة، وحقل لا ينضب يعطي للترجسية الحديثة انغراساً مُميّزاً وبنفس الوقت مظهراً عابراً وغير متجانس. إن حظ الترجسية، هنا، يكمن في تجديد معطياته عند كل تعديل في الجو العام. إن الجسد، بشكل مستقل عن الأيديولوجيات، هو قارة، لأن الوجود الاجتماعي للإنسان ليس شيئاً آخر غير حظٍ ملعوب بين عدد لا نهائي من التركيبات الممكنة. إن الشيء العابر يمكن أن يهيمن على الإنسان، ويتضاعف من الاجتماعي الى الفردي، وهو لا يستنفد مطلقاً اتساع الأشياء الممكنة. إن خارطة الجسد هي من صنع الميدان الاجتماعي، فكلاهما لا يمكن غدّه.

فئات اجتماعية

يجب الإشارة الآن الى أنَّ الجسد هو موضوع لمراهنة رمزية بالنسبة لفئات اجتماعية مُحددة نسبياً بدقة. ولا يبدو، على سبيل المثال، أن الطبقات الريفية أو العمالية متأثرة جداً بهذا الافتتان الخاص بأشياء الجسد. فهذه الفئات الاجتماعية تعطي بالأحرى قيمة للقوة أو الجَلَد، أكثر من الشكل والشباب أو المظهر الحسن. إنها تميل بالأحرى لأنَّ تميّز نفسها عن أولئك الذين «يصفون لبعضهم كثيراً»⁽¹¹⁾. إنها،

(11) انظر : ل. بولتانسكي (L. Boltansky) «الاستعمالات الاجتماعية للجسد» (Les usages sociaux du corps) - منشورات Annales ESC - عدد كانون الثاني / يناير - شباط / فبراير

.1971

علاوة على ذلك، فئات اجتماعية تمارس نشاطاً جسدياً: فالإنفاق العضلي واستعمال تقنيات الجسد الخاصة يشكلان الجانب الأساسي من عملها. فالتعب المتراكم طوال اليوم لا يدع بعد وقت العمل، إلا نادراً، تذوقاً لتسليّة من شأنها أن تساعد مجدداً على استثمار الموارد الطاقية للجسد. إن ابتعاد هذه الممارسات أو هذه المنتجات عن نظامها المرجعي، وكلفتها، والوقت الذي يجب تكريسه لها يجعلها مألوفة قليلاً بالنسبة لهذه الفئات الاجتماعية. فهذه الفئات تكون على اتصال مع جسدها، في إنفاق جسدي دائم، وهذا ما تبحث عنه بدقة، وفقاً لأسلوب لِعِيّ، الفئات الاجتماعية الأكثر طلباً لهذه الممارسات أو لهذه المنتجات الموجهة نحو الجسد. أما الفئات الوسطى والمميّزة، والمهن الحرة، فهي أساساً فئات مَيّالة لتفضيل «الشكل» وحسن المظهر، ومهتمة بأن تنفق من أجل أن تجد ثانية حيويّة أنهلكها الجمود، وفقدان النشاط الجسدي في أعمالهم المهنية⁽¹²⁾. إنها فئات مُتَنَبِّهة أيضاً لصحتها، للوقاية، ومهتمة أيضاً بتحويل «التعب العصبي» المتراكم خلال عملها إلى «تعب سليم»، أي تعب عضلي ولكن غير منتشر في الجسد.

إنها أيضاً مهن معروفة بمسؤولية ملموسة تجاه الآخرين (معلمون، معالجون، علماء نفس، عمال اجتماعيون، أطراً إدارية، مهن حرة، صغار أصحاب المشاريع). من الصعب غالباً ممارستها، موالية لطرح الأمور للنقاش ولاستبطان الصراع، الذي يؤدي «لعدم الاحساس بأنه مرتاح داخل جلده»، ولأن يكون لديه رغبة «بالانفجار»: لقد بيّنت اليان بيرن أن الممارسات الجسدية الجديدة ذات الإلهام الكاليفورني تمارس من قبل الفئات الاجتماعية التي «تُعَرِّضها علاقتها بالعمل إلى العدوانية الأكثر مباشرة، في حين أنّ مهنها تمنعها من إظهار أي عدوانية بالمقابل. إنها تلك التي يكمن دورها بدقة في القيام باستمرار بإيقاف كل علاقة اجتماعية عدوانية، سواء كان ذلك بواسطة

(12) بالنسبة للرياضة البدنية أو التزلج، الماراتون أو الركض، نجد نفس العناصر الاجتماعية. أنظر

مقالات أوليفيه بيسي (Olivier Bessy)، وجان كلود راغاش (Jean-Claude Ragache) أو جان ميشيل فور (Jean-Michel Faure)، في مجلة «Esprit» «السن الجديد للرياضة» (Le nouvel âge du sport)، عدد خاص - نيسان / أبريل 1987 - أو أيضاً، من مقرب آخر، كريستيان بوسيللو (Christian Pociello): «القوة، الطاقة، الاناقة، والانعكاسات» (La force, l'énergie, la grâce et les réflexes) في (Sports et sociétés approche, socioculturelle des pratiques) - عمل جماعي - باريس - منشورات Vigot - 1981.

الحوار أم بالشرح والمناقشة أو الكلام بشكل عام... إنها ستجد في الممارسات الجديدة للجسد وضعاً يلغى فيه ويُحظر كل تحقُّظ اجتماعي، فهو مكان مغلق، خارج العالم، حامي، يشكل نوعاً من القوسين يكون الجميع بينهما متساوين، وفيه تؤخذ فقط بالحسبان الانفعالات والأحاسيس، وفيه يمكن لها أن تعبر علناً عن عدوانيتها خارج الأشكال المعتادة عليها: أي أشكال الكلام⁽¹³⁾. إنه زمن التنفس والوفاق بالنسبة لفئات اجتماعية موضوعة بشكل دائم في مركز التوترات العلائقية التي «اعتادت عليها». إنه بحث عبر الاشارات الجسدية الملموسة عن طريق من أجل التخلص من عدم يقين الممارسات المهنية.

إنَّ هناك، ضمن إطار محايد، ومن دون نتائج على الحياة الشخصية، بحث عن الحياة المشتركة، والحرارة، والثقة والإنفاق. إنه تفرغ للتوترات عبر سلسلة من التمارين التي تتم فيها العودة الى «موضوع يُفترض معرفته». لأن التماس الذات، و«إعادة تملك» الجسد يمرّ بشكل غريب، من خلال إخلاص المشاركين لكلام معلم مستعد لأن يُشارك الآخرين بمعارفه. وقبل أن تُجرَّب، توصف الأحاسيس أو النتائج الجسدية التي يجب أن تحتازها، من قِبَل المُنشِّط، وتُقرأ في كراسات المراجع، وتُنظر من قِبَل المُستعملين في جوٍّ يُغلّفهم فيه رسوخ البنية. إن اكتشاف الذات أو العمل المتحقق على جسده يمرُّ أولاً من خلال الاعتراف بكلام شخص آخر، وارتداد طريق سبق لآخرين أن ساروا به (شهادات في المجلات، والمنشورات، والمؤلفات العامة، والتجارب التي يعيشها الجوار، وعرض التمارين من قِبَل مسؤول الدورات التدريبية، الخ). إن هذه الفئات الاجتماعية ستعثر هنا على شكل للإرشاد والإخلاص لسلطة كانوا معتادين عليها في مؤسساتهم. إن الجسد يعرض نفسه على طريقة متاهة فقد الشخص مفتاحها، ويستطيع فقط أن يعيده اليه ذاك الذي يعرف، بواسطة معارفه، كيف ييسر خط التوجيه. إن المستعملين سيُدْعَوْنَ حينذاك لاستكشاف شعورهم تحت قيادة مُنشِّط يعرف مُسبقاً ما هو من المناسب الشعور به، وفي أي لحظة. وكذلك يقوم المعتادون بإرشاد الأتباع الجدد. وهكذا تتحرك المتاهة في مسار نُصِبت معالمه مُسبقاً.

(13) إيليان بيرين : «عادات الجسد...» - المرجع السابق ذكره - ص : 124.

سرّ الجسد

لأن من المعتاد في التصورات الغربية، المتأثرة بثنائية كامنة، تمييز الانسان عن الجسد. فقد افترض أن هذا الأخير يُمسك بسرٍّ ويُخفي عُقْداً مدفونة بالامكان مسح دهاليزها لكي نصل في مركزها الى إحياءات لا ينقصنا إلاّ خط توجيه من أجل الإعلان عنها. لقد أخذت التعرية التشريحية اللحم بحرفية مواده. فبحملها لادراكها للرمزي إلى نوع من درجة الصفر، ساهمت الصورة الغربية للجسد في جعله لُغزاً ولأن بداهته التشريحية والفيزيولوجية لا تستجيب لما يمكن أن يحسّه الإنسان في نفسه من تعقيد. فقد افترض أن الجسد يحمل سرّاً. إن استدعاء تصورات أو تقنيات الجسد الآتية من الشرق، بعد عبورها بكاليفورنيا، أو اللجوء الى تقاليد باطنية صحيحة تقريباً، يبران البحث عن الذهب المدفون في طبقات اللحم. إنّ عملاً صارماً على الذات يجب أن يساعد على توضيح معالم القارة البور، فالجسد هو الغلاف الذي يمكن إستخراج الماسة منه شريطة تحمّل عناء العمل الذي يتطلبه هذا الأمر. إن غياب الله يسمح بالبحث عن شرارة إلهية في ليل الجسد.

«إن كآبة المُشرِّح» (على حد تعبير ج. ستاروبنسكي) تطرد من خلال الريح العاتية للمخيال، غير الراضي عن التصور السخيف لجسد نتبين بشكل سيء علاقته بذاته، علاقته بإحساس غني متناقض مع جفاف المعرفة البيوطبية، الصورة الرسمية لتصوير الجسد.

ولأن الجسد هو مكان الانقطاع، تُعطى له ميزة التوفيق. فهنا يجب وضع البلمس. إن العمل على الجسد يعكس الارادة في سدّ المسافة بين اللحم والوعي، ومحو الغيرية الملازمة للوضع البشري: تلك، المبتذلة، المتمثلة بعدم رضى الحياة اليومية، وتلك، المؤسّسة للاوعي. حينئذٍ يجعل المخيال الاجتماعي من الجسد المكان الممكن للشفافية وللوضعية. إن العمل على المحسوس، والتنفس، والحركة، يُدجّن اللاوعي، وما هو غريزي... إن علم النفس الضمني للارادة قابل، إذا ما طُبّق بانضباط أو بروح خلّاقة، وبشرط اللجوء لتقنيات دقيقة، لأن يحو الانقطاع ويؤسّس «حضارة للجسد» (حسب تعبير ج.م. بروهم) (إنها مفارقة صياغة ثنائية تستهدف تسمية التوفيق، الذي حلمنا به، بين الإنسان وجسده، والتي هي ليست إلاّ من صنع التصور والخطاب)، التي يُطرّد منها الكبت والنقصان. إننا نعرّ هنا على فكرة

الطبيعة الجيدة للجسد الذي أفسدته الحياة الاجتماعية، والذي يجب استعادته⁽¹⁴⁾.

إننا من خلال الجسد، باعتباره مكاناً للحدِّ، للتَّفَرُّدِ، وَنَدَبَةِ لعدم التمييز حَلَمَ الكثيرون بالعثور عليه، سنحاول سَدَّ النقص الذي من خلاله يدخل كل شخص في الوجود، كما لو أنه كائن غير مُكتمل، يُحدِثُ باستمرار وجوده الخاص من خلال تفاعله مع الحياة الاجتماعية والثقافية. إن زينة الإشارات، المُستهلكة والمُستهلكة، تؤمن حمايةً ضد القلق المُبهم من الوجود، كما لو أن صلابة العضلات، والاستعمال الأفضل أو معرفة تقنيات الجسد التي لا تحصى، لديها القدرة على طرد الاخطار المرتبطة بعدم الثبات والنقصان. «في مكان ما داخل غير المُكتمل» (حسب تعبير ريلك)، وعبر الوضعية الملموسة لجسده، يبحث الإنسان عن شيء يُدِّد به قلقه العائم. إن التماس السرِّ يُعَبِّرُ عن التماس عدم الاكتمال، ويستدعي اقتحام الإلهي للإنسان، ويهدف إلى طرد الشعور بالنقص المرتبط بالوضع البشري. إنَّه الجِرْزُ الذي يلغي تقسيم الشخص الفاعل. إنَّ الجسد يصبح المكان الذي ينكر اللاوعي فيه ذاته، المكان الذي تختلف فيه هوية الشخص بناء على تأكيد جديد لـ cogito.

ويرتبط هذا البحث بالقلق. والمنطلق دائماً، بعدم يقين الزمن، وبالنفوذ المتنامي للمؤقت في المجتمع الغربي. فعندما يصبح كل شيء غير قابل للفهم، غير قابل للمراقبة، حتى العلاقة مع الآخر بالنسبة للزوجين، وضمن الأسرة ؛ وعندما يتراخي الأمن الوجودي، يبقى الجسد اليقيني الوحيد الذي يُؤخذ فيه الإنسان، ومكان اختلافه وانقطاعه مع الآخرين. إن الأسلوب الثنائي للحدائث يُستمد من ضرورة الفعل التي تدفع الشخص لصياغة نفسه كما لو كان شخصاً آخر، وذلك بتحويل جسده إلى مادة قابلة للنحت وللرعاية ولإضفاء طابع شخصي عليها. وبموهبته في فعل ذلك تتعلق، إلى حدٍّ كبير، الطريقة التي سيُدركه بها الآخرون. إن اللاوعي لم يَغْدُ قيمة تأخذها هذه الممارسات الجديدة بالحسبان. فهي إما أن تُخَفِّف من حدة مضمونه، وإما أن تكون مضمومة من قِبَل علم نفس مُتَفَرِّع عن الـ cogito، ويتصدر فيه مفهوم الإرادة والعمل. إنَّ الجسد، في هذا المِخْيَال، هو مساحة للعرض تُوضع فيه ثمانية أجزاء شعور

(14) «الجسد لا يكذب» الخ... إنَّها الفكرة المتواترة حول حركة الطاقة البشرية ، التي أصبحت اليوم مُبتذلة.

الهوية الشخصية الذي قَطَعته الوتائر الاجتماعية. فعبّر وضع النظام والحسّ في الذات، ومن خلال وساطة جسد يفصله ويحوّله الى شاشة، يؤثر الفرد رمزياً على العالم الذي يحيط به. إنه يبحث عن وحدته كشخص في تنظيمه للإشارات التي يبحث فيها عن إنتاج هويته وتحقيق الاعتراف به اجتماعياً.

لقد وضعت عيادة المهاجرين قيد البداهة علم طب باطني سلك نفس طريق اللجوء للجسد، ولكنه بدل إنتاج اللذة، ولّد، بالعكس، الألم والشعور بالمصيبة. فبعد حدوث خلل، أو جرح، أو مرض، أو صدمة يشير الشعور بالمصيبة لدى الشخص المنقول الى خارج محيطه الأصلي (سواء بالنسبة للمريض الفرنسي البعيد عن المنطقة التي يتعلق بها، أو المنزوع من بيئته الاجتماعية فقط) إلى عجزه عن الشكوى، والألم بعد إجراء الاصلاحات «العضوية» عليه. إنّ الشخص، بعد شفائه، يستمر بالإحساس بالألم مُتهم، مضني، وبعدم القدرة على استخدام العضو الذي كان متضرراً. إن الفحوص الطبية الأكثر عمقاً لا تكشف عن أية إصابة عضوية عندما تكتفي باللجوء لتقنيات بحتة. ومع ذلك، فإن الألم يكون موجوداً. إن الإصغاء غير التقني يظهر أن الشخص يتألم في حياته، وأنه يستعمل، بدون علمه، ألمه باعتباره الوسيط الوحيد القابل لجعل الآخرين يعترفون بوجوده، والقادر على الحفاظ، بالنسبة لنفسه، على هوية لن يكون لها معنى، بغير هذه الطريقة. إننا نكشف هنا آلية انتروبولوجية. ولكن معكوسة عندما يتعلق الأمر «بالعبادة» الحديثة للجسد. إنّ الشعور بالمصيبة يُشير إلى النسخة السلبية الصحيحة لهذه «العودة» اللّعبية للجسد، لدى شخص فاعل مقتصر على نفسه، مُفَتّت بالشروط الاجتماعية للحدّات، ويبحث عن الاحتكاك من خلال وضع جسده في المقدمة. إن الاستثمار المُنصّب على الجسد الخاص يعكس غياب الأجساد الأخرى. فعندما تكون الهوية الشخصية قيد التساؤل عبر التعديلات المستمرة للحواسّ والقيم التي تدلّ على الحدّات، وعندما يكون الآخرون أقلّ حضوراً، والاعتراف بالذات يشكل مشكلة حتى ولو لم يكن ذلك على مستوى حاد جداً، فإن الجسد يبقى، بالفعل، لِيُسمع المطالبة بوجوده. إن المقصود أن يجعل من ذاته كتابة، من خلال إشارات الاستهلاك، أو بشكل أسوأ، من التّبذّن.

إنّ الشعور بالمصيبة، بهذا المعنى، يتضامن (على السفح الآخر) مع شهوة الجسد التي تخترق الحدّات. ففي وسط الألم، يُعطي المهاجر إمارة مرضه للطب

أملاً أن يُعترفَ به كشخص. هنا حيث فشلت كل محاولاته الأخرى. في هذه اللعبة، يجعل إنسان الحداثة، الذي اعتاد على العيش بشكل عابر، وهو «مهاجر من الزمن» (حسب تعبیر مارغريت ميد)، من جسده نوعاً من إشارة الاعتراف. ففي العالم الذي لا يمكن إدراكه، يعطيه جسده الخاص فقط تأثيراً على وجوده.

الفصل التاسع

علم طب و«علوم» طب: من مفهوم للجسد الى مفاهيم للإنسان

حالة الأمكنة

إن اللجوء المعاصر «للعلوم» الطبية المُسمَّاة «بالموازية»⁽¹⁾ يُعبّر عن انبثاق قيم صاعدة تنظم أكثر فأكثر أشكال الحياة الاجتماعية: أولوية الفرد، الاهتمام بما هو طبيعي، بالجسد، بالشكل، الحق بالصحة، «عبادة» الشباب (شباب العمر أقل من شباب الحيوية). إنها القيم المُميّزة، إن لم تكن المُعلن عنها بصوت عالٍ، لهذه العلوم الطبية⁽²⁾. لكن هذا الافتتان يفترض أيضاً وجود تباعد متزايد بين الطلبات الاجتماعية في موضوع المعالجة والصحة وبين اجوبة المؤسسة الطبية. إننا نعلم أن فشل المعالجة الطبية هو الذي يؤدي، في الأغلب، الى جعل الزبائن يتحولون نحو ممارسين من نوع آخر.

لكي ندرك الأسس المنطقية الاجتماعية والثقافية التي يُبنى عليها، لدى المُستعملين، اللجوء «للعلوم الطبية الموازية»، يجب أن نتساءل عن أزمة النموذج

(1) يجب كتابة أسطورة ، على طريقة ر.بارتيز (R.Barthes) ، عن الصفات التي تنتحلها هذه «العلوم» الطبية المُسمَّاة ب : الموازية ، الأخرى ، البديلة ، الشاملة ، العذبة ، الطبيعية ، المختلفة ، التجريبية ، الخ...

(2) إن العلوم الطبية الشعبية تقع في مكان آخر. فشرعيتها الاجتماعية قديمة ومغروسة في التقاليد ؛ وهي تحظى اليوم بمزيد من الحظوة والاحترام ، الذي يُعَدّل من قاعدتها الاجتماعية ، بفضل الشرخ المفتوح في المؤسسة الطبية.

المهمين، نموذج المؤسسة الطبية الذي يكفّ اليوم، بالرغم من أن الحركة بدأت منذ عشر سنوات، عن تجميع الإجماع الاجتماعي الذي تمتع به ظاهرياً منذ بداية القرن. وبالحقيقة، فإنه يجب التذكير بأن الطب لم يفرض نفسه بدون اصطدام، وخاصة مع الطبقات الشعبية التي حارب تقاليدھا الطبية ومُطَبِّبِھا ؛ وبالنسبة لهؤلاء الآخرين في ميدان المرض أقل مما أمام المحاكم غالباً، وذلك منذ أن نظم قانون 1892 المهنة وضمن للمؤسسة الطبية احتكار الحق في المعالجة⁽³⁾. إنه امتياز الإشفاء الأكثر براعة أقل مما هو القدرة على فرض النفس اجتماعياً، على ما يبدو، لأن حيوية أشكال الطب الشعبي لم تُكذَّب مطلقاً، بالرغم من المعارضة الحازمة للأطباء والخلط المُنظَّم تقريباً خلال عدة عقود من السنين بين المشعوذين والمُطَبِّبين⁽⁴⁾.

إن الطب لم يكن عليه، من جهة أخرى، أن يقاقل فقط بكل شرعية العديد من المشعوذين طوال القرن التاسع عشر (أنظر: ج.ليونار) عندما كان يسعى لتثبيت سلطته لدى السكان. لكنه عرف كيف يستخدمهم ويستخدم تطلعاتهم الزهيدة من أجل الدفاع عن قضيته، وتوسيع اتهامه بحق ليشمل كل المُطَبِّبين التقليديين الذين لا ينتمون، بحكم تكوينهم وشرعيتهم، لنظامه المرجعي. إنَّ المشعوذ هو ذاك الذي لا يكون طبيباً. كما لو أن البراعة في تسكين الألم أو تحقيق الشفاء منه كانت طبيعة أُعطيت فجأة نتيجة امتلاك شهادة تضع الطبيب، مرة واحدة وللأبد، فوق كل شك⁽⁵⁾.

(3) حول تاريخ الطب في القرن التاسع عشر ، ولا سيما التقلبات التي صادفها في بحثه عن الشرعية الاجتماعية ، أنظر : جاك ليونار (J.Léonard) : «فرنسا الطبية في القرن التاسع عشر» (La France médicale au XIX^e siècle) - باريس - منشورات Gallimard - 1978.

(4) أنظر على سبيل المثال الصعوبات التي لاقاها الطب الفقاري ، في : بيار لويس غوشيه (P.L.Gauchet) : «الطب الفقاري ، مساهمة في تاريخ علم مُهْمَش» (La chiropractique, contribution à l'histoire d'une discipline marginalisée) - منشورات Le Mans, Jupilles - 1985.

(5) من الواضح أن معطيات المشكلة أكثر تعقيداً. فإذا كان المشعوذ هو ذاك الذي يُورَّع الوهم من دون أن يشفي ، فإن الطبيب مُعرَّض لنفس المجازفة التي يتعرض لها المُطَبِّب. إنَّ العلاقة العلاجية تُبنى ، إنها لا تُعطى. إن المعالجة والإشفاء لا يتطلبان فقط معرفة ، وإنما أيضاً وبشكل خاص ، مهارة مقرونة بحسن التصرف ، أي فعالية المناهج المُستعملة والنوعيات البشرية والحدس ، الخ. إن العلوم الطبية التقليدية ، ولا سيما تلك التي ما زلنا نعرفها في فرنسا أو في أوروبا يبرهن بهذا المعنى على فعاليتها القائمة على تعريف آخر للاسان. عن

إِنَّ أولئك الذين وَسَمَهُمُ الطب، تاريخياً، بالشعوذة كانوا في البداية باعة جَوَّالين يذهبون من قرية لأخرى ليبيعوا جروعات ذات فعاليات غير متساوية، كانوا يعرفون كيف يُفَعِّخُونَ مزاياها.

إِنَّ المُطَبِّينَ الشعبيين لا ينتمون إلى هذا السجل: إِنَّهم مُنَوِّمون مغناطيسيون، مُجَبَّرُونَ، مضمدو سرّ، لامسو أو مُوجِّهو النار، ورافعو القدر، الخ... وهؤلاء هم معالجون مُدَرَّجون بصلابة في ميدان اجتماعي وثقافي، ومضمدون ظرفيون في الأغلب، يعزو لهم جيرانهم سمعة مواتية على إثر فعالية علاجية لم يكفُّوا عن تجديد البرهان عليها. إِنَّ الهمسة في الأذن، والتحقق الشعبي، وإجماع المعنيين بشكل ما، هي التي تُوَسِّسُ شرعية المُطَبِّب، وليس الطابع العلمي لعمله الذي ليس له تأثير هنا، والذي يقوم على إجماع من نوع آخر.

إِنَّ تهمة الشعوذة التي تتجاوز البائع الجَوَّال وحده لتستهدف أيضاً المُطَبِّب الريفي تُعَبِّرُ في الواقع عن صراع على الصدارة تدَّعي الثقافة العالمية بواسطته الحق بالحكم في المطلق على نظم ثقافية أخرى و، خارج كل فهم انتروبولوجي لفعاليتها، بخنق العادات والمعتقدات التي لا تسمح له مقولاته الذهنية بالتفكير فيها. إِنَّ الصراع بين الأطباء والمُطَبِّين هو أولاً صراع على الشرعية. فهو يُعارض المعرفة المُعَدَّة من قِبَل «الثقافة العالمية»، والمُجَسَّدَة من قبل المؤسسات الجامعية والأكاديمية، بالمعارف الموضوعية من قِبَل المُطَبِّين التقليديين الأقل تقبُّلاً للشكليات، والناشئة من المعلومات الشعبية والتجربة الشخصية للمُمارِس. إننا هنا أمام رؤيتين للعالم، ومقتربين متعارضين للجسد والمرض، ومفهومين للانسان. فالطب، في تنوعه، والتطبيق التقليدي، في تنوعه، يمثلان قطبين للمعرفة والعمل. كما أن أساليب تصديقهما متناقضة. الأمر الذي لا يعني أَنَّ أياً منهما خاطيء. إِنَّ ملاءمة عمل علاجي ما لا يعني أَنَّ الآخر خاطيء، فأساليب تطبيقهما يمكن أن تختلف وتؤدي مع ذلك إلى نفس النهاية الإيجابية. وهذا ما يُظهره اليوم الميدان المتنوع للأساليب العلاجية

= شعوذة الأطباء والسمعة السيئة التي كانت لهم في الأوساط الشعبية ، يجب قراءة مُصَنَّف الأمثال الذي أعدته فرانسواز لو وفيليب ريشار «حكمة الجسد. الصحة والأمراض في الأمثال الفرنسية» (Sagesse du corps. La santé et les maladies dans les proverbes français) - باريس - منشورات Maisonneuve et Larose - 1978 - ص : 159.

في العصر الحديث وفعاليتها المُتقاسمة جيداً.

إن المركزية الطبية لم تكف إذن مطلقاً عن أن تكون موضوعاً للتساؤل من قبل الانشقاكات التي كانت تُغذّيها في داخلها (الطب التجانسي، الطب الفقاري، الخ)، ومن قبل الطب التقليدي. إن التعددية الحالية للعلوم الطبية التي تُمارَس في الميدان الاجتماعي تُعطل بالكاد تعددية العصور السابقة. واليوم، بالطبع، يقوم إزدهار للعلوم الطبية «الجديدة» بالدخول الى سوق العلاجات. لكن المؤسسة الطبية لم تعرف مطلقاً في الوقائع الاحتكار الذي منحه لها القانون. إنّ الذي يتغيّر، بالمقابل، اليوم، إنما هو مرور عدد من الممارسات من السريّة الى نوع العلنية النسبية التي تترجم من خلال نشر بعض المؤلفات التعميمية والمجلات («النافذ الصبر»: L'impatient؛ «الطب العذب»: Médecine douce، الخ)، والزوايا المنتظمة في المجلات ذات الانتشار الواسع، وإحداث الجمعيات، وطبع فهارس إرشادية بأسماء المُطَبِّين، وبيانات إعلانية أو إعلانات صغيرة في الصحف المحلية التي تُعرَف بالمُمارسين⁽⁶⁾، وتنظيم المناظرات بشكل منتظم في الاذاعة أو التلفزة. إنّ هذا الازدحام الحالي في العلوم الطبية، حتى ولو لم تكن كلها مُرسّمة من قبل كلية الطب، أو تُقوَّض أجورها من قبل صندوق الضمان الاجتماعي، يُعيد للمستعمل امكانية اختيار محدود فقط بالاعلام الشخصي الذي تلقّاه. إنّ من الممكن أن نرى فيه نوعاً من الانتقام المتأخر للأشخاص الفاعلين ضد المطالبة بالاحتكار التي دعمها الاطباء، وفي نفس الوقت ضد انتصار الأيديولوجية الطبية التي ترى في كل إنسان مريضاً ينبغي وقايته أو إشفائه:

(6) إنّ أسلوب الاختيار من خلال الاعلانات الصغيرة يُعبّر عن انحراف العلوم الطبية الشعبية في المجتمع الحديث. فهو يُعرض لفقدان الثقة أولئك الذين يلجؤون اليها لأن المُطَبِّب التقليدي يركّز على الهمة في الأذن التي تشكل نوعاً من الضمان له. إننا سنترك جانباً ، في هذا التحليل ، «المُطَبِّين» الذين لا يأخذون إذنًا إلّا من أنفسهم ، ولا يمتلكون ، في الأغلب ، أية صفة علاجية خاصة ، باستثناء تلك التي تعطيها لهم الثقة المحتملة لربائتهم. إنّ هناك ، في المدن بشكل خاص ، مسألة إجتماعية يطرحها حضور العديد من «المُطَبِّين» الذين من الصعب غالباً تقويم الرصين منهم ، لأنهم يعملون خارج الأطر التقليدية ، على نمط المهن الحرة. أما بالنسبة لفعاليتهم العلاجية ، فإن من الأصعب أيضاً تقديرها نظراً لأنها ليست «طبيعية» للمُطَبِّب ، وإنما أولاً طريقة عمل تبنى في داخل علاقة ، وليست بالضرورة قابلة لأن تُنتج ثانية في كل مرة.

«إن الإنسان المتمتع بصحة جيدة هو مريض يجهل أنه كذلك» كما يقول الدكتور كنوك. إنَّ هُمَّ الصحة، وهُمَّ الشكل أصبحا مفتاحي قبة قيم الحداثة.

أزمة المؤسسة الطبية

يريد الطب أن يُحدّد موقعه خارج الاطار الاجتماعي والثقافي، ككلام الحقيقة، «العلمي» الوحيد، وبالتالي الذي لا يُنمّس. إنه يحيل مجموع «العلوم الطبية» الأخرى، سواء كانت غربية أو من مصدر آخر، الى الشك في صلاحيتها. إن كل شيء يترّ كما لو أنَّ علم الطب الغربي هو الدُّراع الذي ينبغي بواسطته أن تُقاس كل الأساليب الأخرى لإدارة المرض. ولكي نقيس أزمة المؤسسة الطبية وفهم القواعد المنطقية الاجتماعية التي تشجع على تفتُّح «العلوم» الطبية «الموازية»، ينبغي التفكير بهذا الأمر الذي لم يُفكر به. واستجواب الطب كمؤسسة اجتماعية، ولا سيما من خلال رؤية الإنسان التي تدافع عنها وتصور الجسد الذي تركز عليه.

لقد تمَّ اليوم تجاوز المؤسسة الطبية من الداخل، نتيجة الطلبات الجديدة للعديد من الأطباء الذين يجدون صعوبة في التعرف على أنفسهم داخل الإطار التقليدي وينحازون غالباً «للعلوم» الطبية «الجديدة» (الطب التجانسي، طب الوخز بالأبر، الطب السمعي، الطب الفقاري، الطب العظمي، الخ) أو يحاولون أن يأخذوا أكثر بالحسبان شخصية مريضهم في السياق العائلي، ويعثرون هنا، بصفتهم أطباء عموميين أو إخصائيين، على ما كان يصنع في الماضي قوة «طب الأسرة» الذي قُيّدت تقاليده. كما تمَّ تجاوزها من الخارج نتيجة انبثاق معالجين جدد (أطباء العظام، الأطباء الفقاريون، الخ...) الذين تمردوا ضد احتكار الحق بالمعالجة من قبل الأطباء وسعوا بدورهم لأن يفرضوا أنفسهم في سوق العلاج ؛ وتمَّ تجاوزها أخيراً نتيجة انبعاث الطب الشعبي (التنويم المغنطيسي، رؤية الحظ، تضميد الأسرار، تحسّس الاشعاعات الكهربائية، الخ) الذي اخذت طوقه غالباً (وخاصة تقنيات الجسد) من خارج السياق الريفي والتقليدي، من قبل أشخاص أتوا من الطبقات الوسطى ويعيشون في المدن. إلاَّ أنَّه تجب الإشارة أخيراً الى عدم وجود تماسك في الطرق التي يُلجأ لها. فالمستعملون يلتمسون غالباً بطريقة متزامنة العون من الطبيب والمُطَبِّب⁽⁷⁾، من

(7) أنظر أمثلة عن هذا اللجوء المزدوج في مؤلّف : فرانسوا لو «الطفل الصغير وجسده في الطب التقليدي» (Le jeune enfant et son corps dans la médecine traditionnelle) - منشورات

التطبيب التجانسي والتطبيب الكلاسيكي، الخ. كما نعرف أيضاً مُطَبِّين (مُتَوَمِّين مغناطيسيين) يرسلون أحياناً زبائن الى طبيب أو مُمارس للفروع الطبية العذبة، وأطباء يُوجِّهون من أنفسهم بعض زبائنهم نحو مُطَبِّين؛ أو أيضاً مُطَبِّين يتدخلون، غالباً بطريقة سرّية، وأحياناً بكل شفافية، في أقسام المستشفيات من أجل التخفيف من آلام المرضى أو أحياناً إشفائهم. وهؤلاء ليسوا فقط من مُوجِّهي أو من مُضَمِّدي السرّ من أجل الإشفاء، من الحروق وبعض الأمراض الجلدية الخ. وإنما أيضاً من المُتَوَمِّين المغناطيسيين الذين يستطيعون التدخل في معالجات أكثر تعقيداً.

ولكي نحيط بشكل أفضل ببواغث أزمة المؤسسة الطبية، من المهم أن نبني، مع القبول بحدود هذا التعميم، نوعاً من النموذج المثالي (بالمعنى الذي يعطيه له علم الاجتماع التفهيمي لدى ماكس وير) الخاص بممارسة الجسد وبالرؤية التي تقوم عليها، وذلك بالتركيز، ليس على نجاحاته، وإنما على ما يمكن أن يبدو كقصور انثروبولوجي، هناك حيث تُرفض اليوم، وهناك أيضاً حيث تستمد «العلوم» الطبية «الموازية» بالعكس قوتها، وتكسب شرعيتها لدى المستعملين.

معرفة حول الانسان، معرفة حول الجسم

يستجيب اكتشاف الجسد في الفكر الغربي، تاريخياً، وبدءاً من فابريكا فيسال، إلى تأكيد ثلاثي: الانسان مقطوع عن ذاته (التمييز بين الانسان والجسد، بين النفس والجسد، بين الروح والجسد، الخ)، مقطوع عن الآخرين (الانتقال من بنية اجتماعية من نمط الجماعة الى بنية من النمط الفردي) ومقطوع عن العالم (معارف الجسد لم تُعَدَّ تعرف من التشابه بين الكون والإنسان: لقد أصبحت منفردة وخاصة فقط بالتعريف الملازم داخلياً للجسد). إلا أن من المحتمل بالفعل أن تكون نظريات الجسد التي تبحث في مضمونها المادي نفسه عن المبدأ الذي تستند اليه في تحليلاتها، من دون اللجوء الى معاني لها وجود مستقل في مكان آخر، مُرتبطة دائماً بمجموعات فقدت انغراسها الجماعي لصالح تقسيم فردي الطابع. إن الجسد، بالفعل، يعمل «كمبدأ تَفَرَّد» (حسب تعبير دوركهائم)، إنه نوع من الشاخصية الحدودية التي تحيط بحقيقة الشخص وتميزه عن الآخرين. وبدءاً من المشرحين الأوائل، وخاصة فيسال، لم يعد تصور الجسد متضامناً مع رؤية جماعية للشخص، ولم يُعَدَّ يتجاوز الجسد من أجل البحث، على سبيل المثال، في كَوْنِ إنساني عن مبدأ رؤيته للعالم. لقد مَيَّز المَشْرُحون الانسان عن جسده، وفَسَّخوا

الجثث وانكبوا على « المثال الجميل للآلة البشرية » (حسب تعبير مارغريت يورسنار) التي لها هوية مختلفة. إنَّ القاعدة الابيستولوجية للطب تركز على دراسة دقيقة للجسد، ولكن لجسد مقطوع عن الانسان، موضوع في حالة انعدام الجاذبية، مُدرك بصفته لاقط للمرض. ومع فيسال، بدأت بالظهور ثنائية منهجية ما زالت تُغذي حتى في أيامنا الحالية ممارسات وبحوث المؤسسة الطبية. إنَّ المعرفة التشريحية والفيزيولوجية التي يركز عليها الطب تكرر استقلالية الجسد، ولا مبالاة الشخص الذي يجسده. إنها تصنع من الإنسان المالك السعيد، الى هذا الحد أو ذاك، لجسد يتبع بيولوجياته الخاصة به.

انترولوجيا مُتَبَقِّية

لكي يفهم الطبيب المرض بشكل أفضل، يُجَرِّده من أي طابع شخصي. فالمرض لا يُدرك بصفته إرث المغامرة الفردية لإنسان وُجِدَ في مكان وزمان معين، وإنما بصفته العجز المجهول لوظيفة أو لعضو. إنَّ الإنسان يصاب بطريقة غير مباشرة بتلف لا يطاق غير جهازه العضوي. ويُطرح المرض كأمر دخيل، ناشئ عن سلسلة من السببيّات الميكانيكية. لقد أهملَ الطب، في أثناء إعدادهِ التدريجي لمعرفته ولبراغته، الشخص، وتاريخه، وبيئته الاجتماعية، وعلاقته مع الرغبة والقلق والموت، واتجاه المرض، ولم ينظر إلاّ إلى «الآلية الجسدية». لقد راهن الطب على الجسد، واستند الى انترولوجيا مُتَبَقِّية. إنه ليس معرفة عن الإنسان، وإنما معرفة تشريحية وفيزيولوجية مدفوعة اليوم، لدرجتها القصوى من الدقة. إنَّ التخصص الدقيق جداً في الطب الحالي في مجال بعض الوظائف أو بعض الأعضاء، واستعمال تقنيات تصوير جديدة من أجل إعداد التشخيص، واللجوء العلاجي الى وسائل أكثر تقدماً دائماً في المجال التقني، ولا سيما اللجوء الى نظم خبرة معلوماتية من أجل المساعدة في التشخيص، هي كلها من الأسس المنطقية الطبية التي وصلت الى نقطة النهاية. لقد كان الجسد في السابق قد مُيِّزَ عن الإنسان، لكنه يرى اليوم نفسه مُقَطَّعاً للحد الأقصى إن الإنسان أدرك في المُجَرَّد بصفته الشبح الذي يسود على أرخبيل من الأعضاء، المعزولة عن بعضها البعض منهجياً.

إن الطب يركز أساساً على فيزياء للإنسان، تُشَبِّه الحركات الفيزيولوجية وانغراسها التشريحي والوظيفي بآلة معقدة جداً ؛ ولهذا يكفي أن نعرف سيرورة

تصنيف الأمراض وردود فعل الجسد عليها لكي نخدع المرض، المنظور له كشيء غريب⁽⁸⁾. هذا الإدراك الميكانيكي كان قد أوضح بطريقة محسوسة من خلال الأسلوب الخاص بالطبيب ومن خلال اللجوء، السائد منذ أمد طويل، الى طبيب الأسرة (وهو اليوم طبيب عام) الذي يعرف جيداً الأسرة وتاريخ مريضه، ويدخل، بشكل حدسي، الكثير من المعطيات الأخرى في تقدير مرضه، وسبل إشفائه منه. في هذه العلاقة ذات الطابع الشخصي، يكون الطبيب شيئاً آخر غير مجرد تقني للجسد البشري. إنه يستطيع، إذا كان لديه الكفاءة والحساسية، أن يبلغ المريض فيما وراء شاشة أعراض المرض.

لقد بنى الطب، في بحثه عن فعاليته الخاصة، تصوراً للجسد يضع الشخص في نوع من الوضعية الثنائية تجاه نفسه. فالمرضى ليس حينئذٍ إلا ظاهرة عارضة لحدث فيزيولوجي (المرض) يجري في جسده. إن لغة المرضى («إن القلب هو الذي بدأ يتآكل» ؛ «إنه الكوليستيرول»، الخ)، أو أحياناً لغة الروتين في بعض الأقسام في المستشفى («رئة ال 12»، «نُدْبَة ال 34»...) تسجل جيداً هذه الثنائية التي تميز الإنسان عن جسده، والتي أقام الطب عليها طرقه وأبحاثه الخاصة بالفعالية، وبنفس الوقت حدوده. لقد شجع، بشكل مواز، على ظهور رؤية أداتية للجسد يمكن تبنيها في الأمثلة المذكورة أعلاه («إصلاح الجسد»، «وضع الأفكار ثانية في مكانها»، الخ). إن الإنسان، في هويته الخاصة، يشغل مكاناً مجهولاً في هذا الصرح للمعرفة والعمل.

هذه الرؤية للمرض لا يمكن إلا أن تفقد المريض لأن يضع نفسه، بشكل سلسي، بين أيدي الطبيب، و ينتظر أن تُعطي المعالجة التي تلقاها أثرها. إن المرض شيء آخر يختلف عنه، وجهده من أجل أن يشفى، وتعاونيه الإيجابي لا يُنظر لهما كأمرين أساسيين. إن المريض لم يُشجّع على أن يسأل نفسه عن المعنى الحميم

= Flammarion - 1978.

(8) من أجل مُقَرب مقارن للطب الغربي والطب الشرقي ، إقرأ المقالة الجميلة لمارغريت م. لوك (M.M.Lock) : «الإنسان - الآلة والانسان - العالم الصغير. المقرب الغربي والمقرب الياباني للعلاجات الطبية» (L'homme machine et l'homme-microcosme, l'approche occidentale et l'approche japonaise des soins médicaux» .Annales ESC

لمرضه، ولا على أن يتكفل هو بنفسه. لقد طُلب إليه بدقة أن يكون مريضاً، وأن يتناول أدويته بشكل جيد، وأن ينتظر بعد ذلك النتائج.

تلك هي العقبة أمام طبٍ هو ليس طب الشخص: إنه اللجوء إلى معرفة للجسد لا تتضمن الإنسان الحي. إن أسباب فعاليته هي أيضاً أسباب إفلاسه. إن اختيار نظرة ما، وأخلاق ما، هو الذي يُنير إشاعه عدداً ما من الوقائع، ويترك الأخرى في الظل. إن الطب يعتبر أن الفعاليات التي يثيرها أعلى من تلك التي تنقصه. لكنه يتيح المجال هكذا لجدل عام. إن الطب، غالباً، يعالج المرض وليس المريض، أي الإنسان المُسَجَّل في مسار اجتماعي وفردى. والمشاكل الأخلاقية التي تُثيرها اليوم البحوث في مجال التكنولوجيات الحيوية، والاستبسال العلاجي أو قتل من يشكو مرضاً عضواً هي الأمثلة الأكثر بروزاً على هذا الرهان الطبي القائم على الجسد البشري أكثر مما هو على الشخص.

ضمن هذه الشروط، وبالنسبة للعديد من الأطباء، لا يُؤخذ المظهر العلائقي كأمر أساسي (ويا للمفارقة، حتى في مجال علم الأمراض العقلية والنفسية)، فالإستشارة أو الزيارة عند وسادة المريض تقتصر على جمع المعلومات الضرورية للتشخيص فقط⁽⁹⁾. ويحدث هذا في الطب الليبرالي، غالباً بسبب الاهتمام بالمردودية العلاجية القليلة جداً بالنسبة للمريض. أما في طب المستشفيات فيُعَوَّض أمر المظهر العلائقي إلى الممرضات أو إلى مُسَاعِدَات الأطباء. إنَّ الطبيب يُقَوِّم بالأحرى المظهر التقني لمهنته. وهذا مثال موحى: التعبئة الحالية لصالح مرافقة المحتضرين (وأحياناً فقط لمرافقة المرضى) تشهد على مدى الإهمال تجاه أشخاص في نهاية حياتهم. والتَّزَكُّ الذي يكونون غالباً ضحية له في المستشفيات باسم «الزيارة» الخاطفة الشهيرة للطبيب (يُقال بشكل أكثر بلاغة «الزيارة الخاطفة للطب»). إنها ليست وحدة أو ترك تقني، وإنما، بالتأكيد، إنساني. إن المحتضر يجد الفراغ يحيط به. إن رينيه شاير الذي قاتل كثيراً من أجل إضفاء طابع إنساني على المستشفى يتحدث

(9) في المَحَر المفتوح بفضل أعمال م. بالان (M. Balint)، الذي عمل بدقة على توضيح القصور في العلاقة العلاجية، وجد العديد من الأطباء ثانية اليوم أهمية الحوار مع المريض، وضرورة الاتصال به. لقد أدركوا أكثر فأكثر أن المريض هو أولاً إنسان يتألم في حياته قبل أن يتألم في جسده. وهذا الأمر، كانت «العلوم» الطبية «الموازية» قد فهمته جيداً.

بطريقة بليغة عن «الجانب النضالي لعمله» عندما يُذكر، كطبيب مسيحي (أو ببساطة كطبيب مسؤول) بمرافقة المرضى الذين هم في نهاية حياتهم في قسم السرطان الذي يُشرف عليه بمستشفى غرونوبل.

الفعالية الرمزية

إن القلق الحالي للطب، وأكثر من ذلك قلق طب الأمراض العقلية والنفسية، وتدفع المرضى نحو المُطَبِّين والممارسين «للعلوم» الطبية المُسَمَّاة «بالموازية» تشهد جيداً على اتساع الهوة التي انحفرت بين المريض والطبيب. إن الطب يدفع هنا ثمن جهله للمعطيات الانتروبولوجية البدائية. إنه ينسى أنَّ الانسان كائن له علاقاته ورموزه، وأن المريض ليس مجرد جسد ينبغي إصلاحه⁽¹⁰⁾.

إنَّ هناك تعددية أجساد كما أن هناك تعددية ثقافات. ومع ذلك فإنَّ البنى الانتروبولوجية المشتركة تدع نفسها تتنبأ من خلال الوجه المتغير للأشياء. إنَّ الجسد بناء اجتماعي وثقافي لم تُغَطَّ مطلقاً «حقيقته النهائية». إنه يشبك تجلياته ومُكوّناته بالرمز الاجتماعي، ولا يمكن أن يُفْهَم بالنسبة لتصور مَدمُوج أبداً بالواقع، لكن الواقع بدوره سيكون غير موجود. إن الرمزية الاجتماعية هي التأمل الذي بواسطته يكتسي العالم طابعاً إنسانياً، ويتغذى بالحواس والقيم، ويجعل نفسه قابلاً للولوج الى العمل الجماعي. إنَّ من طبيعة الجسد أن يكون استعارة، أو وهماً فاعلاً. لقد فتح فرويد بدراساته عن الهستيريا (Etudes sur l'hystérie) (1895)، المكتوبة بالتعاون مع ج.براير (J.Breuer) ثغرة أولى في هذا النموذج. فالجسد المُشْتَكِّف بواسطة التحليل النفسي يكشف عن «تشريح خيالي»، غير مرئي للنظرة، يتجاوز التصورات

(10) إنَّ الطب ، بالطبع ، ليس واحداً. ومن الصعب جداً الكتابة في موضوعه بسبب تنوع الممارسات التي يُغْذِيها. إن حصة الطبيب فيه أساسية. ونحن نعلم جيداً أنَّ نوعية الحضور بالقرب من المرضى ليست هي نفسها في المستشفى من قسم لآخر. فهناك أقسام مشهورة بنوعية الاستقبال ، وجو الثقة ، والاهتمام بتنظيم الصلاحيات ، في حين أن هناك أقساماً أخرى تعمل بطريقة استبدادية ، وبشكل مستقل عن الصلاحيات ، وعلى حساب العلاجات المُعطاة للمريض. إن أقسام المستشفيات تخترقها نفس التوترات الخاصة بكل المجموعات الاجتماعية. وموقف رئيس القسم يكون في أغلب الأوقات مصدر المناخ المؤسسي الذي يمكن أن يكون مؤذياً أو مواتياً. فالفعالية العلاجية لا تستطيع أن لا تتأثر بهذا الموقف.

الطبية، ويُظهر ثغرات على الصعيد الانتروبولوجي. إن الجسد شفاف لصور اللاشعور. وأوردة إيروس تسقي أعضاء أو وظائف الجهاز العضوي. إن فرويد يعارض التصور الطبي للجسد، اللاشخصي، الموجود خارج الزمن، والميكانيكي، بمَنفذ له سيرة ذاتية، حيّ وفريد. إنه يدع «قصيدة الجسد» تتكلم، كما يقول بيار فيديدا الذي يضيف إنَّ «أجزاء الجسد، أعضائه، وحتى أوضاعه ومواقفه تنخرط، بشكل بدائي، في المشهد الخيالي للهلوسات الأكثر بدائية. ألا يكون الجسد نتيجة لإعداد ثانوي، كما حدّد عالم النفس تركيبه في الصورة (المفهومة كصورة للجسد)؟. في مثل هذه الحالة، هل يمكن للتحليل النفسي أن يهتم به من دون معالجته كمضمون ظاهر لحلم»⁽¹¹⁾.

حلم فرد فريد من حيث خط سيره الشخصي، لكنه أيضاً وأولاً حلم جماعة بشرية في لحظة ما من تاريخها. أما الثغرة الثانية المفتوحة في النموذج الطبي فقد أوحّت بها الانتروبولوجيا. فمثل كل ما يكون حساً، يُعدّ الجسد وهماً حقيقياً جداً، يقطف رصيد مجتمع مُعيّن، وتصوراً تتشاطره المجموعة بشكل جماعي أو متمايز، لكن توسعه خارج المجموعة سي طرح عدداً من الصعوبات. ففيه لا يمكن أن يكون هناك معرفة جذرية ونهائية بالجسد عندما تخضع تعاريفه وتجلياته الى نماذج متناقضة بين مجال اجتماعي - ثقافي وآخر. وهذه التصورات والمعتقدات ليست من قبيل فن إظهار الأشباح في قاعة مظلمة، كما أنها ليست ملحقات لا أثر لها على طبيعة الأشياء، لأنه، إنطلاقاً منها، يؤثر البشر على العالم، والعالم على الانسان.

لقد درس م.موسّ، في الماضي، قوة هذه التصورات إنطلاقاً «من فكرة موت أوحّت بها الجماعة»⁽¹²⁾ ضد فرد مبتور لسبب ما (مخالفة لمُحرّم، سحر، الخ) من النسيج الديني الذي كان يدعمه في علاقته بالعالم. فعلى أثر الإهمال أو الخطيئة المرتكبة، يعيش الشخص وكأنه مُنفكّ من كل حماية اجتماعية ودينية. لهذا يستبطن

(11) بيار فيديدا (Pierre Fédida): «جسد الفراغ، مكان الجلسة» (Corps du vide, espace de séance) - باريس - منشورات Delarge - 1977 - ص : 28.

(12) مارسيل موسّ (Marcel Mauss) : «الأثر الجسدي لدى الفرد لفكرة موت أوحّت بها الجماعة» (استراليا ، زيلندة الجديدة) Effet physique chez l'individu de l'idée de mort (sgérée par la collectivité (Australie, Nouvelle-Zélande) في «علم الاجتماع والانتروبولوجيا» (Sociologie et anthropologie) - باريس - منشورات P.U.F - 1950.

فكرة أنَّ الموت يحوم حوله، ويكشف بالفعل هذا الشعور بعد ذلك بعدة أيام. ذاك هو أثر الكلام الجماعي الذي يُبرز بشكل رائع مَسَامِيَّة الجسد بالنسبة لعمل الرمز. إنَّ مُكوِّنات الشخص ليست غريبة عن الكلام الجماعي الذي يبنى بموته أو يحثّه على الحياة. إنَّ الفعالية الرمزية التي حلَّها س. ليفي شتراوس لا تُزَوِّد فقط بهذه العلاوة في الطاقة التي يتغذى منها الشفاء، فهي تفتح، في بعض الظروف، الطريق للموت أو للشفاء. إنَّ الشعوذة تعمل بالطبع وفق منطق اجتماعي من هذا النوع. فإذا كان الكلام أو الطقس يستطيعان أن يُفكّا عقدة عارض من أعراض المرض أو يُسبِّبا الموت، فذلك لأنهما يجدا على الفور صدى في الجسد ورنيناً في اللحم. إنَّ الكلام والطقس أو الجسد يغرفون هنا من نفس المصدر. فمادتهم الأولية مشتركة: إنها النسيج الرمزي. إنَّ نقاط الاتهام هي التي تختلف فقط. فإذا كان الرمز (الطقس، الصلاة، الكلمة، الحركة....) في حال توفر بعض الشروط، يؤثر بفعالية، في حين أنه يبدو، للوهلة الأولى، من طبيعة مختلفة عن المادة التي يُطبَّق عليها (الجسد، المرض، الخ....) فذلك لأنَّه يأتي للامتزاج، كما يمتزج الماء في الماء، في عمق جسدٍ وحياةٍ هما بحد ذاتهما نسيجين رمزيين. إنه ليس هناك من تناقض بين حَدِّي التدخل الذي يتوسط به القائم بالعملية (عابد الطبيعة والقوى الخفية، رافع الأقدار، الطبيب، المُحلِّل النفسي....). إنَّ هذا الأخير يَبْدُو تَمَزَقاً في نسيج الحسّ (عدم الإحساس بالألم، بالمرض، بالمصيبة)، إنه يقاتل ركود الرمز، من خلال أشكال رمزية أخرى. إنَّ أعماله تساهم في إضفاء طابع إنساني واجتماعي على الاضطراب.

الفعالية الطبية

يطرح الطب الباحث عن أفضل إسقاط الفصل المطلق بين الشخص وموضوع معرفته، ويقطع نفسه عن المريض ومريضه لكي يُوَسِّس هذا الأخير في شكل معرفة. إنه مسعى مختلف بالنسبة «للعلم» الطبية المُسَمَّاة «بالعذبة» التي لا تُهمل من حيث المبدأ ما يجري بين المريض والطبيب، وتسعى جاهدة لاعادة ربط المرض بالشخص. مسعى يُدفع أيضاً الى ما هو أبعد في الطب الشعبي، وخاصة لدى المُتَوَمِّين المغناطيسيين، حيث لا تكون معرفة المرض من صُنْع تَعَلُّم مفصول، وإنما أولاً نتيجة تجربة يعيشها المرض، اختبار تمَّ تجاوزه، يمتدُّ فيما بعد في شكل تَعَلُّم من المُطَبِّب الذي جعل من نفسه الشخص الذي يُبَشِّر المريض «بالقوة» التي كان يمتلكها في ذاته من دون أن يعرف ذلك. إنَّ هذا هو ما تظهره، في أغلب الأحيان، مجموعة القصص

الحياتية للمُطَبِّين. إن الطب الشعبي يقوم على معرفة (تولد من الآخرين) أكثر مما هي معرفة (جامعية)، ويرتكز على مسعى وجودي أكثر مما هو علمي. إن العلم ييسم تكرار المعرفة المُجَرَّبَة، ولكن المفصلة عن الموضوع الذي تستهدفه. فالطبيب يُعتمد للقيام بالمعالجة ليس لأنه كان مريضاً، وإنما لأنه يمتلك معرفة مُعَمَّقة، ومُصدَّقة بشهادة. أما المُنوَّم المغناطيسي⁽¹³⁾، فلأنه كان هو نفسه مريضاً، وتجاوز هذا الاختبار، فإنَّه يدخل في تعلُّم لدى مُطَبِّب آخر عَرَفَ مؤهلاته، وسيكون مدعواً في يوم ما لأنَّ يُعالج. وإذا افترضنا أنَّ الفعالية الرمزية هي سرورية انتروبولوجية تقع بين المُطَبِّب والمريض، فإن المفهوم الطبي الذي يُميَّز، بشكل مُطلق، بين الحَدِّين ينطلق هنا ومعه إعاقة تتمثل في أن معرفته هي من نوع آخر لا يستطيع دائماً أن يسدَّ الفراغ. إن الطب ينقطع حيثُ عن مورد، مورد الرمز، القادر مع ذلك على جعل آثاره مُحتملة. فليس لأن البعد الرمزي غائب من العلاقة بين الطبيب والمريض، يكون الطب، دائماً تقريباً، موجوداً هنا، وبالأحرى إذا حاز الطبيب على ثقة مريضه. وإنما لأنَّ وضوح هذه الفعالية يَقِلُّ نتيجة الوضعية الاجتماعية والثقافية للطبيب، والطابع التقني فقط للعلاجات المُعطاة في أغلب الأحيان. إننا لا نعثر، في العلاقة بين الطبيب والمريض (وبالأولى في ميدان طب الأمراض العقلية والنفسية، وهو الميدان الأكثر دلالة) إلاَّ بطريقة مُتبقيَّة، العناصر التي تُنشِط فعاليَّة الرمز: الانتماء الى نسيج حواس واحد، بُعْد الجماعة والإجماع الاجتماعي الذي يحيط به. إلاَّ أنَّ الطب الحديث لم يُحز مطلقاً على إجماع بلا صَدْع، فقد وُلِدَ في نفس الوقت الذي وُلِدَت فيه الفردية الغربية. وهو يتضمن، حتى في مسعاه نفسه، عزل المريض وتقسيم المهام. وعلاوة على ذلك، فإن المسافة الاجتماعية والثقافية هي غالباً كبيرة بين الطبيب البارز، الذي يملك معرفة خفية نادراً ما يسعى الى مشاطرة الغير بها، والمريض الذي لا يملك معرفة عن نفسه، ويجهل المعاني التي تجتازه، ويكون مُهيَّأً لأن لا يفهمها.

(13) هذا المسعى هو بالأحرى الذي يُقدِّم الشمولية الأكبر : تجربة المرض كطريق دخول الى طرق علاج الآخرين. أنظر، على سبيل المثال، ميرسيا الياد (Mircea Eliade) «الشمائية والتجربة البدائية للانجذاب» (Le chamanisme et l'expérience archaïque de l'extase) - باريس - منشورات Payot - 1968، ومارسيل بوتيه (Marcelle Bouteiller) «الطب الشعبي من الأمس الى اليوم» (Médecine populaire d'hier à aujourd'hui) - منشورات Maisonneuve et Larose - 1966.

أثر «العلاج البديل»

إنَّ شروط فعالية الطب تكون غالباً أيضاً أسباباً لفشله أو لصعوباته. فِرْهَانُهُ عَلَى الفعالية التقنية تمنعه من أن يقرن بهذه الفعالية فعاليةً من نوع آخر. ومع ذلك، فإنَّ العديد من البحوث على العلاج البديل (Placebo) التي أجريت في الميدان الطبي أظهرت أهمية الطريقة التي أُعطيت بموجبها الأدوية أو العلاجات للمريض. لقد كان من الممكن قياس قوة المُخيال، أي المعاني التي يقرنها المريض بالوسائل العلاجية المستعملة معه، عبر أساليب اختبارية مشتركة. إن هناك دراسة أخذت ينبغي القيام بها حول استعمال تعبير «العلاج البديل» في الأدب الطبي، باعتباره مُخَلِّلاً قدرة الطبيب على أخذ المعطيات الانتروبولوجية للعلاقة العلاجية بالحسبان، إن مفهوم «أثر العلاج البديل» عبارة عن إعادة صياغة طبية للاتجاه الموجَّه الرمزي المرتبط بسير العلاج. إنَّه يتضمن أن طريقة الإعطاء مهمة بمقدار طبيعة المُنتَج أو العمل. وهي تُظهر أن المُعالِج، مهما كان، يُعالِج بما يكونه بمقدار ما يفعله. إن معرفة كيف يكون تبدو أحياناً أكثر فائدة من معرفة ماذا يفعل، وذلك إلى حدِّ عكس المعطيات الصيدلانية. هنا أيضاً يُظهر الجسد طبيعته الرمزية والطابع النسبي للنموذج الفيزيولوجي. إن «أثر العلاج البديل» يُعَلِّم بالنقط أيضاً إسقاطات المريض، وعمل المُخيال الذي يضيف تنمة حاسمة للعمل الطبي. وهو يشير إلى حدود العلاقة العلاجية المنظَّور لها بطريقة «تقنية» جداً.

لكنَّ الخطاب الطبي ينسب غالباً هذه الإضافة بالفعالية إلى سذاجة المريض، وجهله. وهكذا يُفَرِّغ التحدي المُوجَّه للدراك من خلال موقف ساخر تقريباً تجاه المريض. إنها ترجمة الانتروبولوجيا المُتَبَقِّية التي ترسم بشكل مجوف في المعرفة الطبية. إننا، كخلاصة للبحوث الاختبارية حول «العلاج البديل»، سنتكلم بشكل محتمل، وليس بدون تردد، عن «الحاجات» النفسية للمريض، وهي طريقة أخرى للتقليل من تعقُّد الأشياء وللإبقاء على ثنائية الإنسان - الجسد سليمة. إن العلاج، والعناية أو العملية الجراحية، على سبيل المثال، هي أمور يُفترض أن تؤثر، بموضوعية طابعها الخاص وبطريقة مباشرة، على الجسد. إن التتمة التي يمكن تحديد معالمها في أثر العلاج البديل لا تعني الطب.

وحتى لو كان شفاء بعض المرضى مُفترضاً من قِبَل الطبيب، لأنه «كان قد مرَّ في رأسهم» أو «لأنهم يعتقدون به»، وحتى لو بدا العلاج وكأنه علاج بديل، فإن هذه

الوقائع يجب أن تثير تساؤلاً حول معنى فعاليتها، بدل أن تثير، بالعكس، التسامح أو الاحتقار. إنَّ هناك في شفاء هؤلاء المرضى شيئاً ما يفلت بعيداً من هذه الكليشيهات ويتجاوز الحالة الشخصية فقط. إنَّ الفعالية الرمزية مفهوم غريب عن المعرفة الطبية.

إنَّ الموقف المتماسك هنا هو موقف الطبيب الذي يزن، بفهم، هذه المعطيات في إدارة العلاجات، وفي نوعية حضوره أمام المريض. هكذا نرى هذا الطبيب المليء بالصبر والحصافة أمام مريض افريقي يرفض أن يأخذ، في آن واحد، عدة علاجات. فهو يسأل الرجل عما إذا كان والده يأخذ معه سهماً واحداً عندما كان يذهب الى الأدغال ليصطاد الحيوانات المتوحشة الكبيرة. وبناء على الجواب السلبي للمريض، يضيف الطبيب أنه لا يستطيع هو أيضاً أن «يقتل» المرض من دون اللجوء الى عدة علاجات في وقت واحد، مثلما أن والده لا يستطيع أن يتوصل لصرع الحيوان بدون عدة أسهم. إنَّ الطبيب، بعثوره ثانية على «الاتصال» والرمز، والواحد منهما لا يسير بدون الآخر، يثير انتماء المريض للمسيرة العلاجية. حينئذ يمكن لهذا الأخير أن يعزو الى العلاج معنى كاملاً. إنَّ لعبة التقدير والثقة يمكن أن تتأسس وتغذي لعلاقة العلاجية (إذا كان الطبيب «حاضراً» في كلامه، طبعاً. إنَّ الأمر لا يتعلق هنا بصيغة أو بوصفة، وإنما بتأسيس تبادل). لقد أضاف الطبيب الى الفعالية الصيدلانية، ومن خلال معرفة المريض، فعالية رمزية. ويمكن التفكير بأنَّ الفعالية الأولى لا يمكن أن نعطي كامل مردودها إلا إذا اقترنت بالثانية. إنَّ العمل الرمزي يضيف طابعاً احتمالياً على الآثار الفيزيولوجية التي حثَّ عليها العمل الطبي. لقد أظهرت دراسات عديدة، من جهة أخرى، أن للنباتات أو المخدرات تأثيراً صيدلانياً مشتركاً تقريباً على مجموع البشر، لكن آثارها تُعَدَّل وفقاً للسياقات الثقافية⁽¹⁴⁾ التي استُعْمِلت فيها.

إنَّ الموضوعية الصارمة غير موجودة في عمل الأسس الفعّالة، فالثقافة (أو الاعتقاد الشخصي للفرد كما في أثر العلاج البديل، أو اعتقاد المجموعة التي تحيط

(14) أنظر على سبيل المثال بيتر فورست (Peter Furst) «جسد الآلهة» (La chair des dieux) - باريس - منشورات Seuil - 1974 - (مترجم عن الأمريكية). وهوارد بيكر (Howard Becker): «مدخنو الماريغوانا» (Les fumeurs de marijuana) - في : كلودين هرزليش (Claudine Herzlich) : «طب ، مرض ومجتمع» (Médecine, maladie et société) - لاهاي - منشورات Mouton - 1974.

بالمريض بقوة، باعتباره يقوم مقام الثقافة) أو الميدان الاجتماعي يُضاعف الآثار الكيميائية ويلغي أو يُعَدِّل اتجاهها.

«علوم» طبية أخرى، و«انثروبولوجيات أخرى

وبالعكس، فإنَّ السخرية من العلاج البديل، والخرافة أو الجهل هي هنا عبارة عن أحكام قيم تتجاهل وتفضح الاختلافات في رؤية العالم، لكنها، بشكل خاص، تقطع الصلة مع المريض الذي لا يشعر بأنه محترم أو مُعترف به. إنَّ الطبيب حينئذٍ يقطع سير الرمز ويحرم نفسه من مورد أساسي. فحتى لو أن الطب لم يكفَّ عن التعثر بعدم قابلية الرمز لأنَّ يُقهر، فإنه لم يتصدى مطلقاً للتحدي بصفته علماً. وهنا، بحسب رأينا، يكمن السبب الرئيسي لفشله في فرض نفسه بطريقة اجماعية. منذ أن ترك له قانون عام 1892 الميدان حراً. فهو لم ينجح مطلقاً، بعد خضوعه لاختبار الوقائع، في إقناع مختلف العناصر الاجتماعية. بالأساس السليم لهذا الاحتكار. إن افتراض الجهل المُطبَّق على المريض (أو على «العلوم» الطبية الأخرى التي لا تراقبها)، الذي يضمن للمؤسسة الطبية يقين ورفعة معرفتها، يغذي أيضاً تحفظات وهروب الزبائن الذين يبحثون في مكان آخر عن فهم أفضل. وهنا يكمن، في رأينا، العيب الأكثر انغراساً والأكثر حسماً للمؤسسة الطبية، العيب الذي ميَّز موقفها في نهاية القرن التاسع عشر، وخلال هذا القرن، تجاه أشكال الطب الشعبي، واليوم تجاه «العلوم» الطبية «العذبة». إننا نجد هذا العيب أيضاً في البلدان المسمَّاة «بالعالم الثالث» حيث وَلَدَ عدم الفهم أمام التقاليد والسكان المحليين، غالباً، أخطاءً، وجعل الاتصال صعباً أحياناً مع المرضى⁽¹⁵⁾. فبدون البحث عن فهم متبادل مع المريض،

(15) لا نشير هنا إلى طب معسكرات اللاجئين أو طب الطوارئ الذي يعالج حالة مجموعات من الناس الذين انتزعوا غالباً من بيئتهم الاجتماعية والثقافية، وإثماً إلى المساعدة الطبية المُطبَّقة على بلاد تمتلك سابقاً أشكالاً من الطب المحلي والتقاليد. إن هذا الاتصال مع السكان وفعالية المساعدة لا يمكن أن يُقنِيا إلّا من خلال الحوار بين المجموعات، وليس من خلال فرض مُبهم لطب يُطرح بصفته الطب الوحيد الصحيح. أنظر، على سبيل المثال، الدراسة التي أجريت في نوفو ايغواسو، في ضواحي ريو دو جانيرو، على يد ماريا - اندريا لويولا (Maria-Andréa Loyola) «العلاجات الشعبية في ضاحية ريو» (Les thérapeutiques populaires dans la banlieue de Rio) - في «الروح والجسد» (L'esprit et le corps) - باريس - منشورات MSH - 1983.

وبدون إقامة نوع من التواطؤ، يُعرض الطبيب معالجته الموصوفة لعدم الفعالية. إنَّ الطب يدخل في نطاق الفن بقدر ما يدخل في نطاق العلم، وميدان معرفته وعمله، إذا لم يتحرك بحساسية. وإذا عَمِلَ كفهرس لوصفات لا مبالية، فإنه يقطع نفسه عن المعطيات الانتروبولوجية ويصبح «مليئاً جداً بالمعرفة» التي تُشكّل شاشة للنُبض الحميم للأوضاع المختلفة. إنَّ الخطَّ الموجَّه الرمزي لا يعمل إلاّ بناءً على أسلوب متبقي (استثمار على شخص الطبيب أو على التقنية). والطلب، المعروف جداً، على الأدوية من قِبَل المريض يرتبط غالباً بقصور في العلاقات. إن الدواء يأخذ مكان الاستماع أو الاتصال الذي لا يُعطي الوقت الكافي الذي يرضي المريض ويعترف به في ألمه. هنا يُستعاد البُعد الرمزي، من خلال هذا اللجوء، بطريق التهريب.

إنَّ المعارف التقليدية عن الإنسان المريض، ولا سيما تلك التي تتعلق بالإشفاء لم تختفِ بعد من الريف الفرنسي بالرغم من المعارضة الطبية. وقد تابعت هذه المعارف، حتى أيامنا هذه، سيرها الخفي جاعلة من العرف والهمسة في الأذن شرعيتها الوحيدة. وبعد أن كانت محصورة، منذ عدة قرون، في داخل الفئات الريفية، فإنَّ تأثيرها لا يكف اليوم عن النمو، وعن كسب فئات إجتماعية أخرى، ولا سيما على إثر أزمة الثقة التي أصابت الطب منذ عشر سنين. إن هذه الدعوة الى ممارسات ما زالت تُعتبر، حتى وقت قريب، «لا عقلانية»، و«سحرية» أو خليقة بالمشعوذين فقط، وانقلاب المنظور تجاهها يشهدان جيداً على هذه المقاومة الاجتماعية الصماء التي سمّاها ج. بالاندييه «اللجوء الى الحداثة المضادة». إنَّ ساكن المدينة الذي يأخذ ثنائية طريق الريف، وربما من جذوره، يبحث عن شفاء ممكن من الاضطرابات التي فشل الطب غالباً في شفائه منها، لكنه يجد هناك، علاوة على ذلك، صورة جديدة لجسده، أكثر جدارة بالاهتمام من تلك التي أعطاه له علم التشريح أو الفيزيولوجيا. إنه سيكسب ثنائية، وبغض النظر عن الشفاء المُحتمل، بُعداً رمزياً يُزيّن جسده، وبالتالي وجوده الخاص كإنسان، بقيمة ومُخيال كانا ينقصانه. إنَّه سيُغني حياته باضافة روحية، ليست شيئاً آخر غير إضافة رمزية. وهذا كما تُعطي «العلوم» الطبية «العذبة» للمريض هذه العلاوة الحسية الضرورية للأمن الانطولوجي. إن المصادر الشرقية لطب الوخز بالابر، والفعالية البسيطة والمُشوَّشة للطب التجانسي، والاستنجاد «بالطاقة»، والعودة الى «العذوبة»، الى «الاختلاف»، والى «التناوبات»... هي دلالات تعبىء موارد المُخيال.

إن الحلم يتشابك مع الإدراك ويعطي للمريض احتياطاً من الإحساس يمكن أن يغرف منه لكي يُقَيَّ المرض بعيداً عنه ويُوقَف القلق. إن اللجوء الممكن دائماً إلى المُخيال يقيه من الشعور بأنه غير مفهوم من قبل الطبيب ومُجَرَّد أمام تعقُّد اضطراباته. إنه الإبعاد الذي لا يسمح الخطاب الطبي به. في هذا الصدد، يمكن معارضة المُخيال الكوني و«التفاؤلي» «للعلوم» الطبية «الموازية» بالقيود المخيالية للمؤسسة الطبية وبالمفهوم الأكثر «تشاؤمية» لأعبائها، والتي يَزُدُّ عليها، من جهة أخرى، بأسلوب مباشر، نعت «العذوبة» الذي يُطلق على أغلبية «العلوم» الطبية الأخرى.

على الصعيد الاجتماعي والانتروبولوجي، يعمل الطبيب والمُطَبِّب كما لو أنهما شخصان فاعلان يُفترض فيهما أنهما يعرفان ويشفيان. إنَّ شرعية الأول تضمنها إقامة طويلة على مقاعد الجامعة، والحصول على شهادة، بينما يضمن شرعية الثاني انغراسه في داخل جماعة بشرية ما، وشبكة الهمسة في الأذن القابلة لأن تُغذِّي إجماعاً حول افتراض فعاليتها. إنه التعارض التقليدي بين الثقافة العالمية والثقافات الشعبية التي لا تُستمدّ من نفس الأسس المنطقية الاجتماعية. ومع ذلك، فإن هذه اللوحة تمّ تجاوزها اليوم نتيجة بروز ممارسين جُدد تقع شرعيتهم كعمالِجين في منتصف الطريق بين هذين النمطين للاعتراف الاجتماعي. لقد استفاد هؤلاء الأشخاص، المُتحدِّرين في أغليبيتهم من الطبقات الوسطى المدنية، من أسلوب الهمسة في الأذن (الشديدة الفعالية في جذب زبائن «العلوم» الطبية «الموازية»)، وبنفس الوقت، من امتلاكهم لشهادة جامعية (الوخز بالابر، الطب التجانسي....)، أو غير جامعية (طب العظام، المعالجة الفقارية، التدليك). إن «العلوم» الطبية الموازية «تجمع شروط إجماع اجتماعي، واستثمار شخصي قوي لدى أولئك الذين يلتمسون الشفاء لديها (كلفة مرتفعة لا يأخذها صندوق الضمان الاجتماعي بعين الاعتبار أو يُعوض نفقاتها بشكل غير كامل ؛ إدراج المريض في سيرورة البحث عن شفاء...). إنَّ بالامكان التفكير بأنها تُعبئ أكثر «إرادة الشفاء» لدى المريض من خلال الجهد الأكبر الذي تطلبه منه.

المُطَبِّب والحدائث

من دون أن يُوضَّح بالضرورة شروط استعمال الفعالية الرمزية، يركز كل فرع من «العلوم» الطبية الموازية الى معرفة وبراعة خاصتين، لكن هذه «العلوم» لم تفصل نفسها عن الحدس بأهميتها في شفاء المريض. إنها تجعل من «الاتصال» الأمر

الضروري الأول لها، في حين تتجه المؤسسة الطبية، التي تفضل أدوات أخرى، للإبقاء على مسافة اجتماعية وثقافية بين الطبيب والمريض. إن استشارات هؤلاء الممارسين في العيادة (أو في منزل المُطَبِّب) هي أطول من حيث الوقت، وأكثر إتساقاً بالطابع الشخصي. إنها «العلوم» الطبية التي تسأل عن وجود الشخص. إنها تأخذ على عاتقها، من دون أن تتوقف عند ذلك، وعلى طريقة العلاج النفسي، الأمراض الباطنية المتنامية في العصر الحديث (الضغط، العزلة، الخوف من المستقبل، فقدان الشعور بالهوية الخاصة، الخ) الأمر الذي يطمئن المريض، ويزيل خطوطه الدفاعية. لقد تشعشت المصاحبة «النفسانية» للمُطَبِّب أو لممارس «العلوم» الطبية العذبة (أو للطبيب العام الذي يعرف جيداً مريضه وأسرته) في مواقف مهنية. فالصعوبات الشخصية تُقال، أثناء الحديث، ومن دون التأخر عندها، لكنها تُقال. والمُمارس يستطيع أن يؤجل أجوبته المهنية إلى ما بعد الانتظار التفهمي الذي يعيره لمريضه. إن افتراض الكفاءة لدى المُطَبِّب أو مُمارس «العلوم» الطبية «العذبة»، أوسع، على وجه الاحتمال، من ذلك الذي يخص الجمهور به الطبيب. فهذه «العلوم» تعرض أجوبة لا تتوقف عند العضو أو الوظيفة المريضة، وإنما تتعلق بإعادة التوازنات العضوية والوجودية المقطوعة. إنها بشكل خاص «علوم طب الشخص». إنها تعطي نفسها الوقت الكافي للكلام أو للإصغاء، للحركة أو للصمت، وتطلب من هؤلاء الممارسين قدرة مقاومة صلبة في وجه قلق المريض. لكنها تعيد للشخص المسؤولية الكاملة في تحمُّل أعباء اضطراباته. إن قوة «العلوم الطبية الموازية» تُستمد من هذه القدرة على تعبئة فعالية رمزية أهملت غالباً من قبل المؤسسة الطبية.

إننا سنستطيع أن نبرز بوضوح هذه العبارات من خلال الإشارة، في مكان آخر، وفي سياقات اجتماعية وثقافية أخرى، إلى اللجوء المتزايد للطب التقليدي. ففي البرازيل، على سبيل المثال، تجتذب الـ Terreiros، في كاندومبليه أو إيمباند، نحو الثقافة الشعبية السوداء أيضاً من مختلف الطبقات الاجتماعية المدنية، بحثاً عن أسلوب آخر للفعالية العلاجية. هكذا نعرث ثانية على الضرورة الانتروبولوجية لوجود تمة في الحس والقيم، وقد تأسست على معطيات مختلفة. إن الحوار مع الـ Orishas أثناء الليل يعطي لرجل المدن الكبرى حصة الرمز التي تنقص حياته اليومية والتي تشكل في حد ذاتها طباً.

إنّ فلاحين من السنغال هم الذين يُعطوننا المثل البارز، والأكثر جاذبية، عن هذا اللجوء الذي يتمّ تقريباً على طريقة الرمز. فمن خلال النشاط الذي يستهدف تبديد الدور الاجتماعي والمهني للطبيب، ويؤدي لوضعه في الوضعية التقليدية للمُطَبِّب، يُعيد هؤلاء الرمز الى قلب العلاقة العلاجية.

وعلى عكس ما يحصل في المجتمعات الغربية، حيث يأتي اللجوء الى المُطَبِّبين بعد فشل الطب، فإنّ عدم النجاح الذي يلاقيه المريض لدى المُطَبِّبين هو بالأحرى الذي يقوده الى عيادات الأطباء، في مجتمعات العالم الثالث. لكن المسار لا يتمّ أحياناً من دون تزوير خاص لدور الطبيب. لقد انتظر الدكتور ديان، في سان لويس بالسنغال، زبائنه الأوائل لمدة طويلة. وكان يلزمه أن تشهد بفعاليته في المنطقة شبكة عريضة من الهمس في الأذن. إنه الشذوذ الأول الذي يُخضع شرعية ممارسته المهنية للنجاحات التي تتجلى للجماعة، أكثر مما تخضع لامتلاكه شهادة. أما الشذوذ الآخر، فيبدو في أنّ الزبائن لا يكتفون بدفع أجرة الاستشارة وفقاً للأسلوب الرسمي الذي فرضته الدولة، وإنما يضيفون إليها تمة (تمة الرمز، تمة الحسّ والقيمة) طبيعية (طيور داجنة، أطباق طعام مطبوخة، الخ)، وأحياناً نقدية تُضاعف غالباً من قيمة السعر المُقرَّر. إنّ من أثر الهبة أن تضفي طابعاً شخصياً على العلاقة مع الطبيب، وتُقلّل هكذا من الصفة الأجنبية التي يُمثلها. إنّ الثقافة العالمية تُطرد وتُستوعب من قِبَل نمط آخر من خلال التزوير الشعبي. فيفضل الهمس في الأذن، والهبة التي تضفي طابعاً من الألفة على اللجوء الى خدماته، يُنظر للطبيب على غرار المُطَبِّب، وكأنه الشخص الذي يمتلك «سراً»، وأنّ «غرابه» معرفته وأساليبه ليست إلّا صيغة من بين صيغ أخرى يُعرّف بها كل المُطَبِّبين⁽¹⁶⁾.

ومع الانتقال من السرية الى الاعتراف «بالعلوم الطبية الموازية»، يكتسي الواقع الاجتماعي الخاص بإدارة المرض اليوم طابعاً معقداً جداً في المجتمعات الغربية. فعلى المجتمع الثنائي الذي يقسم الحداثة يردّ طب ثنائي، طب له سرعتين، لكنه يغتني بين هذين القطبين بعدد لا يُحصى من الفوارق المتوسطة: فهناك، من جهة

(16) إننا نستعير هذا المثل من كتاب كاترين ندياي (Catherine N'Diaye) الجميل : «ناس الرمل» (Gens de sable) - باريس - منشورات POL - 1984 - ص : 72 وما بعده.

أولى، الطب الذي يراهن على التكنولوجيا والبحوث الطليعية، ومن جهة ثانية الطب الذي يُركّز أكثر على مفهوم العلاقة، ويستعمل بالأحرى الكلام والجسد، ويلجأ الى تطبيقات أقل عدوانية. إنَّ الاهتمام بالرمز هو، أساساً، الذي يرسم الخط الفاصل بين هذين القطبين⁽¹⁷⁾.

(17) يجب ، بالطبع ، إضافة أن اللجوء الى التقنيات ، حتى ولو كانت تقنيات الجسد (التنويم المغناطيسي ، التدليك ، المعالجة الفقارية..) هو أمر لا بُدَّ منه ، وأن المظهر العلائقي لم يُهمل بالضرورة في المؤسسة الطبية. إن الأطباء العامين يلعبون غالباً دوراً هاماً في هذا الصدد. من أجل تحليل قريب ، إقرأ بيار كورنيلو (Pierre Cornillot) «إنقطاع ابيستمولوجي ؟» (Une coupure épistémologique?) - في : «علوم طبية أخرى وعادات أخرى» (Autres médecines, autres mœurs) ، في مجلة «Autrement» - العدد 87 - 1986.

الفصل العاشر

هيروغليفيات النور : من المصنوعة الطبية الكـ مخيال الجسد

عالم أصبح صورة⁽¹⁾

تُصبح الصور اليوم الأدلة المُثبتة لحقيقة تتلاشى دائماً أكثر فأكثر. ويصير العالم إظهاراً (وبالتالي إثباتاً)، ويتنظّم أولاً في الصور التي تُعطيه ما يرى. وبنفس الطريقة التي يجري فيها اكتشاف سير الجريمة من خلال المعالم التي يتركها المجرم، تُعطي الحادثة نفسها ما تقرأه عبر أعداد لا تحصى من الإشارات التي تتأكد بأنها أكثر واقعية من الواقع، وتحلّ نفسها محلّه. إنّ بُعداً جديداً للحقيقة يتّضح عبر شمولية المشهد، والإنسان يصطنع أساساً نظرة، على حساب الحواسّ الأخرى. إنّ الصور تصبح العالم (وسائل الإعلام، التكنولوجيا الطليعية، التصوير، الفيديو...). إنّها تُبسّطه، تُصحّح تناقضاته، تُسوّي تعرّجاته وتجعله مقروءاً (غالباً من قبل الاختصاصيين وحدهم). لقد سرد ج.ل. غودارد (J.L. Godard)، في «القربينيون» (Les carabiniers (1963)، قصة رجلين انخرطا في جيش في حالة حرب. وكان الجيش قد وُعدَ بحصة جيدة من الغنيمة. وعندما عادا الى منزلهما، بعد ذلك بعدة سنوات، لم يستطيعا أن يُظهرا لزوجتيهما إلا قبضة من البطاقات البريدية، تُمثّل أمكنة

(1) ظهرت الرواية الأولى لهذا الفصل في : آلان غرا (Alain Gras) وصوفي بوارو - دلبيش

(Sophie Poirot-Delpech) : «بالأصبع والعين ، مخيال التكنولوجيات الجديدة». (Au

- L'Harmattan) - منشورات doigt et à l'œil, l'imaginaire des nouvelles technologies

.1989

ومواضيع ووجوه ومواقع، وصور كل ما أحبوا أن يمتلكوه، لكنه توارى عنهم.

إنَّ الصور تخفف من استحالة الاستيلاء على العالم. فبتبئته لالتباس الأحداث أو إنسياب الزمن من خلال سلسلة من الكليشيات أو المخططات، من الرسومات أو التسجيلات على شاشة، يطرد الانسان نقصاً في الاتصال مع وجوده وبيئته. إنَّ هناك، في الصورة، نوعاً من التجانس في القلق المتولّد من جانب اللا - حسّ، ومن «اللاعقلانية الأخلاقية» (حسب تعبير ماكس وير) التي ترافق حياة الإنسان من ظلّه المُلِحّ. إنَّ صور الحرب أو المجاعة، في ساعة مُحدّدة، أو صورة الخلايا السرطانية ليست إلّا صوراً، إنها تُشكّل بحد ذاتها موضوعاً للفنون الجمالية. إنّها طريقة لتثبيت الشرّ (غريزة الموت، إنسياب الزمن، التعقيد، الخ) خارج الذات من خلال وضعها تحت أعيننا. إنّ الصور تصنع من العالم قصة لا تنضب، هي دائماً متشابهة ودائماً متجددة في آن واحد. إنها تُدخل المعقول أو النظرة حيث يسود اللاتماسك أو اللامرئي. إن التكبير الذي تجريه على تدفق الواقع أو على تشابك الأشياء يشعره غالباً بالمضمون. لكنها تعرض عن هذه الحقائق التي لا يمكن، بطريقة مغايرة، إدراكها في عمقها وتعقدها، صورة تسمح بالبدء في فهمها، وبالاقتراب منها أكثر فأكثر.

إننا نلغي المسافة التي يمكث فيها الحدث من خلال وضعه في صورة تنزع عدم قابليته للاختزال. إنّ تثبيت الصغير للغاية أو البعيد للغاية، والمطاردة التصويرية أو التليمرئية عبر العالم في بحث لا يكلّ عن «الصورة - الصدمة»، «الشيء الذي لم يُرَ مطلقاً»، «العمل الباهر»، و«الرعب» يستجيب جيداً لاهتمام الانسان الحديث في أنّ يمتلك تحت عينيه كل ما هو قابل لأن يفلت من نظرتة. إنّ كلية حضور الصورة حينئذ تكون بلا حدود. إنّ الأمر يتعلق بأن نلصق على الواقع، بأن لا نتوقف مطلقاً عن أخذ الأفلام، عن التصوير أو عن الإظهار (حتى ولو كان ذلك تحت تهديد الرصاص أو العناصر). إنّ الصور المُدلّلة في العصر الحديث هي تلك التي تدفع باتجاه الحدود القصوى رغبة المرء الجامحة في أن يرى، ويكون موجوداً في الأروقة الأولى لحقيقة مُعطاة في مظهرها اللفظ وخشونتها. إنها لرمزية في هذا الصدد، شخصية الرائي (Peeping Tom، 1959) ل: م. بويل (M.Powel) الذي صور بفيلم رعب وقلق النساء اللواتي قتلهنّ بساق آلة تصويره. ولنتذكّر الافلام والصور الفوتوغرافية المُكرّسة للبوليفية الصغيرة التي ماتت مخنوقة في الوحل. والوجوه المألوفة لأولئك الذين يموتون

من الجوع، الخ. إنها صور خديّة لكنها تنطق بقوة هذه الرغبة في الرؤية. إن بعض تقنيات التصوير الطبي تسمح، على سبيل المثال، بتوضيح صورة نشاط دماغ إنسان يجابه أوضاعاً مختلفة⁽²⁾. كما ترسم كاميرا بوزيترونية خارطة مناطق المخ بألوان مختلفة حسبما تكون نشيطة أو خاملة. وهناك أيضاً الوسائل الحديثة للتجسس بواسطة الأقمار الصناعية، والمراقبة المبتدلة للزبائن في المحلات أو المارة في الأماكن العامة بواسطة أجهزة الفيديو، الخ.

إنّ الشغف بالواقع والانحطاط الحديث للمجاز، هما أمران ملموسان، بشكل خاص، في التطور الأخير للسينما الخيالية، المُغرقة أكثر فأكثر في الغرابة من فرط ما تُظهر، من كل الزوايا، أمواج الدم، والأجسام المهروسة، والرؤوس أو الصدور التي تتفجر. والأعضاء المُقطّعة قطعاً، الخ... إنّ فرط واقعية الصورة والصوت هي التي تمنع من أن نحلم بالخوف. إنه، من جهة أخرى، مؤشر على الانفجار الفصامي للجسد الغربي، وطريقة لطرد اجتماعي لتقطيع لم ينبُج منه أحد. وبما أن القلق أصبح كبيراً في الميدان الاجتماعي، فإن سينما الرعب تشن حملة تجانسية تقوم على فرض واقع ممكن للقلق. إنه توسيع للمعاني العائمة للخوف الاجتماعي في صور المهرج الكبير.

إنّ الفهم الحديث للصورة لم يُعَد يشجع المسافة، هذه اللعبة للظل والضوء، هذا التغيير الممكن للنظرة التي تعطي للرمزية قوتها الأكبر. إنها، في الواقع، تحلّ محلّ المسافة الرمزية من خلال الابتعاد التقني فقط، الذي يعني الشعور بالقرب الجسدي. وتحوّل النوعية الى كمية، وتقتلع جذور الموضوع من أرضه الأصلية أو من مقياسه لتضعه في حالة انعدام جاذبية تجاه زمان ومكان حقيقته الخاصة. ففي الوقت الذي يدخل فيه الجسد نفسه في مرحلة قابليته التقنية للتناسخ، يتجه كل عمل الواقع نحو التحول الى صورة ممكنة. إنّ الحداثة تتطابق مع عالم منبسط،

(2) يحمل إيزاك اسيموف في قصة وهمية، «الرحلة الخيالية» (Le voyage fantastique) الى خدّه النهائي هذا الشغف برؤية داخل الجسم من خلال تخيّل حملة طبية تحققت داخل الجهاز العضوي للإنسان، على يد فريق صُغّر أعضاؤه الى مقياس مجهري. إنّ الجسم يصبح حينئذٍ على مقياس عالم، لكنه يصبح في متناول نظرة الإنسان ويده.

مُفرط في الواقعية (حسب تعبير ج. بودريار) لم يُعد يتسامح مع المسافة أو السرّ، يفرض شفافية، ورؤية لا يجب أن توفر شيئاً.

الجسد المُعرّض للنظرة

إننا سنُوجه الآن تفكيرنا نحو المَصوِّرة الطبية للجسد البشري. ويمكن أن نندهش أولاً لهذا التقويم الذي تحظى به النظرة في ولادة المعرفة. لقد جعلت المعقولة الميكانيكية في القرن السابع عشر من الرياضيات المُفتاح الوحيد لفهم الطبيعة. وضُرِبَ الجسد بالشك؛ وكان العالم يُعاش ويُحسُّ به كما يبدو بفضل النشاط الحسّي، ويقع في فقدان حظوة لصالح عالم معقول يمكن للفكر العقلاني فقط أن يدركه بدون خطأ. إلا أن الحواسّ خدّاعة مثلها مثل الخيال. ولا يمكن بدون المجازفة بالحقيقة أن نؤسّس عليها معرفة يقينية. إن من الواجب، برأي ديكارت، أن نُصَفّي العقل من الحثالات الجسدية والخيالية، القابلة لأن تُلطّخ النشاط المعرفي بوزنها الوهمي. إن ديكارت يعطي، في تأمله الثاني، وعبر مثال قطعة الشمع، مثلاً مشهوداً للأخطاء التي يمكن للحواسّ أن تُوقع فيها إن لم تكن محاطة بيقظة علمية⁽³⁾. ومع ذلك، فإن الوصول الى المعرفة، في النظام المعرفي الغربي، يمرّ، كما قلنا سابقاً، وبطريقة مميزة عبر طريق النظرة. ليس النظرة المجردة، والساذجة بشكل ما، التي تتركز عليها الحياة اليومية، لأن النظر لا يكفي برأي ديكارت، وإنما بالأحرى النظرة المُجَهَّزة بآلة والتحليلية التي يُرشدها الفكر العقلاني. إن ديكارت نفسه يكتب في «الخطاب» مديحاً للمِنْظَار الذي اخترعه ج. ميتيوس (J.Métius)، ويُذكر بهذه المناسبة بأن قيادة الوجود تخضع لحواسنا «التي من بينها تُعدّ حاسة النظر الأكثر شمولاً والأكثر نُبلًا، ولهذا فإنّه ما من شك بأن الاختراعات التي تستخدم في زيادة قوتها هي من أفضل الاختراعات التي يمكن أن توجد»⁽⁴⁾. وإذا كانت الحواسّ قد

(3) رينيه ديكارت : «تأملات ميتافيزيكية» - باريس - منشورات P.U.F. - 1970 - ص : 45.

(4) رينيه ديكارت ، مبحث في إنكسار الضوء ، «خطاب المنهج» - باريس - منشورات Garnier-Flammarion - 1966 - ص : 99. إن تقسيم الحواس الذي دشّنه الفلاسفة الميكانيكيون في القرن السابع عشر يُميّز النظرة ، وذلك بعكس رجال العصور الوسطى ، على سبيل المثال ، ولا سيما المعاصرين لرابليه الذين كانوا يضعون السمع في المقدمة ، ويعتبرون النظر حاسة ثانوية. أنظر : لوسيان فييهر (Lucien Febvre) «مشكلة عدم الإيمان في القرن السادس عشر» (Le problème de l'incroyance au XVI^e) - باريس - منشورات Albin Michel - 1968 - ص : 402.

لَحِقَتْ بها إهانة علمية، فإن حاسة النظر وحدها خرجت، مع بعض التحفظات المتينة، سليمة من الامتحان. وذلك في الطب بشكل خاص. لقد قام المُشْرِحون، بدءاً من القرن الرابع عشر، ولا سيما بدءاً من فيسال، بنبش العمق غير المرئي للجسد البشري بعد أن ذُلُّوا عقبة الجلد واللحم. وفتحوا ليل الجسد أمام النظرة. وقد أسس المشرحون - السريريّون، وبشكل خاص بدءاً من بيشا (Bichat) فرعاً علمياً جديداً يستكشف منهجياً من خلال التشريح الدقيق التشوهات التي أصابت أعضاء المريض المتوفى، من خلال إقامة صلات مع أعراض مرضه. إنّ الأمر يتعلق دائماً بالموت. إنّ قابلية الرؤية هي من صنع المَبْصَع الذي يمزق نسجاً لا حياة فيها، ويقارن النسج، والإصابات والتشوهات ليبيّن بشكل واضح الأثر المحسوس للشر والتجسيد اللحمي للمرض.

لكن النظرة لم تكفّ مطلقاً عن أن تكون حاضرة هنا لكي تلقي نورها على الواقعة ؛ وتاريخ الطب سيكون في جزء منه تاريخ تغيّرات هذه النظرة. إنّ سموّ النظرة وأهميتها في تكوين المعرفة لم ينقص مع ظهور التصوير بالأشعة أو الطرق الحالية للطب النووي. لقد بلغ كمال الأجهزة اليوم درجة عالية من التعقيد التقني، ولا سيما مع التصوير بالصدى المغناطيسي النووي (R.M.N)، لكن هذا الكمال لم يبلغ الوساطة الأساسية للنظرة. لقد عبّر هنري أتلان، على سبيل المثال، عن دهشته أمام التحول الحسّي الذي يسلك طرق التجريد، طرق الحقيقة الكمية، لكنه يترك كل سيادته للنظرة. «إننا ننطلق ممّا تراه العين المجردة وتدرّكه الحواسّ (المقطع التشريحي، على سبيل المثال) لنصل الى نفس الشيء الذي تراه العين المجردة وتدرّكه الحواسّ (الصورة بعد إعادة بنائها معلوماتياً) ؛ ولكن بعد تحوّل من خلال عالم تجريدات الفيزياء الكميّة، التي تُشكّل علاقاتها مع حقيقة ما تراه العين المجردة موضوعاً لمجاذلات فلسفية ما زالت حيّة»⁽⁵⁾. إنّّه لوضع غريب: إنّ رفض البدهة الحسّيّة، التي كان ديكارت أول رجل حديث يضع مبدأها، ما زال يتتالي، لكن طرق التصوير الطليعي تتيح، في نفس الوقت، للنظرة دخولاً أكبر داخل المناطق الجسدية التي

(5) هنري أتلان (Henri Atlan) : «الصورة بالصدى المغناطيسي النووي ، كوسيلة» (L'image RMN en médiatrice - في مجلة (Prospective et santé) - «صورة ، مُصَوَّرة ، ومخيال» (Image, imagerie, imaginaire) - العدد 33 - ربيع 1985 - ص 56.

كان من المتعذر دخولها ورؤيتها حتى ذلك الحين. إنها حقيقة متناقضة تدفع عن نفسها المقترحات المتواطئة.

مِخْيَال الشفافية

يفرض عِلْمٌ لتسلسل أصل الصورة العلمية نفسه إذا أردنا فهم المِخْيَال الذي تركز عليه والمراهنات الحالية التي تضمها في داخلها. فمن وجهة تاريخ الطب، كان المَشْرُوحون هم الأوائل الذين أعطوا، في الدراسات التي خَرَّروها، صورة لداخل الجسد، ولبنية النسيج، والعظام، وتم فصلها مع العضلات، الخ. إنَّ عيون المَشْرُح هي التي غاصت مباشرة في الجسد المفتوح، واستخلصت أفضل رؤية، ثم قامت براءة الفنان باعادة رسم الأشكال التي عُزِّيت، في ظل القيادة المَمَاحِكة للمَشْرُح. ومع هذا الأخير، كما رأينا سابقاً، فُصِّلَ الجسد ضمناً عن الحضور البشري، ودُرِسَ في ذاته كحقيقة مستقلة.

ومن المَصْوَرة الطبية الأولى المتحققة على اللوحات المنقوشة الى تلك التي نعرفها اليوم، نلاحظ استمرار وجود نفس المكان المِخْيَالِي. فلكي يُعالَج المريض بشكل أفضل، تُنزع الصفة الانسانية عن المرض (ليس بالمعنى الأخلاقي، وإنما بالمعنى المنهجي). لقد كُرسَت المعرفة التشريحية استقلال الجسد، ووضع الإنسان في حالة انعدام الجاذبية ؛ وهي الحالة التي لم يكف، مع ذلك، عن تجسيدها. إنَّ هذا التمييز المنهجي والجوهري يُحوِّل الإنسان الى مالك لجسده. ويجعل من المرض ليس إرثاً لتاريخ فريد لإنسان مُحدَّد في المكان والزمان، وإنما عيباً لا شخصياً لوظيفة أو لعضو، لا يكثر بالانسان إلا من خلال أصدائه. إنَّ المَصْوَرات الطبية تعمق اليوم ثنائية الجسد - الانسان، وتقوم باجراء تقطيع مُتَرَف للجسد، بعزل الأعضاء والوظائف بل وحتى الخلايا والجُزْئيات. إنَّ عالماً يتجلى في داخل الإنسان، ولكن بهذا تتأكد حتى الدَّوَار الثنائية المؤسسة للطب الحديث. فالشخص يختفي تحت الثوابت البيولوجية التي تحل محلّه. ومرضه يصبح غريباً عليه، حتى ولو كان مضطراً لأن يتبع جسده ويذهب للاستشارة الطبية، ويرافقه أثناء المعالجات التي يخضع لها. إنَّه كإنسان، لا يُوجد هناك، بالنهاية، إلا بمحض الصدفة. ولقد قيل غالباً أنَّ الطب اليوم يعتني بالمرضى أقل مما يعتني بالأمراض. بهذا المعنى، تثبت المَصْوَرات الجديدة، في آن واحد، قوة الطب وضعفه. وتساهم مع المنطق الرمزي الذي تبلوره في اعتماد مفهوم إنسان لن يكون شيئاً آخر غير جسده، ومرض مندمج مع تموضعه

التشريحي والوظيفي، وذلك كتوطئة لطب يعتني فقط بالعضو أو الوظيفة المتضررة، ويُشبه المرض بخلل وظيفي في الآلية الجسدية. وهذا ما يدافع عنه، على سبيل المثال، ف. داغونيه، الذي يدفع منطق استبعاد الانسان خارج مرضه الى نهايته، مستبعداً منه حتى شخص الطبيب الذي يُبلغ عن قلة وزنه على مستوى التشخيص، وعن التقدير، الموضوعي في نظره، بالمقابل، للتقنية. «إنَّ الطبيب، يقول داغونيه، بعيونه اليقظة ويده وروحه، لن يذهب إلى أبعد مما يذهب اليه لاقط المعمل الاستشفائي؛ إنَّه يميل لأنَّ لا يستطيع أن يلعب إلا دور الحارس، وأحياناً يكون قادراً على رنّ جرس الإنذار خطأً، أو على عدم التنبيه لمرض ماكر يتقدّم. إنَّ «المدينة الطبية» وحدها - بفرقها وتجهيزاتها الثقيلة - تستطيع أن تضمن وتتولى المعركة من أجل الشفاء»⁽⁶⁾. إنَّ الإنسان يستمر في الظهور كنوع من الزائدة غير المحسوسة لجسده الخاص. إنها حقيقة طيفية أكثر من الصور المرسومة على الشاشة. إنها مجابهة مدهشة مع الغرابة المقلقة (Umheimliche): إننا نَظْهر للمريض صور مرضه، ويرى جزءاً منه في المرأة المُشوَّهة للمَـصوَّرة الطبية: إنَّ عليه أن يتعرف فيها على نفسه، وهو مستعد لفعل ذلك. لكنه، مع ذلك، يعرف نفسه شيئاً آخر غير هذا التشبيك من اللحم والعظم، أو هذا التداخل للخلايا، الذي يُعرض عليه، مع ذلك، لأنَّه يعود له. إنه دَوَّار الشاذ والمألوف. المألوف الذي تتعذَّر معرفته، والشاذ الحاضر بشكل غير محسوس⁽⁷⁾.

تصفية المُخيال من الداخل

بحوث تشريح بالتصوير بالأشعة، من الصور الإشعاعية الى الصور الصوتية، من الصور الحرارية الى الصور بالصدى أو الى الصور بالصدى المغناطيسي النووي، إن مخيال الشفافية يفتح الجسد البشري للعديد من قابليات الرؤية، ويكشف كلاً منها

(6) فرانسوا داغونيه (François Dagognet) : «فلسفة الصورة» (La philosophie de l'image) - باريس - منشورات Vrin - 1986 - ص : 135.

(7) «تصوير بالأشعة، ثم تصوير بالأشعة. الصورة المتألَّمة والمضطربة لأحشائي المسكينة، المُعرَّضة بفجور لنور النهار. مناقشات وتفسيرات بسبب أقل انثناء لها. وما من شخص يستطيع فهم الألم، واليأس والحجل الذي يُمسك بي، حين أرى نفسي وقد تحولت الى ورقة سلولويد» - ميكائيل تورغا (Miguel Torga) (En franchise intérieure. Pages de journal 1933-1977) - باريس - منشورات Aubier-Montaigne - 1982 - ص : 89 - (مترجم عن البرتغالية).

بدوره في مزايده الحثّ المأتمّي. إنّ رغبة الطب في المعرفة تستند على رغبة في الرؤية: في اجتياز الداخل غير المرئي للجسد، وتسجيل صورته، وعدم ترك شيء في الظلّ (أي في عدم قابلية النظرة للنفاذ)، ولا إضافة تنمة للواقع لا تدين بوجودها إلا لهلوسات الناظر السريري ولا شعوره. إنّ معالجة الصورة المنقولة عن الجسد ما زالت، منذ الانسان المُشرّح على يد فيسال الى التقنيات الجديدة للمصوِّرة الطبية، تتبع طريق تصفية المخيال داخل نفس الصورة. إنّ تفحص الطبقات الهلوسية التي كانت تُفسد المضمون العلمي ما زال يكبر مع مرور الزمن. والعرض اللاواعي على الشكل كان سهلاً حتى القرن التاسع عشر بسبب ضرورة إعادة الانتاج الفنية للصور في كتب علم التشريح أو في العيادات. إنّ امكانية الاستعانة بالكليشه المصورة أغلقت الممر الذي كانت تمرّ فيه هذه الزيادة في الحسّ. لقد ظهر في عام 1868، في فرنسا، «الأطلس السريري المصوّر لأمراض الجلد» (L'Atlas clinique photographique des maladies de la peau، على يد ا.هاردي (A.Hardy) وأ.مونتميجا (A.Montmeja). وكان هذا أول عمل يستغني عن عمل الفنان من إخراج الصور.

وفي عام 1895، كرّر روينتجن (Roentgen) في مختبره تجارب كروكس (Crookes) حول الأشعة الكاثودية. وشاهد تفلُّور غير منتظر لورقة كرتون مطلية بمادة كيميائية وُجِدَتْ هناك بالصدفة. وهكذا بمساعدة الظروف، ظهر له بوضوح شكل لطاقة إشعاعية، غير مرئية من قِبَل الإنسان، ومن خواصّها اختراق المواد التي لا تنفذ منها الأشعة الضوئية. فعندما أدخل يده بين الحزمة والورقة المُضاءة، استطاع روينتجن أن يميز بالعين المجردة عظام أصابعه. وهكذا توصل لاكتشاف الأشعة السينية، بصفتها مصدر طاقة قابل لأن يتجاوز عتبة الجلد لينير المضمون الأعمى للجسد. لقد أدرك روينتجن أيضاً أنّ الاشعاع يثير تفاعلات كيميائية مثل اختزال برومور الفضة للوحة تصويرية مُسوَّرة في كاسيت كتيّم للنور. كما نجح في تصوير مواد مختلفة، ووضع مبدأ التصوير بالأشعة. وحين طُبّق على الجهاز العضوي للانسان، أظهر الكليشه خارج الجسم آثار الأشعة السينية، وقد امتصَّتْها النسيج تقريباً، وفقاً لخواصّها الفيزيولوجية. لقد رسمت لعبة الظلال والنور على الكليشه صورة الأعضاء. ولم يكن هناك أي تنمة خيالية في «نور وظلام» هذه الكتابة. إنّ مضمون الصورة يصبح، من الآن فصاعداً، نقلاً تقنياً لا يتسامح تجاه أي خيال مبدع في مردوده. وبالمقابل، فإن تقويم

التشخيص يبقى خاضعاً لنظرة الطبيب. إنَّ معرفة تشريحية صلبة وتجربة جيدة للوحات التصويرية تفرضان نفسيهما في تفسير الكليشيهات المجردة التي يُختزل الجسد فيها إلى نوع من هيروغليفية الأنوار.

وللمرة الأولى، لم يُعدّ الدخول في متاهة النسج البشرية يتطلب الشرط الضروري المتمثل بموت الإنسان. لقد وُضِعَ هذا الأخير في وجه هيكله العظمي من دون أن ينفصل عن لحمه. إنَّ صورة تمثال فيسال وهو يتأمل مُفكراً في جمجمة متروكة أمسكها بيده، تخلي المكان لنزلاء برغوف (Berghof) لتوماس مان (Thomas Mann)، وهم يمضون وقتهم في تبادل صفائحهم، وملاحظة «صورهم الداخلية» بكل خشوع. هكذا أصبح استعمال المرضى الرمزي «لصورهم الشعاعية» يطغى كثيراً على استعمال الطبيب «العلمي» لها.

لقد حَسَّنَ استعمال النشاط الإشعاعي (الذي اكتشفه بيكوريل (Becquerel) في عام 1898) تقنيات التصوير بالأشعة. وبرهنت أعمال هيفيسي (Hevesy)، في عام 1913، بناءً على مركز تصويري، إمكانية الكشف عن المسار في جهاز تثبيت الإشعاعات التي تبثها مادة ذات نشاط مشع. وفي أواخر سنوات الثلاثينات تقريباً، ولدت الصورة الإشعاعية من إمكانية عرض عناصر استشفافية مُشِعَّة في الجهاز العضوي للإنسان، لكي توضح بداهة فروق التركزز في أشعة غاما (Gamma) (القرية جداً من الأشعة السينية) وبالتالي، متابعة السيورورات الأيضية بالبصر. وبفضل العناصر الاستشفافية التي يدخلها المريض أو تُحقن في جسده، يصبح من الممكن توجيه نظرة على وظائف فيزيولوجية مستعصية على الفحص الإشعاعي. إن الاجتذاب البصري للأمري يتسع حتى في داخل الأعضاء، والنوافذ الداخلية تُفتح في الجدران المنيعه للحم.

لقد أتت تقنيات أخرى لتزيد هذه التخريجات ولتُخضع للمرئي سيورورات بيولوجية متشعشة في عمق الجسد. فمنذ سنوات الستينات، ضاعفت مجموعة المصورات الطبية من تأثيراتها، وأتقنت أدوات بحثها بفضل دعم علم الفيزياء

(8) من أجل رؤية شاملة أكمل ، راجع ديديه ايزابيل (Didier Isabelle) وأنني فاير (Annie Veyre) : المَصْوَرة الطبية (L'imagérie médicale) مجلة (La Recherche) - العدد 144

والمعلوماتية⁽⁸⁾. وصار من الممكن تحقيق صور الكترونية قابلة لأن تُرَقَّم وتُسَجَّل في الحاسوب. وسمح التخفيض السريع لتكاليف تصنيع الحاسوب باستعمال مُعَمِّم لهذه التقنيات الجديدة في المؤسسة الطبية. لقد أصبح الجسد اليوم مُشبعاً، بالقوة، بنظرات الأجهزة والنظرات التحليلية. إنَّ كل سيرورة عضوية قابلة لفهم بصري قياسي أو عددي. هكذا يتقاسم عدد من الأشكال الخطية، في نوع من المزايدة في الفعاليَّة، رؤية الجسد. إنَّ المجال الداخلي للانسان صار مُعرَّضاً بإفراط للنور مثل مجاله الاجتماعي.

لنثبَّت بعض الصور. لقد زاد استعمال كاشف الإشراق الالكتروني من فعالية التصوير الاشعاعي بجعله للملاحظة الديناميكية لعضو أو لمنطقة من الجسد ممكنة. في هذه المرة، يدخل الزمن في الصورة. إنَّ من الممكن تتبُّع سير مُخجَّاج أو مادة تباين في تشبيكات النسيج، في زمن حقيقي، على شاشة تلفزيون، وبعد المعالجة بالحاسوب. إنَّ فيزيولوجية العضو سهلة البلوغ بصرياً. وترقيم الصور يسمح، إرادياً، بتحسين تباينها وفرز معلوماتها. وهناك طريقة أخرى، التصوير الطبقي، تحصل على صور مقطعية لعضو ما انطلاقاً من جزيئة مُعلَّمة أو عنصر إشعاع يدخل في الجهاز العضوي من الخارج. إنَّ إعادة البناء السريعة للمقاطع تتمُّ بواسطة مِرْبُط الحاسوب انطلاقاً من سلسلة من الإسقاطات تحت انعكاسات مختلفة. إن المعلومات التشريحية التي يعطيها التصوير الطبقي هي أكثر دقة من تلك التي نحصل عليها من التصوير بالأشعة. فالصورة المتباينة، الناشئة عن الفروق في امتصاص النُشج للأشعة السينية، تسمح بتمييز النسيج الرخوة من بينها. إنَّها تدلُّ، على سبيل المثال، بشكل مختلف على المادة البيضاء والمادة الرمادية في الدماغ. إن الحاسوب يُعيد، إرادياً، تكوين مقاطع جبهية أو طولية، انطلاقاً من مخططات عرضانية. إنَّ تصورات طبقية ذات ميدان كبير تستطيع أن تحقق مقاطع للجسد بكامله. وتساعد على بحث تشخيصي على مستوى الصدر والحجاب الحاجز. إنَّ التصوير الطبقي بواسطة البث يسجل سلسلة من المقاطع المتزامنة لنفس العضو، وذلك بخلاف التصوير الطبقي بواسطة النقل الذي يثبتها واحداً واحداً. ومع ذلك، فإن طرق الرؤية هذه تستعمل مُسجلات

= - أيار / مايو 1983 - ص : 690 - 706. أنظر أيضاً الملف الناجح في مجلة (Prospective et santé - العدد 33 - ربيع 1985).

نقاط أيونية، غريبة عن الكيمياء العضوية، وتُخضع الموضوع الى كمية إشعاع محسوسة (أربع أو خمس مرات أعلى من الكمية المستخدمة في التصوير بالأشعة)⁽⁹⁾. وبالمقابل، ففي التصوير الطبقي بواسطة البوزيترون، وهو متغير آخر، تكون مُسجّلات النقاط حاضرة في البنية البيوكيميائية للإنسان. إن إنفاق الجزيئات المُسجّلة والمهضومة من قبل المريض لا يتميز عن إنفاق الجزيئات العضوية. هذه الصورة تسمح، على سبيل المثال، بتمثيل النشاط الدماغي بدقة كبيرة. أما التصوير بالصدى، وهي طريقة أخرى، فلا يستخدم هو أيضاً إشعاعات أيونية قابلة، بكمية مرتفعة وحسب مقاومة الشخص، لأن تولّد أضراراً في النسيج. إنّه يركز على عرض موجات فوق صوتية صادرة عن صوّان كهربى ضغطي، على مستوى منطقة من الجسد. وتبعاً للارتدادات على الأغشية تُحسب المسافات المقطوعة وتُنقل رموزها الى شاشة التلفزة. وانطلاقاً من هذه الترجمة، يمكن ملاحظة العضو وهو في حالة حركة. أما التصوير الحراري، من جهته، فيُدوّن أبعاد الحرارة من منطقة لأخرى من الجسم. وبما أن بثّ الحرارة ثابت وخاص بكل منطقة فإن هذا التصوير يرسم خارطة عضوية مؤسّسة على الحرارة السطحية للجلد. وتُحلّل القيم الحرارية تحت ألوان مختلفة تُعطي معلومات عن الأبعاد التي تُتميّز تكوّن الأوعية في منطقة ما. وتتم رؤية كل شذوذ، بعد تعريضه للنور بشكل ما، لأنه يتيح الفرصة لظهور إشارة لَوْنِيَّة يمكن تبيّنها سريعاً. وأما التصوير بالصدى المغناطيسي النووي، وهو المولود الأخير، فيسجل توزيع الماء في النسيج باخضاع المريض الى حقل مغناطيسي، وتحليل الإشارات العائدة كجواب من الجسم. وهكذا توضع خرائط لمحتوى مختلف الأعضاء من الماء، بناء على أن هذه القيمة خاصة أيضاً بكل منها. ولقد جعلت المعالجة بالحاسوب من الممكن، سريعاً، الكشف عن أي عدم انتظام في سير العمل.

ليس المقصود هنا إلّا القيام باحصاء موجز، فكلاً منا لا يعني مقترناً مقارنة

(9) يجب الإشارة في هذا الصدد الى الآثار البيولوجية المحتملة للإشعاعات الايونية (أشعة س وأشعة غاما). وهي آثار بدون عتبة ؛ يوجد احتمال غير معدوم بأنّ الإشعاع ينتج آثاراً مُعَقِّمة أو مُسَرِّطنة لدى المريض. وعلاوة على ذلك ، فإن آثار الإشعاع تراكمية. وبالعكس ، ففي التصوير بالصدى المغناطيسي النووي والتصوير بالصدى العادي ، توجد عتبة تسمح ، من ناحية ، بتلقيح الفحص.

للمصورات المعاصرة، وإنما فقط تفكير حول ميخايل الشفافية الذي يشرف على المزايدة التي لا تملّ لتقنيات الرؤية. إنّ حزمًا من الضوء تخترق الجسد ؛ والحاسوبات تنقلها من اللحم الى الشاشة، وتحول فيزيولوجية الأعضاء الى أرقام ؛ وفي فحص وظيفة ما نفرز المعلومات وفقاً لمنفعتها ؛ ويرتكز تشخيص الطبيب على مقاييس كمية أكثر مما ترتكز على تقويم شخصي. وهكذا يُحمّل المنحدر التقني للطب الكلاسيكي إلى أوجه.

إنّا نشهد، إنطلاقاً من الانقطاع الابيستمولوجي المولود من الفابريكا، انزلاقاً تدريجياً، لكنه بطيء للغاية، من الصورة الرمز الى الصورة - الإشارة⁽¹⁰⁾. إنّ الصورة تُصقّى تدريجياً، وتعاد دائماً أكثر فأكثر الى الملموس، وتصبح دائماً أكثر عمقاً في فهمها للجسد. إننا نمرّ من الاستحضار الى البرهان، من التلميح الى الإلزامي، عبر الاهتمام بمراقبة دقيقة لنقل الموضوع الذي لا يجب أن يُضاف إليه أي تنمة حسّية غريبة عن طبيعته الجوهرية. إنّ كل صورة، كما يقول باشلار، يجب أن تكون على أهبة الاختزال. «إن الصور، مثل اللغات المطبوعة بالإيسوب (Esope)، هي بالتناوب جيدة ورديفة، لا بد منها وضارة، ويجب معرفة استعمالها باعتدال عندما تكون جيدة، والتخلص منها سريعاً عندما تصبح غير مفيدة»⁽¹¹⁾. إنّ العلم يسير في طريقه الذي يختلف عن طريق الحياة الجارية، والصور التي تتطلع إليها هذه الحياة تُراقب بقسوة من قِبَل العلم عبر نوع من «التحليل النفسي الموضوعي». لقد صُفّيت الصور، خلال عدة قرون، شيئاً فشيئاً، من كل أثر رمزي⁽¹²⁾. ورقّفت إعادة الانتاج التقني دائماً أكثر

(10) نعني هنا «بالرمز» رسماً يبلغ الموضوع من دون أن يختزله في تجسّده ، رسماً يتأسس على إضافة حسية ، أي على «تعظيم السر». (أنظر : جيلبر ديران (Gilbert Durand) : «الخيال الرمزي» (L'imagination symbolique) - باريس - منشورات P.U.F. - 1964 صدرت ترجمة هذا الكتاب عن المؤسسة الجامعية للدراسات 1991 - بيروت ص : 9.

أما الإشارة فتحيل الى حقيقة يمكن التعرف عليها ، وحضور ملموس في تجسّده ، وتصور وظيفي يبحث عن المردود الصافي والبسيط.

(11) غاستون باشلار (Gaston Bachelard) : «النشاط العقلاني للفيزياء المعاصرة» (L'activité rationaliste de la physique contemporaine) - باريس - منشورات U.G.E. - 10 - 18 - 1951 - ص : 94.

(12) درس ميشيل فوكو بالتفصيل تبدّل النظرة الطبية. «في بداية القرن التاسع عشر ، وصف الأطباء ما

فأكثر الهامش الضئيل الذي كان يمكن لخيال الباحث أن ينتشر فيه. إنَّ المَصْوَرة الطبية أصبحت اليوم مستقلة، في مردودها، عن التقني الذي يراقبها. فالإشارات التي تستعملها صارت عامة. والمُخيال الداخلي للصورة استُبعد. إنَّ الصور المتعددة للحداثة، وبالأحرى تلك الناشئة عن المسار العلمي، لم تُعَد، في هذا الصدد، متضامنة مع نمو المُخيال، كما لو أنَّ الطريقتين كانا متباعدين بعزم. فبعد الإلغاء الذي كان موضوعاً له في القرن السابع عشر، ولا سيما بريشة ديكرت، لم يُعد الخيال يتدخل في البحث العلمي والفلسفي إلاّ بناءً على سهو من الباحث. إنَّ المِخيال كطريق للمعرفة، وبالرغم من جهد السيراليين، لم يعثر مطلقاً على حيويته، ولم يُنَمِّ الوعود التي كان يحتويها. والمَصْوَرة الطبية الطليعية تدفع مطلب الإشارة الى نهايته من خلال القيام شيئاً فشيئاً قطع التيار عن دور الإنسان في تسجيل الصورة. إنَّ دقة المعرفة العلمية تستمد بدقة من هذا المطلب. ففي قراءة المعلومات التي تؤلفها، تكون الأشياء مختلفة بالطبع.

إنَّ الأسلوب العلمي يهدف إذن الى استئصال المِخيال من الداخل. إنه يبحث بعناية عن القدر الأكبر من الموضوعية. فعبر هذا الرفض للمسافة، المتضامنة مع عصر ما، يتم فك رموز نظام الصورة، التي تعود للأثر - الإشارة، أي التي تلتصق على الواقع، وتُمثِّل نسخته الثانية، ويهدف الى إخفاء كل إمكانية مخيالية. إنَّ المَصْوَرة الطبية تريد اليوم أن تكون نوعاً من الشيء «الجاهز للتفكير» و«الجاهز للاستعمال». إنها تطرح نفسها، في خدمة التشخيص أو البحث، كمقدمة للعمل. فهي تنظّم الواقع تمهيداً للطرق العقلانية. وتُحوِّله وفق قواعد قابلة لأن تكون مقبولة لإجراء عمليات عليه. إنَّ التجهيز الذي تجريه يقوم على ثوابت تُوضِّحُ عمل الطبيب أو الباحث. إنَّ الصورة العلمية تُدرك كمعلومة صافية، مجردة من كل إيداع مجازي، وطارهة من أي «صورة خلفيّة»⁽¹³⁾. إن الانتقال من الجسد إلى الصورة، من اللحم الى الشاشة النهائية يريد

= كان بقي خلال عدة قرون عند عتبة المرئي والقابل لأن يُذكر ؛ ولكن ذلك لم يكن لأنهم عادوا للدراك بعد أن تأملوا لمدة طويلة ، أو لأنهم أصغوا للعقل أكثر من الخيال. وإنما لأن علاقة المرئي بالمرئي ، الضرورية لكل معرفة ملموسة ، غيّرت من بنيتها ، وأظهرت للنظرة وفي اللغة ما كان يقع خارج نطاق ميدانها». ميشيل فوكو : «ولادة العيادة» (Naissance de la clinique) باريس - منشورات P.U.F - 1963 . صدرت ترجمة عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت - 1993 - 1992 .

أن يكون نقلاً بلا مسافة، ولا تنمة. وإذا كانت النسخة الثانية تُعطي نفسها في شكل مختلف عن الصورة الأصلية، فذلك لأن الأمر يتعلق حينئذٍ بواقع مُتخَلِّص من الحثالات التي تجعل تحليله قلقاً. هكذا، ومن خلال صيغة رواية علمانية للغنوصية، تصبح الصورة الطبية المولودة من التقنيات الطبيعية، المكان الذي يتم فيه تصفية العالم من شوائبه ليظهر في شكل مُتحوّل تحت رعاية حقيقة مُستوفاة أخيراً⁽¹⁴⁾. لقد أوقعت هذه الصورة، في دائرة الوهم، العالم الحميم الذي نعيشه، عالم الأفكار، أي العالم المُركَّب ثانية من خلال التحالف بين العلم والتقنية التي تصبح حينئذٍ الأمر الحقيقي الوحيد. ومع صور التركيبية التي تظهر من دون نموذج أصلي، أي من دون مرجع ضروري بعيد عنها، يقوم العلم، بطريقة ما، باقتصاد العالم من خلال إنعاشه وفقاً لثوابته الخاصة، في الوقت الذي يُراقب فيه مُكوّناته.

إنّ المصورات الجديدة تستمد دفعها الأصلي من مسعى أفلاطوني جديد، وتتعاطى، مثل الطرق المميزة، بالدخول الى الواقع. صحيح، أنها تسير ظاهرياً بخلاف تحفظات أفلاطون بجعلها من الصورة الشعاع الموجه لجرد معطيات العالم. لكن الأيقونة التي كان أفلاطون يعرفها، أو حتى تلك الخاصة بزمين ديكارت، تلك التي كانت تؤجج عدم ثقتهم، هي اليوم بعيدة جداً. لقد اخترعت الحداثة العديد من الأيقونات الأخرى، ولكن من نظم مختلفة. إنّ رفض الصورة لأسباب ابستمولوجية لم يَعدّ محتملاً اليوم. فالمصورات الحالية للجسد تلاحق عدم كمال العالم من أجل أن

(13) «يعمل المفهوم العلمي بشكل أفضل كلما كان مفصلاً عن كل صورة خلفية»، غاستون باشلار: «شاعرية أحلام اليقظة» (Poétique de la rêverie) - باريس - منشورات

P.U.F. 1960. صدرت ترجمة عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت - 1991.

(14) كما في التقاليد الغنوصية، يرث الجسد كل اللغات التي تُنَدّ بالمادة، العالم الأعمى والناقص، التي يمكن أن تجد خلاصها وكرامتها بفضل الخالق الطيب المولود من تحالف العلم والتقنية. إنّ الاهتمام بتقريب المعطيات البيولوجية إلى أقرب حدّ ممكن، وبإلغاء كل مسافة، يُترجم في الإفراط في أجهزة التصوير، أو في «أولى» العمليات الجراحية أو البيوتكنولوجية. إنّ مفاهيم «الآلة الجسد» أو «الآلية الجسدية» إلخ... تستغل بالكاد باستعارة ما؛ وهي عبارة عن تشابهات تكون دائماً أكثر صحة. إنّ الطبيعة الناقصة للجسد، بقدر ما تدخلها الأجهزة التكنولوجية، تستدعي دائماً أكثر فأكثر إسم الآلة الجسدية، كما لو كانت تكسب في كل مرة من إمكانية تشغيلها.

تقيم فيه الشفافية والتماسك اللذان تُصَفِّيهما عين المُمارس فيما بعد بالمعرفة والعملية الملموسة. إنها غرابة نظرة بدون مسافة، وبالتالي بدون خسارة لمعلومات مُستهدفة وبدون اجتياح لتخيلات غريبة عن الانحراف للوراء. إنها الصورة التي ستكون مثل صفيحة مُقطّعة للعالم، ونقلًا سيكون أيضاً أكثر صحة من الواقع الذي هي نسخة ثانية منه. إنه واقع مُصَفَّى، مُستخرج من الشوائب التي كانت تجعله مُظليماً⁽¹⁵⁾.

المِخْيَال من الخارج

تشير كل صورة، حتى ولو كانت من أكثر الصور تطهيراً، وخضوعاً، بدقة، للإشارة، في الانسان استدعاءً لمِخْيَال. وكما أن فقر الحس لا يستطيع إلا أن يقود لرد من قبل الحلم وأن جدران المدن الوظيفية تستدعي، بنفس الطريقة، النقوش الأثرية. فإن الصورة تشجع الانحراف وتحضّ عليه حتى ولو كانت مقطوعة عن كل «صورة خلفية»، ومسلوخة عن عمقها، ومُختزلة الى مجرد معلومة بحتة. وحين يتعلق الأمر بالجسد وصورة، فإن رمزاً ساطعاً يبدو في الهيكل العظمي، الشكل المُطَهَّر لعلم التشريح، المرتكز لدروس تقوية عن بناء الإنسان، وبنفس الوقت الشكل النموذجي للكوابيس والرعب. إنه نفس الأمر بالنسبة للتمثال ولكليشيات الأشعة السينية أو للصور المعاصرة للتصوير الحراري أو لتصوير الشرايين، على سبيل المثال. إنها صورة الوجه الداخلي لما هو علمي ومُظْلِم. وعندما شاهد هنس كاستروب، للمرة الأولى، جسده عبر «التشريح المضيء»، عانى من صدمة الإنسان الحي الذي يكتشف نفسه من خلال سمات إنسان ميت: «نظر في ضريحه الخاص. تصوّر مقدماً هذه المهمة المستقبلية، مهمة التحلل، من خلال قوة الضوء. رأى اللحم الذي كان يعيش فيه وقد تحلل، وتلاشى وذاب في ضبابية غير موجودة. وفي وسط هذا كان الهيكل العظمي، المُتقن عمله بعناية، في يده اليمنى»⁽¹⁶⁾.

(15) إن تقريباً ، ساخراً بدون شك ، يفرض نفسه هنا. لتذكر التعريف الذي أعطاه كلود ليفي شتراوس للاسطورة. «أسلوب خطاب أو قيمة صيغة Traduttore traditore تتجه عملياً نحو الصفر». في : «الانثروبولوجيا البنيوية» (Anthropologie structurale) - باريس - منشورات Plon - 1958 - ص : 232.

(16) توماس مان (Thomas Mann) : «الجبل السحري» (La montagne magique) (ترجمة من الألمانية م. بيتز M.Betz) باريس - منشورات Fayard - 1961 - ص : 243.

إنَّ الصور المجردة من المِخيال من الداخل يمكنها أن تُثير لدى أولئك الذين يدركونها الحركات الاستيهامية الأكثر إثارة للمفاجأة. فالمِخيال الذي هرب من داخل الصورة ينبثق ثانية بقوة في الخارج نتيجة استعمال الناظر له. إنها، مع ذلك، نفس المضامين ولكن في سياق مختلف. إنَّ التصوير بالصدى أيضاً هو مرصد حلم غني تثيره الصورة، التي لا تعني، مع ذلك، المحسوس إلاً من مكان بعيد جداً، وبطريقة مجردة جداً عبر الأجهزة الالكترونية والوساطة الضرورية للمصوّر من أجل توضيح مضمونها.

في فيلم برنار مارتينو⁽¹⁷⁾ اكتشفت امرأة مُصوَّرة بالصدى طفلها بانفعال ؛ واستطاعت أن تحسّ به بيدها، لكن هذه المعرفة الحميمة والجسدية تبقى أولاً بدون نتيجة. لقد كانت تلزمها صدمة الصورة، والتحلُّل المجرد للجنين على شاشة التلفاز ؛ ورفيف قلب الطفل، المُترجم الى رموز أخرى (أي ليس القلب الحيّ لطفلها، وإنما إشارته)، لكي يتفجّر الانفعال فيها، ولكي تحسّ، للمرة الأولى، أنها أصبحت أمّاً. لقد كانت هزة المِخيال كبيرة جداً بحيث قالت، والدموع في عينيها، أنها «لم تُعد الآن ملكاً لنفسها». إنَّ وساطة شاشة جهاز التصوير بالصدى هي التي أكدت لها حضور طفلها في أحشائها، وليس الحدس الجسدي المدعوم بحلم حميم. إنَّ الصورة الذهنية لم تؤثر من تلقاء نفسها. لقد كانت هذه المرأة بحاجة لتجربة ملموسة كان بإمكان التقنية وحدها أن توفرها لها، وليس جسدها الخاص. وهذا كما لو أنَّ الرؤية فوق الصوتية هي الأداة المُرمّمة لمِخيال وإحساس عاجزين لوهلة ما. إننا ندرك، من خلال هذا المثال، أن الصورة الذهنية تأتي بعد التصوير بالصدى، كما لو كانت تنتظر الإذن منه. وفي الواقع، فإنَّ طابع الإشارة البحتة للصورة يُرفع من قبل مِخيال المرأة لمرتبة الرمز (ولا سيما عندما تستعمل كلمة «قلب» للدلالة على النقطة الطارفة في الشاشة). إنَّ الشحنة الرمزية للكلمة تنشر حينئذٍ العاطفة في الصورة المجردة المرسومة على الشاشة ويمكن حتى أن نقول هنا أن الإشارة، التي تملكها الفاعل، تتحول الى رمز. إنَّ تحولاً مزدوجاً يجري: ففي لحظة الاتصال، تغير الصورة المرأة في نفس الوقت الذي تغير فيه المرأة الصورة. إنَّ الفقر المِخيالي الذي كان متواجداً

(17) برنار مارتينو (Bernard Martino) : «الطفل شخص» (Le bébé est une personne)

- إنتاج القناة الأولى للتلفزة الفرنسية (TF1).

عند جانبي الموضوع يُمحي حيثُذ في الهواء الكامل للحلم. إنَّ الإنسان لا يردّ مطلقاً على موضوعية الأشياء، إن المعنى الذي يعزوها لها هي التي تحدّد سلوكه.

ويبدو أن استعارة الصورة قد سُحِّقَت نتيجة الاهتمام ذي الطابع العلمي الذي يتطلب أكبر قدر من التفحص، لكن الاتصال مع وعي الشخص الفاعِل يُحرّز هذا الوعي من هذا الإكراه. إنَّ الرمز يستعيد صعوده بالنسبة للإشارة. ولكن فقط في هذا العالم غير المحسوس والحميم للوعي. هنا يجري ثانية اللعب بالمسافة والسّرّ وما يُعذر وصفه. ولا يُؤمل القيام بأي جمع. ففي النظرة الساذجة للفاعل، تهرب الصورة الأكثر مراقبة، من الناحية العلمية، من كل جانب من نزيف أحلامه.

هذه الإضافة التي يجعلها المخيال، وهذا النقل الذي ينقل الى شاشة متلفزة بفضل الحاسوب حقيقة الطفل الذي سيولد، وهذا الالتباس بين الموضوع وصورته، يُشار إليها بشكل مُذهل في الواقع بحيث أنَّ أغلبية الأزواج الذين يأتون لفحص التصوير بالصدى يعودون الى منازلهم مع نسخة شفافة لهذه الصورة. إنها ربما الأولى التي ستدخل الى ألبوم الصور الذي سيخصّص للطفل.

على الصعيد السريري، يمكن للمواجهة مع إحدى طرق المصورة الطبية، أو للتصوير بالأشعة أن يُعطي للمريض البرهان على طبيعة مرضه. ويوقف القلق وثبات الوسواس الذي تشجع عليه أعراض المرض. إن المعالَج، الموضوع تجاه كليشه لا معنى له بنظره، ولكن المَوَجَّه بكلام الطبيب، يهدىء مخاوفه ويحدد موقع مرضه بنسبه الصحيحة. حيثُذ يكون للصورة وظيفة تهدئة، وتكون عبارة عن مخيال - مضاد. وذاك هو عملها الأكثر شيوعاً.

لكن صورة الجسد الداخلية التي أصبحت مرئية تظهر، أحياناً، للطبيب أنَّ مريضه «ليس لديه شيئاً»، خلافاً لادعاءات هذا الأخير الذي يشكو من آلام مختلفة. إن التعارض حيثُذ يكون واضحاً بين مرض الطبيب ومرض المريض. وبما أن البرهان الموضوعي على المرض لم يعطَ (من قبل المصورة الطبية) فإن الألم يُعزى للتخيّل المرضي للمعالَج. إنَّه مريض بالوهم. إننا نعرف في هذا الصدد العدد الهام للمرضى الذين يشكون من آلام لا يستطيع الطب تشخيصها. إنَّها الأمراض المُسمّاة «بالوظيفية».

لكن المعالَج يستطيع، بعكس الطبيب، أن يرتاح في الشعور بمرضه حين

يلاحظ كليشه لا يمتلك رموز قراءته ويخشاه فقط مع استيهاماته، بحثاً عن تأكيد مرئي لما يتألم منه. إن تمزيق الكليشه يُعرض حينئذٍ لرؤى مختلفة جذرياً. إن مخيال المعالج يأتي لنجدة آلامه وليثبت على الكليشه الطابع المادي لألمه. وانطلاقاً من مخيال آخر، مخيال العلم، يرى الطبيب في الطابع العادي للكليشه إشارة للصحة الجيدة للشخص الذي يعالجه. وحينذاك يستطيع أن يعترف بالألم ويسعى لتقويمه بوسائل تشخيص أخرى، منها الكلام، والإصغاء، أو أن لا يأخذه على محمل الجد. وفي هذه الحالة الأخيرة، من الشائع أن يقوم المُعالج، وتحت إبطه ربطة صوره الشعاعية، بطرق أبواب أخرى إلى أن يفهم طبيب آخر الألم الذي يُعبر عنه.

إنه اختلاف في المخيلات والمعارف، التي تستند على أسلوبين في القراءة. بهذا المعنى، يمكن للتصوير بالأشعة، أو أي مَصَوْرَة أخرى، أن يعمل على طريقة اختبار إسقاطي. وعندما يُدرّكه المعالج يُقدّم كليشه مرضه نفسه على طريقة لوحة رورشاش (Rorschach).

ويمكن أن نأخذ من «الجبل السحري» لتوماس مان مثلاً آخر عن الحيوية الخيالية لصورة تبدو محايدة في ظاهرها، ومسلوبة علمياً من كل زخارف وحتى من كل إنسانية. لقد عاش هانس كاستروب في اضطراب عميق تجربته الأولى مع التصوير بالأشعة. وكان بيهرنز، الطبيب المسؤول عن هذا القسم في مستشفى دافور-بلاتز، قد أدخل بنفسه، بدون شك، الانحراف المخيالي حين تحدث بلا اكتراث عن الصورة «الداخلية» التي كان عليه أن يأخذها للمهندس الشاب. إن انتظار هذا الأخير في الصالة المُخصّصة للتصوير بالأشعة تُذكّر بتوتر تجربة دينية كان تحطيم حدود الجسد فيها يعادل تعرية الكائن البشري. لقد تحركت مشاعر هانس كاستروب وارتفعت حرارته قليلاً. «حتى الآن، لم يتم مطلقاً سبر غور الحياة الداخلية لجهازه العضوي بهذه الطريقة» (ص: 234). أما بيهرنز فتمتع باشاعة الغموض حول الصور التي سيأخذها: «بعد لحظة، سنراك بشفافية.. أعتقد جيداً أنك خائف، يا كاستروب، من فتح قلعتك الداخلية لنا». إنها تقريباً لغة رمزية تلك التي استعملها عندما تكلم عن «التشريح بالضوء». ولقد طبع الفحص نفسه بمظهر احتفالي، وشبه طقسي، لن تتخلى عنه القراءة اللاحقة للكليشه (ص: 240).

هذا التشابه الذي يعطي لفهم داخل الجسد معنى فهم للكائن البشري برز بقوة

من خلال الموقف السريري لبهرنز الذي استنتج من حالة أعضاء الشاب فصلاً مختلفة من طفولته على طريقة مُدَّعي الرُّوى. وأكثر من ذلك، أيضاً، فكليشه التصوير الشعاعي يعمل من أول الرواية الى آخرها مثل شيء ما حميم وأساسي أكثر من صورة شخصية. إنَّ هناك أولاً «الرواق الخاص» لبهرنز، وهو صفّ من الصفائح التي تمثل قطعاً من أعضاء عدد من المرضى. إنَّ الوجوه المدهونة بالألوان تبدو بالية بالمقارنة مع التلوين الضوئي الذي يستولي على الصورة الشخصية «الداخلية». إنَّ الوجه يفقد سموه الانطولوجي. ويكفّ عن أن يكون المصدر الحميم لهوية الإنسان. إنَّه ليس مطلقاً، بالفعل، إلا مملكة عالم ذي مظاهر عضوية. ولن يبلغ، مطلقاً، عمق وألفة هذا الوجه الداخلي الذي سمح التصوير الشعاعي بالدخول اليه. ويأخذ بهرنز، المُبتَهج، أنفاساً مسموعة كأنفاس المصور المحترف عندما يطلب الى هانس كاستروف: «ابتسامة صغيرة، من فضلك»، وذلك قبل أن يُشغّل الجهاز التقني. ويُرتّب هذا الأخير، بعناية كبيرة، في محفظة اللوحة الزجاجية الصغيرة المؤطرة برباط من الورق الأسود «مثل بطاقة هوية بشكل ما» (ص: 267).

إن سمو الصورة الداخلية للجسد على الوجه واضح جداً في طلب كاستروف الى كلودايا شوشا التي يحبها: «أنا، رأيت صورتك الشخصية الخارجية، لكنني كثيراً أفضل صورتك الداخلية». وتسلّم كلودايا برغبته. فهذه هي الصورة بدون وجه «التي كانت تُظهر العظام الرقيقة لجذعها، المُغلّف، بشفافية طفيفة، بأشكال لحمها، وكذلك بأعضاء تجويف صدرها». ويكرّس هانس للوحة الزجاجية الصغيرة عبادة أثناء الغياب المؤقت لكلودايا التي عادت الى مسقط رأسها. «كم من مرة كان يتأملها ويضغط على شفاهه، طوال الزمن الذي إنساب منذ ذلك الحين» (ص: 381).

إننا نرى المسحة الشهوانية التي تُعدّ الكليشيات موضوعاً لها. هكذا تأخذ غيرة هانس طابعاً حاداً عندما يتخيل كلودايا وهي تحت رحمة أجهزة تصوير بهرنز الشعاعية. لقد رسم هذا الأخير أخيراً صورته الشخصية: «لقد أعاد انتاج مظهره الخارجي على نسيج بواسطة زيت وألوان». إنَّ هانس يقبل هذا، «ولكن في الوقت الحاضر، وفي الظل الخفيف، يُوجّه عليها الأشعة الضوئية التي ستكتشف داخل جسدها». ويبدو أن بهرنز نفسه يشاطره هذا الميخيل. ففي تعليقه، في يوم ما، على صورة كلودايا، قال، ليس بدون خبث، لهانس، المندهش من نوعية مردود الجلد على

النسيج، أنَّ مهنته تعطيه «معرفة كتومة عن الأشياء التحتية» (ص: 286)⁽¹⁸⁾.

إنَّ مخيال الشفافية الذي يستدعي شبح الروح في الصورة الطيفية للجسد لا ينزع سلاحه اليوم. إننا نجده ثانية في ريشة ابيستمولوجي يقط هو فرانسوا داغونيه. لقد حلم هذا الأخير بمعرفة شبه مطلقة قابلة لأن تستنتج من ملاحظة السيوررات الأيضية (ومن دون أي انحراف) خط سير فكر الشخص المعالج. وها هو خيال المستقبل في أنظار الطبيب والفيلسوف: «لما لا، غداً، نصل الى التصوير الشعاعي للأرواح واضطراباتنا؟ إننا نعلم كيف نشخص الكذب أو الحيلة أو عدم الصحة. وبالفعل، فمن أجل خداع الآخرين، يجب تشغيل طاقة أو عُدة تكبت الحقيقة أو تراقبها، وتشرف عليها بما فيه الكفاية لكي لا تجتاز السد وبالتالي تتجلى. لكن هذا التعقيد النفسي - الدماغي الذي يستقطب ثنائياً النشاط المركزي يؤدي الى إنفاق طاقي شبه خلوي. وسنعرف كيف نفاجئه. فكما يُظهر المُصوِّر الدماغ الذي يعمل أو الذي ينام، كذلك سنعرف قريباً كيف نُميِّز ذاك الذي يجيب آلياً أو ذاك الذي يفكر أو يعقد سلوكه المثالي»⁽¹⁹⁾. إن الرجل العلمي الذي تندفق لديه «الصور - الخلفية» يلاحق الطرائد الصغيرة، ولا يرى أفضل القطع وهي تمرَّ أمام عينيه.

المعرفة والرؤية

هناك أسطورة مؤسَّسة في الاستعمال الدقيق للمصورة الطبية. أسطورة بالمعنى السوريلي للكلمة، أي صورة - قوة تبلور طاقة ابيستمولوجية وتقنية. وهناك تشابه بين المعرفة والرؤية، كما لو أنَّ الحقيقة النهائية للجسد لن يتم بلوغها إلاَّ مع الجزئية

(18) أدى الاعلان عن اكتشاف الأشعة السينية سريعاً الى نشوب موجه من الاستيهامات التي تبرز جيداً هذا المِخيال للشفافية، والإضافة التي أطلقتها أجهزة التصوير بالأشعة. هكذا أعلنت إحدى صحف نيويورك أنَّ الأشعة السينية استُعملت من أجل إرسال الصور التشريحية مباشرة الى أدمغة الطلاب. إنه «تصوير للروح» يصبح عالم معاصر مؤكداً أنه حقق المئات من هذه اللوحات. وهناك بعض العُينات في لوسي فرانك سكوير (Lucy Frank Squire) «مبادئ التصوير بالأشعة» (Principes de radiologie) - باريس - منشورات Maloine - 1979 - ص: 359 - 360.

(19) فرانسوا داغونيه (François Dagognet): الصورة في نظر الايستمولوجي «L'image au regard de l'épistémologue» - في مجلة: (Prospective et santé) - المرجع السابق ذكره. ص: 9.

الأخيرة التي تلاحقها الكاميرا. إنها الفكرة القائلة بأن علم طب مطلق ينتشر وراء تكامل أجهزة الرؤية التي تساعد على تكوّن معرفة قصوى حول السيرورات العضوية، وتشخيص لا عيب فيه. لكن مزايدة التقنيات لا تؤدي بالقوة الى زيادة الفعالية في معالجة المرضى. وبالعكس، فإن الطب الحديث في أزمة. أزمة داخلية، آتية من شك العديد من الأطباء الذين يخشون أن لا يؤدي هذا «السباق للتسلح» إلى إلحاق الضرر بالمرضى، وأزمة ثقة من جانب الجمهور الذي لم يُعَدَّ يتعرف فيه على تجربته، ويجد نفسه دائماً أكثر غربة عن مساره. ومن الغريب أن الطب المفرط في التخصص هو الذي يُرفض اليوم باسم مظهره الطبي الضيق، وطبيعته «العدوانية»، والسلبية التي يغمر بها الأشخاص الذين يُعالجهم، والمسائل الاخلاقية التي يثيرها حين يضع المجتمع أمام الأمر الواقع، والباطنية التي يُنمّيها، والنتائج التي ابتعدت غالباً عن الآمال التي أدّى لولادتها. إنّ اللجوء الكثيف «للعلم» الطبية المُسمّاة «بالعذبة» هو نقد عملي أتى من جانب المستعملين الذين يبحثون عن علاقة مع الطبيب تتسم أكثر بالطابع الشخصي، وذلك عبر رفض للتقنية والمعالجة المغفلتين من الاسم. إنّ الطب الغربي، أثناء تكوينه لمعرفته، وكما قلنا سابقاً، وضع الانسان بين قوسين لكي لا يهتم إلاّ بجسده. إنّ المعرفة الطبية تشريحية وفيزيولوجية. إنها تخفي الشخص، وتاريخه الشخصي، وعلاقته الحميمة بالرغبة والقلق أو الموت. وهي تهمل نسيج العلاقات الذي يندرج فيه لكي لا ينظر إلاّ «لآلية الجسدية». إنها ليست معرفة عن الانسان. فبنظره للمريض كتفصيل لتلَفِّ يَمَسُّ أساساً الجهاز العضوي، وليس الكائن البشري، يبقى الطب الحديث أميناً للشئانية الفيسالية. هكذا يحمل الطب النووي المفرط في التقنية، بأجهزة تصويره، الانفصال الى مستوى إبعاده الأعلى.

لقد أعلن فرانسوا داغونيه نهاية الطب العلائقي (وهو بالذات ما يطالب به المستعملون). وأكد أنّ الطبيب، «بفضل التقنيات الطبية الجديدة»، يجب أن يتخلى عن أدواره البدائية ككاتم سرّ، أو ككاهن مواسي، أو حتى كمرآب يقظ بسيط. لقد أخذت أجهزة التصوير مكان الصدارة⁽²⁰⁾. فإذا اكتفى بهذه المعلومات فقط، واعتبر أن كلام الشخص الذي يُعالجه لا قيمة له وغير دقيق بالمقارنة مع ما تُعلّمه له المصورة ؛ وإذا لم ينظر الى المعرفة كوسيلة، وليس كغاية ؛ وإذا اكتفى بأن

(20) François Dagognet, المرجع السابق ذكره - ص : 9

يصبح الواصف المفرط في التخصص لأدوات التشخيص التي يستعملها، فإن الطبيب سيبعد عن المريض، ويُسقط أكثر فأكثر المرض بفصله عن المغامرة المفردة والثابت الخاصة للمعالج. إنه لن يضع في المقدمة نوعية حضوره، وإنسانيته أو تخميناته المستندة على معرفة جيدة للمريض، وإنما يُفوض السلطات الى تقنيات تُقَطِّع الجسد ولا تقول شيئاً عن المريض. إنَّ معالجة المعلومات تحلَّ محلَّ معالجة المريض، بدل أن تكون مرحلة في هذا السبيل: إنه طب الأعضاء وليس طب الانسان. إننا نأخذ على الطب أن يكون ميكانيكية للجسد (لقد كان أوغست كونت يقول بطريقة قريية أن الطبيب كان بيطري الجسد البشري) أكثر مما هو علاجية لشخص. في هذه المرة، وفي الساعة التي يقوم فيها الميكانيكيون باجراء تشخيصات الكترونية على محركات السيارات، يجازف الطبيب، المشدود الى أطرافه، المفتون باعطاء أرقام لعضو أو لوظيفة، بجعل الاستعارة أكثر صحة أيضاً. هنا أيضاً يمكن استحضار فرانسوا داغونيه لدعم هذه النزوة التقنية للطب الحديث: «إننا نعرف الأطروحة التي ندافع عنها، المُشَاظَرَة والمُنْتَشَرَة بشكل واسع جداً، والقائلة بأن الطب هو مثل ثمرة التقنيات التصويرية، المُهيَّأَة لحصر ورؤية الاضطراب. وذلك لأنه يعمل على التنوير، ويعيش ليس من الظلال، ولا من الكلام، وإنما من الصور»⁽²¹⁾. إنَّ المرض، في هذه الوضعية القصوى (والخيالية) لم يَعمُدْ بالنهاية من شأن المريض وإنما من شأن الطبيب. وفي الوقت الذي يتساءل فيه العديد من الأطباء عن مهنتهم، ويدركون ضرورة أخذ المعطيات الاجتماعية والنفسانية للعلاقة العلاجية بالحسبان، ويسعون لاقترب أقل تقطيعاً من مريضهم، تبدو النزوة التقنية التي تخفي هذا التساؤل أكثر حيوية في القطب الآخر. إن المهنة الطبية توجد اليوم في مرحلة بحث وتركيب وتساؤل. وحول الرمزي والجسد تتحدد مراهناتها.

إنَّ الكل هو أكثر من مجموع أجزائه، والجسد الذي يعطي للإنسان وجهه ويفرس جذور حضوره ليس مجرد جمع لأعضاء. كذلك فإن الانسان هو شيء ما أكثر من جسده. إنَّ المصورات الجديدة، حتى ولو كانت مفيدة، تزيد أحياناً من التباعد بين الطب والمستعملين له، وذلك باعطائها للمعالج (إننا نتردد حينئذ بتسميته هكذا) الوسائل التقنية التي تمكنه من القيام بأقصى تقطيع للجهاز العضوي. إن اللجوء الى

(21) فرانسوا داغونيه : «فلسفة الصورة» - المرجع السابق ذكره - ص : 114.

التقنيات الطليعية تزيد من المسافة بين الطبيب الممتهل لمعرفة باطنية يرفض في أغلب الأحيان أن يشاطر بها الآخرين (وتصبح دائماً أكثر تجريداً للدنيوي) ومستعمل لا يمتلك أي معرفة عن نفسه، غريب، من حيث التعريف، عن الدلالات التي تجتازها، وبالتالي مُهيأً لأن لا يفهمها.

لقد تكلمنا عن مجتمع ثنائي من تمييز السرعات والمراهقات التي تتعارض اليوم، ظهراً لظهور، في العالم المعاصر. ويمكن الآن الحديث عن طب ثنائي مُوجَّه وفقاً لاتجاهات متعاكسة. طب يركّز أكثر على تقنية وعقلانية طرقة، ويلجأ، بشكل محتمل، لأدوات متطورة جداً سواء في البحث التشخيصي أم في معالجة الأمراض حيث يكون التبادل مع المريض أمراً ثانوياً جداً. ومن جهة أخرى، على سفح آخر، يوجد منظر آخر متنوع: فهناك طب موجود أكثر على علو الانسان، مُتنبّه بالأولى للمريض أكثر من المرض، ويسعى جاهداً لعلاج الانسان أكثر من العضو؛ وهناك تشكيلة «العلوم» الطبية «العذبة»، التي يُفضّل فيها المُمارِس، على حدٍ سواء، الاتصال والطرق الأقل «عدوانية»، وهي علوم طبية مُجرّبة، لكنها تركز على أسس منطقية مغايرة للأسس التي يقوم عليها الطب الكلاسيكي، وهناك أخيراً المُطبِّبون التقليديون الذين يقفون اليوم على المعارف القديمة عن الجسد حية، وهي المعارف التي لم تنجح العقلانية، ولا سيما الطبية، مطلقاً في خنقها، والتي تعرف اليوم مزيداً من الحيوية الاجتماعية. إنّ هناك إذن من جهة أولى، طب يُركّز على الفعالية التقنية والعقلانية، ومن جهة أخرى، «علوم» طبية تركز في جانب كبير من عملها على الفعالية الرمزية⁽²²⁾، وذلك بغض النظر عن التقنيات التي تستخدمها أيضاً.

المُصوِّرة الذهنية: نظرة المُخيال

جَرَّد الطب الصورة من كل جانب آخر لها، ومن كل ذاتية. وجعل من ممارسته استعمالاً عقلانياً يُركّز على فعالية التقنيات والمعارف التي يكون كل تحيّل فيها ذا آثار ضارّة. ومع ذلك، فإن بعض المرضى يجدون ثنائية اليوم، عبر اللجوء المنهجي للمصوِّرة الذهنية، قوة خيالهم ويستعملون موارده من أجل العثور على طريق الشفاء.

(22) إنّنا نتحدث هنا بالأحرى عن تعارض في الاتجاهات، نظراً لأن الطب الأكثر تقنية لا يستطيع أن يخفي كلياً من فكر المريض لعبة الرمز، ولأن العلوم الطبية الأخرى تلجأ هي أيضاً الى تقنيات يُفترض فيها أن تؤثر بفعل فعاليتها الخاصة بها.

وهؤلاء هم غالباً من المرضى المصابين بداءٍ خطير، وأحياناً من الذين وصلوا الى المرحلة الأخيرة من السرطان. وهكذا يقوم المريض، بمساعدة معالج (أو لوحده) بالنظر، على طريقته الخاصة، الى الاضطراب العضوي الذي يجعله يتألم، ويُعَدّ، عبر سيناريو من اختراعه الخاص، سبيل تقدّمه التدريجي نحو الشفاء. وأحياناً، يحيك نسيجاً خيالياً إنطلاقاً من تقنيات تُستعمل من أجل شفائه. إنّه يحرف عن استعمالها العقلاني الكليشيهات التي سلّمه إياها الطبيب أو الصور التركيبية التي شاهدها على الشاشة والتي تضيي طابعاً موضوعياً على مرضه، باعتبارها مصدراً لمصورته الخاصة. إنّ الصور التقنية تكفّ حينئذٍ عن أن تكون مناظر مُقَطَّعة لتصبح صوراً حية يكون المريض فيها حاضراً بصفته شخصاً فاعلاً⁽²³⁾.

إن الجسد الذي يُحلّم به بهذه الطريقة يجد ثانية بُعده الرمزي. إنه لم يُعَدّ مأخوذاً بحرفية مادته وإنما في الحركة الاجتماعية والحميمة للرمز في آن واحد⁽²⁴⁾. إنّ المُعالِج، بغرفة من هذه الطاقة، التي يستمد حقلها معينه من أكثر ميخايل غير قابل للادراك في الإنسان، يعبىء في نفسه قوى الشفاء. وفي أغلب الأحيان، يُنظر هنا للمصورة الذهنية بصفقتها طريقة مساعدة تضيي طابعاً احتمالياً على التقنيات الطبية لمُستعملة بشكلٍ موازٍ (المعالجات بالأشعة، المعالجات الكيميائية، الخ...).

إن كوزتوغلوتوف (Kostogloutov)، أحد مرضى «جناح مرضى السرطان»، لسولجنتسين، يلجأ بشدة الى هذه الوسيلة: «بالفعل، كان يسير نحو الأفضل ؛ كان يتمدد بهدوء تحت الأشعة، ويثابر ذهنياً على إقناع خلاياه المريضة، بأنهم كانوا في طريقهم لإبادتها، إذا صَحَّ القول»⁽²⁵⁾. إن استخدام الصور الذهنية أخذ يشهد بالنسبة

(23) إننا نستشهد هنا بشكل خاص : ب : كارل سيمونتون (Carl Simonton) وستيفاني ماتويز - سيمونتون (Stéphanie Matthews-Simonton) ، وجيمس كرايتون (James Craighton) : «الشفاء تجاه وضد الكل» (Guérir envers et contre tout) - مترجم عن الانجليزية - باريس - منشورات Epi - 1978 - أنظر أيضاً آنا انسولان - شوتزنبرجر - Anne Ancelin-Schutzenberger «إرادة الشفاء» (Vouloir guérir) - باريس - منشورات (Toulouse, Erès-la-Méridienne) - 1985.

(24) دافيد الوبرتون الجسد والمجتمع مرجع سبق ذكره.

(25) الكسندر سولجنتسين : «جناح مرضى السرطان» (Le pavillon des cancéreux) - مترجم عن الروسية - باريس - منشورات Julliard - 1968 - ص : 106.

للمريض على ضرورة المشاركة بنشاط في سيرورة شفائه، والاندرج أمام ألمه في موقف أمل إبداعي وليس في انتظار سلبي لشفاء يأتي بشكل مستقيم من الخارج. إنَّ المعالِج (وهذا التعبير يكشف عن طبيعة الرؤية الطبية الكلاسيكية) الذي تُحرّكه «إرادة الحظ» (على حدّ تعبير ج. باتايّ) (G.Bataille) يختفي، ويقوم، بعد أن أصبح فاعلاً، بالتعلّم على الاستقلالية، ويجد ثانية روحاً خلاقة داخلية، كانت غالباً متروكة بعد الطفولة. إنَّ تقنيات الرؤية الطبية تُؤطّر داخل هدفها مادة الجسد، وتنسى الأوردة الرمزية التي تعطيها الحياة والألم والفرح أو الموت. إنها تحصل من الشخص على نوع من بياض الصمت والغياب. وتهتم بالإنسان أقل مما تهتم بالسيرورات التي يُعدّ موضوعاً لمرآتها. وبالعكس، تدرج المصورة الذهنية الشخص في قلب مرضه على طريقة تحدي مرفوع. وتدفع كامل - هواء صور الميخال. إنَّ المريض يستعيد تذوّقه للحياة، وهو يحلم بنقاته، وعيونه مفتوحة على الصور، وهو يقاتل خطوة خطوة ضد مرض يُقلّ ليس على شاشة نهائية، وإنما إلى فضاء ميخاليه غير المحدود بالمكان ولا بالزمان. إنه يغرس أمله في شفاء قريب في الممارسة اليومية للمصورة (المتحالفة على كل حال مع ارتخاء الأعصاب). إنَّ الإنسان يعيش الطبيعة الموضوعية للوقائع أقل مما يعيش المعنى الذي يعطيه لها. وفيما وراء الجسد التشريحي - الفيزيولوجي، يرتبط المريض ثانية بطريق الرمز الذي من خلاله سُبّنى كل فعالية عندما يتعلق الأمر بالشفاء. وهكذا يجد وحدته كإنسان.

إنَّ الجسد، المُربّع بحزمة من التقنيات، لا يُفشي سرّه بالرغم من آلاف العيون التي تجوب المتاهة التي يعرضها لنظره ؛ كما أنه لا يكشف نفسه، بالنهاية، أمام النظريات الطبية أو النفسانية التي لا تُحصى، والتي تسعى لتطويقه. إنَّ العيون الداخلية التي يُغذيها الكرم التقني، والقرية جداً منه بدون شك، ما زالت لا تنير إلاّ الظواهر. إنَّ من الواجب الذهاب لما هو أبعد، والقيام دائماً باكتشاف نسج أخرى. ولكن، أليس خطّ التوجيه الذي يؤدي الى مركز المتاهة ويكشفها، موجوداً في مكان آخر ؟ وهل هذا الخط موجود أصلاً ؟

الفصل الحادي عشر

طريق الشك: الجسد والحدائث

طريق الشك

هناك طريقان متباعدان، في الظاهر، يعكسان رؤى الحدائث عن جسد الانسان. طريق الشك والإبعاد بسبب مردوده الإعلامي الضعيف، وهشاشته، وجاذبيته، ونقص قدرته على التحمل، من جهة. إنها النظرة الحديثة والعلمانية لفكرة السقوط في الجسد ؛ التي يُعتبر الجسد فيها، وبمنظور شبه غنوصي، الجزء الملعون من الوضع البشري ؛ الجزء الذي تفاهم العلم والتقنية مع بعض على إعادة صياغته وصنعه و«نزع الطابع المادي عنه» من أجل تخليص الإنسان، بشكل ما، من انغراسه المُرْهَق في اللحم.

ومن جهة أخرى، بالعكس، وبشكل من أشكال المقاومة، طريق خلاص الجسد عبر تمجيد إحساسه، وصياغة مظهره، والبحث عن أفضل إغراء ممكن، والهوس بالشكل والرفاهية والاهتمام بالإبقاء على الشباب. إنَّ سوقاً مزدهراً يجعل من الجسد موضوعه المُميَّز تطور ونما في هذه السنوات الأخيرة حول دهون التجميل والعلاجات التجميلية وصلالات الرياضة ونوادي التنحيف، والحفاظ على الشكل، والبحث عن الرفاهية وتنمية العلاجات الجسدية.

في الحالتين، فُصِّلَ الجسد عن الإنسان الذي يُجسِّده، ونُظِرَ إليه كواحد في حد ذاته. إنَّه لم يكفَّ عن أن يكون الأرومة التعريفية، غير القابلة للحلّ، للإنسان الذي أعطاه الحياة. إنَّ نوعاً من الشرخ الأنطولوجي يُعارض بينهما. وعلاوة على ذلك، فإن صور الإعلان التي تشير الى ضرورة الشكل، والاهتمام بالذات، الخ... تُقَطِّع غالباً في

براهينها وحدة الجسد. إنه تقطيع يعكس بالمرآة تقطيع الشخص في الحادثة، ويُبرز جدته. وسواء تعلق الأمر بالجسد بصفته الجزء الملعون أو باعتباره طريق الخلاص الذي يحل محل الروح في مجتمع علماني، فإن نفس التمييز يجري ويضع الإنسان في وضعية خارجية تجاه جسده الخاص. إن الصيغة الحديثة للثنائية تعارض بين الإنسان وجسده. وليس بين النفس أو الروح والجسد، كما كان الحال في الماضي. ويمكن أن نتساءل عما إذا لم تكن الثقافة العالمية، منذ نهاية عصر النهضة، تتحرك بدافع الهوس في التحرر من هذا المعطى المزدوج الوجه، غير القابل للإدراك، العابر، الذي هو الجسد. إنه الهوس الذي يصطدم بالبداهة القائلة بأن اختفاء الجسد يحقق أيضاً اختفاء الإنسان. لكن اللجوء الى النظرة الميكانيكية من أجل التفكير بالجسد هو، في هذا الصدد، نوع من التعويذة. فإذا كان الجسد آلة، بشكل حقيقي، فإنه سينجو من التقدم في السن، والهشاشة والموت. إن الجسد البشري ليس إلا ضعفاً أمام الآلة. ألا يُحضّر المحو الطقوسي للجسد الذي نعرفه اليوم الى إخفاء حضوره بلا قيد ولا شرط؟ إن التقنية العلمية، وهي تنمو، لم تكف عن دفع الدائرة الجسدية البحتة للوضع البشري. ولكن كيف نلغي الجسد أو نجعله أكثر فعالية من خلال استبدال بعض عناصره، من دون أن تُفسد، في نفس الوقت الوضع البشري؟ وإلى أي حد من الممكن دفع الفصل بين الإنسان وجسده؟ وهل الجسد عضواً فائضاً في الإنسان؟

إن تاريخ الجسد في داخل العالم الغربي يُكتب منذ عصر النهضة من خلال تأثير متزايد دائماً في المرأة التقنية - العلمية التي ميّزته عن الإنسان، ويختزل في رواية غريبة للفلسفة الميكانيكية. وعندما انسحب البعد الرمزي من الجسد لم يبق منه إلا مجموعة من الدواليب، وترتيب تقني لوظائف يمكن أن تحل محل بعضها. إن ما ييني حينئذ وجود الجسد، لم يُعَد عدم قابلية الحس للاختزال، وإنما قابلية العناصر والوظائف، التي تضمن هذا الترتيب، للتبادل.

إن الجسد، بعد إبعاده تجريدياً عن الإنسان وكأنه مادة ما، وتفريغه من طابعه الرمزي، يُفَرَّغ أيضاً من بعده الأخلاقي، ويُسلب أيضاً من تحية «هالو» الخيالية التي كانت تُوجّه له. إنه الغلاف التابع لحضور، غلاف يقع مجموع سماته تحت كنف «تناظرية العناصر وقابلية الكل للتحديد»، ورمز لوضع ما بعد الحديث، حسب تعبير ج.ف.ليوتار (J.F.Lyotard). لقد جعل التقدم التقني والعلمي، والفراغ الأخلاقي

الذي اجتذبه، من الجسد البشري سلعة أو شيئاً مثل أي شيء آخر. وأخذت الصيغ الميكانيكية لفلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر، بعد ذلك بمدة طويلة، طابعاً حقيقياً فريداً. لقد مهّدت هذه الصيغ لإضفاء طابع موضوعي على الجسد الذي لم يكف عن التمدد في ميدان التطبيق العملي الاجتماعي. وكانت الصيغ الأولى التي جعلت من الممكن التفكير بأساليب إضفاء طابع تقني على الجسد. إنها الأساليب التي تأخذ اليوم كامل انطلاقتها. إنّ الجسد البشري يصل الآن، بعد أن فقد، على كل حال، الهالة التي اكتسبها منذ أيام فيسال، إلى «عصر إمكانية إعادة انتاجه تقنياً».

الجسد في قطع غيار

كلما فُقدَ الجسد، المنظور له فرضياً كشيء متميز عن الإنسان الذي يجسده، قيمته الأخلاقية، كلما ازدادت أكثر قيمته التقنية والتجارية. إنّ الجسد مادة نادرة. لقد فتحت إنجازات الطب والبيولوجيا (زرع الأعضاء، نقل الدم، الترميم، المناورات الوراثية، المساعدة على الإنجاب، الخ) الطريق لممارسات جديدة يتم الإعلان بسببها عن مستقبل مزدهر. وأعطت للجسد قيمة مادة ذات سعر لا يُقدَّر بنظر الطلب. إنّ الحاجة للأعضاء أو للمواد البشرية تستدعي أربعة استعمالات على الأقل: البحث الطبي والبيولوجي الذي يستعمل العديد من المواد البشرية ؛ تصنيع المنتجات الصيدلانية ؛ عمليات زرع الأعضاء التي جعلها التقدم في علم الجراحة أكثر شيوعاً وتنوعاً ؛ وأخيراً الاستعمالات التقليدية في كليات الطب (التشريحات، الخ). لقد حُلِّلَ الجسد إلى عناصره، وأُخضِعَ للعقل التحليلي. هكذا يفكر فانس باكر (Vance Packard) بأن «إنتاج، وبيع القطع البشرية المُفكَّكة، وزرعها واستخدامها بعد بيعها، لديها حظوظ لأن تصبح الصناعة التي ستعرف النمو الأسرع في العالم. إنها ستقوم، من حيث رقم الأعمال، بمنافسة صناعة قطع غيار السيارات... وستكون هناك مخازن لقطع الغيار في المستشفيات، تماماً كما في المرائب»⁽¹⁾. ففي العديد من البلاد،

(1) فانس باكر : «الإنسان المُقوَّلَب من جديد» (L'homme remodelé) منشورات Calmann-Lévy 1978 - ص : 283 - حول زرع الأعضاء ومشاكله الأخلاقية والقانونية والاجتماعية ، الخ.. أنظر راسل سكوت (Russel Scott) : «الجسد ، ملكيتا ، وزرع الأعضاء وتجارتها» (Le corps, notre propriété, les greffes d'organes, et leur commerce) منشورات Balland 1982. (مترجم عن الأمريكية). إننا نستوحي أحياناً من هذا المؤلف في السطور التالية.

وبطريقة رسمية أو سرّية بالنسبة للدول التي وضعت عدم قانونية بيع الأعضاء أو الدم من قِبَل مُعْطِين أحياء، يقوم أفراد محرومين بعرض بيع أجزاء من أجسادهم (كلية، عين، خصية، الخ) الى مُتَلَقِّين لقاء مبالغ تسمح لهم للحظة بتغذية أسرهم. ففي البرازيل، وهي مثال من بين أمثلة أخرى، تنشر الصحف إعلانات خاصة بعرض أو طلب الأعضاء. وبالنهاية، فإن الطبقات الشعبية تصبح أحواضَ أعضاء (أو دم) للطبقات المتميزة أو لرعايا البلاد الأكثر حظاً. إننا نعلم أهمية بيع الدم بالنسبة لبعض السكان المحرومين في العالم الثالث الذين لا يملكون أي وسيلة أخرى للبقاء. إن الطلب على الدم أصبح كبيراً في البلدان المتقدمة ؛ وأولئك الذين لا يستطيعون أن يحصلوا منه على ما يكفيهم من مواطنيهم، يجب عليهم أن يستوردوه من الخارج. وبالرغم من التحفظات التي تنصّب على تجارة الأعضاء البشرية، فإن الدم يستفيد من حرية نقل واسعة بخلاف المواد الأخرى. ولكن، هنا أيضاً، يمكن بسهولة تبيّن الاتجاه من طرف واحد لهذا التبادل الذي يذهب من البلاد الأكثر فقراً الى الأكثر غنى. وهذا مثال رمزي: ففي عام 1977، وفي نيكاراغوا ثار الجمهور ضد سوموزا الذي أحرق معملاً للبلاسما. لقد نشأت أيضاً تجارة للمني، والبول، والعرق والجلد. وتجارة للأجنة من أجل التجارب الصيدلانية أو من أجل تصنيع منتجات التجميل (أنظر: صحيفة La croix، عدد 31 كانون أول / ديسمبر 1981). وفي الهند، ظهرت تجارة الجماجم والهيكل العظمية البشرية المهيأة لتغذية البحث الطبي في المخابر الغربية. «إنّ بين خمسة عشر وعشرين ألف هيكل عظمي وخمسين ألف جمجمة وعظمة مختلفة جرى تنظيفها، ونزع شحومها، وتبييضها، وتصنيفها، وتغليفها هنا (في باتنا) قبل أن تأخذ، في كل سنة، طريقها الى الجامعات والمخابر الغربية (باتريس كلود، صحيفة Le monde). إنّ البلاد التي تحصل عليها هي: الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وفرنسا، وألمانيا الاتحادية، واليابان، واسرائيل وهونغ كونغ الخ. لقد لاحظ جان زيفغر، منذ عام 1975، تغير العقلية، لدى بعض الفئات في الوسط الطبي، الذي أدى الى نظرة تحليلية وأخلاقياً لا مبالية لمرُكّبات الجسم البشري. «كان من الممكن التفكير بأن الجسد، على الأقل، باعتباره المعقل الأخير للفردية الملموسة للكائنات، بما فيه من مسالك غامضة، وأعضاء مُخَبَّأة، وحياة سرية، سيقى بمنأى عن الأكل التجاري للحم البشري.... إن الكلى والقلب والرئات، وقرياً الكبد، أصبحت سلعاً... إنّ الأعضاء الأساسية للإنسان يجري شراؤها وبيعها وزرعها وتخزينها والمتاجرة

بها. إنَّ فهارس مُزَيَّنة برسوم الأعضاء المعروضة للبيع يتم تداولها في عالم المستشفيات الأمريكية. كما بدأت بالعمل، بمردود كامل، مصارف وبورصات للأعضاء»⁽²⁾

إن تقدم الطب في ميدان زرع الأعضاء يثير حالات ضميرية ذات حِدَّة كبيرة، أحياناً، لدى المريض أو الجريح، بالطبع، ولكن أيضاً لدى الطبيب الذي يقرر الزرع. والنتائج الإنسانية لهذا العمل، الضروري غالباً، كبيرة جداً لأنها تجعل من الكائن البشري نفسه مادة من بين مواد أخرى. إنَّ الجسد البشري يصبح موضوعاً جاهزاً، وحَقلاً تُمَيِّزه الندرة والمراهنات الطبية فقط عن المواضيع الأخرى. فباسم الحياة (حسب الصيغة المُكْرَّسة)، ومن أجل إنقاذ وجود المرضى، يخترع العالم الغربي شكلاً غير معروف سابقاً من أشكال أكل لحم البشر. إنَّ الجسد البشري، موضوع هذا النقل، هو هنا كشكل من الأنا الآخر للإنسان: إنه يبقى علامة للإنسان ؛ إنه لم يُغَد تماماً الإنسان، لأن المشاريع التي تُطبَّق عليه صارت شرعية، بعد أن كانت تُعْتَبَر غير مقبولة إجتماعياً فيما لو كان ينبغي تطبيقها على إنسان وليس على جسد مفصول عنه. إن الشرح الذي يميز مؤقتاً الإنسان عن جسده يحمي من تساؤل مخيف.

تلك هي أيضاً صورة الجثة، الموضوع الذي انتزع العضو منه: إنها لم تُعد تُعتبر إنساناً، لأنَّه انتزع منه ما كان يساهم في كيانه. لقد صار من اللازم اعتباره كعلامة على لا شيء. لكن الاستمرار في إعطائه، من جهة أخرى، ظلاً من إنسانية يعود لأن عضواً مُنتزَعاً منه سيدخل بدوره في كيان فرد آخر.

إنَّ الوحدة البشرية تُقَطَّع، والحياة تأخذ مظاهر القوة الميكانيكية. إنَّ الجسد، المُقَطَّع إلى مُرَكِّباته، يقع تحت قانون التحوُّل والتبادل الذي يُعَمِّم بسهولة أكثر كلما كانت المسألة الانتروبولوجية مُحْفِيَّة. فكل فاعِل يرى نفسه وقد تَرَفَّع، كمعطي أو مُلتَقِي، إلى مرتبة الترميم المحتمل، حسب الظروف⁽³⁾. إنَّ مفهومنا للإنسان هو، هنا،

(2) جان زيغلر (Jean Ziegler) : «الأحياء والموت» (Les vivants et la mort) - باريس - منشورات Seuil - 1975 - ص : 33 .

(3) في الولايات المتحدة ، ثارت مشاجرات في المستشفيات من أجل قصر عمليات زرع الأعضاء على المواطنين الأمريكيين فقط. «إنَّ أمريكيين يموتون ، بسبب نقص الأعضاء ، فكيف ، يقول رئيس مركز إستشفائي ، يمكن ، بكل ضمير طيب ، أن نسمح لأنفسنا بإعطاء أعضاء إلى أجانب» (صحيفة لوموند : 16 - 17 حزيران /

الذي تغيّر بعمق. إن الجسد، في هذا المنظور، لم يثد تماماً وجه الهوية البشرية، وإنما تجميعاً لأعضاء، وملكية، ونوعاً من عربة يستخدمها الإنسان ؛ ويمكن تبديل مقطعها بقطع أخرى من نفس الطبيعة، شريطة توفّر شرط التوافق الحيوي بين النسج. إنَّ الثنائية التي تُغذّي الطب الحديث تُسمّى هنا بوضوح.

إنَّ من الواضح أنَّ نزع الأعضاء وزرعها مُبرِّزٌ إنسانياً عندما تكون هناك من المعطي، وهو على قيد الحياة، موافقة، ومن المتلقي إرادة، وتكون الشروط الطبية والنفسانية مجتمعة من أجل القيام بعملية زرع مواتية.

لقد أعدت أغلبية البلاد تشريعات خاصة بنزع الأعضاء من المتوفين. إنَّ احترام إرادة المتوفى، التي يُعبّر عنها وهو على قيد الحياة، هي في أغلب الأحيان في قلب التدابير المُتَّخَذَة (ومنها، في فرنسا، قانون كيلافيه (Caillavet) الصادر بتاريخ 22 كانون الأول / ديسمبر 1976). وهذا ما يشهد جيداً على اختلاف الآراء في المجتمعات الغربية حول الاستعمال الأداتي للجسد البشري بعد وفاته (Post mortem). إن الجسد يبقى هكذا مادة نادرة لأنه محمي من قبل المقاومات الواعية (ولكن أيضاً غير الواعية) لقسم واسع من الجماعة الاجتماعية. وبالمقابل، تستمر هذه الممارسات، التي لا تطرح على الجراحين والأطباء إلاّ صعوبات تقنية، في تعذيب عامة الناس. إنَّ مصلحة الأوائل تكمن إذن في فصل الروابط بين الإنسان وجسده، بشكل أكثر علانية، وفي اعتماد رؤية أداتية للجسد.

ومع ذلك، فإنَّ الرفض العضوي أو النفساني أمر شائع، في مجال الممارسة. ونادرة للغاية المساهمات الطبية التي تلحظ المشاكل النفسانية التي تصل أحياناً لحد مرض الذهان الذي يعاني منه عدد من الذين زُرعت فيهم الأعضاء أو أعطوها وما زالوا على قيد الحياة⁽⁴⁾. لكنها بالتأكيد مشاكل من طبيعة مختلفة حسب العضو المزروع، والشروط البشرية للزرع. إن المؤلّفات حول الزرع، المدّاحة دائماً، تصمت

= يونيو 1985). لُثير الى أنَّ الإسلام واليهودية يعارضان ، من حيث المبدأ ، نزع الأعضاء وزرعها.
(4) مثال في : دانيال سيبيرتين - بلان (Daniel Sibertin-Blanc) وسيلفي دولاتر (Sylvie de Lattre) : «أزمات نفسية بعد زرع كلوي» (Crises psychotiques après greffe rénale) - في مجلة : **Revue de Psychosomatique** - العدد 3 - 1985. تعطي هذه المقالة قائمة واسعة بالمراجع حول هذه المسألة ، وبشكل أساسي باللغة الانجليزية.

عنها، وتعتمد لدى المستعملين الشعور بأنه لم يعد هناك، في الممارسة الجراحية، من صعوبات في زرع عضو أكثر مما يحصل عند تغيير قطعة تالفة في محرك سيارة. إلا أنه يجب أن نضيف الى التوافق الحيوي للنسج توافقاً نفسانياً بين موضوع الزرع والمريض، وهذا مفهوم من المتعذر أكثر الإحاطة به، وهو يبرز بدقة الاستحالة الانثروبولوجية لإدراك الإنسان كآلة. يبقى أيضاً أن نعلم ما إذا كان رفض الزرع ليس إلا مؤشراً عضوياً لرفض من نوع آخر، أكثر عمقاً، ويستخدم الحجج ما قبل الواعية أو اللاواعية للفاعل.

إن جعل الجسد البشري (وبالتالي، بالتحليل الأخير، الإنسان الذي لا يمكن تمييزه عنه) وسيلة لأجساد أخرى (أي لأفراد آخرين)، حتى عندما يتعلق الأمر بإنقاذ حياة جريح أو مريض، هو أمر يؤدي بالتأكيد لإضعاف الأخلاق الاجتماعية. إن اللجوء الى مفهوم التضامن، وحملات التحسيس من أجل وهب الأعضاء التي تتضاعف، تُعبر بوضوح عن أن الأمور لا تسير من تلقاء نفسها، وأن مقاومة خفية ما زالت تُسمع صوته. إن نقل الدم يعطينا سابقة اندرجت اليوم جيداً في الحساسيات الغربية. إلا أن الدم المنقول ليس له نفس الانعكاسات، على مستوى صورة الجسد، كعضو مزروع. فحتى لو أن مخيال الدم كان قوياً في العقليات الغربية، فإن واقعة تجديده تُؤلد، في أسوأ الأحوال، قلقاً مؤقتاً لدى المتلقي، لكنه يُمحى بشكل محتمل نتيجة شعوره بأنه مدين في حياته لهذا النقل. كما يساهم التنظيم الاجتماعي الذي يحيط بهبة الدم في تعميم الاستعمال الطبي لها. إن المشاكل الأخلاقية هنا شبه غير موجودة، في مجتمعاتنا، وذلك لأن الدم هو موضوع هبة، وأنه يتجدد سريعاً من دون أن يُفسد صحة المُعطي. لكن نزع الأعضاء من نوع آخر. إن القبول الموفق بنقل الدم في مجتمعاتنا لا يحكم مسبقاً إذن بالضرورة على القبول الإجماعي بنزع الأعضاء وزرعها.

إنه البلوغ المنطقي لمعرفة بيوطبية متركزة حول التشريح - الفيزيولوجي، ومُراثة على الجسد، وليس على الإنسان. أما النتائج فيمكن تقويمها بأشكال متنوعة. إنها معرفة ضرورية وفعّالة بالفعل، لكنها تخضع دائماً لفلسفة الطبيب وأسلوبه في السلطة إذا كان رئيساً لقسم في مستشفى. الأمر الذي يعطي لأنظار المراقب آثاراً علاجية مختلفة جداً من قسم لآخر، لأن الطب ليس علماً دقيقاً وإنما هو أساساً فنٌّ إشفاء قائم على معرفة دقيقة، وموقف مُتفهم تجاه المريض. وبسبب هذا التقسيم في العلاجات، وهذه التوجهات المتعلقة بالواجبات الأدبية، المختلفة جداً من طبيب

لآخر، يمكن الحديث عن ازدواجية الطب الحديث. إنَّ هذه الإزدواجية هي ازدواجية الحداثة. لقد تأثر الطب الغربي بعمق بقيم العصر، واستدعى جو اللحظة تقنياته وتجلّياته. إنَّ الطريقة التي يُعالج بها، والأمراض التي يظهر فيها فعاليته النسبية (وإخفاقاته النسبية) هي أمراض الحداثة (السرطان، السيدا (الإيدز)، أمراض القلب، الخ..). إنه ليس طبّاً يأخذ وقت الانسان، مثل الطب الشرقي الذي يقتن بوتيرة المريض ويسعى لإشفائه في مجموعه، باعتباره فاعلاً، وليس بناء على مستوى الأعراض. إنه طبّ يساير وتيرة الحداثة، ويتبنّى فعاليتها الفظة التي تحلّ وتيرتها الخاصة محلّ وتأثر الإنسان. إنّه أساساً، من جهة أخرى، طب الطوارئ، حتى ولو لم يكن غير هذا.

علاوة على ذلك، يجب الإشارة الى نفي الموت الذي يتأسس عليه الطب الغربي: فبدفعه دائماً لحدود الحياة، يضع الطب الغربي مؤقناً الموت في حالة صدى، لكنه يجلب غالباً مزيداً من السنوات للحياة أكثر مما يجلب حياة للسنوات. وفي نفس الوقت، يصنع، دائماً أكثر، من الموت واقعاً غير مقبول وينبغي محاربته. ويجعل أيضاً من الصعب الحداد على النفس، أو على الأقارب بانتظار الأجل المحتوم. إنه يشير عقدة الشعور بالذنب لدى أولئك الذين لم يستطيعوا الحضور الى المستشفى لحظة الوفاة. إنَّ الطب يُنسنا ما تعلمناه سابقاً حول الموت ؛ ويجعل من الموت غيرية مُطلقة لا يربطها شيء بالوضع البشري. إنه يضاعف الموت في الحياة بِشَنّه صراعاً عنيفاً ضد إحدى المعطيات الانثروبولوجية الأساسية للحياة الجماعية، من خلال كبت عصبي لا يستطيع أن يصنع وهماً: إنَّ الأقسام الاستشفائية المُخصصة للإقامات الطويلة والمتوسطة الأجل، وشروط الوجود التي يجب أحياناً قبولها من أجل «الشفاء»، والطريقة التي يهرم بها ويموت عدد من النزلاء في الملاجيء تُظهر ذلك بشكل بديهي. إنَّ الموت يلاحق الطب لأن هذا الأخير يرفض أن يراه وعيونه مفتوحة. كما أن الطب يقتلع جذور المستعملين من علاقتهم الحميمية بالمرض، من خلال جعله لهذه السيورة فشلاً غير وارد لمشروعه.

لقد كان الموت، منذ أمد طويل، يُعدّ نهاية الحياة، والخمود النهائي لانسان، كان الطبيب يكتفي بملاحظته. ولم يكن باستطاعة هذا الأخير أن يفعل شيئاً من أجل تعليق النفس الأخير للمحتضر، فالأمور كانت واضحة، حتى بالنسبة لهذا الأخير أيضاً. إن الموت كان حقيقة بديهية. لكن التقدم الحالي للطب في ميدان الإنعاش

شَوْش هذه المعطيات. فمع تقنيات الإنعاش، لم يُعد الطبيب يلعب فقط دور الكاتب الشاهد على الموت، إنه ذاك الذي يدير شروطه. ويراقب مدته، وذاك الذي، في المقام الأخير، يأخذ القرار الخاص بتحديد ساعته: «(في قسمنا) يُعتبر الموت الحقيقي شيئاً ما يمكن قهره»⁽⁵⁾ إن سيطرته على جسد المريض هي سيطرة على المريض، حتى ولو كان طابع عمله الاحترافي بالذات يُعنى بالإنسان المريض أقل مما يعنى بالمظاهر العضوية لعجزه. إن أقسام الإنعاش هي الأمكنة التي تتحقق فيها بشكل ملموس فكرة الإنسان - الآلة، وازدواجية الإنسان، من جهة، الموضوع بين معترضتين، والجسد، من جهة أخرى، الذي يثير الانتباه المماحك للفرق الطبية. وتُدلي ممرضة بشهادتها بكل شفافية: «بعد عدة سنوات قضيتها في قسم الإنعاش، أصبح المريض بالنسبة لي... آلة - آلة نقيس ثوابتها، نقيس حرارتها، نقيس ضغطها: إننا في الواقع نسهر على حسن سير هذه الآلة، نسهر على أن يكون قناع التنفس مضبوطاً بشكل جيد. وأن يعمل جهاز التنبيه، وأن هناك ماءً في جهاز الترطيب. لو قيل لي هذا في البداية... لكنت قلت: «لكن ما تقولونه هذا فظيع». أما أنا، فأحس أن هذا مثل ذاك. إنني الآن أقيس ثوابت آلة مريض»⁽⁶⁾.

إن تقنيات الإنعاش ضرورية؛ لكن قوتها وواقع كونها لا تهدف، بدقة، للتعامل مع آلة أو مع مجرد جسد، وإنما مع إنسان، يثيران مسائل أخلاقية لا يمكن تجنبها. إنها تُنقذ حياة الكثير من الناس. لكنها تحرم أيضاً الكثير من المرضى من الاحتضار، وتقودهم للموت وسط الضيق الأقصى للوسائل التي يتم السعي من خلالها لإبقائهم على قيد الحياة بأي ثمن. في هذه الظروف، تُطرح غالباً مسألة الكرامة. وهذا مثال من بين أمثلة أخرى: «صحيح أن الموت تنقصه، عموماً، الكرامة. لكنها تنقصه أكثر أيضاً عندما يكون في الإحليل أنبوب قسطرة، موصول بأنبوب آخر لإخراج البول، وحقنة وريدية دائمة، وجرح مُحاط بضمادات وأنابيب مغروسة في التجويف الملتهب الذي يحيط بالجرح، وأنبوب داخل في القصبة الرئوية، مرتبط بمصاصة

(5) كلود جيبيير (Claude Gibert)، قسم الانعاش في مستشفى بيشا، في: برنار مارتينو (Bernard Martino) «رحلات الى طرف الحياة» (voyages au bout de la vie) - منشورات Balland - 1987 - ص: 127

(6) في: برنار مارتينو - المرجع السابق - ص: 117.

وُمُتَّبِتْ عَلَى الْوَجْهِ بِمُسَاعَدَةِ لَصِقَةٍ، وَأَنْبُوبٍ مُتَّصِلٍ بِالْمَعْدَةِ لِلتَّغْذِيَةِ وَمُلَصَّقٍ عَلَى الْوَجْهِ، وَالْأَطْرَافِ كُلِّهَا مُرَبَّطَةً. هَكَذَا، بِهَذِهِ الْحَالَةِ مَاتَ أَحَدُ أَصْدِقَائِي. وَعِنْدَمَا ذَهَبْتُ لِرُؤْيَتِهِ، قَبْلَ يَوْمَيْنِ مِنَ النِّهَايَةِ، كَانَ مِنَ الْعَسِيرِ عَلَيَّ الْوُصُولَ إِلَى سَرِيرِهِ بِسَبَبِ كُلِّ هَذِهِ الْأَجْهَازَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحِيطُ بِهِ... لَكِنَّهُ أَيْضاً، لَمْ يَكُنْ، بِالطَّبْعِ، يَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ، وَعِنْدَمَا رَفَعَ يَدَهُ، أَبْصَرْتُ أَنَّهَا كَانَتْ مَبْرُوطَةٌ بِرِبَاطٍ جِلْدِيٍّ⁽⁷⁾. إِنَّهُ الْإِخْتِرَالُ التَّقْنِيُّ لِلْمَوْتِ الَّذِي كَفَّ، مِنْذَ الْآنَ، عَنْ أَنْ يَكُونَ النِّهَايَةُ الْقَدْرِيَّةُ لِلْوُجُودِ لِيَصْبِحَ قَضِيَّةً طَبِيبِيَّةً بِشَكْلِ صَارِمٍ. إِنَّهُ «تَوَقُّفُ قِنَاعِ التَّنَفُّسِ عَنِ الْعَمَلِ» (The respirator is turned off) ؛ تِلْكَ هِيَ، بِرَأْيِي جَان رِيَجَلِرْ، إِحْدَى الصَّيَغِ الْحَاسِمَةِ لِلْمَوْتِ الْحَدِيثِ.

إِنَّ الْمَرِيضَ، فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ، عِبَارَةٌ عَنْ بَقِيَّةٍ. وَلَكِنْ بِمَا أَنَّهُ يَبْقَى حَاضِراً بِشَكْلِ غَيْرِ قَابِلٍ لِلْإِخْتِرَالِ (بَغْضِ النَّظَرِ عَنْ جِهَازِهِ الْعَضْوِيِّ الَّذِي يَحْطِي بِكُلِّ الْعَنَايَةِ) طَالَمَا أَنَّ نَسَمَةَ حَيَاةٍ تَخْتَرِقُهُ، فَإِنَّ الطَّبَّ يَجَابُهُ الْيَوْمَ مَرَاهِنَاتٌ أَخْلَاقِيَّةٌ كَبِيرَةٌ. إِنَّ الْمَسْئُولِيَّةَ تَوَلَّى إِلَيْهِ، بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُنْتَظَرَةٍ، لِأَنَّ السَّيْرُورَاتِ الْعَضْوِيَّةَ، وَلَيْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ، هِيَ الَّتِي مِنْ اخْتِصَاصِهِ. إِنَّا نَقِيسُ جَيْداً مَظَاهِرَ الْقُصُورِ فِي نِظَامِ الْإِسْتِشْفَاءِ، الْمُجَرَّدِ أَمَامَ الْوِظِيفَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَوَلَّى إِلَيْهِ الْيَوْمَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَمُوتُ فِيهِ أَغْلَبِيَّةُ الْغَرِيبِينَ فِي الْمُسْتَشْفَى ؛ إِنَّهَا وَظِيفَةٌ مُرَافَقَةُ الْمَرِيضِ فِي اللَّحْظَاتِ الْأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ ؛ أَيْ مُرَافَقَةُ هَذِهِ الْبَقِيَّةِ الْمُلْحَقَةِ الَّتِي تَلْتَصِقُ بِآلَمِهَا، وَلَكِنْ مِنْ دُونِ أَنْ تَخْتَرِلَ نَفْسَهَا بِحَيْثُ لَا تَكُونُ إِلَّا هَذِهِ الْبَقِيَّةُ: إِنَّهُ سَرَّ كُلِّ إِنْسَانٍ يَقَعُ فَرِيسَةً أَلَمِهِ.

نماذج بشرية شبه كاملة

عِنْدَمَا يَكْفُ دِمَاغُ مَرِيضٍ، فِي قِسْمِ الْإِنْعَاشِ، عَنِ الْعَمَلِ (وَهِيَ حَالَةُ الْخُمُولِ الْمَزْمَنِ) يَصْبِحُ الْجَسَدُ، الَّذِي يَسْتَمِرُّ دَوَماً فِي الْعَمَلِ، مَجْرَدَ بَقِيَّةٍ. إِنَّ الشَّخْصَ يَتَبَخَّرُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ مَوْجُوداً بِشَكْلِ لَا يَقْبَلُ الْإِخْتِرَالَ، وَمَدْمُوجاً بِلَحْمِهِ، حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَغْدُ بِاسْتَطَاعَتِهِ مُطْلَقاً أَنْ يَفْكَرَ أَوْ يَنْهَضَ بِبَسَاطَةٍ مِنْ سَرِيرِهِ فِي الْمُسْتَشْفَى. إِنَّ الْمَسْأَلَةَ الْإِنْتَرُوبُولُوجِيَّةَ تُضَعِّقُ هُنَا أَيْضاً، وَمِنْ الْمُسْتَحِيلِ طَرَحُهَا رُبَّمَا طَالَمَا أَنَّ الْمَعَالِمَ مُشَوَّشَةً. إِنَّ الْمَعَالَجِينَ (أَوْ بِالْأُخْرَى الْمُتَمَدِّدِينَ) لَا يَوْجِدُونَ إِلَّا بِفَعْلِ تَقْنِيَّاتِ الْإِنْعَاشِ الَّتِي تُبْقِي «إِصْطِنَاعِيّاً» عَلَى «حَيَاتِهِمْ». وَعَدَدُهُمْ يَزْدَادُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ مَعَ تَزَايُدِ دَرَجَةِ إِتْقَانِ هَذِهِ التَّقْنِيَّاتِ. إِنَّهُ الْوَجْهَ الْآخِرَ لِلْإِنْعَاشِ. هُنَا أَيْضاً، نَرَى

(7) شهادة ذكرها راسل سكوت : «الجسد ، ملكيتنا....» المرجع السابق ذكره - ص : 164.

كم أنَّ الطب هو طب الجسد قبل أي شيء. وكم أنَّ المعالج هو رهينة جسده. إنَّ الشخص الذي يعيش في حالة خمول مزمن، يتم الإبقاء عليه في ظلِّ حياة، ويُختزل بالحقيقة في أنه الآخر، في جسده الخاص. إنَّه نزع الطابع المادي للشخص، وجعل الجسد تابعاً. لقد تمَّ تعليق الموت، لكن الحياة تستمر في إرواء مجموعة أعضاء تنوب عن أمكنة العجز بواسطة تجهيزات متعددة.

ولأنه لم يُعد هناك إلاَّ جسد بدون إنسان، وميدالية بدون وجه آخر، فإنَّ بعض الأطباء طالبوا ودعموا الفكرة القائلة بإمكانية التجريب على المرضى الذين هم في حالة خمول مزمن. هكذا قام أ. ميلهو (A. Milhaud)، من المركز الاستشفائي الجامعي بأميان، بإجراء تجربة عملية نقل دم عبر الطريق العظمي، على مريض يعيش منذ ثلاثة سنوات في حالة غيبوبة عميقة. إنها تجربة لا صلة لها بحالة الشخص، وغير علاجية، وتجريبية بصفة بحتة، ونمَّت بلا علم الأسرة والمريض بالطبع (صحيفة لوموند: 28 تشرين الثاني / نوفمبر 1985). إنَّ الأمر يتعلق هنا، بنظر ميلهو، بنماذج بشرية شبه كاملة، تُشكل حالات متوسطة بين الحيوان والإنسان⁽⁸⁾. لقد وضعت اللجنة القومية للأخلاق. بفضل ما لها من سلطة معنوية، حدّاً الآن لمثل هذه الممارسات. ومع ذلك فإنَّ هذا النوع من المساعي يُعدُّ منطقياً تماماً في داخل النظام الطبي عبر رهبانه على الجسد. لقد وصل الطب التقني الى إحداث حالات الخمول المزمن هذه، التي لا نعرف ماذا نفعل بها. وكنا نجهل كل شيء عنها، والتي تحافظ لدى الأقرباء على تردد الحداد. إمّا في الأمكنة الأخرى، في الولايات المتحدة على سبيل المثال، فيُقتراح بدون مراوغة إحداث مصارف للمُعطين، أي للكائنات البشرية التي هي في منتصف الطريق بين الحياة والموت ؛ والذين أصبحوا غير قابلين للوصف على الصعيد الانتروبولوجي: فهم أموات لأنَّ دماغهم توقف عن العمل، لكنهم

(8) إنه يُبرر عمله بحجج اقتصادية (التكلفة العالية لمعالجة مريض في حالة خمول مزمن بالمستشفيات). كما يشير إلى ذلك ج.ي.نو (J.Y.Nau) : «إنه مسعى غريب ومفارق... لأنه يعارض القتل الرحيم ويعتزم جعل هذه المعارضة «ذات مردود». إنه مسعى مثير أيضاً للاضطراب لأنه يفترض كُتْسَلْمة أن حالة الخمول المزمن، تقابل الموت ، في حين أنها تسمح بدراسة خصائص الكائن الحي وباستعمالها، أنظر ج.ي.نو «مرضى الكوما هل هم مواضيع تجارب» (Les comateux sont-ils des cobayes) - صحيفة لوموند - كانون الثاني / يناير 1987 .

جلهزون، لعدة سنوات، كخزانات أعضاء بفضل الأجهزة التي تبقيهم على قيد الحياة⁽⁹⁾. إنها مصيبة تكسّر الوحدة البشرية، والفراغ الأخلاقي الذي يلامس الجسد الغربي منذ القرن السابع عشر. إنها النتيجة المنطقية للمفهوم الميكانيكي لعمله ولحقيقته: إن الجسد يصبح عنصراً مُربكاً، أو بالأحرى صيغة معقدة للعبة الميكانيكية.

إنّ الجسد البشري، المفصول عن الشخص، يُرْفَع الى مملكة متوسطة بين الحيوان والإنسان ؛ إنه نوع آخر. إنّ الاستئصال العلاجي أو المسائل الأخلاقية، التي لا تحصى، التي يثيرها اليوم تقدّم علوم الحياة هي نقاط النهاية لمعرفة بيولوجية وطبية مُتمركزة حول علم التشريح العلاجي. فلأن الطب لم يُوجّه على المريض بصفته شخصاً فاعلاً فإن حضور هذا الأخير، غير القابل للاختزال، يُحسّ به أحياناً بقسوة. ويبدو كعقبة أمام متابعة العلاج. إنّ المسألة الانتروبولوجية تبرز فجأة مع قوة عودة المكبوت في أعلى الصعوبات لأنها لم تُدرك في أسفلها. إنّ رفع الأعضاء وزرعها، واستعمال المواد البشرية لغايات البحث، الخ.. تجعل من الإنسان وسيلة من أجل الإنسان. إنّ الثغرة فُتحت. وتوجيه سؤال اليوم لعلم أخلاق البحث في علوم الحياة، يعني إعادة إدخال الإنسان، ولكن بعد أن تكون الإنجازات حاضرة هنا.

الحمل خارج المرأة

يكون الجسد البشري، من الحمل الى الموت (وحتى بعد الموت) تحت مراقبة الطب. من الحمل في الأنبوب الزجاجي (in vitro) إلى نزع الأعضاء كان الطب والتقنية الحيوية يستخدمان بالمناوبة الطرق العضوية، ويؤجّجهاها وفق إرادتهما. وبدلاً من أن يقوموا فقط بدراستها ومرافقتها، يصوغانها. إن الشك الذي يمسّ الجسد لا

(9) فانس باكر - المرجع السابق ذكره - ص : 288 - 289 إن قانون الواجبات الأدبية الطبية في كندا ينص على «أن الطبيب يستطيع أن يبقى على حياة الجسد عندما يكون الدماغ ميتاً من الناحية السريرية ، ولكن من دون أن يُمدّد الحياة بوسائل نادرة أو تدابير بطولية. عندما يموت الدماغ ، حافظ على الحياة الخلوية للجسد إذا كانت بعض الأعضاء يجب أن تستخدم في تمديد الحياة أو تحسين صحة أشخاص آخرين» (المادة 19 و 20 من نظام الجمعية الطبية الكندية ، كانون اول / ديسمبر 1984) - عن كلير أمبروزللي ، أربعون سنة بعد قانون نورميرغ : «علم الأخلاق الطبي وحقوق الإنسان» في «علم الأخلاق الطبي وحقوق الإنسان» (Ethique médicale et droits de l'homme) ، أعمال Sud-INSERM - 1988 - ص 25 .

يوفر التلقيح ؛ وبعد الحمل والولادة اللذان كَفّا عن أن يكونا تماماً من شأن الجسد، ليصبحا من مواضيع الطب، قامت التقنيات الحيوية أيضاً بقلب دورة الإنجاب. وبدل صدفة الحمل والحمل، يظهر طب الرغبة، والمداخلات على الجينات، والمُضغّات، والأجِنَّة، وتُفصل الأوقات المختلفة للأمومة الى متتاليات يمكن التلاعب بها، ويجري السعي للتحكّم بها. إنه عمل رجال، وليس نساء، كما لو كانت هنا، ومنذ قرون، نهاية تستهدف أن تنقل إلى أيدي الرجل سيرورة أفلتت منه عضوياً. إنه حين غامض للإنسان الذي أدخل في إخراج الطفل للعالم التقنية لحد مراقبة سيرورة الحمل، من أولها إلى آخرها، من خلال إثارة اللقاء بين البويضة والخوئين المنوي في مكان آخر غير جسد المرأة، وذلك تحت مراقبته. لقد أدركت إ. كنبييلهر جيداً الشك الذي يُثقل أيضاً على المرأة. «إن المثل الأعلى للأطباء المختصين بأمراض النساء لا يمكن أن يكون إلا إبعاد هذه المرأة، المُربكة، والوصول في أسرع وقت ممكن الى الحمل في الأنبوب. لقد أصبح نموذج التلقيح هذا مبتذلاً الآن. وسيُعرف قريباً كيف تمّدّد حياة المُضغّة في الأنبوب حتى انتهاء الحمل الكامل. إنه ليس فقط من قبيل العلم - الخيال: لقد بدأت فرق من الباحثين منذ الآن بالتنافس من أجل بلوغ هذا الهدف. إن الأمومة التي كانت تشكل حتى القرن العشرين خاصة من خواص الجنس المؤنث، ومعرفتها الخاصة، وكرامتها الخاصّة، هي الآن في طريقها لأن تتجزأ، وتتفرّق، وتقع بأسرها تحت الرقابة الطبية والاجتماعية»⁽¹⁰⁾. إن التناسل الخارجي (أي إنضاج الجنين في أنبوب الاختبار بشكل كامل) هو على جدول الأعمال. إنه حمل مُراقَب

(10) إيفون كنبييلهر (Yvonne Knibielher) : «أمومة تحت المراقبة» (la maternité sous contrôle) - (لوموند - 19 نيسان / إبريل 1985) - حول الاسطورة الدائرة حول نجاح التلقيح بالأنبوب على يد أطباء أو باحثين، اقرأ : ج.ماركوسستيف (J. Marcussteiff) لماذا نفعل البسيط عندما يمكن فعل المُعقّد (Pourquoi faire simple quand on peut faire compliqué) - مجلة «Temps modernes» العدد 482 - أيلول / سبتمبر 1986 كما كتب جاك تيستار (Jacques Testard) : «نعلم أنّ 7٪ من الأزواج العاقرين بعد سنتين يستطيعون أن يجبلوا من دون أي حيلة أثناء أي من الدورات القادمة. ونعلم أخيراً أن هذه النسبة المثوية تعادل المعدل الوطني لنجاح الـ FIVETE في عام 1985. إذن ما هو العقم، وما هي الفائدة من الـ FIVETE، أو من تفيد ؟» جاك تيستار : «إحترام الرأي أثناء انتقاده» (Respecter l'avis en le critiquant) - (Ethique et droits de l'homme) - المرجع السابق ذكره - ص 62

علمياً، أي أنه يجمع شروط أفضل عافية وأفضل صحة ممكنة للطفل الذي سيولد. إنَّ العلميين والأطباء لا يحسبون إعجابهم أمام «هذا التقدم التقني الأسطوري» الذي سيتمثل يوماً في «الحمل الاصطناعي مع مشيمة وحاضنة إصطناعية»⁽¹¹⁾. إنَّ النفور الضمني من الأمومة، وهذا الخوف من الجسد الذي يدفع باتجاه محاولة مراقبة سيروراته تقنياً، يؤدي للتفكير بأن يوماً ما سيأتي ربما ويمكن أن يولد فيه أطفال ضمن هذه الشروط. لقد سبق لـ: أ. هكسلي أن فكّر بهذا الأمر. إنَّ سكان بلدته براف نيو ورلد (Brave New World) يستذكرون برعب الزمن الذي كان فيه البشر «يتكاثرون بالنسل». إن هذه القصة المنشورة في عام 1932 تبدو، في العديد من وجهات النظر، نوعاً من السبق الاخباري للمقدمات في ميدان التقنية الحيوية (Biotechn - ologique).

كما أعطى غروديك (Groddeck)، سابقاً، تحاليل جميلة حول حنين الانسان للولادة. إن هذه الرغبة المدفونة تقريباً، تجد رمزياً (من خلال الخلق الفني من بين أنواع أخرى) أو طقسياً (كالحضانة) طريقاً منحرفاً. لقد كان غروديك يرى هذا المبدأ منغرساً في الإنسان، ووصل لحد الإيحاء بقلب الاقتراح الفرويدي: إنَّ المرأة ليست رجلاً مخصياً، تلاحقها الرغبة بامتلاك القضيب ؛ وإنما الرجل، بالعكس، هو امرأة خائبة، تلاحقه الرغبة اللاواعية بالولادة. لكن العلم لا يحلم، إنه يأخذ هذه الأمنية بحرفيتها ويتشبث بتحقيقها. لقد بدأ الحديث عن زرع أجنة على الجدار الجوفي لرجال، تجري متابعتهم طبياً ثم يولدون فيما بعد بعملية قيصرية. لقد أعلن رينيه فريدمان مؤخراً في مقابلة أن الأمر سيكون قريباً ممكناً من الناحية التقنية. إن ميخايلد عن الرجل والمرأة هو الذي سيطير حينئذٍ منفجراً. إننا نلامس جذور الهوية البشرية: وأولاً الضرورة اللازمة لكل كائن بشري في أن يعرف موضعه كرجل أو امرأة، وأن يُدرك الآخر من خلال اختلافه عنه. إن التجربة تظهر أن الممكن هو معيار مؤسّر للممارسة العلمية. إنَّ ما هو ممكن يجب أن يتحقق، وإن لم يكن هذا إلا بسبب النضال العنيد الذي تقوم به مخابر البحث أو الفرق الطبية طلباً «للمراكز الأولى».

الإنجاب بدون نشاط جنسي

كما يُنظر للجسد باعتباره مجموعة قطع، أغليبيتها قابلة للاستبدال، فإن مختلف

(11) إ. بابيرنيك (E. Papiernik) : مقابلة في مجلة «Vital» العدد 7 - تموز / يوليو 1976 .

المراحل العضوية التي تُعرّف الأمومة هي بدورها منفصلة عن بعضها البعض، ويمكن إعادة تكوينها بواسطة التدخل الطبي، كما يمكن أحياناً تمديدتها الى داخل جسد آخر، عندما تقبل امرأة أن تكون الوسيطة التي بواسطتها يمكن لامرأة أخرى أن يكون لديها طفلاً، بمعنى أن تجعل من نفسها الترميم الحيّ خلال عدة شهور لرغبة في طفل هي ليست رغبتها، وتقبل بشكل مواز أن تجعل من الطفل الذي سيولد شيئاً مثل أي شيء آخر، وموضوعاً لعقد. إن منطقاً تحليلياً يميز بين مراحل الأمومة ويطرح قابليتها للتبادل، والتحكم الممكن بكل مرحلة منها. فاليوم، لم تُعد ولادة الطفل فقط نتيجة رغبة وصدفة لقاء جنسي بين شريكين، والحياة لم تُعد تبدأ فقط في عمق الجسد البشري، وإنما في أنابيب اختبار التلقيح (in vitro)، عبر مشروع تحكم فريق طبي ورغبة زوجين في طفل. والوسائل عديدة في هذا المجال. فالزوجان يستطيعان جعل أنفسهما يتناولان بويضة، أو يلجآن الى مصرف حوَّينات منوية ؛ ويمكن للبويضة المُلقَّحة أن تنقل الى رحم امرأة أخرى، تستطيع في النهاية أن تكون بمثابة جَدَّة للطفل الذي سيولد (نستشهد هنا بتلك المرأة الجنوب إفريقية التي قَبِلَتْ أن تحمل الأطفال الوراثةيين لابنتها وصهرها). وهناك الأم الحَمَّالة التي تُؤَجَّر رحمها وتستطيع أن تحمل طفل امرأة أخرى ثم تُسَلِّمه بعد ولادته الى والديه الوراثةيين. إنَّ الجنين الذي يمكن الحصول عليه في الأنابيب يمكن أن يجمد طوال عدة سنوات، بل وعدة قرون، ويمكن تعليق نموه أو إنعاشه ثانية بشكل إرادي. إنه الجسد المادة، المُقَطَّع وفق مخطط ميكانيكي والذي يمكن إعادة بنائه عبر مشروع تحكم لا يأخذ بالحسبان، في أية لحظة، البعد الرمزي لرابطة القرابة وللرغبة في طفل، ولا يستجوب العقم إلاّ وهو على منحدره العضوي: إنه الجسد العقبة، العاجز. إنه الطب الذي يقول أحياناً كيف يحدث العقم، ولكن نادراً لماذا يحدث (لأن اللماذا ترتبط ربما بتاريخ أحد الشريكين، أو بتاريخ الزوجين، وتعود بالتالي لاختصاص منطق آخر غير منطق الطب). بهذا المعنى، يرغم التدخل الطبي، الذي يعرف أن عدداً من أشكال العقم ذات مصدر جسدي (فيزيائي)، الجسد، عبر نوع من الحثّ العضوي⁽¹²⁾، ولكن من دون أن يَحُلَّ الصعوبة البشرية التي ربما تجد نفسها في أدنى مستوى لها. لقد فُصِّلَ الطفل عن

(12) أنظر على سبيل المثال : ج. دولايسي دو بارسوفال (G. Delaisi de Parseval) : «حصة الأب» (La part du père) - منشورات Seuil - 1982 .

النشاط الجنسي، فُصِّلَ عن رغبة الزوجين (فالرغبة أصبحت إرادة)، وفُصِّلَ عن جسد المرأة (التي أصبحت بالأحرى العربية المترددة تقريباً حول قدوم طفل للعالم). إن الطفل يصبح شيئاً، سلعة. ورابطة القرابة تنفجر، ويُضفى عليها طابع الأداة. إنَّ الطفل يمكن أن يكون لديه اليوم أتان وثلاث أمهات (أب وراثي وأب إجتماعي ؛ أم وراثية وأم رحمية وأم إجتماعية). إنَّ النَّسَبَ الرمزي للطفل، إذا لم يُقَل، وكان هناك صمت عن أصله الذي سيثقل كثيراً عليه، سيُجَزَّأ هو أيضاً، بسبب تشوُّش المعالم الأساسية لهويته الشخصية في النسيج الوراثي. كما لو أنَّ مسألة الأصل كانت بدون أهمية بالنسبة لتكوين الهوية البشرية. إننا نصرف النظر عن مجازفة انتروبولوجية لا يستطيع أحد أن يقدِّر مداها لأنها مُغلَّقة في تاريخ شخصي غير متوقع. وبعكس المواد الأخرى، فإنَّ الطفل السلعة غير مضمون مطلقاً، وخاصة فيما يتعلق بنموه اللاحق.

إنَّ تفرق الجسد يعكس أيضاً تفرق الرمز فبعد أن شُبِّهَ بمجموعة من القطع والعمليات التي يمكن أن تحلَّ محلَّ بعضها البعض، لم يُعدَّ للجسد من معنى. إنَّه فقط يعمل. أو إنه يشهد على حدوث عطل، فيصبح عقبة. كذلك فإنَّ الأمومة المُجَزَّأة، الواقعة تحت رعاية الإرادة والتقنية، لم يُعدَّ لها من معنى هي أيضاً. إنها تبقى، وهذا هو الأمر الأساسي، الاستثمار الممكن لمعنيين يمكنهم أن يُدخلوا ثانية المعنى بطريقة أخرى بعد زرع عضو، أو وضع ترميم، أو اللجوء الى الإنجاب الذي يتم بالمساعدة. لكنه، في هذه الحالة الأخيرة، يبقى الطفل الذي لا يُعدَّ فاعِلَ العملية، وإنما موضوعها. إنَّ الوالدين يعانيان أحياناً من صعوبة الالتقاء ببعض ثانية بعد انتهاء المناورات الطبية التي كانا موضوعاً لها: نشاط جنسي في ساعة مُحدَّدة بهدف القيام باختبارات طبية في ذلك اليوم، نشاط جنسي غائي، شعور بالذنب ناشئ عن هذا العقم الذي يجري الحفاظ عليه بشكل دائم طوال مدة المعالجة، عدم القدرة على القيام بالجداد على طفل مستحيل بسبب الانطلاقة المتواصلة لأمل متولد عن ظهور تقنيات جديدة أو تجارب جديدة ؛ إنها سنوات من الوجود، مُكْرَّسة فقط لرغبة في طفل ؛ وكثير من الهمّ بسبب معدل نجاح منخفض جداً⁽¹³⁾. إنها آلام مجهولة تلك

(13) حول كل هذه النقاط التي لن نُفصِّلها هنا ، نحيل الى الملف الممتاز لماري - أنج دادر (Marie-Ange)

d'Adler ومارسيل تولاد (Marcel Teulade) «مشعوذو الحياة» (Les sorciers de lavie) -

1986. أنظر أيضاً : ج. د. دوبر ارسوئال «الطفل بأي ثمن» (L'enfant à tout prix) -

منشورات Seuil - 1984

التي تتم المحافظة عليها لدى زوجين أو لدى أفراد عقيمين لا يستطيعون القبول بوضعهم لأن من الممكن التخلص منه.

الرحم الإنفاقي

في الولايات المتحدة، يستثمر مشروع ماهر سوقاً كبيراً، يُقدَّر، وفقاً لمعلوماته، بخمسين الى ستين ألف من الأزواج في السنة. إنَّ الأمر يتعلَّق، على غرار أسلوب التلقيح المُطبَّق بشكل شائع في تربية الأبقار، بنقل الجنين من امرأة متطوعة الى امرأة مُتلقِّية بعد تلقيح الأولى بالخوَّين المنوي لزوج الثانية، بعد معالجة طبية مناسبة من أجل مطابقة الدورة الشهرية للمرأتين. إن هذا النقل للجنين، باعتباره تناوباً ميكانيكياً بين جسدتين، يعادل بالنسبة للمرأة التلقيح الاصطناعي مع الخوَّين المنوي المُعطى بالنسبة للرجل. إنها تجزئة للأمومة الى مراحل متتالية غريبة عن بعضها البعض، لكنها مُحكَّمة التنظيم من الناحية التقنية. إنَّ أزواجاً آخرين لا يترددون في اللجوء الى أمهات حاملات.

إنَّ بلداناً عديدة تقبل ضمناً بلجوء الزوجين العقيمين الى أمهات بديلات. وهناك نساء يقبلن، لقاء أجر، بأنَّ يُلقَّحنَ بخوَّين منوي لزوج امرأة أخرى، ويقمن بالحمل حتى نهايته، ويُعِدْنَ الطفل عند ولادته للزوجين اللذين طلباه بالأصل. في هذه العملية، يمكن القول بأنَّ الطفل وأمه سلبا مؤقتاً من إنسانيتهما، وأصبح كل منهما سلعة، وترميماً. فالأم الحاملة تنفصل عن جسدها الذي جعلت منه وسيلة (وتنفصل أيضاً عن مشاعرها الشخصية)، وتجعل من نفسها آلة لإعطاء طفل. إنها تعرض على الزوجين الطالبين أكثر جزء حميم من كيانهما، من دون أن تقيس دائماً نتائج عملها على نفسها وعلى الطفل. الأمر الذي يُعَدُّ، من جهة أخرى، مستحيلاً. إنَّ اختيار أم حاملة هو عمل إرادي يتجاهل اللاشعور وما يمكن أن يزعرعه لدى المرأة واقع كونها تحمل طفلاً في داخلها. إنه يتجاهل أيضاً النتائج التي ستنشئ لدى الطفل من جراء الصعوبة التي سيواجهها في تحديد أصله وموقعه أمام الظروف الخاصة بقدمه للعالم.

إن العلاقة المعقودة بين الأم الحاملة والزوجين اللذين يستأجران خدماتها ليست متكافئة. فالأولى (مثل الفرد الذي يبيع أحد أعضائه) تكون في وضع مادي ضعيف يُجبرها على التفاوض لتأجير جزء منها، هو، مع ذلك، الجزء الذي يبنى هويتها ككائن بشري. إنَّ الوظائف العضوية ومُرَكِّبات الجسد ليست سلعاً بالرغم من أن قوة الصورة الميكانيكية للجسد تعتمد فكرتها. إنَّ الانسان لا يمتلك جسده ؛ إنما هو يكون

جسده. وبيع عضو أو تأجير رحم لعدة أيام أو طوال مدة الحمل ليسا من أنواع التجارة العادية. إنَّ المرء، في هذه الحالة، لا يفصل نفسه عن جزء مما يملكه، وإنما عن جزء من كينونته. فمن غير الممكن فيما بعد صنع ما جرى وما لم يجري، ومن غير الممكن العودة للوراء في الزمن والمعارضة في أخذ العضو، إلغاء التلقيح أو استعادة الطفل. إن علاقة الانسان بجسده نُسجت في الميخيل والرمز، فالجسد ليس آلية. إنَّ من غير الممكن أن نمشّه من دون أن نزعزع القوى النفسانية المغروسة في أكثر جزء حميم لدى الشخص، من دون التماس اللاشعور، أي أسس الهوية الشخصية. ويبقى، بالنسبة للمُعطي كما بالنسبة للمتلقي، المظهر غير المتوقع للنتائج التي تتلو إنجاز العقد. إنَّ هناك، علاوة على ذلك، لدى العديد من الأمهات الحاملات نفسية خاصة تُحدّد تضافياً اختياراتهم بشكل لا شعوري تقريباً⁽¹⁴⁾. إنهن غالباً نساء قابلات للعطب. إن الشعور بالذنب، وانخفاض الضغط يتلوان أحياناً تسليم الطفل. وهناك أخريات يُعائِذن ويَرِدْنَ الاحتفاظ بالطفل. لقد سبق للمحاكم الأمريكية، حتى قبل الولادة، أن حكمت بتجريد الأم من كل حق في الطفل الذي سيولد، وأيدت بالتالي إرادة الزوجين الطالبين بالحصول على طفل، وثبتت العقد أكثر من الحمل. إنَّ المرأة يمكن إذن أن تِلِدَ طفلاً من دون أن تكون أمه من الناحية القانونية. وفيما وراء الضيق الممكن للأم الحاملة أثناء لحظة الانفصال عن الطفل، يبقى الطفل نفسه، الطفل الذي يُرْمَم استحالة الحمل من زوجين آخرين، والذي يُعَدُّ رهينة عقد لم يُعَد من الممكن اليوم، إلا نادراً، قياس النتائج على حياته في المستقبل. إنَّ سرا عميقاً سيثقل على أصله. وصمت هذا الأصل أو الحقيقة لن يكونا، على ما يبدو، في مصلحة الطفل. ولن يكونا كذلك، من جهة أخرى، في مصلحة الوالدين اللذين سيتساءلان لمدة طويلة (وليس بدون يقظة ضمير) عن الموقف الذي ينبغي التمسك به (إننا نصادف منذ الآن هذه العقبة في طرق التلقيح بالأنابيب). إن هناك أيضاً السابقة التي تدرج في الميدان الاجتماعي فكرة الطفل السلعة، وصلة القرابة المتفجرة، والوراثة المُجَزَّأة والتي ما زالت تدعم لدى الجمهور المفهوم الميكانيكي للجسد (وبالتالي

(14) إنهن نساء تُحَرِّكُهُنَّ حاجة ترميم ، بعد أن عَشِنَ أحياناً تجربة فقدان طفل نتيجة إجهاض ، أو لأنه نَمَّ التحلي عنهن ، أو لأنهن وقفن فريسة للوحدة الخ.. أنظر : في هذا الموضوع : ماري - أنج دادلر ومارسيل تولاد - المرجع السابق ذكره - ص : 159 ،

للحياة البشرية). إنَّ بعض مظاهر النزعة الفردية («أريد طفلاً مني») تجد في الطب التقني تشجيعاً كان من المتعذر التفكير فيه قبل عدة سنوات. وهذا ما يُعزِّز طابعه. ومن الممكن أن نساءل مع كاترين لايروس - ريو كيف يحدث «لأطباء متيقظين في تقدير المحاذير النفسية أو البيولوجية أن يكونوا قليلي الوعي للمحاذير النفسانية - الاجتماعية المرتبطة بتفتت عناصر القرابة، وانقطاع الزمن الخطي للحياة (التجميد الممدود للخلايا الجرثومية والأجنة)، وافتقاد المراجع الرمزية التي تُذكِّر بأن كل قدرة وكل رغبة ليسا مُسبقاً من الحق»⁽¹⁵⁾.

إن الاختزال التقني للانسان الى مجرد جسد، الذي يستجيب الى قوانين ميكانيكية، يقوم بتجريد المخيال والرمز، وبالتالي تاريخ كل فرد. وهذه التعرية تصدم غالباً الحساسيات الجماعية، أي علم الأخلاق الاجتماعية. إنَّ هذا الاختزال يُقلِّل، مسبقاً، إلى أدنى حدِّ العمق الإنساني البحث منذ بدء التدخل الطبي المُصَحِّح، وهو لا يستطيع أن لا يجابه بالتأكيد عودة مكبوتة. إنَّه يخضع أيضاً لتساؤل أخلاقي صارم من جانب مختلف سلطات المجتمع (ولكن فيما بعد، وعندما تكون الإنجازات قد تحققت). إنَّ المتلقي (والمعطي إنَّ كان حياً) يجادل نفسه، بعد التدخل الطبي، وبشكل أكثر غموضاً، في صمت حياته الشخصية (الحياة التي لم يُغدِّ الطب بالذات يعتبر أنها من اختصاصه: سواء تعلق الأمر بعضو، أو بطفل، فإن المشاكل لم تُستبعد إلا نادراً). إنَّ انتروبولوجيا مُتَبَيِّنة تشرف على هذه المشاريع. لقد طُرِدَ البُعْدُ الرمزي، وقُطِّعت فيه الوحدة الفردية، واختزِلَ الجسد المفصول عن الشخص الى مرتبة مادة يمكن التلاعب بها، وخضع لمشاريع تحكُّم تصنع من البيولوجيا البشرية مجموعة معطيات ميكانيكية مجردة من القيم بصفاتها تلك، لكنها، بالمقابل، أساسية باعتبارها وسيلة.

إنَّ المسائل الأخلاقية تتجاوز إطار هذا المؤلَّف ؛ ومع ذلك لندكر بأن ج. تيسنار، أحد أفضل المختصين في التلقيح بالأنابيب وفي تجميد الأجنة البشرية، عبَّر، في أيلول / سبتمبر 1986، عن قلقه أمام تطور البحوث في ميدانه واقترح ما يلي:

(15) كاترين لايروس - ريو : «الإنجابات الاصطناعية : تحدي للحق» (Les procréations artificielles: un défi pour le droit) في : «علم الأخلاق الطبي وحقوق الإنسان»... المرجع السابق ذكره - ص : 69 .

«لا أريد أن أفعل بعض الأشياء. لقد كان (إنجازي) الأخير تجميد الأجنة البشرية، ولن أذهب الى ما هو أبعد من ذلك... أعلم أن موقفي يحظى بتأييد أقلية ضئيلة في العالم العلمي... إن منطق البحث يُطبَّق على مَنْ بقي محروماً من راحة التقدم، لكنه لا يمكن أن يُطبَّق على مَنْ صار لديه تذوُّق للخطر الجسيم على الإنسان. إني أطالب أيضاً بمنطق عدم الاكتشاف، وبأخلاق اللابحث. لِنَكْفُ عن التظاهر بالإيمان بأن البحث سيكون محايداً، فتطبيقاته فقط يمكن أن تُوصف بأنها جيدة أو رديئة». ويرفض جاك تيستار متابعة تجاربه على البيضة البشرية: «إننا ما زلنا لا نعلم كيف تُنشئ جنس الجنين البشري، لكنني لا أشك لحظة واحدة أننا سنتوصل الى ذلك. في البداية، كانت هذه التقنية سَتُفَرَّحُ بصفتهما تقدماً طبياً بالنسبة لكل الأمراض الوراثية المتصلة بالجنس. ثم سَنرى سريعاً الناس يأتون نحو التلقيح بالأُنبوب ليختاروا جنس الطفل الذي سيولد. وحينئذ، سيجب علينا زرع الأجنة بناء على الطلب. أما أولئك الذين لن يُستعملوا فلن يَطرحوا أية مشاكل، لأن الأمر سيتعلق بالإجمال بإجهاضات الأنابيب. إلا إذا أعطيت هذه الأجنة لآخرين...»⁽¹⁶⁾.

إن طرق التشخيص في الأنابيب المُطبَّقة على الجنين هي الآن على جدول الأعمال، إنها تسمح بفرز الجنين السليم عن الآخر غير المرغوب فيه لهذا السبب أو ذاك. وانطلاقاً من هذا صار اختيار جنس الجنين أمراً قابلاً للتحقيق، كما يشير إلى ذلك ج. تيستار. إن هذا يتم في البدء لأسباب طبية (على سبيل المثال الأمراض الوراثية التي لا تمس إلا الصبيان: إنَّ التَّعَوُّرِيَّة (l'hémophilie) مثال على ذلك). ولكن منذ ذلك الحين ستكون الطريق حرة لتشجيع اختيار الجنس من أجل الشؤون الشخصية. وسيكون هذا تنويعاً منطقياً للحثَّ الطبي في موضوع الإنجاب البشري: ومن تحكُّم الى تحكُّم، ستتحوَّل صلة القرابة الى عملية تقنية موجودة كلياً تحت المراقبة، وسيتحوَّل الطفل، من بداية السيرورة الى نهايتها، الى مجرد موضوع. إنَّ

(16) جاك تيستار (Jacques Testard) (لمومند - 10 أيلول / سبتمبر 1986). لقد كان باستطاعة ج. تيستار أن يستشهد ، في خلافه مع المهندسين الوراثيين ، بأفكار رومان غاري (Romain Gary) في «العبء النفسي» (Charge d'âme) : «في سنوات الستينات ، كانت أكبر مساهمة يمكن لعالم في الفيزياء النووية أن يجلبها للبشرية ، تكمن في امتناعه عن أي مساهمة».

هذا الأمر سيتحقق كلما كان من الممكن، قريباً بدون شك، تغيير الإرث الوراثي. إنَّ بعض العيادات الأمريكية التي تطبق التلقيح الاصطناعي تقترح، من الآن، انتقاء جنس الطفل. إنَّ النتيجة ليست دائماً مضمونة، لكن الاحتمال جيد. إن تشخيص جنس الجنين سيكون، بحد ذاته، أكيداً. والطلب في هذا الصدد موجود. لكن النتائج الاجتماعية للجوء الى هذه الطرق كانت غير متوقعة. فقد أصابت بالعكس الأخلاق الاجتماعية.

إن الهند تعطينا اليوم مثلاً عن استعمال تقنيات التشخيص الجديدة باتجاه الإبعاد السريع لجنين من جنس غير مرغوب فيه. هنا تأتي التقنيات الأكثر حداثة لمساعدة التقاليد المغروسة منذ أمد طويل لقد استعمل في الهند التحليل الامنيوتيكى (L'amniocentèse) (تحليل ما يؤخذ من سائل امنيوتيكى من غشاوة الجنين الداخلية أثناء الحمل بغية كشف التشوهات الوراثية المحتملة إنطلاقاً من دراسة صبغية (كروموسومية) لخلايا الجنين) من أجل تحديد جنس الطفل الذي سيولد. فإذا كان الطفل ولداً، سار كل شيء على خير ما يرام. وإذا كان بنتاً، فإنَّ أغلبية النساء يجهضن أنفسهن فوراً، وذلك غالباً في قاعة مجاورة لتلك التي جرى فيها التحليل. لقد أهمل الاختبار الصبغي، نظراً لأنَّ أغلبية العيادات لا تتوفر على المواد اللازمة. ولم يبق من التحليل إلا إمكانية تحديد جنس الجنين. هكذا وُلدت عيادات متخصصة فقط في التحليل الأمنيوتيكى والإجهاض، وذلك حتى في الأماكن الأكثر فقراً، حيث لم يكن الناس قد رأوا مطلقاً في السابق أقل مستوصف. إن المهر الهام نسبياً الذي يجب على الأب أن يدفعه من أجل تزويج ابنته هو في أصل اللجوء الى هذه الطريقة التي تسمح، في المهد بشكل ما، بإلغاء هذا الالتزام الساحق. لقد قدَّر ريتشارد غارسيا، في مقالة له بصحيفة لوموند، عدد حالات التحليل المتبوعة بإجهاض فوري للأجنة الأنثى بين 1978 و1982 بـ 78 ألف حالة. ويسرد شهادة طبيب من بومباي يعلن أنه: «منذ 1975، طبقت عيادتي 400 ألف حالة إجهاض تالية لفحوص الانتقاء المُسبق، ومن الألف حالة الأخيرة لم يكن هناك إلا حالة واحدة لجنين مُدَكَّر»⁽¹⁷⁾. وفي أغلبية الأوقات ونظراً لنقص الوسائل، كانت الفحوص، علاوة على ذلك، تُطبَّق في ظروف أمنية غير مواتية ؛ وبدون جهاز إرشاد فوق صوتي، كان أخذ

(17) ريتشارد غارسيا (Richard Garcia) - لوموند 27 نيسان / أبريل 1988 .

عينات من السائل الامنيوتيكي يتم من خلال تلمّسات في الرحم بشكل يمكن أن يؤدي لجرح المرأة والطفل. إنّ في هذا مثال أخاذ عمّا لا يُعدّ تحريفاً للتحليل الامنيوتيكي، وإنّما ببساطة لجوء غير منتظر إلى إحدى الامكانيات التي يعرضها. إنّنا نرى هنا مظهراً غير متوقع لاستعمال اجتماعي لأفضل الحلول. إنّ اكتشاف كل جواب جديد على المشاكل الانسانية الدقيقة يجابه بالمقابل صعوبات من نوع آخر لأنه ما من شيء في الحياة الفردية والاجتماعية يوجد معزولاً، وأن كل ما يُشكّل نظاماً يتشابك، ولأن النوايا الحسنة (والارادة) لم تكن مطلقاً تتمتع بالسيادة بشكل كامل. ولأن العالم غير متوقع وأكثر تعقيداً للغاية مما تتكهن به العلوم التقنية.

الجنين ضد أمه

إنّ طرق المِخيال الطبي (التصوير بالصدى، تصوير الجنين) أو التحاليل الامنيوتيكية تسمح بتبيين الآفات الخلقية للجنين. إنّ التدخلات الجراحية في الرحم تستطيع أحياناً تصحيح هذه الإعاقات (على سبيل المثال، استسقاء الرأس). إنّ فراغاً قانونياً واجتماعياً يترك الميدان حراً لانزلاقات مدهشة تثير، من بين أسئلة أخرى، مسألة الوضع القانوني للجسد في تعريف الإنسان (anthropos). فإذا كان الجنين يُعتبر مريضاً (السبب الأول غير المعروف)، فإن الأم تبدو مثل الإناء الذي يجب الإحاطة به من أجل بلوغه. إنّ قرار الأم هو، ظاهرياً، سيد لكي يستطيع الطبيب الوصول الى الجنين والشروع في المعالجة.

ومع ذلك، فإنّ الولايات المتحدة تعرف منذ عدة سنوات وضعاً غريباً حيث يفرض الأطباء أنفسهم بأنفسهم كسلطة عليا، ويلجأون الى المحاكم من أجل أن يُكرهوا قانونياً النساء الحاملات المترددات في هذا الصدد على الخضوع لمدخلات طبية أو جراحية تستهدف حماية الجنين. إنّ من الممكن إرغامهن على ولادات سابقة لأوانها من خلال عمليات قيصرية إنّ لم تكن هناك إمكانيات أخرى للمعالجة. إنّ نزاعاً واقعياً يولد في هذه الظروف بين الأم والطفل الذي تحمله في داخلها. إنّ الأمومة تُفصل إذن، والأم يُنظر لها باعتبارها حاوية للجنين. إنّ عزل الحمل عن كيان الأم يسمح بإعادة تعريف قانوني للرابطة بين الأم والجنين.

إنّ مفهوم الحياة المؤذية تسمح بقيام تعارض محتمل بين طفل وُلد معاقاً والأطباء الذين تابعوا حمل أمه، أو بينه وبين الأم إذا كانت هذه قد رفضت تدخلاً في الرحم كان بإمكانه أن يجعل الحياة أفضل. إنّ الطفل يطالب «بحق ولادة جيدة» يستند

بالمقابل على «الحق بأن لا يولد» إذا كانت شروط الوجود التي تنتظره ينبغي أن تكون فاسدة. وإذا ارتكب الأطباء أخطاءً في التشخيص أو رعونات يتحمل الطفل أثارها المؤذية، فإن من حقه أن يطالبهم بتعويضات وفوائد. وإذا كان رفض أمه هو الذي حرّمه من الحق الأساسي بأن يولد بشكل جيد، فإنه يستطيع أن يعود عليها: «وبالعكس، فحتى لو قُبِلَتْ هذه المداخل، تقول إ.عزيزة شوستر، لكنها لم تُوفّر النتائج المأمولة، فإنه سيكون للطفل المُعاق، بشكل خطير، الحق بمطالبة أمه بتعويضات وفوائد. إن الطفل يتذرع بأنه إذا كانت المداخل لم تحدث، فإنه لم يكن ليعيش للقيام بتجربة حياة مأساوية. إنّ الطفل يؤكد بأن لديه الحق بأن لا يولد. والموت قد يكون مفضلاً على حياة في الألم والعذاب»⁽¹⁸⁾. إن المعالجة الممكنة في الرحم، وتفتيت وفقدان هالة الأمومة تفتح المجال لنقد نتائجه الأخلاقية والاجتماعية والنفسانية والقانونية غير متوقعة.

مجازفة انتروبولوجية كبرى ؟

إن الإنسان يُختزل الى جسده، والجسد نفسه يصبح أداة، والمكبوت بالضرورة يعود بشكل أو بآخر. إنّ العمق البشري يبقى حاضراً، ولو بشكل المرض، أو انحطاط القوى، أو الرفض، أو الحادث الطارئ أو ببساطة الحادث غير المنتظر. لقد صُنِعت كل المجتمعات البشرية من خليط غير واضح من الأشياء المُحتملة وغير المتوقعة، هي في جزء كبير منها من الأمور غير المتوقعة. وكذلك هو حال سلوك الكائن البشري. إنّ مجازفة انتروبولوجية دُرست فيما بين سطور هذه الممارسات، ليس فقط على مستوى نظام القيم، وإنما أيضاً على الصعيد النفسي والاجتماعي. هنا أيضاً حدّد ج.تستار جيداً الصعوبة: «كلما أتينا أكثر بحلول، كلما فتحنا الطريق لمشاكل جديدة.... إنّ اليوم الذي سنعرف فيه كيف نصنع ولداً أو بنتاً بناء على إرادتنا، سنخلق فيه ألماً جديداً؛ ألم عدم القدرة على أن يكون لدينا طفل من جنس مرغوب فيه». فمن قبول اجتماعي إلى آخر أمام الأمر الواقع، تُغيّر كل خطوة الى الأمام

(18) إفلين عزيزة شوستر (E. Aziza-Shuster) «المعالجة في الرحم : الحريات الفردية قيد التساؤل» (le traitement in utero: Les libertés individuelles en question) - في : «علم الأخلاق الطبي وحقوق الإنسان» - المرجع السابق ذكره - ص : 91 - 92 لقد استندنا في تحرير هذه الفقرة على هذا المقال الذي يُظهر وضعاً خاصاً جداً الآن في الولايات المتحدة.

عتبة تسامح الميدان الاجتماعي. ففي كل مرة، تُشجّع طلبات فردية جديدة، حتى لو كانت الممارسات التي تشجعها تصادف تحفظات على الصعيد الجماعي، وتشوش نظام القيم.

إنّ الإنجاب بالمُساعدة يُنتج إرادة تَدخُل في كل مراحل الإنجاب البشري. فالصدفة مُلغاة فيه. والمقدس أيضاً. إنّ المقدس يتضمن السرّ، وهو لم يرتبط مطلقاً بالارادة الصارمة للانسان. إننا لا نقرر المقدس، بل هو يفرض نفسه في مصادفات العلاقة بالعالم. إنّ بالامكان أن نستعيد هنا التحاليل الكلاسيكية لـ: و.بنجامين (W.Benjamin) حول مصير العمل الفني في عصر قابليته لأن يُنتج تقنياً من جديد. فكما هو الحال بالنسبة لعدم قابلية العمل للفهم، فإنّ قيمة وحدته تتناقص بالمقابل نتيجة إعادة إنتاجه تقنياً. إنّ الطفل (أو الجسد البشري) الخاضع لمناورات تقنية، والى اهتمام بالتحكّم يؤدي الى صياغته، يفقد هو أيضاً حالته، كلما فقد أكثر صلة القرابة. إنّ الطفل السلعة، المادة يفقد شيئاً من سحره. إن تحاليل ماكس وير حول خيبة أمل العالم يمكن نقلها اليوم الى الجسد (منذ أيام فيسال) وربما أيضاً الى صلة القرابة، وفي يوم ما، بدون شك، الى الطفل والى الأمومة. إنّ كل العناصر حاضرة الآن لتساعد على هذا الإنزلاق. ونحن الآن في بداية هذه السيرة. لكن هذه تنصبّ على قيمها المركزية. إن نقل هذه المعطيات من النظام الرمزي الى نظام التقنية والإرادة لن يكون بدون صدى ملموس على المستوى الانثروبولوجي. إنّ منفذاً يفتح ببطء، بشكل لا مفر منه، ويُحرّر قوى تستطيع أن تقلب بعمق الوضع البشري أو تتخفف مع الزمن بفضل حساسيات اجتماعية جديدة. إنّ من الواضح أننا في مرحلة انتقالية.

قشرة الإنسان

إنّ عنصر التوريث (cloning) يدفع الى نهايته منطق الجسد الأنا الآخر، من خلال ردّ الشخص الى خصائصه الوراثية وحدها، أي للجزء غير القابل للتحديد من جسده، المستمر في كل خلية من خلاياه، ولكن الذي يحتوي الشخص في شكل جرثومة. إنّ عنصر التوريث هو الصيغة الحديثة لمِخيال القرنين. إنّ الخلية، المرأة في صيرورة المُعطي. إن الشخص، في مِخيال بيولوجي ما (حاضر في البيولوجيا الاجتماعية وفي حلم عنصر التوريث) ليس إلاّ الظاهرة العارضة، أو ظلّ جسده. إنّ الإنسان يصبح هو نفسه ترميمه الخاص، إنه يستطيع أن يحلم بدقته الشّعرية للنهاية. لقد عمل بعض الباحثين في هذا المجال. وأدرج ف.باكارد (V.Packard) هذه

الممارسة في مستقبل بعيد قليلاً. إن الإنجاب البشري بواسطة التوريث، وعلى طريقة الإفتسال النباتي هو طريقة تقنية تركز أيضاً على ستر الجسد ولا سيما النشاط الجنسي. إن مصادفات اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة تُلغى. ويستعاض عنه بالإنجاب الخاص في المختبر أو الأنبوب، الذي يُعدّ نتيجةً للتحكّم. إنّه طفل النسخة الثانية، **الأنا الآخر** الأكثر شباباً، إنعكاس النرجسية المُنجزّة، التي نتساءل عن الأثر الذي يمكن أن يكون لديها على الطفل المولود في هذه الشروط⁽¹⁹⁾. لكنها، في نفس الوقت، رؤية ساذجة للعالم، تُشبّه الإنسان ببرنامجه الوراثي، وتنسى أن شروط وجود الشخص، ومصادفات لقاءاته وتأثيراته هي التي تُشكّل هويته. بهذا المعنى لن يشبه عنصر التوريث الشخص الذي أعطاه إلاّ من الناحية الفيزيائية. الأمر الذي سيكون عبارة عن مواساة شاحبة لتحرير عنصر التوريث من إحساسه المتعلق بأصوله. إنّ التوريث ما زال بعيداً. إنّ مخياله هو الذي يهمننا، والذي يفترض كمُسلّمة مساواة الطفل مع إرثه الوراثي. إنها أيديولوجية الجسد. إنّ الإنسان هو أكثر من جسده الذي لا يستطيع أن يتميز عنه انتروبولوجياً، مثلما أنّ الإنسان هو أكثر من برنامجه الوراثي. وبالذات لأن الإنسان ليس آلة تنمي الامكانيات المحتواة داخل دواليبها. إن تاريخ كل إنسان هو تاريخ وحيد ولا ينضب. وعنصر التوريث ارتبط أيضاً بالتأكيد مع علم تحسين النسل. إننا لا نورث أي شخص كان. هكذا يتكلم ج. لودبرغ (J.Lederberg)، البيولوجي الأمريكي، الحائز على جائزة نوبل: «إذا تم تحديد هوية فرد سام - هو من المحتمل نموذج عرقي - فلماذا لا ننسخه مباشرة بدل أن نتعرض لكل المجازفات، بما فيها مجازفات تحديد الجنس، المُدرّجة في مصادفات إعادة الترتيب»، أو أيضاً قوله: «سيكون لدينا على الأقل متعة القدرة على المراقبة فيما لو تمكن انشتاين ثانٍ، أم لا، من التفوق على الأول»⁽²⁰⁾. لنأمل على الأقل أن تشاطر النسخة الوراثية الثانية لأنشتاين لودبرغ شعوره.

(19) إنّ علم تحسين النسل (مثل العرقية التي تعتبر توسعاً لها غير معترف به) هو أيديولوجية للجسد، تريد أن تصنع من الإنسان مُنتجاً صافياً لجسده، وتنسى أنّ الإنسان نفسه هو الذي، من خلال إتصاله بالآخرين، يُشكّل جسده وما يكون عليه. إننا لن نأخر هنا عند علم تحسين النسل أو عند العرقية اللذان يستحقان تحاليل مستقلة.

(20) الاستشهادات مُستعارة من جيرالد ليتش (G.Leach) «البيوقراطيون» (Les biocrates) - منشورات Seuil - 197 - (مترجم عن الانجليزية) - ص: 121 و 124.

إنَّ صيغاً أخرى للإنسان - الآلة توجد، وتختزل الإنسان الى قشرة، الى سطح لسلوكه الجسدي القابل بشكل ملموس للملاحظة. إن كينونة الإنسان تُحلَّل وفقاً لأسلوب تحليل ملكية الجسد، والسلوك الذي يمكن تعليمه وتحليله وتعديله منذ أن يُعرَف المبدأ الذي يحكمه. إنَّ البعد الرمزي يُستبعد نتيجة تركيبه غير القابل للفهم، والذي من المستحيل تحديد كميته بصفته تلك. إنَّ تملك الحس الذي هو خاصية الإنسان يُنفى لصالح تحاليل تسلسلية لسلوكه. إنَّ السلوكية تعطينا أول مثال على هندسة السلوك. إنَّ مهنة «إزالة التكييف» مطلوبة جداً ومربحة جداً في الولايات المتحدة. والمفهوم المُتَّيَّم للتكييف يقتصد توضيحاً للدوافع التي تدفع، على سبيل المثال، عدداً من الشباب الأمريكي نحو البِدْع والمخدرات أو الهرب. إننا نفترض أنَّ سلسلة لا نهائية من التكييفات والتقويات تُشخّص الوجود اليومي لكل فرد. والسلوك هو نوع من الانبثاق السطحي للجسد، ومجموعة من الحركات، والأحاسيس المنشودة، والمُتَّبَعَة من خلال تكييف أول ومُتَّوَاة بالتالي من خلال كل من تكرارات نفس المتتالية. لهذا فإن من السهل بالنسبة لأولئك الذين يستندون الى السلوكية أن يضعوا نموذجاً مضاداً للسلوك المشجوب لدى شخص، وأن «يزيلوا تكييفه» بناء على برنامج مناسب، وأن «يعيدوا تكييفه ثانية» مع قواعد سلوك ذات صلة مع القواعد الاجتماعية. لقد تمَّ إعداد بروتوكولات تعديل سلوك من أجل التدخل لدى الهامشين من كل نوع. إنَّ مهندسي السلوك السلوكيين يثابرون هكذا على تطبيع الشاذين جنسياً. إنَّ الشخص الذي يتمنى المُكَيِّفون أن «يصحَّحوا» سلوكه يقيم في قلب جهاز تقني، وتُربط أعضاؤه التناسلية بأسلاك كهربائية. إنَّ المرحلة الأولى من المعالجة تُسمَّى بالمرحلة «المثيرة للاشمئزاز». وفيها تُعرض على الرجل صور يُفترض أن تثيره جنسياً. وفي نفس الوقت، يتلقى عند كل إشارة إثارة صدمات كهربائية على الأجزاء التناسلية تُحدّد كمياتها بعناية. إنَّ شعور اللذة يجب أن يحلَّ محلَّ شعور الاشمئزاز والألم. وأثناء المرحلة الثانية، يظهرون للرجل صور نساء شهوانيات، بدون صدمات كهربائية. إنَّ النشاط الجنسي يُختزل إذن في سيرورة ميكانيكية. إن السلوكيين يعملون بنفس الطريقة التي يؤثر فيها الميكانيكي على محرك سيارة من أجل تحسين خصائصه. إنَّ الأمر يتعلق هنا أيضاً بنزع الطابع المادي عن الشخص، وبالتدخل ميكانيكياً في جسده من أجل تعديل سلوكه. إنَّ السلوكيين يؤثرون على «الواقع المُفْرِط». ويخلقون ثانية الحياة في المجرد بطريقة مؤقتة. لكن تأثيرهم على بعض

الأشخاص يمكن أن يذهب الى ما هو أبعد. إنه يبرز نفس النزوة الخالقة التي صادفناها في الأمثلة السابقة فإزاء عدم كمال الإنسان، وعدم إمكانية توقع سلوكه، وسقوطه في الجسد، يصبح المقصود إعادة بنائه ثانية وفق نموذج آخر. وبناءً على أساليب استعمال مختلفة جداً حسب قطاعات التطبيق، ولكن مع السلك الأحمر لعدم كمال الأصل ولضرورة إعادة صياغة الإنسان.

إن علم النفس الصيدلاني الذي يسعى لتعديل مزاج الشخص عبر عمل كيميائي حيوي يشهد أيضاً على كشف الإنسان: فالإنفعالات والخصائص تُصاغ بواسطة المنتجات التي يُحقَن بها. لقد أشارت حديثاً مقالة في صحيفة لوموند (1 شباط / فبراير 1985) لحالة استهلاك أدوية مضادة للإرهاق، طالت سبعة ملايين فرنسي. لقد مُجِّي الألم والتعب والضيق والأرق، كيميائياً، ولم تُعد تُوجَّه الأسئلة لها حول المعنى الذي تكتسبها داخل الاقتصاد الفردي. فالاستعمال المبتذل لهذه المنتجات، كما يحصل غالباً، يجعل الشخص يفقد معنى حدودها، وبدل أن يُعدَّل بعض معطيات وجوده، يُشوَّه تسامح جسده. هكذا يفقد العديد من الأفراد علاقتهم الحميمة مع أنفسهم. إنَّ الجسد يشبَّه بآلة، وأعراضه (التعب، الأرق، إنحطاط القوى) تُحلَّل باعتبارها خللاً وظيفياً يمكن معالجته كيميائياً. لقد رُفِّعت انفعالات الإنسان الى مرتبة التفاعلات الكيميائية.

لقد عمل جوزيه دلغادو، في وقت واحد، على أدمغة الإنسان والحيوان. وصاغ متتاليات للسلوك بفضل منشطات كهربائية أو كيميائية جرت على مسافة معينة من مستوى بعض مناطق الدماغ. وهكذا استطاع أن يُعدَّل مزاج الحيوان، ويجعل من حيوان عدواني حيواناً طيِّعاً، ويثير نشاطاً مُحرَّكاً، ويُشوِّش سلوكاً نوعياً خاصاً بالخ... أما على الإنسان، فالنتائج كانت على ما يبدو أكثر تواضعاً. وحسب رأي ف. باكر، فإنَّ جوزيه دلغادو، بتنشيطه مناطق مُحرَّكة من دماغ الكائنات البشرية، لم ينجح هو ومساعدته، في الحصول إلّا على أصوات لغوية ممتدة. وعلى نفس مبدأ مشروع دلغادو، قام باحث آخر، هو روبير هيث، بتجهيز بعض «المرضى العقليين» العدوانيين والخطرين، بجهاز كهربائي مُنظَّم يسمح للمريض أن يعدِّل بنفسه مزاجه إذا شعر بضرورة لذلك⁽²¹⁾.

(21) ف. باكر : «الإنسان المقولب من جديد...» - المرجع السابق الذكر - ص : 56 .

كما صاغ مؤلف علمي، ذكره ف. باكر، بوضوح حلم الإنسان - الآلة، الإنسان الديكارتى الذي لا يريد أن يكون شيئاً مغايراً لما يظن أنه يكون، والذي تُعَدُّ الإرادة وحدها، في نظره، هي صاحبة السيادة: «يمكن بسهولة تخيُّل أنَّ الناس، في المستقبل، سيحملون الكترودات مُنْشَطة ذاتياً (وهذا يمكن أن يصبح الأمر الرائج) تجعلهم جنسياً أقوياء في كل لحظة، وتسمح لهم بالنوم أو بالبقاء يقظين حسب حاجاتهم، وتُنْقِص شهيتهم إذا رغبوا بإنقاص وزنهم، أو تجعلهم هادئين عندما يكونوا مُهتاجين»⁽²²⁾.

إنَّ الذاكرة اللَّامَادِيَّة في الماضي هي اليوم موضوع لبحوث فريدة في ميدان البيولوجيا العصبية. فيما أنَّ أُسُس الذاكرة جزيئية، حسب بعض الافتراضات، فإنه لن يكون من المستحيل نقل الذكريات من شخص لآخر. إنَّ عدة معامل تعمل في هذا الاتجاه في الولايات المتحدة. إنَّ الذاكرة ربما ستكون في يوم من الأيام ترميماً. فالناس، حسب وسائلهم وخيالهم، سيستطيعون السماح بأن تُغرس فيهم ذكريات مُختارة من كاتالوكات مُفَصَّلة جداً. إنها مشاكل شائكة بالنسبة للمُحلِّلين النفسانيين: إنَّ الإنسان، بدلاً من أن يكون نتاجاً لتجربة وظروف الطفولة، قد يخترع على هواه، ووفق مزاجه، وبصفة مؤقتة، تجربته وماضيه. إنَّ الاهتمام بالعيش وسط تجارب بشرية لا تُحصى وبكل أمان يمكن أن ينتشر بدون عقبات. فكل إنسان قد يستطيع على هواه أن يجوب كل احتمالات وضعه. إنَّ الماضي سيكون نتاج المستقبل، حشرات الشخص، وتذوُّقه للتجريب. وستكون الذكريات المادة الأولية لمشروع ولنية. إنَّ إنسياب الزمن سيأخذ أخيراً بثأره.

وهذه هي بعض توجهات البحث ذي الإرادة العلمية، التي يشكل الجسد موضوعاً لإيثارها. إنَّ الأعمال البشرية، بالنسبة للسلوكيين، هي مجرد ترتيب للانعكاسات المتكيفة. إنَّ الانفعالات، في مجالات أخرى، تُشَبَّه بتفاعلات كيميائية. وهي بالنسبة لآخرين، نبضات كهربائية تتحكم بمجموع سلوك الأفراد. إنَّ كل مهندس من مهندسي السلوك هؤلاء يطالب لنفسه، وحتى خارج انتروبولوجيا الحد الأدنى، بامتياز توضيح الدافع الذي يحدد العمل البشري. وكل مقرب يعتبر نفسه حصرياً

(22) ف. باكر - المرجع السابق - ص : 70 ، إننا نذكر «الأرغن المزاجي» الذي يُكَيَّف إرادياً السلوك العاطفي للأفراد ، وفق مدة اختيارهم في الكتاب الكبير ل : ب. ك. ديك «آلة الحلقة» (Blade runner) ، «قرأت» (J'ai lu).

بالنسبة للمقتربات الأخرى. لكن الخلاف الذي يسود بين مختبر وآخر لا يعرقل أبداً متابعة البحوث. كما لا يعرقله أيضاً الترف في الأجهزة والبروتوكولات الضرورية من أجل التوصل لأن نراقب سطحياً متتالية ضئيلة للغاية لسلوك يقوم به الفرد بشكل طبيعي ألف مرة في اليوم. إنَّ هذه الأعمال تضيف على بعضها بشكل متبادل طابع النسبية. أمَّا الاتفاق الوحيد بين هذه الاجراءات المتناقضة فيكمن في رفضها للبعد الرمزي. إنَّ الوضع البشري لم يُعد يُنظر له باعتباره خَلْقاً للحواس، هنا حيث الصيغة الكيميائية، أو المعادلة أو القانون الوراثي، أو الدفعة الكهربائية أو التكيف تسمح على السواء باقتصاده. وهناك سمة مشتركة أخرى تتمثل في مفهوم الجسد (أو الإنسان) كأداة طيعة يمكن توجيه أعمالها وعملها. إنَّه كشفٌ يتابع عمل خيبة الأمل الذي يتقدم في سيره مع الحداثة. «إنَّ المؤسف في نظريات السلوك الحديثة، يقول حنا أرندت، ليس أنها خاطئة، وإنما أنها تستطيع أن تصبح حقيقية. إنها، في الواقع، أفضل صياغة ممكنة لمفهوم يتناول بعض الاتجاهات المجهولة في المجتمع الحديث»⁽²³⁾.

آلة أم جهاز عضوي

إنَّ قاموساً للأمكنة العامة يمكن أن ينعت كلمة «جسد» «بالآلة الرائعة». وعناوين المقالات أو الكتب التي لا تردد في اللجوء الى هذه الصورة لا تُعدّ ولا تحصى. إنها لا تقارن الآلة بالجسد، وإنما تقارن الجسد بالآلة. والمقارنة لا تستطيع أن تذهب إلا في هذا الاتجاه ؛ إنَّ النظرة الميكانيكية هي التي تعطي، بشكل مفارق، للجسد أحرف نبالته ؛ وهذه إشارة لا جدال فيها لمصدر القيمة في نظر الحداثة. إن هذا يعني إخضاع الجسد للآلة. فمن الآلة الرائعة سينتقل الخطاب سريعاً الى الهشاشة التي تميزها. إنَّ الجسد إذا كان آلة «رائعة» فإنه يستحق القلب بصفة كاملة. لكنه يتأكل، وطابعه العابر يُعرضه لخسائر لا يمكن ردّها، وخاصة أنَّه لا يتمتع بديمومة الآلة. فالموت هو الثمن الذي يُدفع لقاء الكمال، والرمز هو الثمن الذي يدفع من خلال طابعه الحسّي. إنَّ اللذة والألم من صفات اللحم، وهما يتضمّنان المجازفة بتحسّل الموت والرمزية الاجتماعية. أمَّا الآلة المساوية، الراكدة، فإنها لا تحسّ بشيء لأنها تنجو من الموت والرمز.

(23) حنا أرندت (Hannah Arendt) «وضع الإنسان الحديث» (Condition de l'homme moderne) - منشورات Clamann-Lévy - 1961 - ص : 363 - (مترجم عن الأمريكية).

إنَّ الترميم يُصَحِّح أساليب الكائن الحي، يُحَسِّن خصائصه، يقوي مقاومته، ويدرج متواليات الخلود في طابعه العابر. إنَّه يُصحح، في تفاصيله، التقدم المحتم للموت في الجهاز العضوي (نذكر أن الإنسان، في نظر بيشا، يموت تدريجياً). إنَّ الجسد البشري يصبح مخبراً يتحقق فيه عدد من المداخلات المهيأة للمزاوجة بين العضوي والميكانيكي. فلكي تُنمَّى الخصائص، يتم السعي لتطعيم أجهزة ميكروية في الدماغ بغية إعطاء الشخص مباشرة إمكانية الوصول الى مصارف المعطيات. إنَّ أحد الكليشيهات الحديثة يجعل من الدماغ «حاسوب» الإنسان (هنا ننسى أيضاً أحد المعطيات البدائية للأنثروبولوجيا ؛ ليس الدماغ هو الذي يفكر، وإنما الإنسان). وأكثر فأكثر تصبح التقنية قادرة على أن تحلَّ محلَّ العضوي، وتنمي خصائص الجسد، وتعطي جزئياً الحق للفلسفة الميكانيكية مُمَثَّلَة بديكارت أو الطب التكهني في زمنه. فلكي يحتوي الجراحون مظاهر العجز العائدة للمرض، أو الحادث، أو الشيخوخة، يتصرفون اليوم بمجموعة مذهشة من الترميمات (جهاز إصطناعي يحلَّ محلَّ عضو أو وظيفة عضوية) والمقويات (جهاز يأتي لتقوية عضو أو وظيفة مُتضرِّرة). إنَّ الكيميائيين الحيويين والمختصين بعلم المناعة يعملون مجتمعين من أجل خلق مواد متناغمة حيويًا. إنَّ بناء الجسد البشري يدخل في عصر إنجابه صناعياً. «وهذا قطعة قطعة: لأن تعريفاً للجسد يضعه في قطع. إنه يفكِّكه يفصله الى مبادئ مكوناته التركيبية (قوى، رافعات، مصافي، مضخات، دارات، تيارات، سيرورات، الخ). إنَّه ترتيب مُحكَّم من المواد الجزئية، والوحدات المنفصلة، والاستيهامات، المُحدَّدة والمحاطة بواسطة قِطَاعَة وظيفية وبنوية، ذاك هو الجسد العملياتي»⁽²⁴⁾. إن تقطيع الجسد لم يُعد فقط أحد أعراض مرض الفصام، بل أصبح روتين أقسام الطب التي ينبغي عليها أن تختار بين الترميم أو الزرع من أجل إنقاذ المريض. لقد حُرِّك الجسد الى عناصر موضوع، عناصر جاهزة وقابلة للتبديل، في أغلبيتها، بالمواد التقنية.

(24) ميشال غيو (Michel Guillou) - «الجسد والجهاز» (Le corps et l'appareil) - مجلة Traverses - العدد 14 - 15 ، «مجموعات الجسد» (Panoplies du corps) - نيسان 1979 - ص : 135. أنظر أيضاً جان ماري بروهم (Jean-Marie Brohm) «الجسد : نموذج الحداثة» - مجلة : (Le corps: un paradigme de la modernité) - Action et recherches sociales - العدد : 1 - 1985.

ترميمات الركب، الاكتاف، الاصابع، الأوراك، والعديد من العظام الأخرى والمفاصل ؛ وترميمات حسية (ولا سيما سمعية وبصرية)؛ إن النممة والمعلوماتية المستعملة أكثر فأكثر تسمح، بنتائج غير متساوية حسب مظاهر العجز، لأفراد يحملون إعاقة حسية أو جسدية باللجوء الى ترميمات موجهة بواسطة أجهزة ميكروية تستجيب لطلبات النظام العصبي المركزي. إنها أجهزة مساعدة مهيأة لأن تنوب عن الفيزيولوجيا العاجزة: صمامات قلبية، قسطرات، قلوب أو رئات إصطناعية... الخ، ومواد حيوية: دم، جلد اصطناعي...

إن النتائج غير متساوية. إلا أنها غالباً ملفتة للنظر، ومثيرة لتحديدات مسموح بها تقريباً من قبل الشخص: كلية إصطناعية، على سبيل المثال. وأحياناً بدون ضرر وتسمح للشخص بأن يستعيد في نهاية المداخلة الاستعمال الطبيعي لحياته. لكن بعض النتائج الأخرى تؤدي لخضوع للآلة في كل لحظة⁽²⁵⁾.

«الإنسان على طريقة الترميم، يقول ميشال غيتو، ما زال دائماً قيد البرهنة: إن الترميم هو من نوع الخصائص... إن الإنسان المُرَّمَّم، مهما كان، محكوم عليه بأن يكون موضوعاً لتحقيق تفاخري: أن يُظهر للآخرين ولنفسه أن الإنسان والترميم يعملان بشكل مشترك. أن يؤكد أن وصلهما وتواطىء صلاحياتهما يُعطي بشكل جيد المجال، بشكل متواصل، للانتصار(إن الحياة اليومية كلها تتحول إلى انتصار.... إن الإنسان المُساعد يجرب هكذا علاقته بالعالم أقل مما يتحقق بشكل مذهل من قدرته

(25) هنا أيضاً تلاقي الاستعارة الميكانيكية حدودها. إن الدعم الميكانيكي للجسد يصطنع الحياة. إنه ليس الحياة. إن القضيب الاصطناعي مثال موضح يدعي أنه يحل تقنياً مشاكل العجز الذكوري : «في داخل العضو ، في القناة البولية - التناسلية ، نوصل بنظام الأوعية أنبوب بلاستيك موصول من جهة الدخول بمضخة يدوية صغيرة مغروسة في الجيب الخصوي ، ومن جهة الخروج بصمام الجسم الكهفي. ويشغل المريض بنفسه المضخة التي تنفخ دارة البلاستيك. هكذا نحصل على قساوة القضيب الذي يقترب من الانتفاخ الطبيعي ولكن دون أن يساويه ، وهناك جهاز أكثر إتقاناً ، لكنه أيضاً أكثر خطورة. ويكمن في وصل الأنبوب مباشرة بنظام الأوعية ، من جهة الدخول بالشریان ، ومن جهة الخروج بالصمام. ويضغط الرجل على زر لكي يوجه لاسلكياً انتصابه» - جان ميشيل بادر (J. M. Bader) ، الرجل ذي القطع العلوية ، مجلة «Science et vie» - العدد رقم 845 - شباط / فبراير 1988 تشير هذه المقالة الممتازة الى التوابع الاحيائية الالكترونية ، وتُظهر ، في نفس الوقت ، حدودها وآمالها الممكنة.

الوظيفية الخاصة...». إن التشبيه الميكانيكي للجسد لا يحمي بالفعل الانسان المزود بالأجهزة من القلق الناشئ من التهجين مع جسد أجنبي. «ففيه، يقول ميشال غيو أيضاً، تنشط الدمية الطيعة لطب تكنولوجياي منتصر: فهو يخضع لخيطه، وبطاريته، وطريقة ضبطه، وللتحقق منه بشكل دائم». إن الإنسان المزود بالأجهزة هو شكل من أشكال الرهينة للآلة، ولأولئك الذين يعرفون تشغيلها. إنَّ عليه أن يدمج في صورة جسده مادة غريبة، ناشئة عن الجِداد المستحيل لعضو، في نفس الوقت الذي عليه فيه أن يشير الى اختفائه واستبداله. وتاماً مثل زرع العضو، يستلزم دمج الترميم تعديلاً في الاستثمارات الخاصة بالجسد، ولا سيما في الصورة التي يصطنعها الشخص عنه. وإذا لم يتحقق هذا التغيير في النظام، وإذا لم يحصل الجِداد على العضو المفقود، وإذا لم يتم تمثُّل الجسم الأجنبي، فإنَّ الوجود يصبح عالماً للخوف تفقد منه الحياة بحد ذاتها، إلا إذا تمَّ السماح بخسارة جزئية تخفيها بصعوبة المادة التي تسدّها. إنَّ الترميم يمكن أن يصبح التذكير الملح والمرعب لعنصر خارجي يريد أن يُصبح جزءاً من جسد لكنه لا يتوصل الى ذلك. فكما يثير زرع الأعضاء ليس فقط ضرورة حصول توافق حيوي بين المُعطي والمُتلقي، وإنما أيضاً توافق نفساني لا يقل أهمية عن عملية الزرع، وعن الشخص الذي يتلقاه، فإن تزويد الانسان الحي بالأجهزة يثير لدى ذاك الذي يقبل دلالتها قدرة معنوية على أن يستقبل فيه جسماً أجنبياً من صنع تقني، ينبغي التحقق بشكل منتظم، بالنسبة لأغليبتها، من حسن حالة سيرها. إنَّ أزمت الهوية هي إحدى النتائج الممكنة لاضطراب التكامل الجسدي أو للتعديلات البلاستيكية على الجسد.

إنَّ فينومينولوجيا الأمس (ميرلو - بونتي) واثروبولوجيا اليوم يظهران لنا أنَّ الجسد هو شرط الانسان، ومكان هويته، وأنَّ ما نقتطعه منه أو نضيفه إليه يُعدِّل علاقته بالعالم بصفة متوقعة تقريباً. بهذا المعنى، يمكن لمداخلة لعدة ساعات على الجسد من أجل زرع أو ترميم أن تضربَ بوجود كامل حسب تاريخ الشخص، وقدرته المعنوية على الجِداد على جزء من نفسه، وتقبُّل جسم أجنبي. إنَّ الأمر لا يتعلق بتعديل ملكية ميكانيكية وإخراج قطعة تالفة من محرك، وإنما بتعديل الكائن العضوي للإنسان.

لقد سبق أن قلنا أنَّ الجسد إذا كان بالحقيقة آلة، فإنَّه سينجو من التقدم في السن، ومن طابع كونه عابراً ومن الموت. فكل «القطع» التي يتألف منها يمكن حينذاك تعديلها، وتصحيحها، وتبديلها في حال التلف، وتغييرها بأخرى أكثر كمالاً. وكما

الساعة، سيَدِلُ الجسد على الزمن، ولن يصاب بضرر من جراء ذلك. إنه سيكون شاهداً عليه، ومَحْيِيّاً جيداً في حياته، وليس ضحية له. ذاك هو الاستيهام التحتي للعديد من البحوث والممارسات التي تتسع أكثر كلما تزايد نفى الموت ووسواس الأمن وتعزّزا بشكل متبادل.

إنَّ الإنسان الحيوي الالكتروني، في صفاته التقني ومشروعه في التحكّم الكامل، تَحَقَّق تقريباً من خلال رجل الفضاء الذي جُهِّزَت كل وظائفه العضوية، حتى الأكثر بدائية منها، بالأجهزة. وفي أغلب الأحيان أصبح الإنسان نفسه مكتسباً بشكل كامل ببذلة الغوص. كما أفسحت حركات الجسد الأكثر قابلية لعدم الإدراك المجال لأن تُراقب ببراءة وتُرسم بيانياً وتُستجوب. إنَّ الإنسان الشفاف، الذي لا هوية له، والمُجَهَّز كلياً بالأجهزة. إنَّ نوعاً من الحلم السلفي للمهندسين يتحقق هنا، بعد أن كان مَشْبُوقاً في الماضي بكورسيه اكوابندنت الشهير (Le corset d'Aquapendante) (1619) الذي كان اقترح إدخال الرجل من رأسه حتى قدميه في هيكل معدني قابل لأن يقترن بشكله وحركاته. إنَّ الإنسان الحيوي الالكتروني (Le cyborg) يُنَشَّر بنفسه ربما في أفق مستقبل قليل البعد: إنه بقية إنسان مُزَيَّن بترميمات، ومُنَبِّهات، وبطاريات، وأجهزة ميكروية تحلّ محلّ الوظائف الفيزيولوجية أو الأعضاء التي تعمل بشكل غير كافٍ⁽²⁶⁾. إن الجسد البشري، بالنسبة للتوجهات التقنية والعلمية للحدثة هو عبارة عن رسم تمهيدي، مُسَوَّدة، من المهم مراقبة وتحسين خصائصه. أو إلغائه بغية تحقيق تشغيل وظيفي أفضل له. إنه الجسد الفائض الذي يدين الإنسان له بطابعه العابر، والذي من المهم جعله عازلاً للتقدم في السن أو الموت، للألم أو المرض.

(26) تضيفي حكاية ل: ب.ك.ديك (P.K.Dick) طابعاً من السخرية على هذا الوضع: «سيأتي ربما يوم يُطلق فيه كائن بشري النار على إنسان آلي خارج من مصانع جنرال الكتريك، ويرى بدهشة كبيرة أن هذا الأخير ينزف دماً ودموعاً. ويمكن للإنسان الآلي المحتضر أن يطلق النار بدوره على الإنسان، ويشاهد بدهشة أكبر أن شبكة من الدخان الرمادي ترتفع من المضخة الكهربائية التي كان يظن أنها القلب النابض للإنسان إنَّ هذه ستكون لحظة الحقيقة الكبرى للثنتين» فيليب ديك: «الإنسان والإنسان الآلي» (L'homme et l'androïde) - في: بوريس ايزيكمان (Boris Eizykman) «اللاوعي - الوهم» (Inconscience-fiction) منشورات Keyserling - 1979 - ص: 66 في (Blade runner) أعطى ب.ك. ديك توسيعاً أخذاً لفكرة المحو التدريجي للحدود بين الإنسان والإنسان الآلي.

الفهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة	5
الفصل الأول: ما لا يمكن إدراكه في الجسد	11
الفصل الثاني: في أصول تصور حديث للجسد: الانسان المشرح	27
الفصل الثالث: في أصول تصور حديث للجسد: الجسد الآلة	61
الفصل الرابع: اليوم، الجسد	80
الفصل الخامس: تجميل الحياة اليومية	89
الفصل السادس: محو طقوسي أم تكامل الجسد	120
الفصل السابع: التقدم في السن غير المسموح به: الجسد المهزوم	140
الفصل الثامن: الانسان وقرينه: الجسد الأنا الآخر	150
الفصل التاسع: علم طب وعلوم طب: من مفهوم للجسد إلى مفاهيم للإنسان	174
الفصل العاشر: هيروغليفيات النور: من الصورة الطبية إلى مخيال الجسد	195
الفصل الحادي عشر: طريق الشك: الجسد والحادثة	220

هذا الكتاب

انثروبولوجيا الجسد و الحداثة . انثروبولوجيا الحاضر . إنهما مظهرًا هذه الدراسة التي تضع العالم الحديث في المنظور من خلال تنازل السلك الناقل للجسد . إن دأقيد لو بروتون يدرس الاسس المنطقية الاجتماعية و الثقافية التي تجعل ، اليوم ، من الجسد الموضوع المميّز للممارسات و الخطب أو للمخيال . إن الثنائية الحديثة ، المنتشرة جداً ، تعارض الإنسان بجسده ؛ وتجعل من هذا الأخير ملكية ، وحياسة ، أكثر مما تعتبره الأرومة التعريفية التي وجهها للإنسان .

إننا سنعثر على هذا الفصل في قلب الطب الحديث الذي يراهن على الانسان . إن هذا الفصل ينغرس بعمق في الطقوس الاجتماعية، و في الإفتتان الحالي بأمور الجسد، بالصحة وبالشكل، الخ. إن الجسد يتحول الى عضو فائض للإنسان الذي يتلقى منه خلاصه أو غيظه حسب الظروف.

دأقيد لو بروتون دكتور دولة في علم الاجتماع، و حائز أيضاً على دبلوم في علم النفس. أستاذ محاضر في جامعة ستراسبورغ 2.

مؤلف للعديد من الدراسات في ميدان انثروبولوجيا الجسد (ديوجين، الدفاتر الدولية لعلم الاجتماع، الاتنولوجيا الفرنسية، أي الجسد، الأزمنة الحديثة ، روح، الخ)، و له مؤلفات قيد الطبع: أجساد و مجتمعات. بحث في علم اجتماع و انثروبولوجيا الجسد.



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع